إصدارات أنصار الإمام المهدي (ع) - العدد (٢٢٦)

الوحي

بين المنهج الإلهي والمناهج العقلية

د. أحمد الحسيني

الوحي

بين المنهج الإلهي والمناهج العقلية

د. أحمد الحسيني

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ – ٢٠٢٥ م

لمعرفة المزيد حول دعوة السيد أحمد الحسن(عليه السلام)

يمكنكم الدخول إلى الموقع التالي:

www.ahmahdyoon.org

المحتويات

المحتويات ٤

الإهداء ٧

المقدمة ٨

مدخل ١٠

الوحي والفطرة ١٢

شواهد من الغيب ١٧

حدود الغيب ٢٠

إخبارات الغيب ٢١

الفصل الأول ٢٧

مراتب الغيب وعلاقتها بالخلق ٢٧

العلاقة بين الله وخلقه ٢٧

الحجب النورانية والظلمانية ٢٩

الألوهية والربوبية ٣٢

الألوهية المطلقة ٣٥

الألوهية المقيدة ٣٦

ألوهية خلفاء الله ٣٧

الفقر المطلق والغنى المطلق ٣٨

الله يتكلم في كل شيء ٤٠

كيف يكلم الله الإنسان؟ ٤٢

الحقيقة العلوية وظهوراتها ٤٧

الوحي والأمثال في الكتب المقدسة ٥٧

العلاقة بين الملك والملكوت ٦٠

طعام الروح وطعام الجسد ٦٦

العقل والدنيا ٦٩

يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ٨٠
الفصل الثاني ٩١
الوحي والرسالة ٩١
الوحي والتجلي ٩١
علاقة الوجود (الخلق) بالوحي ١٠٣
الوحي والنفس الإنسانية الأولى ١٠٧
رسالة الوحي ١١٠
الوحي والرؤيا ١١٦
الوحي الرسالي ١٢٣
وحي خلفاء الله ووحي الناس ١٢٤
الوحي والمعصوم ١٢٦
انعكاس وحي الرسالة على الموحى إليه ١٣٢
العلم الإلهي ١٣٣
العلاقة بين الوحي وقدرة خليفة الله على القراءة والكتابة ١٣٦
إنما أنا بشر مثلكم ١٣٧
الفصل الثالث ١٤٢
السنة الإلهية ١٤٢
وحدة المشروع الإلهي ١٤٢
حديث الثقلين ١٥٦
سنة النص من السابق على اللاحق ١٦٣
وراثة الوحي ١٧١
القرآن المهجور ١٧٥
لا تأتوا البيوت من ظهورها ١٨١
الفصل الرابع ٢٠٢
نقد المناهج البديلة والرؤيا المستقبلية ٢٠٢
موقع رجال الدين من الوحي ٢٠٦

محيط الأفكار ٢٠٩
التفسير والتحريف ٢١٥
التفسير والمنهج العملي في زمن الفترة ٢١٩
القائم يعيد الدين غضا ٢٢٨
حقائق قرآنية ٢٣٤
خاتمة: ٢٣٧

الإهداء

قال علي (ع): (لقد علمني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ألف باب يفتح من كل باب ألف باب)

إلى حجاب الله ومدينة الكمالات الإلهية محمد (ص)

إلى باب مدينة العلم إمام المتقين ويعسوب الدين وقائد الغر المحجلين علي بن أبي طالب (ع) وأولاده المعصومين(ع)

إلى بقية الله في أرضه الإمام المهدي (ع)

إلى بابه ووصيه ورسوله إلى الناس كافة

إلى محيي معالم الدين وصي رسول رب العالمين والأب الرحيم السيد أحمد الحسن (ع)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المعروف عند جميع المؤمنين برسالات السماء أن المتصل الأول بالله سبحانه وتعالى من بني البشر منذ بداية التكليف على هذه الأرض هو أول خليفة منصب من الله وهو آدم (ع)، وأن طريق اتصاله بالله سبحانه هو الوحي؛ بل هو الطريق الحصري بينه وبين الله سبحانه وتعالى، وأن علماء الأديان كما هو معروف متفقون على أن الوحي ينقل المراد الإلهي للرسل والأنبياء وهذا ما صرح به القرآن الكريم في خطاب الله عز وجل لخير خلقه محمد (ص) كما سيتضح خلال البحث؛ أي أن الوحي سنة إلهية مستمرة لاستمرار المشروع الإلهي في الأرض بدلالة ترادف الرسل والأنبياء والأوصياء (ع) في عالم الدنيا أو عالم الامتحان.

والحقيقة الثابتة عند الجميع هي أن خلفاء الله من الرسل والأنبياء والأوصياء لا يشاركهم أحد من الخلق في اتصالهم بالوحي الرسالي؛ أي الوحي الذي ينقل الرسالة الإلهية ومضمونها إلى الخليفة الإلهي في كل زمان، وقد قص لنا القرآن بعضا من أسماء الأنبياء والرسل ورسالاتهم والكتب السماوية المنزلة إليهم بواسطة الوحي كالصحف والألواح والتوراة والإنجيل والقرآن.

الرسل والأنبياء بينوا لأقوامهم ضرورة سماع كلمات الله ووحي الله منهم، والمسلمين بمختلف طوائفهم والشيعة منهم بالخصوص، وهو ما أريد التركيز عليه:

أولا: لأنهم يدّعون تمسكهم بمنهج الثقلين.

ثانيا: وأدلة ذلك مستفيضة في كتبهم كمرويات وثقوها واستدلوا بها على سلوك منهج الثقلين وكتصريحات للعلماء والفقهاء بلزوم هذا المنهج،

ثالثا: لكن سرعان ما حصل الانقلاب عليه وضرورة بيان أسبابه وانشطار مساراته وتعددها وضياع المنهج السماوي بين منعطفاته.

رابعا: وبالتأكيد هو محفوظ في عقول وأرواح حملة القرآن الرجال الذين اختارهم الله سبحانه.

خامسا: امتد تأثير هذا الحراك إلى تفكيك البنية التي يرتكز عليها دين الله من عقائد وتشريع وأحكام التي كان ولازال مصدرها الوحيد هو الوحي.

أما لماذا اخترت أن يكون الوحي هو العنوان؟ لأن فيه خطاب لكل الطوائف والأديان و المسلمين بالخصوص، ولم أعر اهتماما للمنكرين أو المشككين في الوحي وما يكتنف تداعياتها ؛ بل سيكون البحث منصبا على من يؤمنون بالوحي وقدسيته وخطورة المنهج الرديف للتعامل مع منظومة الوحي، لنقع على حقيقة من يكون فعلا يسمع الوحي وكلمات الله وينتمي إلى منظومة السماء الحقة ويدين بدين الحق الذي يريده الله سبحانه، ومن اختار هو بنفسه أن يكون بمنأى عن الوحي وحجب نفسه عن نور الوحي وذهب إلى أبعد من ذلك، وهو أن يكون سببا في إبعاد من كانت لديهم فرصة لسماع الوحي سواء على مستوى الوحي المباشر كالرؤى والكشف وما يمكن

أن يكون على هذه الشاكلة أو على مستوى الوحي الرسالي الغير مباشر وطريقه الوحيد هو الأخذ من خليفة الله المنصب في كل زمان.

فهل استطاع علماء الأديان أن يقفوا على حقيقة الوحي ونوع العلاقة بينه وبين من يتصل بهم كرسل وأنبياء وأوصياء؟

وهل أن العوالم التي ينزل منها الوحي يمكن أن تقارن بعالمنا وأن طبيعة تلك العوالم ونظامها يمكن أن يدركها ما يسمى بالعقل البشري ويستطيع الإحاطة بحيثياتها أم أنها ليست من سنخ هذا العالم المادي؟

وهل أن المنظومة العقلية التي يدور في فلكها كل المتبرعين والمتصدين لتفسير وبيان النصوص المقدسة يمكن أن تصلح للتعاطي مع نصوص الكتب المقدسة وانكشاف معانيها، أم أنها مجازفة كبيرة سنتعرف على نتائجها من خلال البحث أيضا؟

وهل أن لتلك العوالم مقامات ومراتب معرفية لا متناهية وأن مراتب الوحي متعددة بحسب عوالم التنزل؟

وإذا كان الوحي ناقلا للعلم الإلهي والتعاليم الإلهية لخليفة الله فهل أن اللغة التي ينقل من خلالها الرسالة الإلهية لغة سماوية خاصة أم أنها لغة أرضية كما وصلت للرسول أو النبي أو الوصي كما نشاهدها ونقراها ونسمعها؟!

أسئلة مهمة وملحة في الساحة العلمية يمكن للقارئ الكريم أن يتحصل على إجابات واقعية مدعمة بنصوص الكتب السماوية ونصوص روائية صادرة من المعصومين (ع) بيّن الكثير من حقائقها السيد أحمد الحسن في مواضع مختلفة من إصداراته وبعض حواراته.

وقد خلص جهدنا المتواضع في هذا البحث بالمباحث التالية:

الفصل الأول: مراتب الغيب وعلاقتها بالخلق.

الفصل الثاني: الوحي والرسالة الإلهية.

الفصل الثالث: السنة الإلهية.

الفصل الرابع: نقد المناهج البديلة والرؤيا المستقبلية.

راجيا من الله العلي القدير أن يكون على الأقل سببا في شحذ الهمم للباحثين وطلاب الحقيقة للمراجعة والتقييم وانصاف كلام الله وكلماته.

والحمد لله وحده

د. أحمد الحسيني

١٤/ ٥ /٢٠٢٤م

مدخل

إن الفرق التكويني بين العالم الذي نزل منه الوحي وعالمنا الأرضي أو عالم الدنيا هو ما يمكن إيجازه بعبارة مبثوثة في القرآن بشكل واضح وهي الغيب والشهادة.

ربما هناك الكثير من البحوث أو مضامين بعض البحوث تعرضت بقدر أو بآخر لهذين العنوانين بدرجة من التخصيص والخصوصية، ولكن ما أريد اظهاره في هذا البحث هو أن أبرّز هذين العنوانين:

أولا: قرآنيا وروائيا، ثم أعطف على السبب في وجود طيف واسع من الآيات والروايات يبرّزان هذين المسميين على مستوى التعريف بهما أو على مستوى الآثار التي نجمت نتيجة التعامل معهما كلفظين أو معنيين وردا في النصوص وما انطوى على توصيفهما من قبل المستقبِل الأول للنصوص الحاوية على هاتين المفردتين وأقصد بهم الرسل والأنبياء والأوصياء وحجج الله (ع).عموما وكيف تعاملوا معها وترتبت على أساسها العلاقة الحقيقية مع الله سبحانه وتعالى وعلى مستوى الأحكام والتشريعات والعقائد.

وثانيا: على مستوى أصحاب التفاسير الذين اعتمدوا على قواعد عقلية وفلسفية وكلامية وما صدر منهم على مستوى الأحكام والتشريعات والعقائد، وهذه بمجملها وقد شملت محطات مهمة وخطيرة للعقائد والخلق والتكوين والعلل والشرائع نتج عنها:

١- بأن معظمها توهمات جالت في الأذهان والعقول بعد عملية فلترة وتعاطي مع النصوص بحسب قواعد ومباني أسست بعيدا عن المنهج الإلهي ما ينبغي الرجوع إليه من الكتاب والعترة.
٢- الفهم المجرد لمفردات والسياقات القرآنية والروائية والمنتزع من محيط تلك القواعد والدائر في فلك المنهج العقلي كلها عوامل ألقت بظلالها الثقيلة على النتاج العقائدي والتشريعي الذي قُدم للناس.
٣- أدى الالتزام بهذه القواعد إلى أرباك المنظومة الفكرية التي يستندون إليها في التعامل حتى مع الأطروحات العلمية المعتمدة، التي تصف الكثير من الظواهر الكونية والخلق ومسيرة الإنسانية الطويلة وعلاقتها بأصل وجودنا وخلقنا.
٤- العجز عن التعامل مع هذه الحقائق العلمية الرصينة كنظرية التطور وبعض النظريات الفيزيائية والكونية وعن وطبيعة الأكوان وما وراء وجودنا المادي الجسماني.
٥- عدم وجود إمكانية لعصرنة الطرح العقائدي والأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي الذي ينتهي بتشكل منظومة الحياة والتعاطي مع النصوص المقدسة بقواعدها العلوية وبأدوات علمية تنسجم مع أبعاد ومستويات النصوص التي تصف لنا تلك العوالم ومراتبها الوجودية بين الغيب والشهادة.

فاعتماد القواعد السفلية أدى إلى اضطراب النتاج والوقوع في التناقض وتعطيل المسيرة التي خطط لها الخالق الحكيم للوصول إلى الهدف المنشود.

لعل العامل الأول والأهم؛ بل الركيزة الأساس لبيان العلاقة بين الغيب والشهادة وما يترتب عليها هو الوحي وما يرتبط به؛ أي المصدر الذي يأخذ منه، والجهة التي تستقبله والوظيفة والهدف من وجوده وعلاقته بالمشروع الإلهي المعرفي.

إذا عرفنا أن قضية الله ومشروعه سبحانه هو المعرفة من ألفها إلى يائها وهي ما تعبر عنها النصوص بالنور بمقابل الجهل أو الظلمة وحُجُبها، فإن التدرج بها ارتقاءً يتمثل في رفع الحجب وهي على قسمين بحسب مراتب وجودها وهي حجب الظلمة وحجب النور، وبمقدار ما ينكشف منها للإنسان يتسع أفقه المعرفي ويقترب من النور المطلق بدرجة تتناسب مع رفع هذه الحجب (وهي ما يعبر عنها الإمام الصادق ع...التخلي من جنود الجهل والتحلي بجنود العقل) وهذا يتحقق على مستويين:

الأول: يمثل خط خلفاء الله الذين يستمدون معارفهم بواسطة الوحي، والسبب يعود لاستعدادهم العالي وقوة عزيمتهم بالتخلص والتخلي من جنود الجهل وهي الحجب، والتحلي بجنود العقل، وهذا يعني أن فرصة الاتصال بالوحي وسماع كلمات الله لديهم تمثل أعلى ما يمكن للمخلوق حتى كانت أعظمها وأكملها عند محمد (ص) والأمثل فالأمثل.

الثاني: يمثل خط المكلفين الذين خسروا فرصتهم للاتصال بوحي الرسالة- الوحي التبليغي- ولم يتمكنوا من العبور إلى باحة النور التي توجب لهم العصمة وانكشاف الحقائق والمعارف، فأصبحوا مفتقرين لمن يأخذ بأيديهم ويسيروا معه ليدلهم الطريق ويرشدهم إلى سبل الوصول وطي مراحل الارتقاء وكشف الحجب باتباع المناهج المعصومة من قبل ناقل العلم الإلهي والعالم بطرق السموات والسير معه حتى نهاية الطريق.

قال أمير المؤمنين (ع): (.. فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض...)[١].

فالغيب: هو ما غاب عن الإدراك والحس كما يعرف في معجم اللغة.

أو هو كل ما غاب عن الْحواس، وقال الأصفهاني: هو مصدر، وغابت الشَمس وغيرها أي إذا استترت، أي غابت غيبًا، قال تعالى: ﴿عالِمُ الغَيبِ وَالشَّهادَةِ الكَبيرُ المُتَعالِ﴾ [٢] أي ما يغيب عنكم وما تشهدونه[٣].

هو ما غاب عن الإنسان ولم يراه، وهو خلاف الشهادة.

الشهادة لغة: فالشهادة هي الإخبار بصحة الشيء عن مشاهدة وعيان[٤] .

الشهادة: (أن يخبر بما رأى وأن يقر بما علم ومجموع ما يدرك بالحس، وعالم الشهادة عالم الأكوان الظاهرة مقابل عالم الغيب)[٥].

فإذا كانت الشهادة ما يمكن مشاهدته وإدراكه بالحس، فعكسه هو ما يغيب عن الإدراك، فماذا نفهم من كونه غائب عن الإدراك؟ وما علاقة ذلك بوجودنا في هذا العالم وقبله؟

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ج١٠ ص١٢٨.

٢. الرعد: ٩.

٣. أثر الاستشراق على المنهج العقدي بالهند - سعيد أحمد بن صغير هندي: ص٤٦٢.

٤. الهداية في شرح النهاية - السنغافي: ج١٦ ص٣.

٥. المعجم الوسيط: ج١ ص٤٩٧.

لكي لا نسهب بالجواب ونذهب بعيدا نستعرض الإجابة بعدة نقاط نجدها بتفصيل أكثر وضوحا في مواضيع متفرقة من البحث.

الوحي والفطرة

فنحن قبل وجودنا وخلقنا في هذا العالم - عالم الدنيا - كنا قد خلقنا ووجدنا في عالم آخر مختلف - عالم الذر- برتبة وجوده وطبيعته، وهذه ربما أول مرتبة خارجة عن مرتبة وجودنا المادي الجسماني في هذا العالم، وأقول أول مرتبة باعتبار أن مراتب الوجود الملكوتي تستمر بالصعود طوليا إلى ما لانهاية من مراتب الترقي اقترابا من مرتبة العقل أو السماء السابعة وهي مرتبة العقل التام، وقد ذكرت في مواضيع ستأتي لاحقا ما هو نوع الاختلاف بين عالمنا والعوالم الأخرى كونها لا تخضع لنظام وجودنا بكل ما فيه.

أما الفطرة بين السيد أحمد الحسن معنى الفطرة التي فطر الله الناس عليها:

(ففطرة الإنسان تؤهله لأنْ يعرف كلّ أسماء الله سبحانه، فإنّ الله خلق آدم على صورته، وفطرة الملائكة تؤهلهم لمعرفة بعض أسماء الله سبحانه وتعالى، وتختلف الملائكة فيما بينها وتتفاضل بحسب الأسماء الإلهية التي فطرت وأهلت لمعرفتها)[١].

(فإن الله خلق الإنسان وأودع فيه الفطرة التي تؤهله إلى الارتقاء حتى يكون أسماء الله وصورة الله وتجلي الله والله في الخلق)[٢].

فالفطرة[٣] يمكن أن نسميها المؤهلات والإمكانية التي أودعها الله سبحانه في صفحة وجود الإنسان في أول خلقه[٤]، وهذه القابلية أو القدرة المودعة تناسب نوع المعلومة وطبيعتها في ذلك العالم - عالم الذر في السماء الأولى- وهذه الفطرة يمكن أن نصفها المنظومة الملكوتية التي تحتوي على مفاتيح يستطيع الإنسان من خلالها وهو في طبيعته الجسمانية أو نشأته الثانية أن يتعاطى مع الوارد الملكوتي والاستجابة لنداءات الملكوت ورسائله؛ أي أنه يصبح قادرا على إدراك المعلومة الملكوتية التي أودعت في صفحة وجوده وتوظيفها كما يريدها الله سبحانه ليتحقق الهدف من وجودها وهي معرفة الله والتخلق بأخلاقه سبحانه إذا ما أخلص الإنسان وتخلص من غفلته.

---

١. المتشابهات- السيد أحمد الحسن: ج٤ س١٢٦.

٢. التوحيد- السيد أحمد الحسن: هو الله الواحد الأحد وكل من سواه خلقه.

٣. للاطلاع على المزيد بخصوص الفطرة راجع عوالم قوس النزول - أحمد الحسيني: ص٣٩-٤٩، المعرفة والامتحان الإلهي - أحمد الحسيني: ص٦٣- ٨٥.

٤. أول ما خلقنا الله سبحانه أنفسا في عالم سابق على عالم الدنيا وهو عالم الذر وهو عالم أنفس "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" [الأعرف: ١٧٢] وهو متجسد في قوله تعالى " وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ" [الواقعة: ٦٢]، فالنشأة الأولى هي نشأة عالم الذر وهي في السماء الأولى، وهي سماء مثالية ليست مادية ،فطبيعة وجودنا في ذلك العالم مختلفة عن الطبيعة الجسمانية في عالم الدنيا.[راجع كتاب المتشابهات- السيد أحمد الحسن: ج٤ س١٧٥].

وهذا ما يمكن أن يكون مضمونا لقوله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[١]

وبما أن الخلق طمسوا هذه الفطرة ولم يحققوا الهدف منها كما يريد الله سبحانه فكان ولابد من التعرف على من تمكن من استيفاء هذا الاستحقاق؛ أي استجاب لهذه الفطرة وحقق أقصى ما يمكن من مدياتها في التخلق بأخلاق الله ومعرفة أسماءه سبحانه، وهم خلفاء الله الذين يمثلون القيادة الإلهية في إيصال الخلق لمعرفة الله.

يقول السيد أحمد الحسن: (..لأنّ الإنسان مفطور على إتباع قائد معين من الله سبحانه وتعالى)[٢].

بالتالي فالخلق عاجزين عن إدراك حقيقة الفطرة التي أودعت في صفحات وجودهم كونها حقائق ملكوتية مودعة في النفوس وفي عالم الخلق الأول أو عالم الذر، وعند نزولنا إلى عالم الدنيا حجبنا عن تلك الحقائق وصرنا نحتاج إلى من يكشف لنا حجابها ويعرفنا الطريق والوسيلة لتحقيقها.

يقول السيد أحمد الحسن: (إن الإنسان مفطور على الانجذاب إلى عالم الملكوت والرؤيا من هذا العالم القدسي)[٣].

أنا لا أريد أن أعطي تعريفا ليكون حاكيا عن كل الحالات التي يتم معالجتها بممارسة محدودة تسمى الإدراك قبل أن نمر سريعا على تعريفات ربما أجمعَ كل المعنيين على حصرها في ممارسة حسية تتعلق بالحواس الخمس كما تسمى.

وهنا يمكن أن نطرح جملة من الاسئلة:

- هل يمكن أن تكون عملية الإدراك عابرة لهذه الحلقة وهذه الدائرة؟
- وهل أن طرفا هذه العملية يمكن أن يكونا غير طرفيها المعهودين عند الآخرين (الدماغ والمحسوسات)؟!
- هل فعلا أن الإدراك يقتصر على الحواس أي أن يكون إدراكا حسيا، وبالتالي يتعلق بكل ما له علاقة بالتشخص المادي وهل يفترض أن يكون ضمن موجودات هذا العالم ليتم إدراكه؟
- أم أن إدراكا يمكن أن يطال تلك الموجودات خارج عالمنا المادي؟
- وإذا كان كذلك فكيف يمكن أن يتحقق إذا صح أن نسميه إدراكا؟
- وما هو لازم تحققه أو ضرورة توافره؟

الإدراك لغة: أدركَ يُدرِك، إدراكًا، فهو مُدرِك، والمفعول مُدرَك (للمتعدّي) • أدركتِ الثِّمارُ: نَضِجت. • أدرك الشَّخصَ/ أدرك الشَّيءَ: لحقه وبلغه وناله "أدرك حاجتَه: قضاها- أدرك الإسلامَ: عاصره ولحقه- أدرك القطارَ: ركبه، لحقه- ما كلّ ما يتمنّى المرءُ يدركه- {لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ}" • أدركه البصرُ: أحاط به "{لاَ

---

١. الروم: ٣٠.

٢. حاكمة الله لا حاكمية الناس- السيد أحمد الحسن: الملك أو الحاكم.

٣. إضاءات من دعوات المرسلين - السيد أحمد الحسن: ق١ اضاءة من رؤيا يوسف ع.

تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ}: لا تدرك الأبصارُ كنهَ حقيقته". • أدرك الشَّيءَ ببصره: رآه. • أدرك المعنى بعقله: فَهِمَه وتَصَوَّره، عقله على الوجه الصحيح)[١].

نلاحظ من خلال التعريف اللغوي بأن أقصى ما يذهب به تعريف الإدراك هو أن يدرك المعنى بعقله ويفهمه ويتصوره، وهذا يعني أن عملية إدراك المعاني وهي أعلى سقوف الإدراكات تعتمد على العقل، ولاشك أن المقصود بالعقل هو ما اتفق عليه كل المفسرين والفقهاء وحتى الأكاديميين وهو ما عند الناس والذي يعقلون به كل شيء حتى الكتب السماوية ومقاصدها!!

فإذا غابت الأشياء والمشخصات عن الحواس تنتقل طبيعة التعامل معها بحسب ما تقدم من تعريفات إلى العملية العقلية وما يتعلق بها من تصور وإدراك وما يمكن أن يترجم هذه العلاقة.

واصطلاحا: (الغيب كل ما أخبر به القرآن الكريم والرسول (ص) مما لا تهتدى به العقول من أشراط الساعة، وعذاب القبر، والحشر؛ والنشر، والصراط، والميزان، والجنة، والنار، والملائكة، والجن والكتب السماوية، وقيل: القضاء والقدر. والغيب أمر خفى لا يدركه الحس، ولا تقتضيه بديهة العقل)[٢].

وهذا ما يفترض أن يلتفت إليه المكلفون "مما يعلمه الإنسان بالخبر اليقين عن الله ورسوله" وهنا ينتهي بنا الأمر لنعلم شيئا - يخص الغيب أو ما نزل منه - أو نعقله أو ندركه فلابد من مروره بالرسول أو من يقوم مقامه ليخبرنا يقينا عنه وما أعلم الله تعالى الناس به، أو ببعضه، عن طريق الوحي إلى الرسل الذين يبلغونه إلى الناس.

فهل هناك قاعدة بيانات أو نظام موجود أصلا ومودع في النفس الإنسانية قابل لإدراك هذا النوع من المعلومة؛ أي الآتية من عالم آخر غير مادي مختلف عن منظومتنا الأرضية وليس له علاقة بالمحسوس؟

وهل أن هذا النوع من الإدراك الذي ينفتح على عالم الغيب أو الملكوت سيكون عقليا كما يتوهمه الآخرون؟! ثم إذا كان هناك ما يمكّن النفس لهذا النوع من التعاطي فهل هو العقل أو أداة التفكير التي عند الناس؟

فنحن إذا التفتنا إلى الأصل والمدار الذي جبل عليه الإنسان في بداية خلقه وما أودعه الله سبحانه فيه وبخصوص ما ورد قرآنيا أو روائيا لوجدنا أن الله سبحانه ذكره في محكم كتابه ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٣]، فضلا عن ذكره في روايات أهل البيت (ع).

عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله (ع): كيف أجابوا وهم ذر؟ قال: (جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه..)[٤].

---

١. معجم اللغة العربية المعاصرة، https://www.maajim.com

٢. موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة- مجموعة من المؤلفين: ص٤٨٦.

٣. الروم: ٣٠.

٤. بحار الأنوار- المجلسي: ج٥ ص٢٥٧.

وهذا الجعل هو جعل تكويني في أصل الخلقة وهو ما قصدناه بالنظام أو قاعدة البيانات التي أودعها الله في كل نفس[١].

فقابلية إدراك ما يأتي من الغيب موجوده أصلا، ولكن أكثر الخلق يطمسها بالالتفات إلى النفس وركام العالم المادي وغفلة الانغماس فيه، وأقل القليل من يبقيها نظيفة ناصعة تكاد تكون خالية من شوائب الالتفات فتنعكس فيها تلك الواردات الملكوتية وقطعا هؤلاء هم خلفاء الله (ع).

يقول السيد أحمد الحسن:

(...فتبيان الموجودات في القرآن موجود ضمن البيان العام لعوالم الخلق وحقيقتها، أما عدم إدراك الناس لهذا البيان الكلي فهو ليس لعدمه بل لقصورهم عن الإدراك، وهذا القصور أيضاً هم سببه وإلا فهم يمتلكون في فطرتهم القدرة على إدراك هذا البيان)[٢].

ولأجل أن يكون ما تقدم بيانه في نصابه الصحيح على مستوى فهمه في الإطار العام للمشروع الإلهي في الأرض، وعلى مستوى تحقق مصداقه في هذا العالم على الأقل باعتبار تحققه في كل العوالم، أقول أن ما حصل أن الناس نكست فطرتها فخسرت فرصتها لتلقي الوحي الرسالي وسماعه مباشرة وكانت هذه حصة الرسل والأنبياء والأوصياء(ع)، ولما كان المشروع الإلهي وتحققه في هذا العالم مرتبط بالرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٣]، كانت فرصة السماع متاحة بطريق غير مباشر بتوسط وبفضل وجود هؤلاء المقدسين الذين نزلوا رحمة إلى هذا العالم لإسماع الخلق صوت الوحي الذي يأخذهم إلى تحقيق غاية وجودهم في هذا العالم وهو معرفة الله ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[٤].

فالفطرة التي فطر الله الناس عليها وهي بحسب مبدأ العدالة الإلهية والحكمة تقتضي أن يتساوى بها جميع الخلق ابتداءً؛ أي أن الله سبحانه أودع في صفحات وجود كل إنسان أو قل في نفس كل إنسان القابلية على أن تنعكس فيه أسماء الله ويكون صورة الله، غير أن الخلق فشلوا في تحقيق هذه المرتبة بسبب غفلتهم والتفاتهم إلى الظلمة، ولم ينجح في هذا المضمار إلا الأنبياء والرسل والأوصياء (ع) وكل بحسبه، ويمكن أن نقول أول ثمار هذا القرب من النور أن أرواحهم المقدسة كانت محلا لنزول الوحي بسبب إخلاصهم والتفاتهم إليه سبحانه، وعلى العكس غابت هذه الخصيصة عن باقي المخلوقين بعد أن نكسوا فطرتهم وكان ذلك باختيارهم، كما أن العظماء اختاروا القرب ونالوا تلك المراتب العليا.

---

١. النفس موجودة في عالمها أي عالم الأنفس وهو في السماء الأولى، وهي التي تدبر الجسد في هذا العالم، وهي موضع التفكر ومحل وجود المعلومة. راجع كتاب عقائد الإسلام- السيد أحمد الحسن: ص٢٥٥-٢٦٦.

٢. الجواب المنير - السيد أحمد الحسن: ج٤ المقدمة.

٣. الأنبياء: ١٠٧.

٤. الغاشية: ٢١.

لماذا يفترض أن يكون كل مخلوق قادرا على نيل تلك المراتب؟ لأن الله سبحانه المنعم المفضل ابتداءً منح فرصة النجاح للجميع لنيل هذا الاستحقاق، بعد أن زود المخلوقين بالقدرة والإمكانية للحصول على المراتب المتقدمة من القرب وهي الفطرة.

من دعاء النبي (ص) يوم الأحزاب: (يا مبتدئاً بالنعم قبل استحقاقها)[١].

إذن طبقا لما تقدم يفترض أن كل مخلوق له نفس الفرصة ليكون محلا لنزول الوحي، ولما كانت رحمة الله وفضله عظيم على الخلق الذين فشلوا في تحقيق هذه المرتبة سخر لهم من يُسمعهم رسالة الوحي وهم حجج الله في كل زمان، وهؤلاء الحجج الذين أخلصوا- بل لولا وجود محمد (ص) لمَا تنعم من تنعم[٢]- نزل إليهم الوحي فكانوا سببا لنزول الرحمة، ومن ثم تحملوا المشاق وكابدوا وقدموا التضحيات الجسام من أجل إيصال رسالة الوحي للناس، وهم يعرفون أن هذه الرسالة لا يمكن أن تصل للخلق لولاهم وإن كلفتهم حياتهم.

فنحن المكلفون إذا ما تحقق لنا هذا المعنى يمكن أن نقول أننا يوحى إلينا من هذا الجانب متى ما تحقق الاتصال بهم (ع) والتسليم لهم.

يقول السيد أحمد الحسن:

(.. فوعاء الإنسان الفطري كبير، وسعة الأفق الذي يمكن أن ينظر فيه عظيم. وليس للملائكة الكرام إلاّ الشيء اليسير من هذه القدرة التي أودعها الله في الإنسان الفطري وائتمنه عليها؛ لهذا أُمِروا بالسجود له والخضوع بين يديه، إذا أطاع الله؛ وذلك لأنّه انطوى على معرفة الله سبحانه وتعالى، وأصبح تجلياً وظهوراً لأسمائه سبحانه وتعالى)[٣].

فبعد أن أودع الله الفطرة في صفحات وجود المخلوقين أعطاهم حق الاختيار بين النور والظلمة.

يقول السيد أحمد الحسن:

---

١. التوحيد - الشيخ الصدوق: ص٢٢٢، إقبال الأعمال - السيد ابن طاووس: ج١ ص٣٢٣.

٢. (لولاك ما خلقت الأفلاك ولولا علي ما خلقتك ولولا فاطمة ما خلقتكما) بحار الأنوار- المجلسي: ج٥٤ص١٩٩، (اسم الله موضوع للذات الجامعة للكمالات الربانية. والرحمن الرحيم باب الذات، ولولا أنّ الرحمة هي الباب لما زكى أحد من العالمين، فلا يتحقّق كمال لأحد، بل لا يفاض شيء على جميع العوالم المخلوقة إلاّ بهذين الاسمين، فالفيض من الله وبالرحمن الرحيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[الإسراء:١١٠].(شيء من تفسير سورة الفاتحة - السيد أحمد الحسن: س١٧)..قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[النور: ٢١].
عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان)* قال: أتدري ما السلم؟ قال: قلت: أنت أعلم، قال: ولاية علي والأئمة الأوصياء من بعده قال: وخطوات الشيطان والله ولاية فلان وفلان). [تفسير العياشي: ج١ ص١٠٢].

٣. شيء من تفسير سورة الفاتحة - السيد أحمد الحسن: مراتب اسماء الله.

(..ففي ذلك العالم كان جميع بني آدم مختارين، وكل واحد منهم يمتلك فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكل واحد بإرادته قَصَرَ نظرَه على النور فأصبح من المقربين، أو على الظلمات فأمسى من أصحاب الجحيم. فالأنبياء والمرسلون والأئمة (ع) هم الذين اختاروا الله سبحانه، وقصروا نظرهم على النور فاصطفاهم الله سبحانه)[١].

إذن فنحن نتكلم عن أصل المعلومة والمعرفة الحقة من حيث بدأت ومن حيث وجدت في عالمها الأول، وهو عالم مثالي وبالتالي عملية الإدراك الحقيقي لهذا النوع من المعلومة سيكون حتما عن طريق وأدوات من ذلك العالم، وهو ما يتعلق بالنفس وارتقاءها لتكون روحا تسمع من ذلك العالم وتحيا الحياة الحقيقية بحياة المعرفة فيها.

ونحن في هذا العالم ليس لدينا سوى طريقا واحدا لندرك تلك المعارف وهو الاتصال بمعرف وسعت روحه وصفحة وجوده تلك العوالم، فكان مهيمنا على كل المعارف النازلة من تلك العوالم ليوصلها إلينا وفقا لقابليتنا على إدراكها.

شواهد من الغيب

طريق الغيب سراج مشتعل في صفحات وجود المنشغلين بالله، ولذلك كانت عماد أدلة الرسل منبثقة من أروقة الغيب؛ لأنه طريق للاتصال بالله، فهو عوالم متقدمة على عالمنا المتقهقر عنه والمتأخر في رتبة الخلق والوجود.

فالرسل ينهلون من عوالم الغيب المتقدمة لتكون شاهدة على نبوتهم ورسالتهم، وهذا طريق خلفاء الله (ع) أورده هنا ليس على سبيل إثبات رسالتهم أو نبوتهم، وأن الشهادة لأحقيتهم آتية من الغيب، وإنما نحن بصدد ترسيخ حقيقة متعالية يدين لوجودها ورفعتها وضرورة الرجوع إليها كل الخلق، وهي أن كل ما وصل إلى هذا العالم الغارق في الظلمة من نور وهدي وعلم فهو من الغيب.

والغيب هوالطريق الأشرف والوحيد الذي يغترف من نوره الخلق ويهتدي لنيل كرامة وشرف المعرفة الذي خلق من أجلها، لتكون سبب خلاصه الحقيقي من ظلمات الجهل؛ لأنه وإن كانت النصوص التي بين أيدينا تشير إلى استدلال هؤلاء العظماء (ع) على صدق رسالتهم وقداسة الجهة التي صدرت منها إلا أنها في نفس الوقت تؤكد لنا بأن أشرف المخلوقات وهم الرسل والأنبياء وأوصياءهم(ع) عندما يحدثونا ينسبون كل قول وفعل إلى جهة الغيب للدلالة والتأكيد على أن أي معلومة أو أي وسيلة لطلب المعرفة والعلم أو الدين بشكل أشمل لا تأتي من جهة الغيب فهي مزيفة وباطلة.

وأن كل ما لدى أشرف الخلق وهم خلفاء الله (ع) هو من جهة الغيب حصرا، وهذا يعني بالضرورة أن السير في هذا الطريق لتحصيل العبادة الحقيقية أو المعرفة سيكون مرتبطا بهؤلاء الدالين عليه، وأنه لا سبيل إلا بمعرفتهم وطاعتهم.

---

١. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج١ س١٧.

وبما أن المنهج المعرفي مرتبط بوجود الخلق واستمراره وبقاءه، فالغيب هو الطريق الوحيد لإكمال مسيرة المشروع المعرفي أو السقوط في هاوية التيه والقول بوجود إله آخر أو مصدر آخر، وبالنتيجة فكل آخر هو غير الله سبحانه.

فالقرآن والتوراة والإنجيل وكل الكتب المقدسة تحيلنا للغيب وهو طريق الوحي الحصري الذي نزلت بواسطته هذه الكتب.

أما القرآن والأحاديث التي وصلتنا عن الأنبياء والرسل والأوصياء (ع) فهي تعج بالحديث عن الغيب والملكوت، وأنهم نسبوا إلى جهته أسباب الخلق والوجود والمعرفة والخير وكل شيء.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[١]

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[٢]

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣]

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾[٤]

أما الكتاب المقدس فهو سفر ملكوتي متوهج بالغيب وأخبار الغيب وحملته موسى وعيسى (ع) طالما صدحوا باتصالهم بالغيب وذكروا به ودعوا الناس للارتباط به والسماع منه، فلا بأس من المرور على طيف منها في الكتاب المقدس كونه يمثل الديانة - بغض النظر عن اختلاف المناهج والرؤى- التي يعتنقها طيف واسع من البشر.

(مِثْلَ الْقَمَرِ يُثَبَّتُ إِلَى الدَّهْرِ. وَالشَّاهِدُ فِي السَّمَاءِ أَمِينٌ». سِلاَهْ)[٥].

(فَيُخْبِرُنَا الرَّبُّ إِلهُكَ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي نَسِيرُ فِيهِ، وَالأَمْرِ الَّذِي نَفْعَلُهُ)[٦].

(فَقَالَ لَهُمْ إِرْمِيَا النَّبِيُّ: «قَدْ سَمِعْتُ. هأَنَذَا أُصَلِّي إِلَى الرَّبِّ إِلهِكُمْ كَقَوْلِكُمْ، وَيَكُونُ أَنَّ كُلَّ الْكَلاَمِ الَّذِي يُجِيبُكُمُ الرَّبُّ أُخْبِرُكُمْ بِهِ. لاَ أَمْنَعُ عَنْكُمْ شَيْئًا)[٧].

(فَقَالُوا هُمْ لإِرْمِيَا: «لِيَكُنِ الرَّبُّ بَيْنَنَا شَاهِدًا صَادِقًا وَأَمِينًا إِنَّنَا نَفْعَلُ حَسَبَ كُلِّ أَمْرٍ يُرْسِلُكَ بِهِ الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَيْنَا)[٨].

---

١. البقرة: ٣.
٢. آل عمران: ٤٤.
٣. هود: ٤٩.
٤. الجن: ٢٦.
٥. الكتاب المقدس: سفر المزامير إصحاح ٨٩ آية ٣٧.
٦. الكتاب المقدس: سفر إرميا (٤٢ :٣).
٧. الكتاب المقدس: سفر إرميا (٤٢: ٤)
٨. الكتاب المقدس: (سفر إرميا ٤٢: ٥).

فنسبة الكلام إلى الرب والإله هي نسبة للغيب، وإلفات من النبي أو الرسول إلى كونها حقيقة؛ لأنه ينسبها إلى الرب وبالتالي ينبغي التصديق والإيمان بها وهي تحمل دلالة على أن الإنسان مفطور على السماع من الغيب.

(كل من يسمع كلمة الملكوت ولا يفهم فيأتي الشرير ويخطف ما قد زرع في قلبه)[١]

(قال لهم يسوع أفهمتم هذا كله. فقالوا نعم يا سيد. فقال لهم. من أجل ذلك كل كاتب متعلم في ملكوت السموات يشبه رجلا رب بيت يخرج من كنزه جددا وعتقاء)[٢].

(فتقدم التلاميذ وقالوا له لماذا تكلمهم بأمثال. فأجاب وقال لهم لأنه قد أعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السموات. وأما لأولئك فلم يعط. فإن من له سيعطى ويزاد. وأما من ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه. من أجل هذا أكلمهم بأمثال. لأنهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون)[٣].

(ثم كلمهم يسوع أيضا قائلا: أنا هو نور العالم فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة ...فقال له الفريسيون: أن تشهد لنفسك، شهادتك ليست حقا) أجاب يسوع وقال لهم: وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب، وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتي وإلى أين اذهب، أنتم حسب الجسد تدينون، أما أنا فلست أدين أحدا، وإن كنت أنا أدين فدينونتي حق، لأني لست وحدي، بل أنا والآب الذي أرسلني ..أنا هو الشاهد لنفسي، ويشهد لي الآب الذي أرسلني، فقالوا له أين هو أبوك؟ أجاب يسوع: لستم تعرفوني أنا ولا أبي لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضا)[٤].

هكذا يصف عيسى (ع) الفريسيين "أنتم حسب الجسد تدينون" وهذا هو الفارق بين العلماء غير العاملين ورجال الدين الذين يتدينون ويطلبون من الناس أن تدين بما يقدمون لهم من فهم للنصوص ونتاجهم الإنساني المجرد عن ربقة الملكوت وأصل الدين وصاحب العقل الكامل، فلا يقدمون إلا ظنا وشتان بين الظن واليقين[٥].

والذين يتبرعون في كل زمان لقيادة الأمم وتمثيل الدين وهم ينسجون عقيدتهم ومناهجهم بخيوط الأوهام في ظلمة المادة الحالكة بعيدا عن عالم النور وعن ملكوت السموات، ولذلك يقول لهم يسوع أنتم لا تعلمون من أين آتي وإلى أين أذهب، وهذا إقرار منه (ع) بكونهم محجوبون عن عوالم الغيب وهو النور بمقابل ظلمة المادة وظلمة الأنا التي انبثقت منها قوافل الشيطان تصد الناس عن رسائل الوحي والملكوت.

كم هي عظيمة هذه المعاني والتي جسدها القرآن بآيات بينات واضحات، وهي بلا شك تؤكد حقيقة الغيب وتكشف لنا عن أن حقيقة المعرفة مرتبطة بالغيب وأن الآتي من الغيب هو الحق، وحقيقة اتصال المرسل من

---

١. الكتاب المقدس: مت ١٣: ١٩.

٢. الكتاب المقدس: إنجيل متى إصحاح ١٣ عدد٥١-٥٢.

٣. الكتاب لمقدس: إنجيل متى إصحاح ١٣ عدد ١٠-١٣.

٤. الكتاب المقدس: انجيل يوحنا اصحاح ٨ عدد من ١٢-١٩.

٥. (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) يونس: ٣٦، عن الصادق ع: (..إن أصل الدين هو رجل وذلك الرجل هو اليقين وهو الايمان وهو امام أهل زمانه فمن عرفه عرف الله ودينه ومن أنكره أنكر الله ودينه ومن جهله جهل الله ودينه ولا يعرف الله ودينه وشرايعه بغير ذلك الامام..) [مختصر البصائر - الحسن بن سليمان الحلي: ص٨٢].

الغيب هو الوحي الرسالي؛ لأن الحقيقة التي يريد إبرازها عيسى (ع) هو أنه مرسل من قبل الله "ويشهد لي الآب الذي أرسلني"، فهذه العبارة تبين لنا حقيقتين:

الأولى: هي أن الله يشهد وأن هذه الشهادة دليلا كافيا يحتج به صاحب الرسالة؛ ولأنها آتية من عالم الحقيقة والأصل والغيب.

الثانية: أن الذي يحتج بشهادة الغيب يكون مرسلا وأن لا سبيل له إلا الغيب، وأن سبب وجود الرسول هو أن يرتبط الخلق بالغيب، وهذا وحده دليلا لنقض وبطلان كل وارد من جهة غير مرتبطة بالغيب.

حدود الغيب

بما أن الله سبحانه وتعالى غيب مطلق لا متناهي فمراتب الغيب لا متناهية بالضرورة.

يقول السيد أحمد الحسن:

(....ولن نحصي الغيب قطعاً، وباختصار أقول: إنّ عالمي الملكوت والعقل هما الغيب الأصغر ،وعالمي اللاهوت - أو الذات والحقيقة أو الكنه - هما الغيب الأكبر. والغيب الأصغر يمكن أن يكشف بعضه لخاصة من أولياء الله سبحانه وتعالى، كما كشف لإبراهيم (ع)، "لنريه ملكوت السماوات والأرض"، بل ويكشف لمن سلك طريق الله سبحانه وتعالى وإن كانت عاقبته الانحراف كالسامري: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ طه: ٩٦، وكبلعم بن باعوراء: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ ([الأعراف: ١٧٥])، وروي أنه كان يرى ما تحت العرش[١].

أما الغيب الأكبر، فينقسم إلى: الغيب العظيم أو العلي، والغيب الأعظم أو الأعلى، وهما اللذان في تسبيح الصلاة في الركوع والسجود. والغيب العظيم لم يكشف منه شيء إلا للنبي الكريم، ولهذا خوطب بأنه على خلق عظيم (إشارة إلى قوله تعالى : "وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ" ([القلم: ٤،])، وأنه رأى من آيات ربه الكبرى (إشارة إلى قوله تعالى : "لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى" ([النجم: ١٨])...عن الإمام الصادق (ع) في كشف الحجاب للرسول الأعظم خاصة، وهو الحجاب الذي لم يكشف لأمير المؤمنين (ع)، فقال ما معناه: (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً)[٢]. أما الغيب الأعلى أو الأعظم فهو المحجوب عن الكل، وحجابه الذات أو الأسماء الحسنى. ومن هنا فالإيمان بهذه العوالم أي: الملكوت والعقل والذات والحقيقة، هو الإيمان بالغيب، وهذا الإيمان على درجات...)[٣].

---

١. عن أبي الحسن الرضا (ع): (أنه أعطي بلعم بن باعوراء الاسم الأعظم وكان يدعو به فيستجاب له، فمال إلى فرعون، فلما مر فرعون في طلب موسى (ع) وأصحابه، قال فرعون لبلعم: ادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا، فركب حمارته ليمر في طلب موسى وأصحابه، فامتنعت عليه حمارته، فأقبل يضربها، فأنطقها الله عز وجل، فقالت: ويلك، على ماذا تضربني، أتريد أن أجيء معك لتدعو على موسى نبي الله وقوم مؤمنين؟! ولم يزل يضربها حتى قتلها، فانسلخ الاسم من لسانه، وهو قوله: فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ وهو مثل ضربه الله ...) [تفسير القمي: ج١ ص٢٤٨].

٢. المناقب - لابن شهر اشوب: ج١ ص٣١٧.

٣. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٢ س٤٥.

أي أن هذا التسلسل أو هذه المحطات هو الطريق الذي يسلكه الوحي وهو طريق معرفي، ومنه يمكن أن نعرف ولو بوجه من الوجوه لماذا وردت روايات عديدة عن الأئمة (ع) أن للآية القرآنية سبعون بطن ولكل بطن سبعون بطن.

عن رسول الله (ص): (إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حد مطلع)[١].

وفي رواية ولكل حرف حد ومطلع.

وعنه (ص) إن للقرآن ظهرا وبطنا ولبطنه بطنا إلى سبعة أبطن.)[٢]؛ بل في روايات أخرى سبعين ألف بطن، ولاريب بحسب درجات الغيب اللامتناهية.

وهذا يتعلق بالمراتب المعرفية فالآية لها معنى يخص أهل مقام معين في السماء الُثانية أو السادسة مثلا، بل وحتى السماء السابعة التي تمثل مقاما لكل الأنبياء والرسل، وهي على مراتب ومنها نعرف لماذا فضل بعض الأنبياء على بعض.

عن أبي عبد الله (ع) قال: (بالزيادة في الايمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله، قلت: وإن للإيمان درجات ومنازل يتفاضل بها المؤمنون عند الله؟ فقال: نعم، قلت: صف لي ذلك رحمك الله حتى أفهمه، قال: ما فضل الله به أولياءه بعضهم على بعض، فقال: " تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله ورفع بعضهم فوق بعض درجات ")[٣].

ومنها نعرف لماذا أن بعضهم كان من أولي العزم وبعضهم لم يكن له عزما في مقام معين لم يحتمله، فلما كان الأمر كذلك يحق لنا أن نستهجن ما يقدمه المفسرون لآيات الكتاب والتي يمكن أن نعتبرها موارد للهلكة.

إخبارات الغيب

مسألة النصوص النازلة سواء أكانت كتب سماوية أو روايات فهي بالنتيجة رسائل آتية من الغيب، والغيب والملكوت عوالم خارجة عن نظام عالمنا المادي الجسماني، فهي من سنخ آخر وقوانينها مختلفة تماما عن محدودية عالمنا ومحدداته.

فقوانين الفيزياء مثلا هي التي تهيمن على ضبط قياسات عالمنا الجسماني، وأما ما يأتي من عوالم الملكوت من أخبار غيبية عن طريق خلفاء الله (ع) وكتب سماوية فهي تنزل إلى هذا العالم بعد أن تمر بترجمانها الحقيقي؛ لأنها قبل أن تنزل إلى هذا العالم على شكل ألفاظ ومعاني مكتوبة ومقروءة فهي عبارة عن حقائق يحولها أو يشكلها المعلم الأول أو الترجمان أو الخليفة الإلهي المنصب بهيئتها المنطوقة والمكتوبة، وبدون وجود هذا الرجل الإلهي لا تنزل هذه الفيوضات ولا تترجم؛ لأنه سيكون خلاف الحكمة.

---

١. الصافي - الفيض الكاشاني: ج١ ص٣٠-٣١.

٢. نفس المصدر السابق.

٣. تفسير العياشي: ج١ ص١٣٥، بحار الأنوار - المجلسي: ج٦٦ ص١٧١.

أما مسألة طبيعة المعلومة النازلة من العوالم العلوية وكونها مشفرة ؛ أي تحتاج إلى مبين يعرف جنس المعلومة الملكوتية ويستطيع ترجمتها في هذا العالم، فكونها مشفرة بالنسبة لنا فلا تعني بالضرورة أن الله سبحانه أراد أن تكون هكذا، وإنما التسلسل الطبيعي لمراتب العوالم من مصدر الفيض نزولا إلى عالمنا المادي خاضعة لنظام مراتب وجودها ودرجة قربها من النور، وهو مقتضى الحكمة الإلهية.

إذن فما الفائدة أن تنزل الحقائق بلغتها النورية ولا يوجد من يترجمها للناس، فهي كمن يأتي بنص مكتوب بلغة أجنبية "كالإنكليزية مثلا" ويطلب من شخص لا يعرف سوى العربية أن يقرأها أو يترجمها!، ولذلك نقلت بعض الآيات القرآنية لنا بأن نصوص الكتاب يقتصر تفسيرها وتأويلها على الرجل الإلهي وكذلك روايات كثيرة جسدت هذا المعنى.

في الحقيقة فإن وجود المترجم الحقيقي لرسائل الوحي يمثل تجسيدا لرحمة الله بالخلق الغافل، فأي نكران لهذا الفضل وهذه الرحمة!! أن يكفر بها المستكبرون بأقوالهم وأفعالهم عندما يتبرعون ويخترعون مناهج تفسر الدين فيضربون آيات الله البينات عرض الجدار، ولسان حالهم يقول نحن ومن اختارهم الله متساوون في حق البيان وتفسير كلماته سبحانه! إذن لماذا سماهم واختارهم؟!

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١]

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمك يرجع.يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢]

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾[٣]

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[٤]

عن أبي عبد الله (ع) قال: (نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله)[٥].

فالدين هو المعلم الإلهي والأمين على النص والمترجم له، لكونه محل نزول مراد الله، و كل ما يخص التأويل والتفسير والبيان فهو مرتبط بالقيمة المعرفية والمراد الإلهي بما وراء الألفاظ، وهذه في الحقيقة صورة واقعية عن رسالة الوحي النازل من عوالم الملكوت.

ما تمخض عن بيان معاني النصوص من قبل المتبرعين الذين حُسبوا على الدين هو تضييع محتوى الرسالة، والأساس هذا يرجع في ذلك إلى تضييع المعلّم الإلهي ومترجم الوحي "وحي الرسالة".

وهذا كان السبب في تعدد المذاهب والديانات بحسب ما يطلق عليها، الديانة الاسلامية واليهودية والمسيحية وغيرها من الديانات التي لها أصل سماوي ثم حرفت بسبب تدخل من تلاعب وفسر وشرح النصوص التي حلت

---

١. الحجر: ٩.

٢. النحل: ٤٤.

٣. العنكبوت: ٤٩.

٤. آل عمران: ٧.

٥. الكافي - الكليني: ج١ ص٢١٣.

محل النصوص الحقيقية الآتية من الغيب عبر المترجمين الإلهيين في كل زمان، وإلا فهذا التجني على النصوص والقيمومة الغير شرعية على كل مسميات الدين وتحويلها إلى دين بلغة محرفة وشروحات وتفاسير تمخضت عن عقول ناقصة وأهواء مبتدعة فهي في النهاية آراء وأهواء بعيدة عن مقاصد السماء.

ولذلك وبعد أن يتم تغييب الرسول والمعلم بكل الطرق ينفرد المتبرعون في تقديم النصوص بشكل ينسجم مع المنهج العقلي والذي لا يخلو من الأهواء والظنون، وهو بدرجة أو بأخرى يؤدي إلى حجب الوحي والعلم الإلهي عن الخلق الذي قبِلَ بذلك، فيستوجب نزول العذابات والمثلات بهم كما أخبرت الكتب السماوية.

أقول إذا كان الوحي الإلهي الناقل لكل ما يريده الله وما يريد أن يوصله للخلق لا يمكن أن يمر لأي مخلوق قبل أن يصل إلى حجاب الله محمد (ص)، وأن الوحي مستمر والمشروع المعرفي الإلهي باق ما بقي الخلق والوجود، وأن طبيعة هذه العلاقة محكومة بميزتين وخاصيتين، وهما نوع المعلومة وقدرة القارئ لها، فهل سيتغير هذا القارئ في فترة من الزمن ليكون بالإمكان أن يحل محله قارئ آخر؟! والحال أن لغة الوحي لم تتغير ولم تتبدل لعلة صدورها من واحد ليأتي أناس فاقدين للميزتين بالمرة ويضعون أنفسهم موضع هؤلاء المخصوصين (ع)! فهذا ما لا يقبله العقل السوي والمنطق السليم.

فالمختارون (ع) هم وعاء الغيب وحفظته، وهم الذين يتلقون من الغيب والذين يعلمون أسرار الغيب ومفاتح الغيب[1] بما يعلمهم الله سبحانه.

والغيب يتعلق بمراتب الوجود والمعرفة والمقامات التي تنتظم في سلسلتها الطولية اللامتناهية كل المجاميع والأفراد ابتداءً من سيد الخلق والوجود محمد (ص) والأئمة (ع) والرسل والأنبياء والأمثل فالأمثل، فالمعرفة أو المعلومة للمقام الأعلى ستكون غيبا لمن هو في مرتبة أدنى.

وعموما الغيب المطلق هو الله سبحانه وكل غيب خرج منه فهو عند محمد (ص) وآل محمد (ع) ليس غيبا، ولكن بالتالي هو لكل ما دونهم غيب حتى يظهروه.

فمادام الأمر محكم بهذه الكيفية فكل ما يخص الدين والنصوص والكتب المقدسة وبيانها سيكون آت من الغيب وعلى جناح الوحي ينزل في صدور من اختصهم الله بالوحي.

في خطبة رسول الله (ص): (تدبروا القرآن وافهموا آياته وانظروا إلى محكماته ولا تتبعوا متشابهه، فو الله لن يبين لكم زواجره ولا يوضح لكم تفسيره إلا الذي أنا آخذ بيده ومصعده إلى - وشائل بعضده - ومعلمكم إن من كنت مولاه فهذا علي مولاه، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام أخي ووصيي، وموالاته من الله عز وجل أنزلها علي.... (معاشر الناس) هذا علي أخي ووصيي وواعي علمي وخليفتي على أمتي وعلى تفسير كتاب الله عز وجل والداعي إليه،.....(معاشر الناس) إنما أكمل الله عز وجل دينكم بإمامته، فمن لم يأتم به وبمن يقوم مقامه من

---

١. عن أمير المؤمنين (ع): (أنا عندي مفاتح الغيب لا يعلمها بعد محمد رسول الله إلا أنا..) [مشارق أنوار اليقين: رجب حافظ البرسي: ص٢٦٩]، ولا يشق على من يعرف مقام محمد ص وعلي والأئمة (ع) فهم ذلك، قال تعالى: (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) (انه عليه السلام هو الإمام المبين تفسير علي بن إبراهيم: (وكل شئ أحصيناه في إمام مبين) أي في كتاب مبين، فهو محكم، وذكر ابن عباس عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال: أنا والله الامام المبين، أبين الحق من الباطل) [بحار الأنوار - المجلسي: ج٣٥ ص٤٢٧].

ولدي من صلبه إلى يوم القيامة والعرض على الله عز وجل فأولئك الذين حبطت أعمالهم وفي النار فيها خالدون، لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون..... (معاشر الناس) إني أدعها إمامة ووراثة في عقبى إلى يوم القيامة، وقد بلغت ما أمرت بتبليغه حجة على كل حاضر وغائب وعلى كل أحد ممن شهد أو لم يشهد ولد أو لم يولد، فليبلغ الحاضر الغائب والوالد الولد إلى يوم القيامة، وسيجعلونها ملكا واغتصابا، ألا لعن الله الغاصبين والمغتصبين، وعندها سنفرغ لكم أيها الثقلان فيرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران)[١].

فلا يظن الظان ومن يدعي قوله بإمامة أوصياء رسول الله (ص) وهو يغتصب حقهم في تفسير كتاب الله عز وجل وبيان مراده وحكمه سبحانه أنه بمنأى عن لعن الله على لسان رسوله (ص) الذي حصر تفسيرالقرآن بعلي (ع) "ولا يوضح لكم تفسيره إلا الذي أنا آخذ بيده"، وهو على حد سواء من الذين يفسرون كتاب الله وهم ينكرون أوصياء محمد (ص) بالمطلق أو بعضهم وبأحكام عقلية يصدرها رجال دين يدعون وصلهم بليلى، وهم يفتقرون حتى لمعرفة حكمة وسبب وجودهم في هذا العالم!!

عن أبي جعفر عليه السلام أيضا أنه قال: (إن الشياطين يلقى بعضهم بعضا، فيلقي إليه ما يغوي به الخلق حتى يتعلم بعضهم من بعض..)[٢]

عن أمير المؤمنين (ع): (ولا سواء من اعتصم الناس به، ولا سواء من ذهب حيث ذهب الناس، ذهب الناس إلى عيون كدرة يفرغ بعضها في بعض، وذهب من ذهب إلينا إلى عين صافية تجري بأمور لا نفاد لها ولا انقطاع)[٣].

علي بن إبراهيم: (ما بعث اللّه نبيّا إلاّ و في أمته شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى ببعض أي يقول بعضهم لبعض: لا تؤمنوا بزخرف القول غرورا فهذا وحي كذب)[٤].

فإما وحي الله وبيانه وإيصال محتواه للخلق موكول إلى حجج الله، أو وحي الشياطين من الجن والإنس ومن عيون كدرة يفرغ بعضها في بعض.

فمعنى قولهم أن هذا وحي كذب لكونه لا يطابق ما في رؤوسهم من قواعد ومباني أسسوا عليها عقائد ودين مختلف، وقد يكون معنى ذلك القصد هو حجب هذا الوحي عمدا؛ لأن نفوسهم منكرة ومستكبرة.

المفروض أن كل إنسان بالأصل يكون قابل وسامع للوحي، هكذا هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولا يفرق سبحانه بين عباده ابتداءً، ولكن الذي يحصل أن الكثير تنتكس فطرته وتستحوذ الظلمة على صفحة وجوده فلم يعد هناك مكانا - إن صح التعبير- ينزل فيه الوحي فيسمعه ويعيه ويكون متصلا بالله سبحانه.

فمنذ أن خلق الله أول خلقه وهو العقل، فاستجاب لأوامر الله، وخلق الجهل فأدبر ولم يقبل، وهذه هي القاعدة التي انطلق منها مشروع الخلق والمعرفة والعبادة، وبالتالي محط نزول الوحي، ففي هذا العالم الدنيوي

---

١. الاحتجاج - الطبرسي: ج١ ص٧٥-٧٨.

٢. تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي: ج٤ ص١٤٠، بحار الأنوار - المجلسي: ج٦٠ ص١٥٠.

٣. الكافي - الشيخ الكليني: ج١ ص١٨٤، بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٤ ص٢٥٣.

٤. تفسير القمي - علي بن إبراهيم القمي: ج١ ص٢١٤، البرهان في تفسير القرآن - هاشم البحراني: ج٢ ص٤٦٩.

حتى الأنبياء والرسل(ع) تحيط بهم محاولات الشياطين لثنيهم عن أداء رسالاتهم وإيصال وحي الرسالة للمكلفين، ويتحقق ذلك بتكذيبهم، ومنع الناس من سماع رسالتهم.

عن أبي عبد الله (ع) قال: (ما بعث الله رسولا إلا وفي وقته شيطانان يؤذيانه ويفتنانه ويضلان الناس بعده، فأما الخمسة أولو العزم من الرسل: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم، وأما صاحبا نوح ففيطيفوس وخرام، وأما صاحبا إبراهيم فمكيل ورذام، وأما صاحبا موسى فالسامري ومرعقيبا، وأما صاحبا عيسى فمولس ومريسا، وأما صاحبا محمد فحبتر وزريق)[١].

قال عليّ بن إبراهيم: قوله تعالى: (وَ لِتَصْغىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لتصغى إليه): أي يستمع لقوله المنافقون، ويرضوه بألسنتهم ولا يؤمنون بقلوبهم، وَ لِيَقْتَرِفُوا أي لينتظروا مٰا هُمْ مُقْتَرِفُونَ أي منتظرون. ثم قال: قل لهم يا محمد: أَ فَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتٰابَ مُفَصَّلاً أي يفصل بين الحق و الباطل)[٢].

الدين ليس تجربة بشرية أو تنظيرا عقليا، ولم يكن نتاجا عقليا أبدا ابتداءً من أبسط مخلوق بشري على هذه الأرض وانتهاءً بأشرف مخلوق وهو محمد (ص)؛ فكان محمد ومن قام مقامه على طول الخط الزمني حتى قيام الساعة، ومن كان قبله من آدم (ع) حتى وصلت إليه (ص) وإلا لما كان لزاما على الله أن يرسل الأنبياء والأوصياء (ع) تترى لا يخلو منهم زمان، لا كما يقول صراحة أهل السنة مثلا لسنا بحاجة لرجل إلهي بعد محمد (ص) يقوم على الدين بدعوى أن الدين اكتمل.

عن أبي عبد الله (ع): (...إن الله تبارك وتعالى لو شاء لعرف العباد نفسه ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله والوجه الذي يؤتى منه، فمن عدل عن ولايتنا أو فضل علينا غيرنا، فإنهم عن الصراط لناكبون...)[٣].

حجة الله هو الدين؛ لأنه استحق بإخلاصه ونقاء صفحة وجوده أن يكون وعاءً لمراد الله سبحانه، فصار هو الدين الذي يريد الله أن يدان به له سبحانه، وأعلى مراتب هذا الدين هو التوحيد الخالص والإخلاص وإفراغ صفحة وجوده عما سواه، فالحكم له سبحانه والأمر له سبحانه.

فقول محمد (ص) "إنما أنا بشر مثلكم" إنما ليرسخ الحقيقة التي لا تقبل المغايرة والتبديل والاشتراك لجهة أخرى، وهي حقيقة قوله (ص) "يوحى إلي"؛ لأنها الفاصل والمائز الذي به يفرق بين الحق والباطل، فالحق ما نزل به الوحي ومن تلقى الوحي والمخصوص بترجمة الحقائق التي نزل بها الوحي؛ بل وكل ما يمت للدين بصلة والتي لا ينفك عنها الوحي زمن ما في عالم التكليف.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[٤].

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ج١٣ ص٢١٢-٢١٣، قريب منه في البرهان في تفسير القرآن - هاشم البحراني: ج٢ ص٤٦٩.
٢. البرهان في تفسير القرآن - هاشم البحراني: ج٢ ص٤٦٩.
٣. الكافي - الكليني: ج١ص١٨٤، بصائر الدرجات - الصفار: ص٥١٧.
٤. الشورى: ١٣.

فالخطاب لمجموعة مخصوصة[١] شرع لهم دينه سبحانه، فسماهم ليقول للناس أن الدين عند هؤلاء؛ لأنهم حفظة وحيي وأمنائي، ثم أن الله سبحانه يشدد النكير على هؤلاء الذين اتخذوا شركاء شرعوا لهم وابتدعوا وهم غير مأذونين ولم يوح إليهم.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّه﴾[٢].

وهذا الدين هو التسليم، والتسليم لابد أن يكون للجهة الممكنة للمخلوق، هي جهة مصطفاة استطاعت أن تكون مرآة تنعكس فيها صورة الدين فصار الدين هي وهي صارت الدين- العلم والتعاليم والأحكام والتشريعات- ، فمن غير الممكن أن نسمي أي جهة أخرى تصدر منها هذه التعاليم بأنها دين الله أو أنها مرتبطة بالسماء، وإنما هي خارجة عن دائرة الدين الحق، ولا تمثل الدين؛ بل أن كل جهة ملزمة بالتسليم للدين الواحد والرجل الواحد، وهو الرجل الذي يوحى إليه في كل زمان والذي لا يخلو منه زمان.

ولذلك نحن نناقش هذا الموضوع ليس على مستوى إثبات أحقية الأئمة (ع)؛ بل كل خلفاء الله (ع) في قيادة المجتمع الإنساني ككل بقدر ما نناقشه على مستوى علة الاختيار الرباني لهم وعلاقته بالمشروع الإلهي وعلة حصر منظومة الدين بهم (ع) وبكل حيثياتها، وامتناع أن يكون لغيرهم أدنى نسبة من مهمة تمثيل الدين، وقد دأبنا خلال معظم عناوين البحث أن يكون موضوع الوحي هو الفاروق بين هذه المجموعة المقدسة وبين كل المدعين لتمثيل الدين بكل أشكالهم.

---

١. قال علي بن الحسين عليهما السلام (نحن أولى الناس بالله عز وجل) (ونحن أولى بكتاب الله، ونحن أولى بدين الله) ونحن الذين شرع الله لنا دينه، فقال في كتابه (شرع لكم من الدين - يا آل محمد - ما وصى به نوحا - فقد وصانا بما وصى به نوحا - والذي أوحينا إليك - يا محمد - وما وصينا به إبراهيم - وإسماعيل وإسحاق ويعقوب - وموسى وعيسى - فقد علمنا وبلغنا ما علمنا واستودعنا [علمهم]، فنحن ورثة الأنبياء، ونحن ورثة أولي العزم من الرسل - أن أقيموا الدين - يا آل محمد - ولا تتفرقوا فيه - وكونوا على جماعه - كبر على المشركين ما تدعوهم إليه - من ولاية علي عليه السلام - إن الله - يا محمد - يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب) من يجيبك إلى ولاية علي عليه السلام) [تأويل الآيات- شرف الدين الحسيني: ج٢ ص٥٤٣-٥٤٤].

٢. الشورى: ٢١.

الفصل الأول

مراتب الغيب وعلاقتها بالخلق

العلاقة بين الله وخلقه

أما العلاقة بين الله وخلفاءه (ع) فهي علاقة الخالق المطلق وخلقه الذين تفضل عليهم وأوجدهم، فكلهم محتاجون إليه مفتقرون للحول والقوة، لكنهم تمايزوا بالرتب والقرب والبعد منه سبحانه وفقا لدرجة إخلاصهم.

فالرسول أو الرجل الإلهي قبل الوحي كأي إنسان من جهة وكرسول مكلف بتبليغ الرسالة بعد نزول الوحي من جهة، والله سبحانه يتعامل معه كمخلوق ضعيف لا يقدر على شيء إلا بحوله وقوته، وأن الله سبحانه يجد هذا الشعور يتملك هذا الرجل ويعرف منه هذا الإخلاص واللجأ إليه فيختاره، أما لماذا يخاطبه خطاب السيد للعبد، أو خطاب الخالق للمخلوق فهذا هو الأصل، ولذلك فإن أكثر الرسل والأنبياء خوفا من الله هم من عرفوه بهذا المقدار، أو بمقدار العدم أمام الوجود الحقيقي.

فالله سبحانه خاطب أقرب الناس إليه وأكثرهم إخلاصا وعبودية بهذا النمط من الخطاب الغليظ والشديد في طبيعته ومفرداته التي يعرفها الناس، ليكون أبلغ رسالة لهم تربيهم على العبودية والانقطاع لله سبحانه والإقرار بوحدانيته وفردانيته وسلطانه، ولعلها رسالة لمن تسول له نفسه الأمارة ويرى لها وجودا وظهورا أمام الوجود الحقيقي لله سبحانه، عندما ينسى فقره وجهله المطلق ويدعي الألوهية فيحسب نفسه عالما وعارفا ويتحدى ألوهية الرب ويدعي مقاما، وهو بالنتيجة كمن يقول أوحي إلي إما قولا أو فعلا.

عن أبي بصير عن أبي جعفر (ع): "ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شئ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله" قال: (من ادعى الإمامة دون الإمام عليه السلام)[١].

جاء في الإنجيل: (لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم، إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب، لأن كل ما في العالم شهوة الجسد وشهوة العيون، وتعظّم المعيشة، ليس من الآب بل من العالم..)[٢].

ورد هذا المعنى في القرآن وفي روايات أهل البيت (ع): (أخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها ابدانكم)[٣].

ابن عيينة عن أبي عبد الله (ع) قال سألته عن قول الله عز وجل: "إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" قال:(السليم الذي لقى ربه وليس فيه أحد سواه)[٤].

---

١. تفسير العيّاشي: ج١ ص٣٧٠،عنه في البرهان: ج٢ ص٤٥٣، بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٥ ص١١٣.

٢ .الكتاب المقدس - رسالة يوحنا الرسول الأولى: ٢:١٥.

٣. نهج البلاغة - خطب الإمام علي (ع): ج٢ص١٨٣.

٤. الكافي - الكليني: ج٢ص١٦.

(وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)[١].

هذا خطاب الله سبحانه إلى ابراهيم واسماعيل (ع) وهو بحسب تفسير الظاهر "أن لا يدخل العبد إلا وهو طاهر، قد غسل عنه العرق والأذى وتطهر" ولكن ما فائدة طهارة الظاهر قبل أن يتطهر الباطن؟!

وهو ما نريد إبرازه في هذا المبحث ومدى علاقته بالمعنى الباطن للنص، وهو أصله وحوله يتمحور مراد الله، لعلاقته بالقلب والروح قبل أن يكون متعلقا بالبدن.

ورد في الحديث القدسي: (لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن)[٢].

وقلب محمد (ص) هو من كان مصداق هذا المعنى فمحمد (ص) كان تجلي الله في الخلق.

فالمعادلة التي تربط القرب والبعد من النور أو من الله سبحانه هي مقدار المساحة التي يشغلها القلب من حب الله وحب الدنيا؛ لأنها تشكل حجابا يمنع الولوج في عوالم الملكوت صعودا في مراتبها والاقتراب من مصدر الفيض أو الوحي أو كلام الله، باعتبار أن الله يتكلم على الدوام، وكذلك كثيرا ما جاء عن عيسى (ع) فإنكم لا ترون ملكوت السموات، فلا تدخلون ولا تدعون الداخلين يدخلون.

فالمفروض أن فطرة الله التي فطر الناس عليها أن تكون صفحة وجود الإنسان مستعدة لاستقبال الوحي، وهذا يتعلق بمقدار انشغال الإنسان أو قلبه بالغيب وخلوه عن ما سواه؛ لأن كل ما سواه هو الوهم؛ بل كل ما سواه سيكون الحجاب الذي يحجب نفس أو روح الإنسان عن الوحي، وهذا ما استطاع خلفاء الله من تحقيقه وكل بحسبه.

وأقول كل بحسبه باعتبار التفاضل في مراتب ودرجات خلفاء الله بحسب قاعدة أن الإخلاص الذي هو بمثابة درجة خلو قلب الإنسان ونفسه عن ما سواه، أو الالتفات إلى الأنا على حساب الانشغال بالله، وأن لا يرى سواه عز وجل قبل وفي وبعد كل شيء، وهذا ما يفسر تفاضل الأنبياء والرسل والأئمة (ع) في الدرجات والقرب من مصدر الفيض من جهة، وسعة صفحة وجودهم لاستقبال رسائل الوحي وما يحمله الوحي من جهة أخرى، ومن هذا نعرف لماذا كان محمدا (ص) حجاب الله ومصدر استقبال الفيض الأول من الله ووصوله لأقرب نقطة ممكنة للمخلوق منه سبحانه وهيمنته على كل العوالم وعلى كل الكتب السماوية، وهي محتوى الوحي النازل منه سبحانه بمراتب مستقبل الوحي كعيسى وموسى (ع).

ولذلك قال السيد أحمد الحسن الإنجيل والتوراة أجزاء من القرآن؛ لأنها تمثل مقدار إخلاص عيسى وموسى (ع) بمرتبة أدنى من محمد (ص) فالتوراة قرآن أو جزء من القرآن بمقدار ما تتحمله صفحة وجود موسى (ع) والإنجيل قرآن أو جزء من القرآن بمقدار ما تتحمله وتسعه صفحة وجود عيسى (ع).

وهذا يفسر لنا جدلية العلاقة بين عالم المادة وبين عوالم الغيب والملكوت والتراتب الذي يشكل السلسلة الطولية للمخلوقين بحسب تدرجهم من نقطة الفيض الأول نزولا إلى أسفل دركات العالم الظلماني، وهو يمثل

---

١. البقرة: ١٢٥.

٢. عوالي اللئالي - ابن أبي جمهور الإحسائي: ج٤ص٧.

أعلى درجات الاستغراق في هذا العالم، والذي ليس له حظ من الوجود الحقيقي بل هو العدم بعينه، وما دعوات الأنبياء والرسل (ع) إلا لتخليص الإنسان من علائق هذا العالم، وتجريده من الحجب الظلمانية حتى يسمع كلام الله ويتخلص من براثن عالم الظلمة، ويصعد إلى عالم النور فيصبح قادرا على سماع كلمات الله والوحي.

فالإنسان بحسب الفطرة مخلوق ليكون صورة الله؛ أي تنعكس في صفحة وجوده أسماء الله.

روي في الحديث عن النبي (ص) ما معناه: (إن الله خلق آدم على صورته)[١].

يقول السيد أحمد الحسن بخصوص هذا المعنى: (أي إن آدم (ع) أو الإنسان قابل لتحصيل الكمالات الإلهية بأقصى ما يمكن للممكن، أو قل المخلوق وإن لم يصل آدم (ع) إلى القاب قوسين أو أدنى، فقد وصل من ذريته المصطفى المصفّى محمد (ص)، والتفت إبليس (لعنه الله) إلى شيء من هذه الحقيقة، لكنه تمرّد ولم يسجد مع الملائكة وأخلد إلى الأرض، فنظر إلى مادة آدم (ع) التي خلق منها جسمه وقاسها بالطاقة أو النار التي خُلق هو منها، فاستنبط أنّ الطاقة أشرف من المادة، وتغافل عن حقيقة آدم (ع) وقربه من الله)[٢].

فإبليس لم يسجد؛ أي لم يقبل أن يكون تابعا لمن اتصل بالوحي وسمع خطاب الله وكلامه سبحانه بعد أن فقد فرصته لذات السبب، وهو الأنا وانشغاله بوجوده دون انشغاله بالله سبحانه، وترك الانشغال هو صورة لإفراغ صفحة وجوده من النظر والالتفات إليها حتى تكون قابلا ومستقبلا لوحي الله، وهذا كل ما يربط المخلوق به سبحانه باعتباره الجهة المفتقرة وغير المستغنية عن هذا الفيض، وهو سبب وجوده في كل العوالم.

الحجب النور انية والظلمانية

حتى نعرف أصل الجهة التي انطلق منها الوحي وما يحيطها من نُظُم قدّرها الحكيم الخبير، وماهي اللوازم التي تقتضي توافرها ووجودها؟ وبأي كيفية؟ ولماذا اقتضى مرور الوحي، أو نزوله في مقامات تواجدت وتحققت فيها صفات خاصة جدا تعطي لمن توافرت فيه الأهلية لاستقباله واحتواء رسالته؟

حقائق ومعطيات قرآنية وروائية تعرض للكثير من أسرارها وبيانها السيد أحمد الحسن (ع)، وأن السبب وراء جهلنا بتلك الحقائق هو وقصورنا وتقصيرنا .

وكشف عن الكثير من خفايا وخبايا تلك العوالم النورية - التي سنسلط الضوء على الكثير من معانيها خلال البحث- والتي كانت في طي الكتمان طيلة القرون المتمادية، فلا بد أذن أن نمر بهذه الصفحات النورية المشرقة لما لها من علاقة وطيدة بموضوع الوحي؛ بل أن فهمها قرين معرفة جوهر موضوع الوحي وما تمخض من مصائب ألمّت بالدين والعقائد الحقة جراء جهلها من قبل الذين تبرعوا للكلام فيها.

الحِجَابُ: كُلُّ مَا حَالَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، جَمْعُهُ حُجُبٌ.

---

١. عيون أخبار الرضا(ع): ج٢ ص١١٠، مسند أحمد: ج٢ ص٢٤٤، صحيح البخاري: ج٧ ص١٢٥.

٢. كتاب العجل - السيد أحمد الحسن: إبليس يتوعد.

إذَا ما غَضِبْنَا غَضْبةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنَا حِجابَ الشَّمْسِ أَوْ مَطَرتْ دَما، قال: حِجَابُهَا: ضَوْؤُهَا أَوْ: نَاحِيَةٌ مِنْهَا وفي حَدِيثِ الصَّلاَةِ" حينَ تَوَارَتْ بالحِجَابِ" الحِجَابُ هُنَا الأُفُقُ يريد: حِينَ غَابَتِ الشَّمْسُ في الأُفُقِ واسْتَتَرَتْ بِه ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى" حَتَّى تَوَارَتْ بالحِجَابِ"[١].

دعاء النبي (ص): (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا مَنِ احْتَجَبَ بِشُعَاعِ نُورِهِ عَنْ نَوَاظِرِ خَلْقِهِ)[٢].

فعظمة جلال الله لا يطيقها أو يتحملها ويستقلها مخلوق، ولكن لما أراد سبحانه أن يُعرف خلق الخلق لكي يُعرف، فخلق العقل الأول أو النور الأول والقابل الأول والأكمل فصار حجاب الله[٣]، فنستطيع أن نقول هو الحجاب الأول وبعده علي (ع) وفاطمة (ع) ثم الأئمة والمهديين والرسل والأنبياء (ع)، فكانت هذه الأنوار القدسية حجب نورية تتفاضل بحسب إخلاصها وخلو صفحة وجودها من ظلمة الأنا.

يقول السيد أحمد الحسن:

(الحجب الظلمانية هي جنود الجهل التي ذكرها الإمام الصادق(ع) والأخلاق الذميمة و الأنا المغروسة في فطرة الإنسان فكلما زادت الأنا عند الإنسان زادت هذه الحجب، وكلما قلت الأنا عند الإنسان قلت هذه الحجب فهذه الحجب منشؤها الظلمة والعدم والمادة وهي ليست إلا سلب لكل خير.

أما الحجب النورانية فهي كلمات الله سبحانه وتعالى والفيض النازل منه سبحانه إلى خلقه ولها حال في كل مقام، ولكل إنسان سالك الطريق إلى الله سبحانه وتعالى فهي بالنسبة لخير الخلق محمد(ص) القرآن أو الحجاب الذي يخفق كما ورد في الرواية عن الصادق (ع) قال: (فأوقفه جبرائيل موقفاً فقال له مكانك يا محمد - أي هذا هو مقامك فجبرائيل لا يستطيع الوصول إلى مقام النبي (ص) فأشار له بالعروج إلى مقامه (ص) - فلقد وقفت موقفاً ما وقفه ملك قط ولا نبي إن ربك يصلي، فقال: يا جبرائيل وكيف يصلي؟ قال: يقول سبوح قدوس أنا رب الملائكة والروح سبقت رحمتي غضبي فقال (ص): اللهم عفوك عفوك. قال(ع): وكان كما قال الله: ﴿قاب قوسين أو أدنى﴾، قيل: وما قاب قوسين أو أدنى؟ قال(ع): ما بين أسنتها إلى رأسها، قال (ع): وكأن بينهما حجاب يتلألأ ويخفق، ولا أعلمه إلا وقد قال: زبرجد، فنظر في مثل سم الإبرة إلى ما شاء الله من نور العظمة فقال الله تبارك وتعالى ...)[٤].

وهذا الحجاب الزبرجد الأخضر الذي يخفق هو إشارة إلى حجب الظلمة وحجب النور وارتفاع حجب الظلمة بالفتح في مثل سم الإبرة وارتفاع حجب النور بالخفق الحاصل للحجاب، فحجب الظلمة تخرق بالتخلي عن جنود الجهل و الأنا، وحجب النور يحتويها الإنسان ويفنى فيها عندما يتحلى بجنود العقل والأخلاق الكريمة، وهكذا الإنسان في مسيرته التكاملية يسعى إلى أن يصل إلى رفع الأنا عن صفحة وجوده والتحلي بجميع جنود العقل وهذا

---

١. لسان العرب - ابن منظور: ج١ ص٢٩٩.

٢. البلد الأمين والدرع الحصين - الكفعمي العاملي: ج١ ص٣٧٥.

٣. عن بريد العجلي قال: سمعت أبا جعفر (ع) يقول: (بنا عبد الله، وبنا عرف الله، وبنا وحد الله تبارك وتعالى، ومحمد حجاب الله تبارك وتعالى) [الكافي- الكليني:ج١ ص١٤٥].

٤. تفسير الصافي: ج٥ ص٨٤.

هو الفتح المبين ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾[١]، وهذا هو المقام المحمود الذي وصل إليه الرسول الكريم محمد (ص) وقد تجلى في هذا المقام الله سبحانه وتعالى لمحمد (ص) في آنات: (وكان بينهما حجاب يتلألأ ويخفق) أي إن الحجاب يرتفع في آن ويعود في آن آخر، وحال ارتفاعه لا يبقى محمد (ص) بل يفنى ويحترق ولا يبقى وجه الله محمد (ص)، بل لا يبقى إلا الله الواحد القهار.

والحديث أعلاه المروي عنهم (ع) لا ينفي الكشف لحجب الظلمة والنور مطلقاً، بل ينفي الكشف التام الدائم، أما الكشف التام في آنات فهو حاصل لمحمد (ص) وهو (ص) يخفق مع خفق الحجاب والكون كله يخفق مع محمد (ص) ولو قرأت القرآن لخفقت مع خفقه ذهاباً ومجيئاً دون قصد منك لهذا الفعل، بل كأنك مضطر إليه)[٢].

فالكلام عن الحجب متعلق بالمعرفة وهي علة وجودنا، والدين برمته قائم على أساس المعرفة، أما الحجب النورية فهي مقامات خلفاء الله ابتداءً من الحجاب الأول الذي يستقبل العلم من الله سبحانه وتعالى ونزولا بحسب تفاضلهم (ع)، وهذه المقامات هي مراتب في كل العوالم ولها تجل في هذا العالم الجسماني يمثل وجودهم المبارك بين الناس ينقلون العلم للقوابل كل بحسبه أي بحسب استعداده[٣]، وأن هذه الحجب النورية المباركة نالت هذه المقامات لخلو صفحة وجودها من الأنا بالمقدار الذي يكاد أن يكون معدوما بنسبة مرتبة وجودهم في ذلك المقام، وهذا هو سبب اختيارهم (ع) فقد واجهوه سبحانه بالفقر حتى فاض عليهم وأغناهم بالعلم، فصاروا مختصين بنقل العلم الإلهي وبيانه للناس وأعطاهم مفاتيحه.

يستطرد السيد أحمد الحسن في بيانه لأصل الحجب النورانية وحجب الظلمة وكيف نتخلص من حجب الظلمة التي هي أصل داء الجهل، وهو علة اجتراء المتبرعين الذين أقحموا أنفسهم وبادروا في تفسير لغة النور وهم بعدُ غارقون في الظلمة، وهذا أمر ممتنع بالأصل مالم يضطلع به حامل العلم الحقيقي والعارف بلغة السماء الذي يبدد هذه الظلمة بالعلم وبنور الوحي الإلهي.

وقد ورد في الدعاء (اللهم صل على محمد حجتك في أرضك، وخليفتك في بلادك، والداعي إلى سبيلك والقائم بقسطك، والثائر بأمرك، ولي المؤمنين، وبوار الكافرين، ومجلي الظلمة ومنير الحق، والناطق بالحكمة والصدق..)[٤].

(النور أو الحجب النورانية هي من الله سبحانه وتعالى وحجب الظلمة من المادة أو العدم والمخلوقات وجدت بإشراق النور في الظلمة، أو قل تجلي النور في الظلمة والاختلاط الحاصل بين النور والظلمة ليس بمعنى اختلاط مجانسة بل هو اختلاط تجلٍ وظهور، كما قال أمير المؤمنين (ع) ما معناه: (داخل في الأشياء بلا مجانسة وخارج منها بلا مزايلة.... ترفع حجب الظلمة والنور بالسعي إلى الله سبحانه وتعالى وتحصيل رضاه، وترفع حجب الظلمة

---

١. الفتح: ١.

٢. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٢ س٢٨.

٣. (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا)[الرعد:١٧]، قال رسول الله (ص): (أمرنا معاشر الأنبياء أن نخاطب الناس على قدر عقولهم). [بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٥ص٣٨٤].

٤. بحار الأنوار - المجلسي: ج٩١ ص٤.

خاصة بالتخلي عن جنود الجهل والأخلاق الذميمة وبالابتعاد عن الأنا وتركها، وترفع حجب النور بالعلم والمعرفة والتحلي بجنود العقل والأخلاق الكريمة وتسلق سلم الصعود إلى المقامات القدسية في الملأ الأعلى)[١].

الألوهية والربوبية

شرق المفسرون وغربوا بخصوص معنى هذين العنوانين المرتبطين ارتباطا وثيقا بمعرفة حدود التوحيد، ووقعوا بأخطاء جسيمة ترتبت عليها مفاسد عقائدية جمة ومنها ما يتعلق بالوحي وفي أي مرتبة بدأت حالة الوحي وكيف، ونحن لسنا بصدد مناقشة تهافت الأقوال والتفاسير، وإنما هي محاولة للتأسيس الصحيح ووضع لمقدمات مهمة نستفيد من مخرجاتها عندما نحاكم المنهج العقلي بميزان القرآن والمقدسين الذين أوحي إليهم، وبيان الفرق بين معرفة الحقيقة المطلقة ومعرفة المقامات الممكنة للمخلوق وبأي ميزان توزن هذه المعرفة وعلى أي خصيصة يتم تصنيفها.

(فالألوهية والربوبية كلاهما تحكيان العلاقة بين الغني والفقير، أو بين الكامل والناقص من حيث سد فقر الفقير وتكميل الناقص، ولكن الفرق أن الربوبية ناظرة من الأعلى إلى الأدنى؛ أي من الغني الكامل إلى الفقير الناقص من المُربي (الرب) إلى المُربى (المربوب)، أما الألوهية فبالعكس أي من الأدنى إلى الأعلى، من الفقير الناقص إلى الغني الكامل من الذي يتأله إلى الإله الذي يؤله إليه.

فالربوبية تشير إلى غنى وكمال الغني الكامل، بينما الألوهية تشير إلى فقر ونقص الفقير الناقص، ولذا واجه سبحانه وتعالى خلقه وتجلت حقيقته بالألوهية للعباد ليُعرف، فيَعرِف الخلق غناه وكماله وهم يتألهون إليه ليسد فقرهم ويكمل نقصهم)[٢].

في دعاء أيام رجب المروي عن الإمام المهدي (ع): (... أسألك بما نطق فيهم من مشيتك فجعلتهم معادن لكلماتك وأركاناً لتوحيدك وآياتك ومقاماتك، التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفك بها من عرفك، لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك ..)[٣].

هذه المقامات التي يتعلق وجودها في كل مكان وفي كل عالم بوجود الخلق والعوالم، ولولاها لما كان الذي كان من الخلق والوجود، وأبرز مصداق لها في عالمنا ما دلت عليه روايات أهل البيت (ع) بأن الأرض لا تخلو من حجة ولو خليت لساخت بأهلها[٤]، ومعرفته سبحانه لا تتم ولا تنال إلا بمعرفة هذه المقامات.

أما مسألة الفرق بين هذه المقامات وبين الله سبحانه فتعتمد معرفته على معرفة العلة من وجود هذه المقامات، وهي المعرفة، وليست المسألة ناضرة إلى الفرق التكويني أو ما شابه، ولكن هذه الكيانات القدسية كانت

---

١. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٢ص٢٨.

٢. التوحيد - السيد أحمد الحسن: تجلي الألوهية في الخلق للخلق، هامش ٢٣٥.

٣. إقبال الأعمال - السيد ابن طاووس: ج٣ص٢١٤، مصباح المتهجد - الشيخ الطوسي: ص٨٠٣، بحار الأنوار- المجلسي: ج٩٥ص٣٩٣.

٤. عن أبي حمزة قال: قلت لأبي عبد الله (ع): أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال:(لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت) الكافي- الكليني: ج١ص١٧٩.

محلا لتجلي أسمائه سبحانه، وكانت تدين له بالفقر المطلق، فكل ما نزل بساحتها من النور أو العلم فمنه سبحانه.

أما لماذا تعددت مراتب هذه المقامات؟ فأمره يؤول إلى درجة إخلاص وصفاء مرآة كل مقام، والتي كان محمداً(ص) مصداقها الأول ومقامها الأول، ومنها يمكن أن نعرف من أين بدأت مسألة الوحي.

وبهذا المعنى قال السيد أحمد الحسن: (أقول: وحتى هذه الكيانات القدسية (محمد وآل محمد (ع)) ليست كفواً له سبحانه وتعالى وإنما هي دونه بالكثير، فهي لا تقاربه فضلاً عن أن تكون مساوية له وإن كانت حاكية لجهات كماله سبحانه وتعالى، في الزيارة الجامعة: (... السلام على محال معرفة الله، ومساكن بركة الله، ومعادن حكمة الله وحفظة سر الله، وحملة كتاب الله، وأوصياء نبي الله، وذرية رسول الله ورحمة الله وبركاته، السلام على الدعاة الى الله، والأدلاء على مرضاة الله، والمستقرين في أمر الله، والتامين في محبة الله، والمخلصين في توحيد الله، والمظهرين الامر لله ...)[١].

فأصل الخلق والغاية من الوجود هو العبادة أو المعرفة وعليها دار كل ما يتعلق بين العبد وربه، وبحسبها تشكلت طبيعة ودرجة التواصل والتي بدأت بالوحي.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢].

ورد في الرواية عن أهل البيت (ع) أي يعرفون[٣]، فما المراد بهذه المعرفة، وكيف تتم؟

يقول السيد أحمد الحسن: (المعرفة أي معرفة الله سبحانه وتعالى، وتتم هذه المعرفة من خلال العبودية، فبالعبودية يعرجون إلى الربوبية، وبالربوبية يعرفون الربوبية. فكيف تعرف النار إلا أن تكون أنت ناراً، فلا يعرف العبد بالعبودية الربوبية، إلا أن يكون رباً، أي أن يكون وجه الله سبحانه وتعالى، فالربوبية لا تُعرف بالعبودية، إنما حصيلة العبودية هي معرفة الربوبية)[٤].

لذلك فإن جهل المدعين للعلم بالدين والكتب السماوية بهذه الموارد المعرفية الخطيرة والتي تمس أصل الدين و جوهر التوحيد دفع بهم ليقدموا صورة للدين والتوحيد مقلوبة تماما؛ لأنهم غيروا المسار المعرفي الموصل للتوحيد الحقيقي[٥].

---

١. التوحيد - أحمد الحسن: ص٣٥.

٢. الذاريات: ٥٦.

٣. عن الصادق (ع) قال: (خرج الحسين بن علي عليهما السلام على أصحابه فقال: أيها الناس إن الله جل ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه وإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه، فقال له رجل: يا بن رسول الله بأبي أنت وأمي فما معرفة الله؟ قال: معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي تجب عليهم طاعته) [علل الشرائع- الصدوق: ج١ ص٩].

٤. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٣ سؤال٧٣.

٥. يقول السيد أحمد الحسن: (سبحانه وتعالى أن تكون الألوهية أو الربوبية كنهه وحقيقته، بل هما صفاته سبحانه وتعالى فهو الله الذي يأله له الخلق ليكملوا ويدفعوا النقص عن صفحات وجودهم، وهو الرب الذي يفيض على خلقه الكمال ويسد نقصهم. ولكن أبداً ليست الألوهية أو الربوبية هي كنهه وحقيقته، بل هو سبحانه وتعالى تجلى لخلقه الفقراء بالكمال المطلق، فكان هو الإله

العقم المعرفي أمر طبيعي لمن لم يعثر على مفاتيح المعرفة ومن أين تؤخذ، والأمر المثير للعجب عندما يدعي أناس أنهم يمتلكون المعرفة بالدين ويعطون لأنفسهم خاصية تمثيل الدين وهم لا يفرقون بين العابد والمعبود ولا يفرقون بين الخالق المطلق والإله المطلق وبين صورته وتجليه في الخلق.

يوضح السيد أحمد الحسن حقيقة مقام الربوبية والألوهية وتعدد مصاديقها: (إذن، فالألوهية بالمعنى العام - أي كونها تعني الكامل الذي يألّه له غيره ليكمله، ويسد نقصه - تشمل خاصة من خلقه سبحانه وتعالى حصل لهم الكمال في أعلى الدرجات الممكنة للخلق، وأمر الخلق مفوض إليهم بدرجة معينة (السلام عليكم يا أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي ..... وبقية الله ..... ونوره ..... وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم ..... وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) (الزيارة الجامعة)، وهم محمد وآل محمد (ع)، فكما ورد رب الأرباب ورد إله الآلهة، وورد الإله الأكبر في الدعاء المروي عنهم (ع)، قال (ع): (قل وأنت ساجد: يا الله يا رحمن [يا رحيم] يا رب الأرباب وإله الآلهة .....)[١].

وعن أبي عبد الله (ع)، قال: (..... قل يا رب الأرباب، و يا ملك الملوك، و يا سيد السادات، و يا جبار الجبابرة، و يا إله الآلهة، صل على محمد وآل محمد وافعل بي كذا وكذا .....)[٢].

وفي الدعاء القدسي: (..... بسم الله مخرجي ..... توكلت على الإله الأكبر، توكل مفوض إليه .....)[٣].

المطلق - الله سبحانه وتعالى - الذي يألهون إليه لسد نقصهم، وتجلى لخلقه الفقراء بالربوبية، فأفاض على نقصهم الكمال ليعرفوه ويعبدوه، فالعبادة دون معرفة فارغة عن المعنى فضلا عن الحقيقة.

وبما أنّ غاية معرفة الحقيقة هو: معرفة العجز عن معرفة الحقيقة، فقد تجلى سبحانه وتعالى لخلقه بالألوهية التي هي الكمال المطلق المواجه لنقصهم، والذي يحثهم على التألّه إليه، وبالتالي تحصيل المعرفة في هذه المرتبة التي تؤهلهم إلى معرفة العجز عن المعرفة في مرتبة الحقيقة.

فالألوهية غنى وكمال مقابل للفقر يدفع الفقراء أن يألهون إليه ليفيض عليهم الكمال، فيعرفونه بالألوهية وهم يألهون إليه ويعرفونه بالربوبية وهو يفيض عليهم الكمال، إنّ عدم التمييز بين الألوهية وبين الحقيقة جعل الأمور تختلط على كثير ممن يدعون العلم والمعرفة، هذا فضلاً عن أنّ كثيراً من هؤلاء لا يكادون يميزون بين الألوهية والربوبية، حتى نجد اليوم وبوضوح تام عجز من يدعون أنهم علماء الإسلام طوال أكثر من ألف عام عن بيان معنى لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[الأنعام:١٥٨].

فهم بين من يضيف كلمة للآية ويحرفها بهواه وكأنّه سبحانه كان عاجزاً تعالى علواً كبيراً عن إضافة هذه الكلمة، وبين من يقول بجواز الإتيان على الله سبحانه وتعالى، وهكذا هم كحاطب ليل لا يعلم أين يقع فأسه، فهم بين نارين نار: أن يقولوا بأن الله يأتي ويذهب، فينزلوه منزلة المخلوق المحتاج للمكان والحيز أو وسط الانتقال، وبين أن ينفوا عنه الإتيان والذهاب بتحريف الآية وادعاء أن هناك محذوفاً فيها، وبهذا فهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه وعن مواضعه دون خوف منه سبحانه و يا لها من جرأة.

أما المسيحيون، فقد جعلوا الآتي على السحاب المذكور في التوراة والإنجيل هو عيسى (ع)، واعتبروا أن عيسى (ع) هو الله سبحانه وتعالى.)، وجعلوا اللاهوت المطلق تجسد بجسد في هذا العالم، وبهذا أعلنوا فقره وحاجته ونقضوا ألوهيته المطلقة تعالى الله علواً كبيراً)[التوحيد - السيد أحمد الحسن: مقدمة الكتاب].

١. الكافي - الكليني: ج٢ ص٥٦٦، مستدرك الوسائل- الميرزا النوري: ج٢ ص٨٧.

٢. الكافي - الكليني: ج٢ ص٣٢٣.

٣. إقبال الأعمال - السيد ابن طاووس الحسني: ج٢ص١٩٨.

في الحديث القدسي: (..... يا محمد من أراد الخروج من أهله لحاجة في سفر فأحب أن أوديه سالماً مع قضائي له الحاجة فليقل حين يخرج: بسم الله مخرجي وبإذنه خرجت وقد علم قبل أن أخرج خروجي وقد أحصى بعلمه ... توكلت على الإله الأكبر الله .....)[١].

(وقطعاً ليس المقصود الآلهة الباطلة التي لاحظ لها من الكمال أو من ألّه نفسه من الخلق بالباطل، بل المقصود هنا من اتصفوا بصفة اللاهوت أي إنهم على درجة عالية من الكمال فيألّه لهم بقية الخلق ليسدوا نقصهم فهم صورة الله سبحانه، فإله الآلهة، والإله الأكبر تعني: أن هناك من اتصفوا بصفة اللاهوت من حيث إنهم على درجة من الكمال تؤهلهم أن يألّه لهم بقية الخلق لطلب الكمال، ولكنه سبحانه لا يقرن بهم لأنه غني وهم فقراء محتاجون إليه سبحانه وتعالى.

قال (ص): (لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل)[٢] وقالوا (ع) أيضاً: (لنا مع الله حالات هو فيها نحن ونحن هو، وهو هو ونحن نحن)[٣].

وهذا المعنى موجود في القرآن ورد في تفسير القمي حول خروج القائم(ع) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾([الأنبياء: ٢٩])، قال (ع): (من زعم أنه إمام وليس هو بإمام)[٤])[٥].

لما كانت الألوهية تعبر عن الرجوع لإله لسد النقص وطلب الكمال فهي مدارج ومراتب، ولكن باعتبار أن مصدر الكمال ومبتدأ الفيض هو الله سبحانه إذ لا خلق ولا مخلوق، ثم بعد أن أفاض سبحانه على خلقه نوره وعلمه فتحت صفحة الألوهية بمراتبها المخلوقة.

فالألوهية بحسب نسبتها يمكن أن تقسم إلى قسمين:

الألوهية المطلقة

كل المعاني التي تنعقد على علاقة العبد وخالقه فهي بالأصل بين طرفي الخالق والمخلوق كالإله والرب، ولكن هل يمكن أن تنطبق هذه التسميات على غير الله سبحانه فيسمى ربا وإلها؟ هذا ما وقع في شراك توهمه رجال الدين والمفسرين؛ لأنهم عاجزين عن إدراك هذه العلاقة بالرغم من كونها تمثل محور المعرفة المطلوبة وصميم العبادة الحقة.

(والألوهية والربوبية غير مختصة به سبحانه، بل المختص به سبحانه هو الألوهية المطلقة والربوبية المطلقة. والفرق واضح بين الربوبية عموماً والتي تشمل حتى الأب، فيقال عنه: رب الأسرة؛ باعتبار أنّه يربّي أبناءه ويكملهم، وبين الربوبية المطلقة التي لا تشمل إلاّ الغني الذي لا يفتقر إلى غيره، فهي منحصرة به سبحانه، وكذا الألوهية،

---

١. مستدرك الوسائل - الميرزا النوري: ج٨ ص١٣٣.
٢. بحار الأنوار - المجلسي: ج٨ ص٣٦.
٣. الكلمات المكنونة - الفيض الكاشاني: ص١١٤.
٤. تفسير القمي: ج٢ ص٦٨.
٥. التوحيد - السيد أحمد الحسن: ص٣٩-٤٠.

بل إنّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليكون خليفته الكامل، وهو لا يكون كذلك إلاّ إذا تحلّى بكل صفات الألوهية وتجلّت فيه (أي كما ورد عن رسول الله (ص): (أحصى أسماء الله))[١].

فالألوهية المطلقة هي الألوهية التي لا تحتاج إلى مصدر ترجع إليه؛ بل هي مصدر الفيض وبفضلها ينعم ذوو المقامات؛ بل بفضلها خلقوا.

الألوهية المقيدة

كل صفة مشتركة بين الخالق والرب المطلق سبحانه يتصف بها خلفاءه(ع) تحمل نفس العنوان لكنها تكون مقيدة ونسبية؛ وقيدها ونسبيتها تتعلق بالنور المطلق ونسبة الظلمة الموجودة في صفحة وجود خليفة الله، والتي لم يتخلص منها أقرب وأشرف خلفاء الله وسيدهم محمد (ص)، والذي كان قاب قوسين أو أدنى فوصفه سبحانه في سورة النور ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾[٢].

وفي بيان السيد أحمد الحسن مقام محمد (ص) وعلي وفاطمة (عليهما السلام) في الآية : (كما أنهم (ع) يمثلون تجلي نور الله سبحانه وتعالى في الظلمة، وأعني بالظلمة العدم القابل للوجود، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾. فهم (ع) مَثَل نور الله)[٣].

فشائبة الظلمة[٤] والوجود موجودة بهذا القدر في صفحة وجود محمد (ص)؛ أي يكاد زيتها يضيء. فهو (ص) إله ويتصف بالألوهية نسبة لما دونه وفي نفس الوقت هو الفقر المطلق بالنسبة له سبحانه.

(فمحمد هو مَن عرَف الله وعرَّف الخلق بالله ولم تتم المعرفة إلا من باب محمد وهو علي، ومحمد هو البرزخ بين الحق والخلق (يخفق بين الإنسانية والفناء في الذات الإلهية)، وعلي هو الإنسان الأول في الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾([الشورى: ٥١])، فالبشر هو علي والحجاب هو محمد، وأيضاً البشر هم الأئمة والحجاب علي والمتكلم محمد أو الله في الخلق، وأيضاً البشر هم الأنبياء والمرسلون والحجاب هم الأئمة والمتكلم علي أو الرحمن في الخلق، قال علي (ع) الإمام الذي ظلمه حتى من يدَّعون موالاته: (أنا أؤدي من النبيين إلى الوصيين، ومن الوصيين إلى النبيين، وما بعث الله نبياً إلا وأنا أقضي دينه وأنجز عداته، ولقد اصطفاني ربي بالعلم والظفر، ولقد وفدت إلى ربي اثنتي عشرة وفادة فعرفني نفسه وأعطاني مفاتيح الغيب)[٥])[٦].

---

١. الجواب المنير - السيد أحمد الحسن: ج٢ س٩٤.

٢. النور: ٣٥.

٣. المتشابهات- السيد أحمد الحسن: ج٢ س٤٥.

٤. شائبة الظلمة؛ أي النسبة التي يفترق بها الإنسان عن النور المطلق أو الله سبحانه، وهي التي تشخص وجوده كمخلوق، ولكن أقل نسبة ظلمة كانت بصفحة وجود محمد (ص) ثم الأمثل فالأمثل.

٥. بحار الأنوار: ج٣٩ ص٣٥٠.

٦. التوحيد- السيد أحمد الحسن: ص٥٤.

فالألوهية المقيدة؛ أي المحدودة نسبة للألوهية المطلقة، ولكنها درجات ومراتب تتعلق بنسبة ظلمة شائبة الوجود الموجودة في صفحة كل خليفة إلهي، أو قل متعلقة بدرجة إخلاصه.

ألوهية خلفاء الله

عندما فشل الخلق أن يكون محلا لنزول الفيض الإلهي أو العلم، ولما قضى الله سبحانه أن يتم المشروع المعرفي كان لابد أن يصل مراده وعلمه إلى الخلق، فاختار أقرب الخلق الذين انعكست أسماءه فيهم محمد (ص) وآل محمد (ع) والأنبياء والمرسلين وأوصياءهم (ع) فكانوا محلا لتجلي صفاته وأسماءه ليكونوا لاهوتا وأربابا يلجأ إليهم الخلق ليسد نقصه فيفيضون عليهم مما نزل في ساحة وجودهم، ورُتب هذه الألوهية تتدرج بحسب مقاماتهم(ع) وقربهم من الله، وبالتالي فألوهيتهم مفوضة من قبل الله بما يضمن نجاة المكلفين.

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[١].

فهذا إقرار واضح بوجود آلهة، ولكن ألوهية مرتبطة بالإله المطلق سبحانه، فألوهيتهم هي الألوهية التي تناسب الخلق من جهة وهي تنقل المراد الحقيقي للإله المطلق، فكان الوحي الإلهي لهم هو بمثابة التمثيل الفعلي لإرادة الخالق، وقد علم سبحانه ذلك منهم وزودهم بالعلم الذي يجسد ألوهيتهم بهذا المعنى.

لذلك فإن هؤلاء الذين يدعون العلم والمعرفة ولم تربطهم أي صلة بوحي الله سبحانه فهم بهذه الدرجة نصبوا أنفسهم آلهة من دون الله يعبدون.

عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: ("لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد" يعني بذلك ولا تتخذوا إمامين إنما هو إمام واحد)[٢].

فالإله المقصود هو الإمام الذي تجب طاعته؛ لأنه صورة الله في الخلق والناقل للعلم الإلهي بوحي منه سبحانه، وهذا ما يميزه عن إمام الضلال الذي ليس من الله فيتخذه الناس إلها يرجعون إليه ويأخذون منه دينهم.

عن أبي الجارود، عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله تعالى" أإله مع الله" الآية، قال: (أي إمام هدى مع إمام ضلال في قرن واحد)[٣].

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (ع) قال: قلت له: "اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله؟ فقال: "(أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم ما أجابوهم، ولكن أحلوا لهم حراما، وحرموا عليهم حلالا فعبدوهم من حيث لا يشعرون)[٤].

---

١. الأنبياء: ٢٩.

٢ مستدرك سفينة البحار - الشاهرودي: ص١٧١,

٣. نفس المصدر.

٤. الكافي - الكليني: ج١ ص٥٣.

الفقر المطلق والغنى المطلق

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[١].

الأنبياء والرسل والأئمة يقرون ويعترفون بفقرهم المطلق ويكلمون خالقهم بلسان المحتاج، وهذا هو حالهم الحقيقي مع الله، ولهذا وجدهم الله صفحة بيضاء ناصعة كتب فيها بمداد وحيه ما يريد، وقد ورد هذا المعنى على لسان الأنبياء والرسل والأئمة (ع).

محمد (ص): (إلهي إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، إلى من تكلني يا رب المستضعفين وأنت ربي، إلى عدو ملكته أمري، أم إلى بعيد فيتجهمني، إن لم تكن غضبت عليَّ فلا أبالي ...)[٢].

وعنه (ص): (الفقر فخري وبه أفتخر)[٣].

و موسى (ع): ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[٤].

وعيسى (ع): (أبيت وليس لي شيء، وأصبح وليس لي شيء، وليس على وجه الأرض أحد أغنى مني)[٥].

وهل تتصور أن خطاب موسى (ع) لربه يخص الفقر المادي؟! وأن كل ما يشغل فكره هو تبليغ الرسالة فالأولى أن يكون الخير الذي يقصده موسى (ع) هو النور والحكمة والعلم والرسالة والاختصاص بهذه المهمة من قبل رب العزة والجلال وآخر ما يفكر فيه هؤلاء العظماء هو الفقر المادي .

وهذا علي بن أبي طالب (ع) الذي طلق الدنيا وما فيها وقال عنها كعراق خنزير في يد مجذوم، فأكيد سيكون الفقر الذي يقصده ليس فقرا ماديا :

(..مولاي يا مولاي أنت الغني وأنا الفقير، وهل يرحم الفقير إلا الغني، مولاي يا مولاي أنت المعطي وأنا السائل، وهل يرحم السائل إلا المعطي...)[٦].

وقال (ع): (من أحبنا أهل البيت فليستعد للفقر جلبابا)[٧].

يمكن أن نفهم هذا من وجوه عدة أهمها أن من أحب أهل البيت (ع) سوف لن يركن إلى الدنيا وزخارفها والانشغال في الكسب والتمدد فيها، وإنما سيكون شعاره فيها عيش الكفاف، ومن وجه آخر فأن محب أهل البيت(ع) فهو لهم مطيع وبمنهجهم عامل وعلى طريقتهم يسير، فأكيد سيقر بالفقر الذي يلجئه لطلب العلم وكل

---

١. فاطر: ١٥.
٢. بحار الأنوار - المجلسي: ج١٩ص٢٢.
٣. نفس المصدر: ج٦٩ص٥٥.
٤. القصص: ٢٤.
٥. بحار الأنوار - المجلسي: ج٦٩ ص٣٢.
٦. نفس المصدر: ج٩١ ص١١٠.
٧. نهج البلاغة - صبحي الصالح: ص٤٨٨، الغارات - إبراهيم بن محمد الثقفي: ج٢ ص٥٨٨.

صغيرة وكبيرة من خلفاءه (ع)، فلا يدعي العلم ولا يتكلم بما لا يعلم؛ بل يقر بالحاجة المطلقة إليهم كونهم ناطقين عن الله سبحانه.

فما علاقة حب أهل البيت بالفقر؟ فإذا كان توجيه المعنى للفقر المادي فحسب فهو مسامحة كبيرة وافتراق عن أصل المعنى بلحاظ حقيقته، فكل غنى في هذا العالم فهو غنى وهمي زائل وعكسه كذلك، فالغنى الحقيقي هو القرب من الله سبحانه والاكتساء بنور المعرفة والعلم والفوز بنعيم الآخرة، وقد جسدت الكتب السماوية هذه الحقيقة وترجمها خلفاء الله بالوعظ والإرشاد، وهكذا كان لسان حالهم ينطق في كل حالاتهم ونسبة أنفسهم للعدم المطلق أمام الغني المطلق والحقيقة المطلقة سبحانه.

فعلى الأقل يمكن أن نفهم حالة الفقر أنها استحضار لحالة الفقر الحقيقي التي يفترض أن يشعر بها ويعيشها الإنسان وتكون حاله مع الله دائما، وأن يكون من خلالها محتاجا للمعطي سبحانه على الدوام يطلب منه فيعطيه، ولا أعتقد أنها دعوة لأن تكون فقيرا معدما بهذا المعنى وإنما قد تكون نتيجة لانصراف الإنسان عن ملذات الدنيا الزائلة والاهتمام بما يقربه إلى الله كالزهد في الدنيا وطلب العلم، وإلا فالإشارة الأدق هي أن يكون الإنسان فقيرا من الرأي والاعتقاد والمنهج، وأن تكون صفحته خالية حتى يأخذ منهم (ع) ويسطر في صفحته ما يملون عليه في كل ما يمت بعلاقته مع الله، وأن يكون فقيرا يمد يد السؤال للأغنياء بالله ويطلب منهم الغنى؛ أي يطلب العلم والحكمة كما فعل أولياء الله مع الله سبحانه وأقروا له بالفقر والفاقة، لأنه من أحب أطاع .

وهذا دعاء الحسين(ع) في يوم عرفة يجسد أعلى درجات هذه المقاصد: (إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيرا في فقري، إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولا في جهلي ...)[١].

ولما كان الهدف من خلقنا ووجودنا هو الكسب المعرفي فالفقر الحقيقي هو خلو صفحات وجودنا من العلم والمعرفة، ورجال الله وأولهم محمد (ص) هم من أقروا بلسان حالهم بالفقر إلى الله وتوجهوا بكلّهم إليه سبحانه ولم يلتفتوا إلى غيره فملأ صفحات وجودهم بالعطاء الروحي والمعرفي، وما الفقر المادي إلا إشارة إلى ذلك الفقر.

أما خلفاء الله بعد أن أغناهم الله من فضله صاروا هم من يمثلون الغنى الذي يواجه الله به خلقه والخلق يغترفون من فيض جودهم وعطائهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٢].

(روي أن أبا حنيفة أكل طعاما مع الإمام الصادق(ع): فلما رفع الصادق (ع) يده من أكله قال الحمد لله رب العالمين، أللهم هذا منك ومن رسولك، فقال أبو حنيفة يا أبا عبد الله أجعلت مع الله شريكا؟ فقال(ع): ويلك إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله، ويقول عز وجل في موضع آخر ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله فقال أبو حنيفة: والله لكأني ما قرأتهما قط من كتاب الله ولا سمعتهما إلا في هذا الوقت، فقال أبو عبد الله(ع): بلى قد قرأتهما وسمعتهما

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ج٩٥ ص٢٢٥.

٢. التوبة: ٧٤ .

ولكن الله تعالى أنزل فيك وأشباهك "أم على قلوب أقفالها" وقال تعالى "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون")[١].

فمحمد ص حجاب الله ومن خلاله ينزل الفيض للخلق وكل غنى في كل العوالم منه (ص).

الله يتكلم في كل شيء

الوجود في كل ظهوراته الملكية والملكوتية مرتبط بالله سبحانه، فكل شيء قائم به وهذا الارتباط هو ارتباط تدبير وهو عند الله وحدة واحدة، لذلك فإن في قوله تعالى: (**وإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**) على الأرجح واحدة من معانيها تعبيرا عن هذه العلاقة، وأن كل الموجودات حاكية عن وجوده وتقومها به سبحانه.

بينا في فقرة سابقة من هذا البحث، بأن هناك حجب وموانع تعمل على قطع الاتصال وعدم سماع كلام الله، فقط تتطلب من الإنسان وهو أشرف وأرقى مخلوق أن يزيل هذه الحجب ليسمع كلام الله في كل شيء.

وبناءً على هذه المعطيات فحجج الله هم السباقون في سماع كلام الله في كل شيء[٢]؛ لأنهم أفرغوا قلوبهم وأرواحهم عن ما سواه فصاروا ينظرون بنوره سبحانه، فهم هكذا دائما في كل العوالم منذ أول خطاب إلهي للخلق في العوالم الأولى وحتى نهاية عوالم التكليف يرون ويسمعون؛ لأنهم ينظرون إلى أصل كل فعل وحركة وسكنة ويعرفون ارتباطها بالله سبحانه، حيث يرون الله قبل وفي وبعد كل شيء، ويسمعون كلماته وهم في ذلك على مراتب كما توضح.

فمن تنتفخ أناه ويرى لنفسه مقاما دون أن يرتبط بالله ودون أن يتعلم من الله سبحانه فهو في الحقيقة محجوب لا يسمع كلام الله، وهو في أبعد نقطة عن النور ويكون قد اختار طريقا مفترقا تماما عن الطريق الذي يوصله إلى المصدر.

---

١. وسائل الشيعة - الحر العاملي: ج٢٤ ص٣٥١، بحار الأنوار - المجلسي: ج١٠ ص٢١٦.

٢. (... فمن له أذنان للسمع فليسمع ومن له قلب للفهم فليفهم: الله سبحانه وتعالى يتكلم في كل شيء ولكن الناس غافلون ملتفتون إلى أنفسهم وأهوائهم، فليس الطريق الوحيد لكلام الله مع الأنبياء هو الوحي أو إسماعهم ألفاظاً في آذانهم أو معاني في قلوبهم، بل هناك الطريق الأعظم وهو (ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله معه وقبله وبعده)، فموسى (ع) عندما وجد أنهما فقدا الحوت عند الصخرة علم أنها آية من الله سبحانه، وإلا فهما في شدة التعب والجوع ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾ فلماذا تكون مشيئة الرب الرؤوف الرحيم هنا أن يفقدا طعامهما؟؟! هنا عرف موسى (ع) ماذا أراد الله أن يخبره وسمع كلام الله في هذا الحدث وهو أن طعامك الذي جئت في طلبه (العلم) موجود حيث فقدت طعامك المادي (الحوت) ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾،علم موسى(ع) أن العبد الذي مرَ به عند الصخرة هو العبد الصالح الذي جاء يطلبه ليتعلم منه.
وكما كان فقدان الحوت آية ودليلاً على طعام الروح الذي يحمله العبد الصالح، كانت حياة الحوت واتخاذه سبيله في البحر بسرعة وخفاء (سرباً) وأيضاً بمعجزة إلهية (عجباً) - يحق للعبد أن يعجب منها لما يرى من قدرة الله سبحانه وتعالى- آية ودليلاً على العبد الصالح، لأنّ الله جعل حياة الحوت حيث كان العبد الصالح مستلقياً للإشارة إلى أن العبد الصالح (مجمع البحرين) الذي جاء موسى (ع) يطلب منه العلم والمعرفة هو عين الحياة حيث إنّ العلم والمعرفة - المتعلقة بالآخرة - هي الحياة الحقيقية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾([الذاريات:٥٦])، أي ليعرفون ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾([العنكبوت:٦٤])[رحلة موسى إلى مجمع البحرين - السيد أحمد الحسن: ص٣٥].

أمر الله سبحانه إبليس بالسجود لآدم (ع)- الذي نصبه الله وحصر فيه العلم-، فتمرد وأبى واستكبر ولم يسمع كلام الله، فطرده الله ووجد نفسه في واد سحيق.

اختبر الله الملائكة وقال لهم ولنا في كتابه الكريم أنكم محجوبون عن معرفة الأسماء وأنكم لا تعلمون حتى تسجدوا لمن علمته الأسماء وهذه سنتي التي لا تتبدل ولا تتحول، وأكيد أنهم محجوبون لعلة تخص سعة صفحات وجودهم؛ لقصورهم عن بلوغ المرتبة التي تسمح لصفحات وجودهم لتجلي أسماء الله بمرتبة من أمرهم بالسجود له ومن قام مقامه.

ليس غريبا أن يقول الإمام الصادق (ع) لأبي حنيفة: (عن بعض أصحاب أبي عبدالله عليه السلام في حديث انّ أبا عبدالله عليه السلام قال لأبي حنيفة: أنت فقيه أهل العراق؟ قال: نعم. قال: فبم تفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وآله. قال: يا أبا حنيفة لقد ادّعيت علماً ويلك ما جعل الله ذلك إلّا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم، ويلك ولا هو إلّا عند الخاصّ من ذريّة نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله، وما ورثك الله من كتابه حرفاً)[١].

فكتاب الله الموحى لرسول الله (ص) لا يعلم تأويله إلا هو ومن قام مقامه وهم الأئمة (ع) الذين نص الله عليهم، وأما السنة فهي من الله وهي لا تخرج عن كونها وحي يوحى، فالفتوى التي يفتيها غيرهم (ع) لم تخرج من وحي الله قطعا.

عن داود بن أبي يزيد الأحول عن أبي عبد الله (ع) قال سمعته يقول: (انا لو كنا نفتي الناس برأينا وهوانا لكنا من الهالكين ولكنها اثار من رسول الله صلى الله عليه وآله أصل علم نتوارثها كابر عن كابر نكنزها كما يكنز الناس ذهبهم وفضتهم)[٢].

تعبير واضح عن أصالة المعلومة كونها من الصادر الأول والتأكيد على حصرية هذا الأصل والمصدر، والموارد كثيرة[٣] في تأكيد هذا الثابت العقائدي المهم والخطير.

---

١. تفسير الصافي: ج١ ص٢٢.

٢. بصائر الدرجات - الصفار: ص٣٢٠.

٣. عن محمد بن يحيى عن جابر قال، قال أبو جعفر (ع): (يا جابر لو كنا نفتي الناس برأينا وهوانا لكنا من الهالكين ولكنا نفتيهم بآثار من رسول الله صلى الله عليه وآله وأصول علم عندنا نتوارثها كابر عن كابر نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم) [بصائر الدرجات- الصفار: ص٢٣٠]، الإمام الباقر (ع) - إنه سئل عن الحديث يرسله ولا يسنده -: (إذا حدثت الحديث فلم أسنده فسندي فيه أبي عن جدي عن أبيه عن جده رسول الله (ص) عن جبرئيل عن الله عز وجل) [الإرشاد - المفيد:ج٢ ص١٦٧]، وعن الباقر (ع):(لو أننا حدثنا برأينا ضللنا كما ضل من كان قبلنا، ولكنا حدثنا ببينة من ربنا بينها لنبيه (ص) فبينها لنا)[بحار الأنوار- المجلسي:ج٢ ص١٧٢]،الإمام الصادق(ع): حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين (ع)، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله (ص)، وحديث رسول الله قول الله عز وجل)[الكافي- الكليني:ج١ ص٥٣]، الإمام الكاظم (ع) - في جواب خلف بن حماد الكوفي لما سأله عن مسألة مشكلة :(والله، إني ما أخبرك إلا عن رسول الله (ص) عن جبرئيل عن الله عز وجل) [وسائل الشيعة- الحرالعاملي: ج٢ ص٢٧٣]، الإمام الرضا (ع): (...إنا عن الله وعن رسوله نحدث...)[اختيار معرفة الرجال - الشيخ الطوسي: ج٢ ص٤٩٠].

فأي من الذين يقدمون أنفسهم ناطقين عن الدين يقول إنا نحدث عن الله؟! ولماذا يقسم الإمام الكاظم (ع) هذا القسم؟! لاريب ولاشك فهو (ع) يريد أن يخبرنا؛ بل ويؤكد لنا أن الحكم لله، وكل ما يخص الدين فهو من الله سبحانه؛ بل لا حقيقة ولا خبر يقيني أو علم بكتاب أو سنة إلا منه سبحانه.

لذلك فإن الله سمى الناطقين عنه واحدا بعد واحد ذرية بعضها من بعض.

يقول السعدي في تفسيره: (أي: حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار {ومن آبائهم وإخوانهم وذرياتهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم} {والله سميع عليم} يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه، ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلا منه وكرما، ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحبهم ونقتدي بهم...)[١].

كيف يكلم الله الإنسان؟

الله دائم الكلام

تعرضنا في الفقرة السابقة لحقيقة مفادها أن الله يتكلم في كل شيء، وقطعا الكلام هنا ليس بالضرورة أن يكون مصداقه الكلام أو الحديث الذي نتناقله؛ بل أن أشكاله وطبيعته تتعدد بتعدد الغرض والكيفية والاقتضاء كالوحي بأشكاله المتنوعة.

فهل أن هذا التواصل مع الله أو الغيب دائم أم أنه متحقق في زمان محدد؟

(خابَ الوافِدُونَ عَلى غَيْرِكَ، وَخَسِرَ الْمُتَعَرِّضُونَ إِلاّ لَكَ، وَضاعَ الْمُلِمُّونَ إِلاّ بِكَ، وَاَجْدَبَ الْمُنْتَجِعُونَ إِلاّ مَنِ انْتَجَعَ فَضْلَكَ، بابُكَ مَفْتُوحٌ لِلرّاغِبِينَ، وَخَيْرُكَ مَبْذُولٌ لِلطّالِبِينَ وَفَضْلُكَ مُباحٌ لِلسّائِلِينَ، وَنَيْلُكَ مُتاحٌ لِلآمِلِينَ)[٢].

الباب "مفتوح" سواء تعاملنا مع المفردة على إطلاقها وهي أن الله سبحانه بابه مفتوح لمن يريد أن يطرقه أو أنها تعني أن الله دائم العطاء في كل آن، وقد أكد الأئمة (ع) على الإلحاح في الدعاء، فمن أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له، وهذه ثقافة ترويض الإنسان على التوجه نحو مصدر الفيض والالتجاء إليه، ومع المداومة يتحول هذا النوع من الاتصال إلى حال ثم يغلب هذا الحال على صاحبه فيكون وعاءه مستعدا لاستقبال ما يصله من الغيب أو النور وهو دائم التوهج والانبعاث، وطبعا رأس وبوصلة التواصل والوصول هو الارتباط بمن يتصل به سبحانه وهم حجج الله في كل زمان.

يقول السيد أحمد الحسن: (الحق إن طريق الوحي هو الأصل والأشرف وأوله لتصديق بوجود الحقيقة (أو الله سبحانه) ولكنه يمتد إلى ما بعد التصديق وهو المعرفة وهي علة الخلق (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ويكون ابتداءً بالاستعداد للسماع من الحقيقة، ومن ثم بالتجرد والإخلاص للحقيقة الموجدة لهذا الكون، حتى تسمع روح الإنسان من الحقيقة الحكيمة، ويثبت له الوجود والحكمة ومن ثم تبدأ رحلته إلى المعرفة، فيسمع

---

١. تفسير السعدي: ص٥٤.

٢. بحار الأنوار - المجلسي: ج٩٥ص٣٨٩.

من الله ومن رسله بالوحي في الرؤيا والكشف؛ بل حتى يصل الأمر إلى أن يسمع الإنسان من الجمادات، وهو طريق الأنبياء والأولياء، والمفروض أنه طريق كل ولد آدم، ولكنهم يعرضون عن ربهم وهو يناديهم، فينشغلون في الدنيا فيغفلون، وربما كانت أفعالهم خبيثة كمعاداة أولياء الله حتى يغشى قلوبهم الرين فلا يسمعون ولا يعون "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون")[١].

أما لكون أن الله سبحانه غيب ونور مطلق لا يدرك نوره ولا ينال مواجهته أحد إلا من وراء حجاب فهو في هذا المعنى محتجب عن عموم خلقه بحجب النور وحجب الظلمة.

أما حجب النور فحجابها الأول محمد (ص) ثم الأمثل فالأمثل، وأما حجب الظلمة فبمقدار تحقق الأخلاق الإلهية في صفحة وجود الإنسان أو عدمها، أو بحسب ابتعاده عن النور وغفلته عن النظر إلى هو، فباب الله هم تلك الحجب النورية وهم الأنبياء والرسل والأئمة(ع)[٢] وهم أبواب الله المفتوحة دائما "بابك مفتوح" فالراغبون هم من يطرقون هذا الباب ويفتح لهم بمقدار رغبتهم وإقبالهم؛ إي إقبال قلوبهم عليه سبحانه.

(اللهم اجعل رغبتي في مسألتي مثل رغبة أولياءك)[٣].

وخيره سبحانه مبذول للطالبين، وهذا معنى دقيق وهو أن خيره موجود دائم العطاء؛ بل هو الخير المطلق الذي لا ينقطع طرفة عين عن خلقه، ولكن يستفيد وينهل من هذا الخير فقط الطالبون والمتعرضون له والقاصدون إليه من أبوابه التي منها يؤتى وكل يغترف منه بمقدار إقباله وسعة صفحة وجوده.

وهكذا فضله سبحانه مباح؛ أي غير مقيد ؛بل مسموح، ومتاح أو مهيأ ليس ممنوعا عن أحد، فالنيل أو الحصول مهيأ للآملين، وأكيد هذا الخير المبذول مقنن ومحسوب، ولكن ليس ابتداءً من قبل المقنِن سبحانه وإنما يتعلق بالمستقبل نفسه ومدى جهوزيته واستعداده لاستقبال هذا الخير- العلم، الحكمة...الخ-؛ إي أن تكون صفحة وجوده لائقة لاستقبال ما يأتي من جهة الغيب والاتصال به، وهذا يعتمد بحسب ما توضح في بعض عناوين البحث على مقدار تعرض الإنسان للفيض أو الخير وانشغاله به دون أن ينشغل بعالم المادة والظلمة وكثرة الحجب وشدة كثافتها بكثرة تعلقها، وبهذا المقدار يحجبه عن كم ونوع الفيض المبذول أصلا لكل الخلق دون تمييز.

يقول السيد أحمد الحسن: في بيان الآية ("نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ"[٤] أي قبل الوحي كنت في عداد الغافلين. من لا يوحى له فهو غافل من لا يسمع ولا يرى كلمات الله فهو غافل حجبته الدنيا، الهوى، الجهل، الأنا .....هو دائم الكلام يخاطب المخلوق في كل آن ،نحن الذين نرتع في غفلة حجبتنا عن سماع كلمات الله ،إذ لم تكن ممن يسمع ويرى كلمات الله في كل يوم وليلة ودائما فأنت غافل وفي عداد الغافلين أعرف عيبك وأخرج من غفلتك وأدخل حرم الله وأستمع كلماته. "وَاذْكُر

---

١. عقائد الاسلام - السيد أحمد الحسن: ص٩-١٠.

٢. عن أمير المؤمنين وعن الباقر (عليهما السلام): (...نحن باب الله وبيوته التي يؤتى منه..) بحار الأنوار - المجلسي: ج٤٠ ص٢٠٥.

٣. الصحيفة السجادية - الإمام زين العابدين(ع): ص٣١٠.

٤. يوسف: ٣.

رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ"[١] أجعل حياتك تدور حول ذكره سبحانه عسى أن تفتح لك أبواب الملكوت والمعرفة فتكن في عداد العارفين لا الغافلين)[٢].

وطريق الكلام أو الوحي هو الطريق الأشرف، وهو من الغيب، والمصدقين به يعلمون أنه من الله سبحانه كما يوضحه السيد أحمد الحسن:

(أما طريقة هذا الكلام والوحي والكتابة؛ فهي ربما كانت بالرؤيا في المنام، أو بالكشف في اليقضة وأقول الكشف، لأن عالم الأرواح غير هذا العالم الجسماني، فلكي يطلع الإنسان ويتصل به لابد أن يُكشف عنه حجاب هذا العالم الجسماني)[٣].

في الآية: كلمة (إلا) للحصر: أي لا طريق آخر يكلم الله به البشر إلا هذه الطرق الثلاث وهي في كل حالاتها تعني وجود وسيط بين الله وبين البشر، فهو سبحانه جل عن ملائمة كيفياته وتنزه عن مجانسة مخلوقاته[٤].

رجل أتى أمير المؤمنين علي (ع) وذكر حديث الشاك، فقال(ع): وأما قوله: (وما كان لبشر أن يكلمه إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء) وقوله: (وكلم الله موسى تكليما) و قوله: (وناداهما ربهما) وقوله: (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) فأما قوله (ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب) فإنه ما ينبغي لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا وليس بكائن إلا من وراء حجاب، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء، كذلك قال الله تبارك وتعالى علوا كبيرا، قد كان الرسول يوحى إليه من رسل السماء فيبلغ رسل السماء رسل الأرض، وقد كان الكلام بين رسل أهل الأرض وبينه من غير أن يرسل بالكلام مع رسل أهل السماء، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا جبرئيل هل رأيت ربك؟ فقال جبرئيل: إن ربي لا يرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فمن أين تأخذ الوحي؟ فقال: آخذه من إسرافيل فقال: ومن أين يأخذه إسرافيل؟ قال: يأخذه من ملك فوقه من الروحانيين، قال: فمن أين يأخذه ذلك الملك؟ قال: يقذف في قلبه قذفا، فهذا وحي، وهو كلام الله عز وجل، وكلام الله ليس بنحو واحد، منه ما كلم الله به الرسل، ومنه ما قذفه في قلوبهم، ومنه رؤيا يريها الرسل، ومنه وحي وتنزيل يتلى ويقرأ، فهو كلام اللهِ..)[٥]

أما لماذا رسل السماء؟! فيمكن أن يفهم منها أن السماوات مراتب من السابعة حتى الأولى؛ بل ولكل سماء مراتب، وبالتالي فعلة تعدد رسل السماء أو كون الأخبار عنها بصيغ الجمع فلعلة اختلاف مراتب السماوات، وأن لكل سماء لغة خاصة تناسب عالمها ومقامها المعرفي فضلا عن مرتبة المستقبِل، غير أن هدف المحتوى المنقول بواسطة رسل السماء واحد.

فيمكن أن نفهم الحجاب ومرتبة الحجاب إذا ما عرفنا مقام رسول الله (ص) في العوالم الأولى، نعرف أن محمدا (ص) وصل إلى مقام قاب قوسين أو أدنى دنوا واقترابا من العلي الأعلى، فمحمد هو المخلوق الأول الذي

---

١. الأعراف: ٢٠٥.

٢. بريد الصفحة - السيد أحمد الحسن: ص٤٠٠.

٣. النبوة الخاتمة - السيد أحمد الحسن: ١٣.

٤. بحار الأنوار - المجلسي: ج٩١ص٢٥٠.

٥. التوحيد - الصدوق: ص٢٦٤.

واجه الله سبحانه فكان هو حجاب الله - وقد مر ذكر هذه الرواية- فلذلك كل ما يصدر من الله يتلقاه محمد (ص) في مقامه هذا "حجاب الله" ثم منه يترشح وينزل في العوالم الأدنى حتى يصل إلى عالمنا الجسماني بوجوده الملكي كونه النبي أو الرسول، ومحمد (ص) في هذا العالم بالنتيجة يأخذ من محمد (ص) في مقامه الأول لعلة وجود شخص محمد (ص) في هذا العالم، وهو محجوب عن ذلك العالم بجسده الجسماني كونه في عالم الامتحان.

﴿وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا مٰا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتٰابُ وَ لاَ الْإِيمٰانُ﴾[١].

فالإنسان أصلا مفطور على أن يوحى له، ويفترض أن يكون مؤهلا ليسمع وحي الله ويتلقاه ويفهمه؛ لأن الله حكيم وأراد من الإنسان أن يسمع وأن يكلمه سبحانه.

عن أبي حمزة قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن العلم، أهو علم يتعلمه العالم من أفواه الرجال أم في الكتاب عندكم تقرؤونه. فتعلمون منه؟ قال:(الأمر أعظم من ذلك وأوجب، أما سمعت قول الله عز وجل: "وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان" ثم قال: أي شيء يقول أصحابكم في هذه الآية، أيقرون أنه كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الايمان؟ فقلت: لا أدري - جعلت فداك - ما يقولون، فقال [لي]: بلى قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الايمان حتى بعث الله تعالى الروح التي ذكر في الكتاب، فلما أوحاها إليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء، فإذا أعطاها عبدا علمه الفهم)[٢]

وعن أبي بصير وأبي الصباح الكناني قالا: قلنا لأبي عبد الله (ع): جعلنا الله فداك، قوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم)؟ قال: (يا أبا محمد الروح خلق أعظم من جبرئيل، وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يخبره ويسدده، وهو مع الأئمة عليهم السلام يخبرهم ويسددهم)[٣].

باعتبار أن كل ما يصدر من الله لأي نبي أو رسول لابد أن يرشح من محمد (ص) في مقام القاب، فهو المخلوق الأول والمخلوق الأشرف فلا يداني مقامه ملك مقرب ولا غيره كجبرائيل[٤] وإسرافيل والملائكة الروحانيين، وهذا يعني أن وحي الرسالات جميعا يصدر من الله سبحانه ويمر من مقام محمد (ص)[٥] وهو مقام القرآن الذي يهيمن

---

١. الشورى: ٥٢.

٢. الكافي - الكليني: ج١ ص٢٧٤.

٣. تأويل الآيات - شرف الدين الحسيني: ج٢ ص٥٥١، الكافي - الكليني: ج١ ص٢٧٣

٤. (فجبرائيل (ع) ليس له طاقة على معرفة أو تحصيل آيات القرآن في هذه المرتبة بل وحتى دون هذه المرتبة، حتى تصل النوبة في التنزل والتجلي إليه وإلى ملائكة الله المقربين (ع)، فيعلمون من القرآن ما شاء الله لهم أن يعلموا، لما أظهره وجلاّه في عوالمهم (ع)، وهو في تلك العوالم نور كلي في السماء السابعة، ومثال تفصيلي في السماوات الستة) [المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٤ س١٤].

٥. (وذلك لأن إرسال الأنبياء السابقين وإن كان من الله سبحانه وتعالى ولكن أيضاً محمد (ص) هو الحجاب بين الله سبحانه وبين الأنبياء، فالرسالات منه تترشح، ومن خلاله تتنزل إلى الأنبياء. فمحمد (ص) هو صاحب رسالات الأنبياء السابقين، كونها تنزلت من خلاله، وهو الحجاب الأقرب إلى الله سبحانه، فالإرسال السابق من الله ومن خلال محمد (ع) الحجاب الأقرب لكونه لم يُبعث (ص)، والإرسال اللاحق من محمد (ص) وبأمر الله كونه بُعث (ص))[رحلة موسى إلى مجمع البحرين- السيد أحمد الحسن: ملحق٤].

على كل الكتب والرسالات السماوية النازلة للرسل والأنبياء دون محمد (ص) وما نزل لكل الأنبياء والمرسلين كتوراة موسى(ع) وإنجيل عيسى (ع) هي أجزاء من ذلك القرآن كما سيأتي.

ومنها نعرف لماذا قال السيد أحمد الحسن بأن التوراة والإنجيل أجزاء من القرآن؛ أي هي أيضا قرآن ولكن القرآن مهيمن عليها كما ورد في الآية الكريمة؛ بل وحتى شخص محمد (ص) وعيسى (ع)، كما ورد في دعاء السمات[١] "وطلعتك في ساعير وظهورك في فاران" وعلاقة ذلك بأن محمد (ص) عكس أو احتوى اسماء الله بأعلى ما يمكن لمخلوق، فكان الوحي النازل على محمد أكمل وأشمل لعلة اتساع صفحة وجود محمد (ص)، لذلك كان من خلال الحجاب الأول أو البرزخ بين الحق والخلق وهو مقام محمد (ص).

ومحمد (ص) في هذا المقام هو أيضا بالنتيجة حجاب محمد (ص) في هذا العالم الجسماني؛ بل حتى في عوالم متقدمة على عالمنا الجسماني عندما تكون روح النبي أو الرسول عندها فإن الوحي مازال هو السبيل ليصل كلام الله إليه.

عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله (ع): قال رسول الله (ص): (لقد أسرى بي ربي عز وجل فأوحى إلي من وراء حجاب ما أوحى، وكلمني بما كلم به وكان مما كلمني به أن قال: يا محمد إني أنا الله لا إله إلا أنا عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم إني أنا الله لا إله إلا أنا الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، إني أنا الله لا إله إلا أنا الخالق البارئ المصور، لي الأسماء الحسنى، يسبح لي من في السماوات والأرض، وأنا العزيز الحكيم)[٢].

عبد الله بن سلام اللَّهِ لرسول الله (ص)، قَالَ لَهُ: فأخبرني كلمك الله قبلا؟ قال: (ما لعبد أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب. قال: صدقت يا محمد)[٣].

فالروايات المتقدمة تبين لنا أن الله سبحانه يكلم حججه بالوحي؛ أو من وراء حجاب، ولكن كيف يتم ذلك؟

يقول السيد أحمد الحسن:

(وأخبار السماء تصل إلى الإنسان بسبل متعدّدة - وإن كان يجمعها طريق واحد في الأصل - فيمكن أن يكلّم الله الإنسان مباشرة من وراء حجاب، أو يوحي له ما شاء، أي يكتب في صفحة وجود الإنسان ما شاء سبحانه وتعالى، أو يرسل ملائكة يكلمون الإنسان مباشرة، أو يكتبون في صفحة وجوده ما شاء الله سبحانه وتعالى.. أمّا طريقة هذا الكلام والوحي والكتابة؛ فهي ربما كانت بالرؤيا في المنام، أو بالكشف في اليقظة)[٤].

أما الروح التي يعلم الله سبحانه خلفاءه (ع) العلم والفهم فهي مقصورة على رجال اختارهم واختصهم يترجمون بها مراده، وبما أن رسالة السماء مستمرة فلابد أن تكون وسيلة الاتصال ملازمة لكل حجة يتلقى من الله العلم وكل ما يحتاجه في هذا العالم، وهذا النوع من الاتصال كما بينه الإمام الصادق (ع) مختص بهم (ع)

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ص٨٧ ص٩٩.

٢. مختصر بصائر الدرجات - الحلي: ص٢٦. عنه البحراني: ج٤ ص٨٣٥.

٣. الاختصاص - المفيد: ص٤٣، بحار الأنوار- المجلسي: ج٩ ص٣٣٧.

٤. النبوة الخاتمة - السيد أحمد الحسن: ص١٣.

ومحجوز عن غيرهم- بسبب غفلتهم وابتعادهم- وإلا فلا داعي لهذا الحصر وسيكون خالي من الحكمة لو كان متاحا لغيرهم.

الحقيقة العلوية وظهوراتها

القرآن صدر من العالِم المطلق، وأول رتبة معرفية يمكن أن يحصل عليها مخلوق كانت لمحمد (ص)، ولا يعرف القرآن في هذه المرتبة سواه، وأن عليا (ع) يعرف القرآن بمرتبة أدنى، وهو في مقام باب مدينة العلم، وهكذا فإن معرفة القرآن مراتب مرتبطة بمرتبة ومقام المعصوم والعوالم النازل فيها، ولك أن تعرف العدد غير المحدود لمستويات معرفة القرآن، وهذا يعني حقائق ومعان في كل مرتبة ومقام، وفي كل هذه المراتب لابد من وجود علاقة وارتباط بالمقام الأول الذي يعرف القرآن بأعلى مستوى، وبالتالي فكل العارفين بالقرآن في كل ظهوراته وعوالمه مخصوصين به يتدرجون في نظام متسلسل لا يمكن أن يتخلله الغرباء.

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)[١].

فالقرآن مهيمن على الكتب السماوية بحقيقته العلوية.

يقول السيد أحمد الحسن: (الإمامة هي الهيمنة على العوالم العلوية والسفلية بإذن الله، وقيادة جند الله فيها، والتصرّف فيها بإذن الله، ولا يمكن أن يكون الإنسان إماماً دون أن يكون له مقام النبوّة قبلاً...)[٢].

القرآن والكتب السماوية شيء واحد، إلا أن القرآن مهيمن عليها، وهذه الهيمنة لا تتحقق إلا إذا كان القرآن يحتوي على هذه الكتب وزيادة.

ورد عن رسول الله (ص): (أعطيت السور الطوال مكان التوراة وأعطيت المئين مكان الإنجيل وأعطيت المثاني مكان الزبور وفضلت بالمفصل ثمان وستون سورة وهو مهيمن على سائر الكتب والتوراة لموسى والإنجيل لعيسى والزبور لداوود)[٣].

(دعوة محمد (ص) دعوة شمولية عامة، فكأن فيها ما في دعوات جميع الأنبياء وزيادة، وهذا المعنى ورد في الحديث، فما في التوراة والإنجيل والزبور كله في القرآن، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾[٤])[٥].

فالخالق واحد والمصدر واحد والوحي واحد، وكل الرسالات ترشحت من القرآن؛ أي من مقام محمد (ص)، وكل الرسل والأنبياء أرسلهم واحد.

---

١. المائدة: ٤٨.

٢. الجواب المنير - السيد أحمد الحسن: ج٢ ص٨٤.

٣. الكافي - الكليني: ج٢ ص٦٠١.

٤. الشورى:١٣.

٥. اضاءات من دعوات المرسلين - السيد أحمد الحسن:ج١ اضاءة من دعوة محمد (ص).

الفرق كبيرا جدا وعظيم؛ بل لا مقايسة بين حقيقة القرآن العلوية التي يجهلها كل الخلق عدى محمد وآل محمد (ع) وبين القرآن اللفظي الموجود بين أيدينا، وأن الألفاظ التي تترجم حقيقة القرآن العلوية متشكلة بمقدار قابلها الأول ابتداءً من محمد(ص) وانتهاءً بآخر وصي من أوصياءه (ع).

في كل الأحوال تبقى النصوص رهينة بيان خليفة الله، وأن وظيفته في التوفيق بين الألفاظ والمعاني ونقل الحقيقة العلوية بمقادير تناسب حال القابل وأهليته.

يقول السيد أحمد الحسن: (والتوراة والإنجيل التي نزلت على موسى وعيسى ع ليست شيئا آخر غير القرآن بل هي أيضا تجل وظهور للقرآن في هذا العالم الجسماني والفرق بينها هو مقام القابل الذي أظهر القرآن في هذا العالم أي محمد وعيسى وموسى (عليهم السلام)، فبما أن محمدا (ص) أعظم إخلاصا وأعلى مقاما يكون ما أظهره أعظم وأعلى شأنا وأتم وأكمل مما يظهره موسى أو عيسى ع وبهذا تكون التوراة والإنجيل عبارة عن أجزاء من القرآن ويكون القرآن مهيمن عليها ومحتويها)[١].

أما اختلاف الألفاظ والمعاني فيهما.

(...والتوراة والإنجيل هي قرآن أو بعضه مع أنها مختلفة في محتواها وألفاظها لأنها توصل نفس الحقيقة وإيصال الحقيقة يمكن أن يتم بألفاظ مختلفة؛ بل وحتى من خلال معان مختلفة أيضا، فالمطلوب الأهم هو هذه الحقيقة وليس اللفظ بل ولا حتى المعنى)[٢].

الأمر المهم والخطير المرتبط بوجود حجة إلهي في كل زمان وعلاقة المكلفين به هو أن الحجة الإلهي يمثل الحبل والسبب المتصل بالسماء، وهو سبب وصول الفيض الإلهي للخلق، فإذا كان نبيا أو رسولا جاء بالرسالة المكلف بها ليبلغها للخلق كالإنجيل والتوراة والقرآن.

فهل سيغلق هذا الخط حال تبليغ الرسالة؟ وهل أن حدود اتصاله بالسماء هو إنجاز مهمة إيصال الكتاب المنزل؟ أم أن هذا الحجة الإلهي سيبقى متصلا بالوحي ويستمد معارفه وتعاليمه وأوامره في كل آن مبينا للكتاب وما يستجد في دين الله؟

هل أن الرسول يتكلم من نفسه ومن عنده؛ أم أن كل ما يتكلم به في أمور الدين حاله حال النص المكتوب في الكتاب المقدس الذي جاء معه، وأن حالة "وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى" هي حالة ملازمة للحجة الإلهي في كل زمان ومكان تسدده وتؤيده؟

وهل أن كل كلام يصدر منه فهو مقدس وملزم للمكلفين؛ بل أن فيه صلاح الأمور بكل أشكالها؟

فما الفرق بين القرآن وبين الحديث القدسي والنبوي وكل رواية وحديث عن حجة الله في كل زمان؟

---

١. عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص٢٤٨.

٢. نفس المصدر السابق: ص٢٤٩.

هذا السؤال يطرح لنعرف من خلال الجواب عليه هل هناك فرق فعلا من حيث الحجية والإلزام للمكلفين بين الكتاب السماوي النازل على الرسول وبين ما يصدر عن الرسول أو النبي أو الوصي طيلة وجوده بين الناس؟

وهل أن كل ما يصدر منه فيما يخص الدين هو فعلا بنفس درجة القداسة بالنسبة للكتب السماوية – وأقصد التوراة، الإنجيل، القرآن- وأنه ملزِم للمكلف بنفس درجة نص الآية القرآنية مثلا؟ ولو أن هذه المقايسة لا تصح من أساس؛ لأننا نعتقد أن ظاهر الآية عصي على ما دون القيم الحقيقي على القرآن وهو الرسول ومن قام مقامه، ولكن إذا قلنا تسامحا أن الذي ينظر للآية من جهة قدسيتها وجهة صدورها وكونها من الله سبحانه هل يساوره أدنى درجات الشك في عصمة وقدسية ما يصدر من خلفاء الله كالحديث والرواية؟

نحن بينا أصل هذا الموضوع وقد نتعرض لبعضه في قادم البحث، وأن هناك أمور هامة تحدد إطار الإجابة على سؤالنا المتقدم.

١- أن المشروع السماوي واحد والهدف منه واحد، وأن سنة الله سبحانه في الخلق جارية لا تتبدل، فكل الكتب السماوية منهجها واحد وإن اختلفت طبيعة مضامينها ولغتها الظاهرية.
٢- أن الرسول أو النبي أو الوصي كيانات قدسية اختارها الله لتكون ناقلة للعلم الإلهي، وأن صفحات وجودهم خالية من كل رأي يشارك أو يخالف ما يريده الله سبحانه.
٣- أن كل حجة إلهي دائم الاتصال مع الله سبحانه يتلقى منه كل ما يحتاجه ويوحى إليه في كل آن، فبالنتيجة كل ما يصدر منه هو الحق وكل ما يتبرع به غيره لبيان حكم أو تشريع أو عقيدة فهو باطل قطعا ولسبب رئيسي واحد وهو أنه لم يوح إليه وهو يحتاج حاله حال أي مكلف لما يبينه له خليفة الله في كل زمان.

يقول السيد أحمد الحسن في جوابه على الفرق اللفظي بين القرآن والحديث القدسي والنبوي:

(الحقيقة أنه لا فرق بين ما ذكرت من هذه الجهة ولا فرق بينها وبين كلام بقية العرب إلا بقدر كون كل كلام خاص بمتكلمه أي له خصوصية الأصالة فلكل متكلم خصوصية بكلامه ومن يأتي بمثلها يكون مقلدا له)[١].

فأصالة القرآن ترجع إلى الله وأصالة ما يتكلم به الرسول أو أي خليفة إلهي فيما يخص الدين فهي ترجع إلى الله حتما لأنهم "لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون".

فحقيقة الوحي واحدة، ولكن نوع المعلومة " العلم" التي يحملها، وهي مقننة وفق الحكمة الإلهية المطلقة التي تتوافق ومراده سبحانه، وهي تتعلق بأمرين:

١- قابلية ومقام القابل- الرسول أو النبي أو الوصي- وهذه مرتبطة بمقدار إخلاصه وقربه من النور كما تبين.

---

١. من حوار مباشر مع السيد أحمد الحسن، وردت في كتاب إعجاز القرآن - الدكتور علاء السالم: ص١٠٥.

٢- قابلية القابل الذي يعاصر هذا الرسول، وهذه بدورها ذات مديات متفاوتة يكون الرسول والحجة الإلهي مطلع عليها، فهو من يقوم بتقنين ما جاءه من الوحي بحسب قابلية أتباعه[١].

فمسألة أن الرسول يتعرف على حقائق القرآن في مراتبه العلوية في كل العوالم ثم يظهرها بشكلها اللفظي[٢] والمكتوب في هذا العالم، باعتبار أن الالفاظ من لوازم هذا العالم الجسماني كوسيلة لإيصال المعلومة والتخاطب، فهو يزج الحقائق النورية في أفضل تراكيب لفظية مناسبة لتخرج إلينا بهذه الصورة، وعليه فالذي حول هذه الحقائق إلى أشكال لفظية أولى بالإفصاح عن القيمة المعنوية وما تحويه- أو هو من يفك شفرتها - إن صح التعبير-ويكشف عن مقاصدها.

فعلى مستوى عموم الناس الكثير من الألفاظ في لغة العرب مثلا، أو تلك التي يستعملها شعرائهم تعتبر بالنسبة لآخرين طلسم حتى يسألوا قائلها أو من عرف منه مقصودها، وهذا على مستوى كلام المخلوقين.

بشكل عام وبموجب الجهل بمنظومة الوحي وأسرارها وتبني المناهج غير المعصومة فكل الأطروحات والمناهج الأرضية أثبتت ومازالت كل يوم تثبت فشلها في بناء الإنسان داخليا وحتى خارجيا وهذه المناهج على شقين:

الشق الأول: هو المنهج الديني بكل أشاكله وأساليبه وانتماءاته الدينية والمذهبية، وفي الحقيقة نحن نركز في هذا البحث المتواضع على من تبنى الطرح الديني وقدم رأيا وتفسيرا للدين انطلاقا من مناهج وضعت وفق مبادئ عقلية مجردة عن انتمائها للمنهج القرآني والرسالي الذي جاء به كل خلفاء الله (ع)، فكان ما قدموه منهجا آخر ينافس المنهج الإلهي بل ويعارضه في أغلب الأحيان إذا ما قلنا يعارضه تماما ويمنع وصول رسالة الوحي للناس، وهذه المناهج عملت على إعاقة مشروع المعرفة الذي خلقنا من أجله وخلق الكون برمته من أجل تنفيذه في عالم الظلمة، الذي يفترض أن يستنير بنور الوحي الإلهي الذي حُجب عن الناس.

أما الشق الثاني: فهو المنهج الجامع لكل الأطروحات الإنسانية والفلسفية والاجتماعية،و الذي لا يؤمن بالغيب ورسائله ولا يعطي له أي اعتبار، سواء كان قسما منهم يؤمن إجمالا بوجود خالق وهو لا يتدخل في مخلوقاته، أو أنه لا يحمل أي فكرة أو أطروحة تخبرنا عن وجود مدبر يدير مملكته ويضع لها نظاما يوصلها للكمال بأقصى ما يمكن للمخلوق، يضاف إلى ذلك فئة لا تؤمن أصلا بوجود خالق كالإلحاديين.

وهؤلاء جميعا عبارة عن جيوش تمترست على طول الخط الزمني الذي رافق الرسالات السماوية، لتكون جبهة مضادة تمنع مرور الفيوضات السماوية من الوحي ورسائله للبشرية.

---

١. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (أمرنا معاشر الأنبياء أن نخاطب الناس على قدر عقولهم)[بحار الأنوار- المجلسي - ج ٢٥ ص٣٨٤].

٢. يقول السيد أحمد الحسن: (القرآن الذي بين أيدينا في هذا العالم الجسماني ؛ هو ظهور وتجلي للقرآن الذي هو في العوالم العلوية بالألفاظ التي تناسب هذا العالم، فالقرآن في العوالم العلوية ليس بلفظي، لأن الألفاظ من لوازم هذا العالم الجسماني، وظهور هذا العالم بقدر مظهره محمد (صلى الله عليه وآله)، وبقدر ما يسع هذا العالم الجسماني أيضا.
ومحمد (صلى الله عليه وآله) هو خير خلق الله، فيكون المعنى الذي ظهر بصورة القرآن اللفظية التي أظهرها محمد (صلى الله عليه وآله) في العالم الجسماني، هو أعظم معنى بصورة لفظية للقرآن ممكن أن يظهر في هذا العالم الجسماني)[عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص٢٤٧- ٢٤٨].

في الحقيقة كل تلك الوسائل هي نتيجة طبيعية لعمل إبليس اللعين ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾[١].

ونحن هنا لا نريد أن نناقش الجهة التي لا تمثل المتدينين لسببين:

الأول: لأننا نركز على الجهة الأكثر خطرا وتأثيرا على جهة النور والوحي وهم علماء الدين غير العاملين أو رجال الدين الذين دخلوا على خط الدين وتكلموا نيابة عن الناطق الحقيقي باسم الدين، والذين كانت اطروحاتهم الدينية وإخفاقاتهم في الإجابة على أسئلة ملحة في الساحة العلمية[٢] سببا في نشاط الإلحاديين ومن شاكلهم ونشر أفكارهم المضللة لا نريد الكلام في تفاصيلها.

الثاني: هو أن مستوى النقاش وطبيعة الأدلة التي نرد بها ونناقش هذه الأصناف- واقصد الإلحاديين- ستكون من نوع آخر، وقد تبنى مناقشة أطروحاتهم الإلحادية ودحضها رجال وفقهم الله لنصرة الحق وعلى رأسهم السيد أحمد الحسن وكتابه المبارك وهم الإلحاد، فمن أراد المزيد فليطلع على هذه الملحمة العلمية العظيمة.

أما بالنسبة للذين يشتغلون على ملاحقة اللفظة القرآنية وكيف تعمل، ويعملون على إحصاء لمفردات أينما وردت في آية فإن عملها سيكون كذا، وأن اللفظة المعينة إذا وردت في آية معينة فإنها تخص فئات أو مجموعة معينة، وأن رسم اللفظة وموقعها من سيحدد من يكون من المؤمنين ومن يكون من الكافرين، وهكذا باقي الأوصاف الأخرى للأفراد والمجموعات المبثوثة في الآيات القرآنية، أو أن المفردة المعينة إذا جاءت بصيغة محددة فهي تعني دائما هذا المعنى ولا يمكن أن ينصرف مؤداها إلى معنى آخر.

وهؤلاء أو ما يسمونهم بالقرآنيين قسم منهم اكتفى بالحديث عن معنى اللفظة ووظيفتها إذا وردت في سياق آية معينة وإنها إذا وردت بها الشكل تعمل أو تعطي هذا المعنى حصرا؛ لأنها بحسب عملية إحصاء قام بها البعض أعطت هذه النتيجة، وطبعا حتى وإن كانت بعض هذه الإحصاءات صحيحة وفق القاعدة التي طبقوا عليها كثير من المفردات فهذا لا يعني أنهم حصلوا على حقائق؛ لأن الحقائق مخزونة في العمق المعنوي للفظة أو الآية، وهذه محجوبة عن أناس لا يرون أبعد من رسم اللفظة وتشكيلات المفردات.

قسم آخر وهو الأخطر حوّل هذه الملاحظات أو الإحصاءات لكثير من الآيات أو المفردات القرآنية إلى عقائد وأحكام وطريقة عمل بالقرآن منفردا وبعيدا عن إحكام المعصوم (ع)، وربما نجد في بعض الأحيان توظيف أحاديث وروايات ظاهرها يوافق ظاهر الآية أو أن الرواية تستخدم نفس المفردة القرآنية فيتم اجترار المعنى الظاهري للمفردة الواردة في الآية والرواية للخروج بفهم أو القطع بعقيدة أو حكم، وهم لا يدورن ماذا أراد قائلها ولم قيلت وكيف.

---

١. الأعراف: ١٦- ١٧.

٢. فالمسلمون سنة وشيعة والمسيحيون يرفضون نظرية التطور [راجع كتاب وهم الإلحاد- السيد أحمد الحسن: ص٢٥-٦١]، كذلك ا اليهود والمسيحيون والمسلمون اتفقوا على أن ذرية آدم (ع) نتاج زنا محارم وزواج الأخوة من الأخوات [نفس المصدر : ص١٦٧-١٩١]، وأما عمر آدم بحسب مفسري الكتاب المقدس وكذلك أغلب مفسري السنة والشيعة لا يتجاوز ٧٠٠ سنة في حين أن عمر الإنسان المكتشف علميا بحسب الأحفوريات يمتد إلى مليوني عام تقريبا [نفس المصدر : ص١٢١]، وهذه نماذج اخترتها كونها مسائل مطروحة في الساحة العلمية وإلا فسجل الإخفاقات حافل في الإجابة على أسئلة من هذا النوع.

لم يذكر لنا القرآن أو عدل القرآن وهم محمد (ص) وآل محمد (ع) قواعد نستخرجها بجهود إحصائية للمفردات أو العبارات لتكون حاكمة على مراد الله في هذه الآية أو تلك كما يفعل القرآنيون على مختلف مدارسهم، وهذا طبعا كونهم يؤمنون إجمالا أنه كتاب مقدس منزل من قبل الله سبحانه على النبي الكريم (ص).

عن الإمام الصادق(ع) من قوله: "ليس شيء أبعد من عقول الرجال منه [القرآن] إن الآية لتنزل أولها في شيء وأوسطها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل ينصرف على وجوه"[١].

فالمسألة ليست محاكاة للألفاظ والمفردات وحركتها في الآيات؛ لأن القرآن الذي بين أيدينا منظومة معرفية زاخرة بالأبعاد والمقاصد التي تغيب عنا بسبب عمقها الملكوتي، وأنها صور لتلك اللغة العلوية التي جاءت من تلك العوالم الشريفة التي لا تناسب سطحية ومحدودية عقولنا القاصرة، والتي حجبت عنها أسرار ومعاني تلك الألفاظ والمفردات التي تشكلت منها سياقات الآيات.

كل ذلك وببساطة؛ لأننا لم نكن من الذين كشف لهم وارتقت أرواحهم لتلك العوالم لنكون من الذين اختارهم الحكيم الخبير والمتكلم الأول سبحانه وأطلعهم على أصول تلك المعاني ومفاتيح تلك اللغة العلوية .

عن أمير المؤمنين(ع) في خطبة طويلة: (واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم الله عن الاقتحام في السدد المضروبة دون الغيوب، فلزموا الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فقالوا: آمنا به كل من عند ربنا، فمدح الله عز وجل اعترافهم بالعجزعن تناول ما لم يحيطوا به علما، وسمى تركهم التعمق في حاله، ما لم يكلفهم البحث عنه منهم رسوخا، فاقتصر على ذلك، ولا تقدر عظمة الله على قدر عقلك، فتكون من الهالكين)[٢].

كل الحقائق القرآنية والروائية الواضحة تماما تقضي بأنه لا توجود أي فرصة لأي أحد دون الأئمة (ع) ليكون متبرعا كي يقوم بنقل وانتزاع معان من كتاب لا توجد له أي علاقة مباشرة أو صلة مع متكلمه؛ لأنه يتكلم بلغة مختلفة تماما عن اللغة الأرضية التي تعتبر نتاجا بشريا تطوريا بدأ من وجودنا في هذا العالم المادي الجسماني، وكان الزمن السحيق كفيلا بتبلورها ووصولها لما هي عليه الآن، وهذه حقائق مثبتة علميا وتاريخيا[٣].

إذن فإن منظومة اللغة العلوية التي نزل منها القرآن كان منشأها تلك العوالم الملكوتية غير المادية، ولم تكن قطعا بهذه الصورة التي يتوهمها قاصري العقول، فهي حقائق لا يمكن حتى وصفها؛ لأن أدوات وصفها ستكون حتما باستخدام أدوات هذا العالم ولوازمه وهذا غير ممكن لوجود الافتراق التكويني، وغياب الكيفية لغياب قواعدها ومفاتيحها لكل من لم ينصبه الله.

فمن هنا تبدأ المغالطة والوقوع في مصيدة التوهم لمن ظنوا أن خط التواصل بين هذا العالم والعوالم التي نزلت منها الكتب السماوية أو الرسائل التي ينقلها الوحي لخلفاء الله هو امتدادا طبيعيا لهذا العالم، وهو بطريق أو بآخر يمثل حكما على بشرية النصوص المقدسة سواءً أقروا بها أو نسبوها لتلك العوالم، فإن تصرفاتهم

---

١. تفسير العياشي: ج١ ص١١.

٢. نهج البلاغة - خطب الإمام علي (ع): ج١ ص١٦٢، بحار الأنوار - المجلسي: ج٨٩ ص١١٠.

٣. أنظر كتاب نشأة اللغة للدكتور عباس طاهر.

وطبيعة تعاملهم مع النصوص المقدسة يفرض هذه النتيجة؛ أي أن نسبة لغة القرآن ومرادات قائلها يمكن أن تنسحب لطبيعة هذا العالم ومنظومته السفلية الغارقة في الظلمة.

أبو القاسم الكوفي في كتاب التبديل أن إسحاق الكندي كان فيلسوف العراق في زمانه أخذ في تأليف تناقض القرآن، وشغل نفسه، بذلك، وتفرد به في منزله، وإن بعض تلامذته دخل يوما على الإمام الحسن العسكري (ع) فقال له أبو محمد (ع):

(أما فيكم رجل رشيد يردع أستاذكم الكندي فما أخذ فيه من تشاغله بالقرآن؟ فقال التلميذ: نحن من تلامذته كيف يجوز منا الاعتراض عليه في هذا أو في غيره؟ فقال أبو محمد عليه السلام: أتؤدي إليه ما ألقيه إليك؟ قال: نعم، قال: فصر إليه، وتلطف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله، فإذا وقعت الأنسة في ذلك فقل: قد حضرتني مسألة أسألك عنها فإنه يستدعي ذلك منك، فقل له: إن أتاك هذا المتكلم بهذا القرآن هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم به منه غير المعاني التي قد ظننتها أنك ذهبت إليها؟ فإنه سيقول إنه من الجائز لأنه رجل يفهم إذا سمع فإذا أوجب ذلك فقل له: فما يدريك لعله قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه، فتكون واضعا لغير معانيه. فصار الرجل إلى الكندي وتلطف إلى أن ألقى عليه هذه المسألة، فقال له: أعد علي! فأعاد عليه، فتفكر في نفسه، ورأي ذلك محتملا في اللغة، وسائغا في النظر، فصار الرجل إلى الكندي وتلطف إلى أن القى عليه هذه المسألة، فقال له: أعد علي، فأعاد عليه، فتفكر في نفسه، ورأى ذلك محتملا في اللغة، وسائغا في النظر، فقال: أقسمت عليك ألا أخبرتني من أين لك؟ فقال: أنه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك، فقال: كلا، ما مثلك من اهتدى إلى هذا، ولا من بلغ هذه المنزلة، فعرفني من أين لك هذا؟ فقال: أمرني به أبو محمد عليه السلام. فقال: الآن جئت به وما كان ليخرج مثل هذا إلا من ذلك البيت، ثم أنه دعا بالنار وأحرق جميع ما [كان] ألفه)[1].

الرواية المتقدمة تشرح لنا ما نريد التأكيد عليه في مسألة تفسير نصوص القرآن أو وضع قواعد ومناهج يفترض أنها تكون حاكمة على النظام القرآني، سواءً بشكله المكتوب أو عمقه المعنوي الغائب عن استراتيجية التفكير الساذج والبسيط والمحدود للعقل البشري، باعتبار أن محيط هذا التفكير إن شرق وإن غرب لا يخرج عن طوق وحدود مادية هذا العالم الوهمي الاعتباري.

هذا العالم الذي ليس لديه أي مشتركات حقيقية في طبيعة التعامل مع عوالم الغيب، وأقصد كل منظوماته المتعلقة بالعالم المادي وعلى رأسها منظومة التدين ومبانيها العقلية التي أسسها رجال ليسوا من الله، وعمادها اللغة التي يتعاطاها العنصر البشري.

فلابد أن تكون هناك جهة أو حلقة مهيمنة على كل تلك العوالم ومنها عالمنا الظلماني السفلي، وهو المخلوق الذي اختاره الله؛، لأن في صفحة وجوده القابلية والاستعداد للسيطرة على كل العوالم، واحتواء الأسماء، وبذلك يكون قادرا على ترجمة الرسائل الآتية من تلك العوالم من لغتها الملكوتية إلى لغة تناسب قابلية واستعداد الخلق المحجوب، الذي فشل في أن يكون قابلا يؤهله لتلقي رسائل الملكوت ومعرفة مضامينها، أو أن يكون قادر على الاتصال بالوحي وهذا فصل الخطاب.

---

١. الأنوار البهية - الشيخ عباس القمي: ص٣١٧.

نعود إلى رواية الإمام الحسن العسكري (ع) ونطوف حول الركائز والمحاور التي تدعم ما نريد بيانه فنجد:

١- بداية وبغض النظر عن الغرض من الخوض في مضامين القرآن سواء كان لمن يتدخل فيتصور تدخله بالكشف عن بعض مضامينه ومزاياه والتي كانت عمدتها الإعجاز اللغوي أو البلاغي بأنه تدخلا إيجابيا، أو من أعجبته نفسه وظن بها خيرا وظل يبحث عن مثالب ليقدمها كنماذج على تناقضات القرآن كما فعل الفيلسوف الكندي.

فالحالين من حيث أصل هذه الخطوة وأقصد مسألة الخوض في القرآن سلبا لمن يريد أن ينقض أو إيجابا لمن يظن أنه يريد أن يعلي من شأن القرآن يعترض طريقهما حاجز يفترض أن يكون بديهيا، وهذا ما كررنا التنويه عليه لأهميته وصلته بأصل البحث، وهو افتراق واختلاف سنخية اللغة الأصلية التي نقل مضامينها وحقائقها الوحي عبر تلك العوالم؛ أي الفرق بين اللغة السماوية أو الملكوتية أو لغة الوحي واللغة الأرضية، وهذا ما وصف به الإمام الحسن العسكري (ع) عمل أهل هذا الطريق بالتشاغل بالقرآن.

٢- دائما تكون الألفاظ والكلمات معبرة عن معان يريدها المتكلم ويقصدها تماما، فإذا كان هذا المفسر أو المؤلف في أي حقل يريد أن يثبته أو ينفيه ليس متأكدا ولا يدري ما يريده المتكلم فهو كذلك:

أولا: لكون أن المتكلم لم يخبره بمراده.

وثانيا: لعلة احتجابه عن المتكلم وعدم اتصاله المباشر به.

وهذين الأمرين كافيين لأن يعجزاه عن بلوغ مرامه والوصول لحقيقة ما، وهذا ما بينه الإمام العسكري (ع)بقوله: "إن أتاك هذا المتكلم بهذا القرآن هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم به منه غير المعاني التي قد ظننتها أنك ذهبت إليها؟ .... فما يدريك لعله قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه، فتكون واضعا لغير معانيه" .

٣- إقرار الفيلسوف الكندي بأنه ليس لغير أهل البيت (ع) قوامة على القرآن وإصابة الحق فيه، ومعرفة أسراره ومراميه.

فكل من يتشاغل بالقرآن ليرى لنفسه الحق والقدرة على الخوض في بحره العميق وأمواجه المتلاطمة عليهم أن يفرغوا مداد أقلامهم ويطلبون مداد السماء فيكتبون ما يملى عليهم.

يقول السيد أحمد الحسن: (فالمطلوب من كل إنسان أن تذكر ويخلص ليكون نبيا يوحى إليه ويعرف الحقيقة وما يريده منه بارئه سبحانه.....ولكن للأسف أكثر الناس يركنون إلى ظلمة هذا العالم الجسماني ويغفلون عن ربهم، فلا يسلك هذا الطريق وهو طريق الوحي إلا قليل، كأنبياء الله ورسله وأولياءه سبحانه، ففتح الله لبقية بني آدم طريق الواسطة أو الخليفة الذي يوصلهم ويعرفهم...)[1].

غفل الخلق وفقدوا فرصتهم؛ بأن يكون كل منهم نبيا أو رسولا يوحى إليه، فهو بالمحصلة أصبح في الجهة الأخرى من الواسطة التي تسمع مباشرة من الله سبحانه أي بطرق الوحي المذكورة وهم حجج الله المتصلون به سبحانه، وبالنتيجة فهي جهة مفتقرة ومحتاجة لمن يوصل لها إرادات السماء ويعرف اللغة التي نزل منها الخطاب أو المراد

١. عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص١٣.

الإلهي، فلا شأن لها للقيام بوظيفة البيان؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه أو أنها سالبة بانتفاء الموضوع كما يقول المناطقة[١].

يقول السيد أحمد الحسن: (فلغة القرآن لا يفهمها من لا يعرف العوالم العلوية التي نزل منها القرآن)[٢].

كيف سيثبت من نصب نفسه قيما على الدين وفسر نصوص الكتب المقدسة النازلة من العوالم العلوية وأعطى معاني لآيات الكتاب بأنه يفهم لغة القرآن؟!

الواقع يكلمنا بأن النتاج التفسيري زيّف الحقاق ومزق النسيج المعرفي الذي يفترض أن يكون مصانا من دخول الغرباء مما تسبب في اختلال المنظومة المعرفية، والتي أدخلت الناس في المتاهات والطرق الموحلة، والتاريخ مليء بهذه الصور المشوهة، وبالنتيجة فإن النتاج التفسيري يثبت أجنبية على لغة القرآن.

قال أمير المؤمنين (ع): لكميل (...يا كميل الدين لله فلا تغترن بأقوال الأمة المخدوعة التي قد ضلت بعد ما اهتدت، وأنكرت وجحدت بعد ما قبلت، يا كميل الدين لله تعالى فلا يقبل الله تعالى من أحد القيام به إلا رسولا أو نبيا أو وصيا. يا كميل هي نبوة ورسالة وإمامة ولا بعد ذلك إلا متولين، ومتغلبين، و ضالين، ومعتدين. يا كميل إن النصارى لم تعطل الله تعالى، ولا اليهود، ولا جحدت موسى ولا عيسى، ولكنهم زادوا ونقصوا وحرفوا وألحدوا فلعنوا ومقتوا ولم يتوبوا ولم يقبلوا)[٣].

فأمر حصر الدين برجل ينصبه الله سبحانه أمر مقطوع به، وكل رجل بعدهم يتبنى أمر الدين ويقدم فهمه للدين ثم يسمح لنفسه ولغيره العمل به فهو بحسب قول أمير المؤمنين (ع) متول، متغلب، ضال ومعتدي، مع أنه يرفع شعار الولاية للنبي أو الوصي، ولكنه يزيد وينقص ويلحد[٤] وبالتالي ترتب عليه ما ترتب؛ لأن كل هذه التجاوزات موجبة لتغييب رسالة السماء وتضييع الغرض منها، وهو إيصال العلم- ونتيجته المعرفة وهي غاية الخلق- للمكلفين عن طريق ناقل العلم الحقيقي وهو الخليفة الإلهي المنصب.

ربما يطلق رجال الدين على المناهج المبتدعة في مدارسهم كالمنطق والنحو وعلم الرجال والتفسير وغيرها بأنها علوم، وهذا في الحقيقة إيهام وتزييف للحقيقة؛ لأن العلم عند أهل العلم الذين ينقلون علوم السماء وهم حجج الله في كل زمان.

---

١. ولذا قالوا "تصدق السالبة بانتفاء الموضوع". فيصدق نحو "أب عيسى بن مريم لم يأكل ولم يشرب ولم ينم ولم يتكلم"... وهكذا، لأنه لم يوجد فلم تثبت له كل هذه الأشياء قطعا، فيقال لمثل هذه السالبة: "سالبة بانتفاء الموضوع".[المنطق - الشيخ محمد رضا المظفر: ص١٦٥].

٢. عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص٣١.

٣. بحار الأنوار - المجلسي: ج٧٤ ص٢٧٤.

٤. لَحَدَ السَّائِلُ": مَالَ عَنْ طَرِيقِ القَصْدِ. ٥. "لَحَدَ السَّهْمُ عَنِ الْهَدَفِ" : عَدَلَ عَنْهُ. ٦. "لَحَدَ إِلَيْهِ" : مَالَ. ٧. "لَحَدَ الْحَاكِمُ" : جَارَ، ظَلَمَ. ٨. "لَحَدَ علَيْهِ فِي شَهَادَتِهِ" : أَثِمَ. (معجم الغني)ألحد الشَّخْصُ فِي الدِّين: مال عنه وحاد وطعن فيه، أشرك بالله "ألحد الشَّخْصُ عن الحَقّ: عدَل عنه وأدخل فيه ما ليس منه- {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا}".معجم اللغة العربية لمعاصرة.

عن ابن مسكان عن ضريس قال: كنت مع أبي بصير عند أبي جعفر(ع) فقال له أبو بصير: بما يعلم عالمكم جعلت فداك؟ قال:(يا أبا محمد إن عالمنا لا يعلم الغيب ولو وكل الله عالمنا إلى نفسه كان كبعضكم ولكن يحدث إليه ساعة بعد ساعة)[١].

عن منصور بن حازم قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: (إن عندنا صحيفة فيه أرش الخدش، قال: قلت: هذا هو العلم، قال: إن هذا ليس بالعلم إنما هو اثرة، إنما العلم الذي يحدث في كل يوم وليلة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعن علي بن أبي طالب (ع))[٢].

ماذا نفهم من هاتين الروايتين:

- ✓ يبين الإمام الصادق (ع) بأن حال خلفاء الله بأنه سيكون حال بقية الناس لولا اتصالهم الدائم بالله وأنهم يوح إليهم في كل آن، وبالتالي فكل ما لديهم من علم فهو من الله خالصا، أما قوله (ع) عن رسول الله (ص) وعن علي (ع) فهذا يعود لما ذكرناه في سابق البحث بأن مستقبل العلم الإلهي الذي واجه الله سبحانه هو محمد (ص)، وهو حجاب الله سبحانه، وهو مدينة العلم، وبما أن عليا (ع) نفسه وبابه[٣] فمنه يخرج العلم للأئمة من بعده (ع).
- ✓ مع أن آل محمد (ع) عندهم صحيفة مذكور فيها حتى أرش الخدش إلا أنهم لم يطلقوا عليها علما، وإنما العلم الحقيقي هو علم الوحي[٤]، الذي ينزل إليهم كل يوم وليلة وساعة بعد ساعة وفي كل آن، وهذا ما لا يملكه كل المدعين ورجال الدين ومن تكلموا في الدين بآرائهم ومقاييسهم.

لذلك لابد من تنصيب ناقل للعلم ليتحقق الغرض من الخلق في هذا العالم وهو المعرفة وهو من يحقق هذا الغرض[٥]، وهذا أكيد يتحقق لاتصاله بالوحي، وان يكون هذا الوحي مستمر، وهو الضامن لبقاء الوجود بوجود ناقل العلم الإلهي، والسبب المتصل بالسماء الذي لولا وجوده لساخت الأرض بأهلها.

وهذا العلم هو العلم الذي يحقق الغرض من الخلق وهو المعرفة -أي معرفة الله- وهو ما تتحقق فيه النجاة.

يبين السيد أحمد الحسن نوع العلم الواجب توافره في خليفة الله بقوله:

(العلم الواجب توفره في خليفة الله في أرضه؛ هو معرفة ما فيه نجاة الناس في الآخرة من عقائد وتشريع، فلابد أن يوحى إليه ليكون عنده فصل الخطاب، ويبين الاعتقاد الحق والشريعة الحقة وما يستجد من تشريع، فالعلم ليس ما كان بل ما يكون، فمعرفة خليفة الله بكتاب الخليفة السابق أو حفظه له أو حفظه للتشريع السابق ليس

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٦ ص٦٠.

٢. نفس المصدر.

٣. قال رسول اله (ص): (أنا مدينة العلم وعلي بابها) [الأمالي- الصدوق: ٤٢٥]، [مستدرك الحاكم- الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٢٦].

٤. لذلك ورد عن الإمام الصادق (ع) في جوابه عن سؤال: فما معرفة الله؟ فقال(ع): (قال: معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته..) [بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٣ ص٨٣]. وهذه علة وجود معرف بالله في كل زمان ينقل إليهم العلم الإلهي الموجب للنجاة وما يستجد في دين الله سبحانه.

٥. أنظر كتاب عقائد الإسلام للسيد أحمد الحسن ص٣٣- ٣٤.

هو العلم الأهم الواجب توفره في خليفة الله في أرضه؛ لأن هذه أمور متوفرة بين أيدي الناس ويمكن أن يحصلها أي إنسان آخر، فلا يكون له فضل بها بل الفضل أن يعلم ما لا يعلم الناس، ولا يكون هذا إلا بالوحي في آناء الليل والنهار. فالكل يحتاجونه لينجو بينما هو لا يحتاج أحدا من الناس في زمانه، تماما كحال آدم والملائكة فعلم آدم كانت تجهله الملائكة مع حاجتهم له (أسمائهم) وبهذا كان له الفضل عليهم ووجب عليهم التعلم وطاعته)[١].

الوحي والأمثال في الكتب المقدسة

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[٢].

واحد من الأدلة على وجود الفارق الكبير؛ بل الغير خاضع للمقايسة بين طبيعة اللغة التي يحملها الوحي والتراكيب اللفظية المقروءة والمسموعة والمكتوبة التي تحكم طبيعة التعاطي بين بني البشر هو استعمال الأمثال في النصوص القرآنية أو نصوص الكتب المقدسة بشكل عام، وهذا يعني أن التباين الكبير يوضح لنا عمق الهوة بين الكلام السماوي الذي يحمله الوحي وبين المخاطبين المحجوبين بعالم الظلمة والمحبوسين بين قضبان العالم المادي.

فلكي يوصل المراد بأقصى ما يمكن من التنزيل أو التنزل ليمكن الناس من التعاطي مع رسائل السماء كان لابد من استعمال الكثير من الأمثال، والدواعي كثيرة منها:

١- اختلاف طبيعة العوالم التي نزل منها الوحي، وبالتالي اختلاف الهيئات والصور والأحداث التي تكتنفها وتغاير طبيعتها وجنسها.
٢- اللغة التي نتحدث بها ونصف بها الأشياء والأحداث في عالمنا المادي الجسماني لغة مقيدة بمادية كل شيء في هذا العالم وهيئته وصورته الجسمانية، باعتبار أن كل شيء له ملكوت ﴿ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٣].
٣- لكي نستعمل لغتنا في هذا العالم ونصف ما يجري في عوالم أخرى خارج حدود جسمانية عالمنا نحتاج إلى أمثلة منتخبة من هذا العالم لوصف أو تقريب الصور والأحداث في تلك العوالم؛ لأن لغة هذا العالم غير كافية لوصف تلك العوالم كونها مقيدة بالتعاطي مع الموجودات في هذا العالم ولوازمه.
٤- محدودية القابل عامل مهم في صناعة شكل ونوع الخطاب السماوي لكي يتسنى لهذا القابل التعاطي معه، فضلا عن قدرة خليفة الله في زمانه على تقنين طبيعة الخطاب والمعاني المراد إيصالها للقابل.

شواهد للأمثال:

أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: " ولله يسجد من في السماوات والأرض " الآية، قال: (أما من يسجد من أهل السماوات طوعا فالملائكة يسجدون طوعا، ومن يسجد من أهل الأرض فمن ولد في الاسلام فهو

---

١. نفس المصدر: ص١٨٨.
٢. العنكبوت: ٤٣.
٣. المؤمنون: ٨٨.

يسجد له طوعا، وأما من يسجد له كرها فمن جبر على الاسلام، وأما من لم يسجد فظله يسجد له بالغداة والعشي.

وقوله: "هل يستوي الأعمى والبصير "يعني المؤمن والكافر" أم هل تستوي الظلمات والنور" أما الظلمات فالكفر، وأما النور فهو الايمان. وقوله: " أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها "يقول: الكبير على قدر كبره، والصغير على قدر صغره. قوله: "الله أنزل من السماء ماء" يقول: أنزل الحق من السماء فاحتملته القلوب بأهوائها: ذو اليقين على قدر يقينه، وذو الشك على قدر شكه، فاحتمل الهوى باطلا كثيرا وجفاء، فالماء هو الحق، والأودية هي القلوب، والسيل هو الهوى، والزبد هو الباطل، والحلية والمتاع هو الحق، قال الله: "كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض" فالزبد وخبث الحلية هو الباطل، والمتاع والحلية هو الحق، من أصاب الزبد وخبث الحلية في الدنيا لم ينتفع به، وكذلك صاحب الباطل يوم القيامة لا ينتفع به، وأما الحلية والمتاع فهو الحق من أصاب الحلية والمتاع في الدنيا انتفع به، وكذلك صاحب الحق يوم القيامة ينفعه " كذلك يضرب الله الأمثال")[١].

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: "وَ أَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبٰالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمّٰا يَعْرِشُونَ" قال: ما بلغ بالنحل أن يوحى إليها، بل فينا نزلت، فنحن النحل، ونحن المقيمون لله في أرضه بأمره، والجبال شيعتنا، والشجر النساء المؤمنات [٢].

عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: (وأوحى ربك إلى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) إلى (ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) فالنحل الأئمة والجبال العرب، والشجر الموالي عتاقه، ومما يعرشون يعنى الأولاد والعبيد ممن لم يعتق. وهو يتولى الله ورسوله والأئمة، والثمرات المختلف ألوانه فنون العلم الذي قد يعلم الأئمة شيعتهم، (فيه شفاء للناس) يقول في العلم شفاء للناس، والشيعة هم الناس، وغير هم الله أعلم بهم ما هم؟ ولو كان كما يزعم أنه العسل الذي يأكله الناس إذا ما أكل منه ولا شرب ذو عاهة الا برأ لقول الله (فيه شفاء للناس) ولا خلف لقول الله، وإنما الشفاء في علم القرآن لقوله (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة [للمؤمنين) فهو شفاء ورحمة] لأهله لا شك فيه ولا مرية، وأهله الأئمة الهدى الذين قال الله: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا)[٣].

وعلى هذا المنوال دأب خلفاء الله على ضرب الأمثال للناس، كما وصف نبي الله عيسى علماء اليهود الذين قطعوا الطريق على الناس بحجة أنهم علماء الدين وهم يعرفون المسيح إذا بعث، فقال (ع): (مثل علماء السوء مثل صخرة وقعت على فم النهر، لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع)[٤].

وعلى لسان عيسى (ع):

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ج٩ ص٢١٦.
٢. تأويل الآيات - شرف الدين الحسيني: ج١ ص٢٥٦-٢٥٧.
٣. تفسير العياشي: ج٢ ص٢٦٣-٢٦٤.
٤. العلم والحكمة في الكتاب والسنة - محمد الريشهري: ص٤٤٦.

(فَكَلَّمَهُمْ كَثِيراً بِأَمْثَالٍ قَائِلاً: هُوَ ذَا الزَّارِعُ قَدْ خَرَجَ لِيَزْرَعَ ٤وَفِيمَا هُوَ يَزْرَعُ سَقَطَ بَعْضٌ عَلَى الطَّرِيقِ فَجَاءَتِ الطُّيُورُ وَأَكَلَتْهُ. ٥وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الأَمَاكِنِ الْمُحْجِرَةِ حَيْثُ لَمْ تَكُنْ لَهُ تُرْبَةٌ كَثِيرَةٌ فَنَبَتَ حَالاً إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عُمْقُ أَرْضٍ. ٦وَلَكِنْ لَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ احْتَرَقَ وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ جَفَّ. ٧وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الشَّوْكِ فَطَلَعَ الشَّوْكُ وَخَنَقَهُ. ٨وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ فَأَعْطَى ثَمَراً بَعْضٌ مِئَةً وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ ثَلاَثِينَ. ٩مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ»

فَتَقَدَّمَ التَّلاَمِيذُ وَقَالُوا لَهُ: «لِمَاذَا تُكَلِّمُهُمْ بِأَمْثَالٍ؟» ١١فَأَجَابَ: «لأَنَّهُ قَدْ أُعْطِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا أَسْرَارَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَأَمَّا لأُولَئِكَ فَلَمْ يُعْطَ. ١٢فَإِنَّ مَنْ لَهُ سَيُعْطَى وَيُزَادُ وَأَمَّا مَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ سَيُؤْخَذُ مِنْهُ. ١٣مِنْ أَجْلِ هَذَا أُكَلِّمُهُمْ بِأَمْثَالٍ لأَنَّهُمْ مُبْصِرِينَ لاَ يُبْصِرُونَ وَسَامِعِينَ لاَ يَسْمَعُونَ وَلاَ يَفْهَمُونَ. ١٤فَقَدْ تَمَّتْ فِيهِمْ نُبُوَّةُ إِشَعْيَاءَ: تَسْمَعُونَ سَمْعاً وَلاَ تَفْهَمُونَ وَمُبْصِرِينَ تُبْصِرُونَ وَلاَ تَنْظُرُونَ. ١٥لأَنَّ قَلْبَ هَذَا الشَّعْبِ قَدْ غَلُظَ وَآذَانَهُمْ قَدْ ثَقُلَ سَمَاعُهَا. وَغَمَّضُوا عُيُونَهُمْ لِئَلاَّ يُبْصِرُوا بِعُيُونِهِمْ وَيَسْمَعُوا بِآذَانِهِمْ وَيَفْهَمُوا بِقُلُوبِهِمْ وَيَرْجِعُوا فَأَشْفِيَهُمْ. ١٦وَلَكِنْ طُوبَى لِعُيُونِكُمْ لأَنَّهَا تُبْصِرُ وَلآذَانِكُمْ لأَنَّهَا تَسْمَعُ. ١٧فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ أَنْبِيَاءَ وَأَبْرَاراً كَثِيرِينَ اشْتَهَوْا أَنْ يَرَوْا مَا أَنْتُمْ تَرَوْنَ وَلَمْ يَرَوْا وَأَنْ يَسْمَعُوا مَا أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَمْ يَسْمَعُوا. ١٨«فَاسْمَعُوا أَنْتُمْ مَثَلَ الزَّارِعِ: ١٩كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ كَلِمَةَ الْمَلَكُوتِ وَلاَ يَفْهَمُ فَيَأْتِي الشِّرِّيرُ وَيَخْطَفُ مَا قَدْ زُرِعَ فِي قَلْبِهِ. هَذَا هُوَ الْمَزْرُوعُ عَلَى الطَّرِيقِ. ٢٠وَالْمَزْرُوعُ عَلَى الأَمَاكِنِ الْمُحْجِرَةِ هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَحَالاً يَقْبَلُهَا بِفَرَحٍ ٢١وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي ذَاتِهِ بَلْ هُوَ إِلَى حِينٍ. فَإِذَا حَدَثَ ضِيقٌ أَوِ اضْطِهَادٌ مِنْ أَجْلِ الْكَلِمَةِ فَحَالاً يَعْثُرُ. ٢٢وَالْمَزْرُوعُ بَيْنَ الشَّوْكِ هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَهَمُّ هَذَا الْعَالَمِ وَغُرُورُ الْغِنَى يَخْنُقَانِ الْكَلِمَةَ فَيَصِيرُ بِلاَ ثَمَرٍ. ٢٣وَأَمَّا الْمَزْرُوعُ عَلَى الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ فَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَيَفْهَمُ. وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي بِثَمَرٍ فَيَصْنَعُ بَعْضٌ مِئَةً وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ ثَلاَثِينَ»[1].

تعليقات:

١- في الرواية الأولى بالرغم من ورود مفردة الوحي وتعلقها بالنحل أجاب أبو عبد الله (ع) بهذا الجواب "ما بلغ بالنحل أن يوحى إليها".

فمرة نفهم: أن الوحي المقصود ليس كما هو الوحي للإنسان، وبالخصوص للرسول أو النبي أو أي خليفة إلهي، وأن الوحي للنحل مختلف بمعنى أن يكون من قبيل ما يكتب في صفحات وجودهم أو خريطة تكوينهم

ومرة نفهم بأن المقصود ليس كما هي صورته في ظاهر الآية وإنما المعنى الحقيقي محتجب بهذه الألفاظ.

٢- منها نعرف الفرق بين اللفظ الظاهر ومعناه الباطن من جهة، وسر الآية وألفاظها المكشوف عند خليفة الله من جهة أخرى.

٣- زيادة على ما بينه أبو عبد الله (ع) في الرواية الأولى يبين لنا أن الآية زاخرة بالمثل، فكل لفظة لها ما يقابلها في التأويل، والذي ربما لا يقتصر على ما طرح في بيان أبو عبد الله (ع) هنا؛ بل يتعدى إلى معان ومصاديق مختلفة يكشف عنها خليفة الله في كل زمان، وواحدة من أسباب ودواعي وأسرار أن القرآن يجري مجرى الشمس والقمر أن له في كل زمان ناطق وله تأويل.

---

١. متى١٣: ٣-٢٣ - مرقس٤: ٢-٢٠- لوقا ٨: ٤-١٥، ١٨.

فالمثل في القرآن متعدد الوظائف:

- فمرة يأتي المثل بسرد قصة حصلت تؤخذ منها العبرة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[١].
- و يأتي المثل لتقريب الصورة أو المعنى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٢].
﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾[٣].
- وصف الأفعال ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[٤].
- لبيان عواقب الأمور ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾[٥].

العلاقة بين الملك والملكوت

الحياة والموت

أرى أن هناك تلازما لهذه المسميات، وأن مفردات الموت والحياة والوحي أحدهما تتكامل حقيقته أو صورته الواقعية بوجود حقيقة وصورة الآخر؛ لأنه تلازم دلالي بالضرورة؛ أي أن مدلولات الموت بحقيقتها تحكي عن مدلولات عكسه وهو الحياة.

أما الوحي بحسب تجلياته وظهوراته المتعلقة بمراتبه فهو الميسم الذي يسم المشخصات التي يصدق عليها مفهوم الموت والحياة؛ لأن من عرّفنا بحقيقة الموت والحياة وبكل تأكيد هو الوحي؛ أي الكتب السماوية المقدسة وأكملها وأشملها القرآن، فضلا عن المحتوى الروائي وصدوره عن تراجمة القرآن.

من جهة أخرى فالموت والحياة بكل معانيها ومراتب وجودها ومنها الموت الجسماني؛ أي أن يرتحل الإنسان عن هذه الحياة وتنتهي علاقة النفس وشهواتها بهذا البدن الذي هو مصدر الافتتان وعلة التعلق بالمادة والشهوات، وهي مصادر غفلة الإنسان عن هدف وجوده الحقيقي في هذا العالم.

---

١. البقرة: ٢١٤.
٢. النور: ٣٥.
٣. البقرة: ١٧.
٤. البقرة: ١٧١.
٥. ابراهيم: ١٨.

ولا شك أن مسألة التخلص من علائق البدن والشهوات التي تسبب الغفلة، وتكون على حساب الآخرة والقرب من الله سبحانه يمكن تحققها بقدر كبير وإن لم يتحقق الموت الجسدي بعد، وهذا ما تحقق لحجج الله الذين انتصروا على الشهوات، وكان لهم الحظ الأوفر من القرب والتعلق به سبحانه.

قال أمير المؤمنين (ع): (وإنما كنت جارا جاوركم بدني أياما)[١].

يبين السيد أحمد الحسن هذا المعنى بقول رسول الله (ص): (من أراد أن ينظر إلى ميت يسير على الأرض فلينظر إلى علي بن أبي طالب (ع))، وقوله (ع) "إنما كنت جاراً جاوركم بدني أياماً"، أي إنّ روحه معلقة بالملأ الأعلى، بل إن من يموت بهذا الموت الممدوح حيٌ وإن مات بدنه، وقد مرَّ في كلام أمير المؤمنين (ع) قول الرسول (ص): (أيها الناس خذوها عن خاتم النبيين (ص) إنه يموت من مات منا وليس بميت ويبلى من بلي منا وليس ببال فلا تقولوا بما لا تعرفون. فإن أكثر الحق فيما تنكرون واعذروا من لا حجة لكم عليه)[٢] ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾: أي إنّ روحه هاجرت إلى الله وتركت جسمه، هاجرت في أرض الله الواسعة، وهاجرت في سبيل الله، أو قل هاجرت في ولي الله إلى الله. ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾؛ لأنه هاجر إلى الله، فأجره على من هاجر له)[٣].

ومسألة الحث على الموت بهذا المعنى واضح بالآيات القرآنية، والذي يَعتبر الموت الجسدي أيسر منه؛ لأن الفرق بين الميت جسديا والميت معنويا هو مقدار العلاقة بين النفس أو الروح بالبدن، وأول من تذوق حلاوة هذا الموت هم خلفاء الله وكل بحسبه؛ لأنهم تجاوزوا الآثار المترتبة على انتزاع النفس من الجسد؛ لأنهم أفسدوا العلاقة المادية والشهوية الوثيقة بين النفس والجسد، والتي تكون مدعاة للشعور بالخوف والألم عند مفارقتها الجسد؛ بل أن بقاءهم كأجساد في هذا العالم يشكل عبئا على أراوحهم المقدسة.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤].

قال أمير المؤمنين (ع): (..والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه..)[٥].

فهؤلاء العظماء اختاروا الموت وهم على قيد الحياة، وهم لا يعانون ما يعاني غيرهم عند الموت أو انفصال النفس عن هذا البدن وذهابها إلى عالمها.

كما أن كثيرا من الناس عدهم القرآن موتى ولكن بمعنى آخر، فهم موتى القلوب ومن اختاروا عالم الظلمة وسكنت أنفسهم أقبية الجهل، فلم يعودوا يسمعوا سوى أصوات وضجيج عالم الظلمة، فحجبوا أسماعهم عن السماع من جهة النور أو الوحي.

---

١. خطب نهج البلاغة: ج٢ ص٣٤.

٢. نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ج٦ص٣٧٣، الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة - الحر العاملي: ج١ ص٢٠٤، ينابيع المودة لذوي القربى - القندوزي: ج٣ ص٤٣٢.

٣. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٤ سؤال ١٤٩.

٤. البقرة: ٩٤.

٥. خطب نهج البلاغة: ج١ ص٤١.

(فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)[١].

وكل ذلك يرجع إلى أن عليا (ع) كان مستمع حقيقي ومصدق مطلق بالوحي الذي أخبره وعرفه حقيقة الموت والحياة.

فهل يمكن أن نصنف كل من خالف ما جاء به الوحي في الكتب السماوية أو ما بينه ترجمان الكتاب ثم اختار طريقا آخر- وأقصد بذلك خرج عن الضوابط التي تلزم كل أحد بالرجوع إلى حمَلة العلم الإلهي ومحال نزوله وترجمان الوحي النازل إليهم في كل زمان-، بأنه لم يعد يسمع وأنه في عداد موتى القلوب؟!!

أعتقد أنه ليست هناك أية مجازفة في الحكم على هؤلاء بأنهم موتى من هذا النوع، وعلاقة الموت والحياة بالخلق فهي مرتبطة بمشروع الوجود والغاية منه وهذا متعلق بالوحي.

فماذا تعني الحياة وما هو الموت؟ أو بالأحرى ماهي فلسفة الحياة والموت بحسب المنظور القرآني؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[٢].

فهذا خطاب واضح الدلالة على أن القوم قبل دعوة الرسول (ص) وقبل أن يسمعوا ما نزل به الوحي فهم موتى وأن ما يدعوهم رسول الله (ص) إليه هو ما يبث فيهم الحياة الحقيقية.

فالحياة بمعنى أن الإنسان يدب على الأرض ويأكل ويشرب ليست حقيقية بل وهمية كوهمية عالم الدنيا ووجوده الاعتباري.

﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

فحقيقة الحياة هي الآخرة، والطريق الذي يوصل الإنسان لها هو العلم والمعرفة ومقدار الاستعداد لقبول وحي الله وقبول ناقله رسول أو نبي أو وصي، والموت الحقيقي هو الجهل والإعراض عن مصدر الوحي، وإن مات الجسد البيولوجي فالنفس لا محالة منتقله إلى عالمها الذي اختارته.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾[٤].

عن ابن عباس: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ) فالأحياء: علي، وحمزة، وجعفر، والحسن، والحسين، وفاطمة، وخديجة (عليهم السلام)، والأموات كفار مكة)[٥].

فلماذا وصف الأحياء عليا، وحمزة، وجعفر، والحسن، والحسين، وفاطمة، وخديجة (عليهم السلام)، وأكيد كل الأنبياء والرسل والأئمة (ع) ونظائر حمزة وجعفر وخديجة؟ أنهم قبلوا أن يكونوا قوابل ساجدة ومطيعة

---

١. الروم: ٥٢.

٢. الأنفال: ٢٤.

٣. العنكبوت: ٦٤.

٤. فاطر: ٢٢.

٥. تأويل الآيات - شرف الدين الحسيني: ج٢ ص٤٨٠.

وقبلوا ما نزل به الوحي فكانت حياتهم من الحي الذي لا يموت والنور الذي لا ظلمة معه، وكفار مكة - ومن سار بركبهم في كل زمان- لم يقبلوا الوحي وقبلوا أن يكونوا محجوبين فضلا عن دورهم في حجب نور الوحي عن الناس.

الحياة من الحي الذي يحيا بفيضه وعلمه من يحيا ويمت من اختار أن يبقى في ظلمة الجهل والصدود عن وحيه سبحانه، فالحياة حياة الأرواح والقلوب التي ترتوي من الماء الحقيقي فترتقي في عوالم الملكوت والحياة الأبدية؛ لأنها من الحي الذي لا يموت.

وربما يقول قائل ما علاقة الحي والحياة بالوحي؛ باختصار شديد هي علاقة حاكية عن فلسفة الحياة والموت وحقيقتهما، فالعلم هو النور وهو الحياة وهو من الله وهو الوحي، أما الموت فهو البقاء في ظلمات الجهل بعيدا عن مسار الوحي، ولا أعتقد أن الموت الجسماني في هذا العالم سوى أنه مغادرة النفس للجسد بمقابل حياته بأداء وظائفه التي تبقيه مطية لها.

(يا بن آدم انا حي لا أموت أطعني فيما أمرتك أجعلك حيا لا تموت،)[١].

سفر المزامير: "لاَ أَمُوتُ بَلْ أَحْيَا وَأُحَدِّثُ بِأَعْمَالِ الرَّبِّ."[٢].

فالعلاقة واضحة بين الحياة الحقيقية والوحي، فعندما يخاطب الله سبحانه نبيه الكريم "أفأنت تسمع الموتى"؛ لأن الموتى هم الذين أغلقوا مسامع قلوبهم بحجب الخط الموازي للوحي، فصاروا لا يسمعون إلا ممن يدعوهم إلى الموت الحقيقي، ومسألة الحياة الأبدية الحقيقية متعلقة بحياة من نوع آخر، حياة تستمد بقاءها من بقاء خالقها وفي عالمها الباقي، وليست الحياة المعارة الموهومة المحكوم عليها بالفناء.

فإحياء الموتى في عالمنا الجسماني أمر يؤكده القرآن ظاهره إحياء الميت وقدرة الله على ذلك[٣] ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾[٤].

فهل من الأجدر أن ينظر إلى إحياء هذا الكائن جسمانيا؟! ما فائدة من يطلق عليه حيا ولا روح له؟! "كالأنعام بل أظل" ثم أنه حتى هذا الوجود الجسماني فهو في النهاية محكوم عليه بالموت، ولكن الحياة الأبدية من تحيا روحه بالإيمان والعلم والتنعم بالعوالم الباقية.

بحسب أهل الظاهر والذين يجعلون لهذا العالم حظ من الوجود الحقيقي فالموت عندهم على الأغلب هو موت البدن ونهاية وجوده في هذا العالم، وهذا التصور متحقق طبقا لممارساتهم ومناهجهم وإن كان بعضهم يقدم ظاهرا لمعنى موت القلوب.

لكن في الحقيقة يمكن أن يكون الإنسان ميتا وهو بعد لم يزل يأكل ويشرب ويعمل ويتعبد بحسب ما يحسبه عبادة! ويمكن أن يحسب من أهل القبور وهو لم يزل يمشي فوق الأرض ويتنعم بها.

---

١. الجواهر السنية - الحر العاملي: ص٣٦٣.

٢. الكتاب المقدس: مز ١١٨: ١٧.

٣. علي بن إبراهيم(....."أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ" رد على من أنكر البعث والنشور) [تفسير القمي: ج٢ ص٣٩٧].

٤. القيامة: ٤٠.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاء وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾[١].

مع أن بعض من أهل التفسير تناول شيء من هذا المعنى:

الفيض الكاشاني: "وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ": (المصرين على الكفر)[٢].

القرطبي في تفسيره: "وما أنت بمسمع من في القبور"،(أي هم بمنزلة [أهل] القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه)[٣].

البيضاوي في تفسيره: (ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات ومبالغة في إقناطه عنهم)[٤].

﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[٥].

(... أي ان هؤلاء الذين تدعوهم لا يسمعون ما تقول كما لا يسمع الموتى والصم ...)[٦].

فاقترن عدم السمع بالموتى وعكسه بالمؤمنين بالآيات، فمنها نستطيع أن نقول أن الموتى الذين تقصدهم الآية هم موتى الروح أو موتى القلوب.

قال أمير المؤمنين (ع): (.. وآخر قد تسمى عالما وليس به. فاقتبس جهائل من جهال، وأضاليل من ضلال. ونصب للناس شركا من حبائل غرور وقول زور. قد حمل الكتاب على آرائه. وعطف الحق على أهوائه يؤمن من العظائم ويهون كبير الجرائم. يقول أقف عند الشبهات وفيها وقع. واعتزل البدع وبينها اضطجع. فالصورة صورة إنسان. والقلب قلب حيوان. لا يعرف باب الهدى فيتبعه. ولا باب العمى فيصد عنه. فذلك ميت الأحياء فأين تذهبون. وأنى تؤفكون، والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة فأين يتاه بكم. بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق. فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العطاش.

أيها الناس خذوها عن خاتم النبيين صلى الله عليه وآله إنه يموت من مات منا وليس بميت ويبلى من بلي منا وليس ببال فلا تقولوا بما لا تعرفون. فإن أكثر الحق فيما تنكرون واعذروا من لا حجة لكم عليه. وأنا هو. ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر وأترك فيكم الثقل الأصغر. وركزت فيكم راية الإيمان ووقفتكم على حدود الحلال والحرام. وألبستكم العافية من عدلي وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي. فلا تستعملوا الرأي فيما لا يدرك قعره البصر ولا تتغلغل إليه الفكر...)[٧].

---

١. فاطر: ٢٢.
٢. التفسير الصافي - الفيض الكاشاني: ج٦ ص١٢٦.
٣. تفسير القرطبي: ج١٤ ص٣٤٠.
٤. تفسير البيضاوي: ج٤ ص٢٥٧.
٥. الروم: ٥٢-٥٣.
٦. تفسير القمّي: ج٢ ص١٣٠.
٧. نهج البلاغة - خطب الإمام علي (ع): ج١ ص١٥٣- ١٥٥.

يبدو من كلام أمير المؤمنين (ع) بقوله "لا يدرك قعره البصر" أن معاني الكتاب وأسراره وعمقه وحقائقه الملكوتية لا تدرك بعمل حسي؛ أي أن تنظر بعينك لآيات الكتاب وتشتغل عليها بغية الخروج ببيان وفهم لمعانيها ومقاصدها، فهو لا يعدوا كونه استعمالا للرأي، وقوله (ع): " لا تتغلغل إليه الفكر" فالحصول على معانيه ليس عملا فكريا؛ لأن الفكر محدود لا يتجاوز حدود هذا العالم وبعض ظواهره فضلا عن الخروج من ربقته باستعمال الرأي وإنزاله منزل التطبيق في العقيدة والتشريع.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[١].

أبو الجارود عن الباقر (ع) أنه قال: قوله تعالى * (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) * نزلت في ولاية أمير المؤمنين عليه السلام))[٢].

عن أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) في قوله " يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم " يقول:(ولاية علي بن أبي طالب (ع) فان اتباعكم إياه وولايته اجمع لأمركم وأبقى للعدل فيكم)[٣].

فما علاقة ولاية علي (ع) بما يحييهم به سوى أنه يربطهم بالوحي؛ أي بالعلم والنور والمعرفة بالله وهي الحياة الأبدية وهي غاية خلقهم، فهذه العلاقة التي تجعلهم أحياء بحياة العلم والوحي.

عن الباقر وأمير المؤمنين (عليهما السلام) في قوله تعالى:

"ليس البر بأن تأتوا البيوت" الآية، وقوله تعالى: " وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية: (نحن البيوت التي أمر الله أن تؤتى من أبوابها، نحن باب الله وبيوته التي يؤتى منه، فمن تابعنا وأقر بولايتنا فقد أتى البيوت من أبوابها، ومن خالفنا وفضل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها)[٤].

وقال النبي (ص): (أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب)[٥].

لما يحييكم، فالحياة مرتبطة بما يبعثها فيهم فالذي يحييهم به هو ما ينزل من الحي وهو الوحي، وإنما قال هي ولاية علي (ع) أي ولاية علي ومن يقوم مقامه من الأئمة حتى نهاية عالم الامتحان أو عالم الدنيا.

فهم أبواب الوحي، والوحي وجد طريقه إليهم فنزل في قلوبهم وبيوتهم كما بين الإمام الصادق (ع)، وبالتالي فالذين لم يختصهم الله بالوحي وهم غير هؤلاء الذين نصبهم وسماهم في كل زمان لا يغترفون من معين الوحي وإنما من وحي عقولهم قطعا، إذا كان ما يقدمون رأيا أو اجتهادا أو تفسيرا لآيات الكتاب، ولم ينقلوا منهم أو عنهم

---

١. الأنفال: ٢٤.
٢. تأويل الآيات - شرف الدين الحسيني: ج١ ص١٩١.
٣. تفسير القمي: ج١ ص١٧١.
٤. الاحتجاج - الشيخ الطبرسي: ج١ص٣٣٨.
٥. بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج٤٠ ص٢٠٣.

عليهم السلام، فهم يقومون بعملية عقلنة الوحي، وطبعا بحسبهم وبحسب من يقبلون منهم ويعتمدون رأيهم، وإلا فالوحي هو الوحي وكتاب الله ومراداته محفوظة عند ترجمانه في كل زمان، فهم حياة العلم وممات الجهل.

ربما يمكننا القول بأن الموت يمكن أن يكون اختياريا، وهو أن يقتل الإنسان نفسه الأمارة ويفصم عرى التعلق بكل ما يشدها ويربطها بالشهوات فترتقي روحه وتتخلص من أثقال هذا العالم المادي وتنفتح على عالم الملكوت، وأول خطوة حقيقية في هذا المضمار أن يتخلى الإنسان عن هواه ويسحق أناه ويسلم لمن أمره الله أن يسلم لهم.

"موتوا قبل أن تموتوا" منسوب لجلال الدين الرومي، وهذا موت ممدوح بخلاف من يموت جسده في هذا العالم وتنتهي فرصته ونفسه محبوسة في عالم الظلمة مقيدة بحبائل الدنيا، فلا يكون لها حظ ولا نصيب من عالم الملكوت ولا تسمع من الوحي.

وهذا المعنى قد يعبّر عنه بالموت الاختياري، ففي تفسير الحديث القدسي في خطاب نبي الله عيسى (ع) في ضمن حديث طويل: (رح من الدنيا يوماً فيوماً)، قال ابن القارياغدي: أي اقطع عنك كلّ يوم من تعلّقات الدنيا حتى لا يصعب عليك فراقها عند انقضائها بلوغ أجلك؛ فإنّ الموت الاختياري أسهل من الموت الاضطراري، وقطع التعلقات بالتدريج أمكن من قطعها فجأة)[١].

أقول حتى من يشخص تأثير وفعل التعلق بالحياة الدنيا وما تعكسه على حالة الموت اختياريا أو اضطراريا فهو باق في دائرة التناقض، مالم يستفيق من غفلة الاعتداد بالرأي والإقرار فعليا بالحاجة المطلقة لخليفة الله في زمانه يأخذ منه دينه وأحكامه وشرائعه، وبالتالي فلا أعتقد أنه سيغادر محطة الموت الاضطراري وإن ظن أنه وقع على حقيقة ومعنى الموت الاختياري وافتراقه عن الموت الاضطراري، فبمجرد دخوله في ساحة أهل الرأي والمعتدين بمنهج استنطاق النصوص المقدسة فقد وقع في المحذور.

فصفحة وجودنا في هذا العالم يفترض أنها تنقسم إلى قسمين، فانشغالها أما منصرف لعالم الملكوت وما يأتي منه، فهي بهذا المقدار تسمع من الوحي وتكون حياتها به، وأما أنها متعلقة بعالم الملك والظلمة والشهوات وتغترف من مياهها الآسنة وقوانينها الموضوعة وأحكامها المبتدعة، وهذه طرق ووسائل وحي الشيطان.

طعام الروح وطعام الجسد

كما أن الإنسان في هذا العالم يحتاج للطعام المادي ليقوّم بدنه ويستطيع جسمه أن يؤدي وظائفه البيولوجية ويسد رغباته، والتي وإن كان الإنسان في حال تاركا للشهوات ومنصرفا للتخلي عنها والتحلي بفضائل الأخلاق والعبادة، فهو يحتاج بهذا المقدار أن يقوم صلبه ليقوى على العبادة وتشف روحه وتنفتح لها آفاق الملكوت، فبهذا المعنى فإن روحه تحتاج إلى الطعام الذي يناسبها لترتقي وتسعد وتهنأ ببركات ما يليق بها في مقاماتها التي ترتقي إليها.

قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾[٢].

---

١. البضاعة المزجاة - ابن قارياغدي: ج٢ ص٣٣٨، وقريب منه في مرآة العقول - المجلسي: ج٢٥ ص٣١٧.

٢. عبس: ٢٤.

الله سبحانه يريد للإنسان أن يرتقي في ملكوته، والملكوت متعلق بروح الإنسان وليس بجسده؛ بل أن الجسد حجاب الروح، وكلما ازدادت تعلقات هذا الجسد بهذا العالم من مأكل وملبس وملذات فإنها ستؤدي إلى انشغال النفس عن ارتقاءها بسبب أثقال تعلقها بعالم المادة وظلمتها.

فالإنسان بين قوتين، قوة تدعوه وتجذبه لعالم الملكوت لسماع وحي الله وهي قوة الإيمان وهذا يستدعي التخلي عن اللذائذ والشهوات والانشغالات، وقوة تدعوه وتجذبه للتشبث بهذا العالم المادي والركون إلى ما يشده إليه وتصده عن الملكوت، وهذه قوة الشيطان أو النفس والهوى، فلذلك عندما نقرأ هذه الآية المباركة من هذه الزاوية وفيها دعوة الله سبحانه للعبد، فأكيد أن مورد الطعام سيكون طعام الروح؛ لأنه طالما وردت أحاديث وروايات كثيرة توصي بقلة الطعام وآثاره الإيجابية على نشاط الجسد وصحته وبالتالي تمكن الإنسان من التوجه للعبادة وذكر الله سبحانه.

قال رسول الله (ص) :(من قل طعمه صح بطنه وصفا قلبه، ومن كثر طعمه سقم بطنه وقسا قلبه)[١].

وعنه (ص): (البسوا الصوف وكلوا في أنصاف البطون، فإنه جزء من النبوة)، وقال (ص) أيضا: وقال أيضا: البسوا الصوف وشمروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماوات)[٢].

قال الإمام علي (ع): (من قل أكله صفا فكره)[٣].

قال بكر بن خنيس: وكان يقال: الظمآن الجائع أفهم للموعظة، وقلبه إلى الرقة أسرع[٤].

وعن أبي سليمان الداراني قال: (إذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة، فلا تأكل حتى تقضيها؛ فإن الأكل يغير العقل)[٥].

وهذه كلها دعوة للتخلص من الانشغال بالبدن والدنيا على حساب السماح لانطلاق الروح في عالمها الملكوتي لتسمع كلمات الرب.

سؤال وجه للسيد أحمد الحسن في معنى الآية: "لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا" فأجاب:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾: أي ليس على الذين آمنوا بالرسول (ص)، وعملوا الصالحات: أي تمسكوا بالولاية وبخلفائه والأئمة من بعده، وهم أهل البيت (ع)، جناح فيما طعموا: هذا هو طعام الروح وهو العلم، أي فيما أخذوا من علم رسول الله (ص) وأهل بيته (ع)، وعلمهم هو الشجرة التي نهى

---

١. شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ج١٩ص١٨٧، ميزان الحكمة - محمد الريشهري: ج١ ص٨٨.
٢. مكارم الأخلاق- الشيخ الطبرسي: ص١١٥.
٣. ميزان الحكمة - محمد الريشهري: ج١ ص٨٨.
٤. كتاب الجوع - لأبن أبي الدنيا: ص١٠٣ح١٥٧.
٥. كتاب جامع العلوم والحكم - الأرنؤوط: ج٢ ص٤٧١ح٧٤.

الله آدم عن الاقتراب منها، وفي الرواية عنهم (ع) في قول تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾[١]، أي: إلى علمه من أين يأخذه)[٢])[٣].

فالطعام مرة يكون ممدوحا وأخرى مذموما، وهذا ما يفرق بين طعام السماء أو طعام الروح وطعام الدنيا أو طعام الجسد، ولهذا يترتب على كل منهما أثر.

فكيف يمكن أن نقرأ بالطعام يموت ابن آدم وبه يحيا في آن واحد؟!

سئل السيد أحمد الحسن: قال الصادق (ع) ما معناه: (إن استطعت أن لا تأكل إلا الله فافعل) ما معنى هذا الحديث؟

(أي أن تكون ذاكراً لله سبحانه وتعالى على كل حال فالذكر طعام الروح، ثم أن تقلل طعام الجسد بقدر الحاجة له، أي أن يكون للقوة لا للشهوة، قال عيسى (ع): (ليس بالطعام وحده يحيى ابن آدم، بل بكلمة الله).... وهكذا يحصل الإنسان على المقام في السماوات الملكوتية، ثم إنه يطعم ويسقى دونما طعام جسماني مادي..... والحقيقة التي يجب أن يعرفها الناس هي أنه: (بالطعام يموت ابن آدم)، فبالطعام والشهوات تشغل الروح عن رقيها، وتنكب على تدبير هذا البدن الجسماني، وهذا الانشغال بالنسبة للروح هو نوع من الموت التدريجي، كما أنّ الذكر والسعي في طريق الله سبحانه وتعالى هو نوع من الحياة والرقي التدريجي)[٤].

فطعام الروح يناسب التجرد عن علائق العالم الجسماني ويجذبها إلى طريق الوحي لتكون سامعة وواعية لما يريده الله سبحانه من رسائل الوحي، والذي يكلم الأرواح المستفيقة، وعكسها يكون عالم الأجسام أو الحجب التي كلما زاد التصاقها في عالمها الاضطراري -عالم الامتحان- وتشعبت انشغالات النفس فيه بعدت عن طريق الملكوت، فلم ترق لتكون روحا سامعة مطيعة.

فمائدة الأجساد أو طعامها تجل في عالم الملك لمائدة الأرواح وطعامها، وشتان بين المائدتين و بين عالم الملك المحجوب بجسمانيته وظلمانيته وعالم الملكوت المضيء بنورانيته، فمتى نعرف أن كل ما يصلنا بالله ويوصلنا إليه هو التجرد عن ظلمات المادة والسياحة في عالم الملكوت وسماع كلمات الوحي من الملكوت نكون قد عرفنا مبتدأ الطريق، وأن النجاة بلزوم وطاعة من هيمنوا على عوالم الملكوت ونزل إليهم الوحي.

إذا كان ولابد من طعام الجسد البايلوجي لتستمر حياة الإنسان ويستطيع أن يقوم بوظائفه وأهمها وركيزتها الأساس هي العبادة التي خلق من أجلها، فلابد من طعام حلال تغذي خلاصته قلب الإنسان ليكون موضعا سليما نقيا تتصل به الروح وتربطه بعالم الملكوت، وهذه أشرف غاية يحققها الإنسان من وجوده في هذا العالم.

---

١. عبس: ٢٤.

٢. عن زيد الشحام، عن أبي جعفر (ع) في قول الله عز وجل: " فلينظر الإنسان إلى طعامه " قال: قلت ما طعامه؟ قال: (علمه الذي يأخذه، عمن يأخذه) [الكافي - الكليني: ج١٥٠].

٣. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٣ س٩١.

٤. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٣ س١٠٢.

يقول السيد أحمد الحسن: (والطعام الحرام يؤثر على القلب؛ لأنه يجري في الدم ويصل أكثره إلى القلب الجسماني في الصدر، والصدر هو موضع اتصال الروح بالجسد، والطعام الطيب يؤثر أيضاً إيجاباً على قلب الإنسان واتصاله بملكوت السماوات ورؤيته لملكوت السماوات؛ ولهذا حذّر الله سبحانه وتعالى من طلبوا مائدة السماء إنهم إن كفروا سيعذبهم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ﴾؛ وذلك لأنّ مائدة السماء هي طعام حلال وطيب ويؤثر على القلب فيرون ملكوت السماوات وتطمئن قلوبهم بذلك، ولهذا هم أنفسهم عللوا طلبهم لمائدة السماء لكي تطمئن قلوبهم: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ ولم يقصدوا أكيداً المعجزة فكثيرة هي المعاجز التي رؤوها من عيسى(ع) ولا خصوصية لمائدة السماء كمعجزة لتسبب اطمئنان القلب دون غيرها، وإنّما الذي يسبب اطمئنان القلب هو طعام السماء الحلال الطيب المبارك الذي يجعلهم ينظرون في ملكوت السماوات: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ @ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ @ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ @ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ﴾)[١].

فالغاية من طعام الجسد وأن يكون حلالا ليمكن الانسان النظر في ملكوت السموات، وأن يكون قادرا على التواصل مع رسائل الملكوت وقبولها والتصديق بها ومعرفة الرجل الذي يربطه بملكوت الله، فيصدق الرؤيا التي تشخص الرجل الإلهي الذي يعرفه بالله ويبين له حقائق ومعاني رسائل الوحي الإلهي.

العقل والدنيا

لكي نحصل على مقاربة نستطيع من خلالها فهم هذه العلاقة لابد أن نعرف ما المقصود بالدنيا، وكيف وصفها القرآن وماذا قال عنها خلفاء الله (ع) ولو بشكل موجز؛ لأن البسط في موضوع الدنيا ربما يحتاج إلى بحوث مطولة، ولكن نحاول أن نستعرض منها الجانب الذي يتعلق ببحثنا وبالخصوص موضوع العقل لما له من أهمية بالغة الخطورة إذا ما ابتعدنا عن فهم مكامن هذه الخطورة.

طالما ذُكرت الدنيا في النصوص القرآنية بمقابل الآخرة، وأنها دار امتحان تصارع فيها النفس المريدة كل ما يجعلها ملتصقة بها وبمظاهرها الخداعة، وتصارع الهوى الذي يبعدها عن الآخرة، فصراع النفس قائم ومحتدم بين هذين العالمين:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[٢].

﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾[٣].

---

١. الجواب المنير عبر الأثير- السيد أحمد الحسن: ج٣ س٢١٩.

٢. آل عمران: ١٥٢.

٣. النساء: ٧٤.

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾[١].

فالله سبحانه يحثنا على طلب الآخرة :

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[٢].

وبالمقابل يذم الدنيا:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٣].

ويمدح الآخرة في قوله تعالى:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[٤].

إذن لم يبق من الدنيا شأن سوى أنها دار امتحان وافتتان بشهواتها وغفلة أهلها، ثم أنها بعد ذلك دار زوال نزل إليها خلفاء الله مذكرين وداعين للآخرة، وجاؤوا بالكتب المنزلة والمنهج القويم يحملون رسائل الوحي وتعاليم السماء التي يرتقي من يقبلها ويعمل بها للآخرة لعله يتذكر من يتذكر.

كل الأنبياء والرسل والأئمة(ع) كرسوا طاقاتهم ورسائلهم ودعواتهم للخلق لسلوك طريق الملكوت والتخلص من حب الدنيا وشراكها ومصائدها وسماع صوت الملكوت.

الحقيقة هو لكونها وهم ووجود غير حقيقي؛ ولأن هذا الترك سيؤدي إلى إفراغ صفحة وجود الإنسان مما يشغلها عن استقبال وحي الله.

أما لماذا نحن موجودون في هذا العالم؟ في الحقيقة الهدف لا يعدو البحث عن نقطة الاتصال بالوحي وسماع كلمات الله ومعرفته سبحانه وهو امتحان الخلق، وهي وكما مر سابقا معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته، فدعوة الأنبياء والرسل والأئمة(ع) الناس لترك الدنيا وحب الدنيا هو لغرض ولهدف سامي وعظيم، وهو افساح المجال للنور والوحي وكلام الله أن يصل لأرواحنا ويخاطبها لتنجذب وتنشد لعالم الغيب وتعيش حياتها الحقيقية.

فالآخرة لا تنال إلا باتباع ذوي العقول الذين يرشدونا إليها وإلى نعيمها بالعلم الرباني وتعاليم السماء الحقة.

عن الصادق(ع): (حب الدنيا يفسد العقل، ويهم القلب عن سماع الحكمة، ويوجب أليم العقاب)[٥].

عن أمير المؤمنين (ع): (زخارف الدنيا تفسد العقول الضعيفة)[٦].

---

١. النساء: ٧٧.

٢. الأنفال: ٦٧.

٣. آل عمران: ١٨٠.

٤. الأنعام: ٣٢.

٥. ميزان الحكمة - الريشهري: ج٢ ص٨٩٧.

٦. موسوعة العقائد الإسلامية - محمد الريشهري: ج١ ص٣١٠.

وعنه (ع): (الدنيا مصرع العقول)[١].

فما علاقة حب الدنيا بفساد العقل ولماذا وصفها أمير المؤمنين (ع) مصرع العقول؟!

إذا علمنا أن الدنيا عالم ظلمة وعالم متقهقر عن عوالم الملكوت والنور، ففرصة أن تنجوا العقول أو عقول أهلها من مصيدة فسادها ومصرعها معدومة إذا لم يفسخ العقد معها مَن تَعلقَ بها وهام في زخارفها وشهواتها، فالعقل سيكون منشغل في سفاسفها محجوب عن الاتصال بملكوته الذي يفترض أن يتوجه إليه، فهو ابتداءً صورة العقل التام الذي يفيض عليه من النور بمقدار ما يتوجه إليه ويقبَل منه، فالغفلة والتعلق بحب الدنيا وزخارفها ستكون هي الحجاب الذي يمنع اتصاله بالملكوت وبالتالي خلاصه من براثن الدنيا ومخالبها.

قال الإمام السجاد (ع): (إلهي أسكَنتَنا داراً حَفَرَت لَنا حُفَرَ مَكرِها وَعَلَّقَتنا بِأيدي المَنايا في حَبائِل غَدرِها. فَإِلَيْكَ نَلْتَجِئُ مِنْ مَكائِدِ خُدَعِها، وَبِكَ نَعْتَصِمُ مِنَ الاِغْتِرارِ بِزَخارِفِ زِينَتِها)[٢].

ولا يتصور البعض أن زخارف الدنيا وحب الدنيا هو فقط ما اعتدنا أن نسمعه ونشاهده من ممارسات يتعاطاها أهل الدنيا كحب المال والجاه والترف والغوص في أوحال الغفلة، بل يتعدى الأمر ليشمل أناس يؤدون الفرائض ويقيمون على الطاعات ولا يقدمون على الفواحش المتعارفة؛ بل قد يشار إليهم بالبنان في التقوى والعلم، وهذا هو الموضع الأكثر خطرا، فهم أناس متدينون، لكنهم نسجوا من عقولهم القاصرة مناهج وقواعد شكلت لديهم منظومة للدين تظافرت في بناءها جهود الوضّاعين، فصاروا ينهل بعضهم من بعض، فهؤلاء محجوبون قطعا عن مصدر اللطف والعلم الحقيقي ومحكوم عليهم بفساد عقولهم.

عن أبي عبد الله (ع): (...ولا سواء من اعتصم الناس به، ولا سواء من ذهب حيث ذهب الناس، ذهب الناس إلى عيون كدرة يفرغ بعضها في بعض، وذهب من ذهب إلينا إلى عين صافية تجري بأمور لا نفاد لها ولا انقطاع)[٣].

فهؤلاء أصحاب العقول المحجوبة عن الله؛ لأنهم لم يقروا بالفقر ووثقوا بجهالاتهم وسموها علما، وتركوا صورة الله وحملة العلم الحقيقي، وهم أصحاب العقول التامة والناطقين عنه سبحانه.

قال الله لداود: (يا داود، احذر القلوب المعلقة بشهوات الدنيا، عقولها محجوبة عني)[٤].

فما هو العقل التام وما هو مقامه وما هي علاقته بعالم الملكوت؟

مقام العقل في السماء السابعة، والسماء السابعة أعلى مراتب عالم الملكوت، والآيات القرآنية بل والكتب المقدسة وأحاديث الأنبياء وروايات الأئمة (ع) تجمع وتؤكد بأن الانتماء إلى منظومة الملكوت أو عالم الملكوت -

---

١. نفس المصدر السابق.

٢. الصحيفة السجادية: مناجاة الزاهدين.

٣. الكافي - الشيخ الكليني: ج١ ص١٨٤. يقول المجلسي (رحمه الله): (قوله، ولا سواء من اعتصم الناس به، أي ونحن، فالمراد بالناس المخالفون، أو المراد كل الناس، أي لا يتساوى من اعتصم به الناس بعضهم مع بعض ثم بين عليه السلام عدم المساواة بأن الناس يذهبون إلى عيون من العلم مكدرة بالشكوك والشبهات والجهالات (يفرغ) أي يصب بعضها في بعض، كناية عن أن كلا منهم يرجع إلى الآخر فيما يجهله، وليس فيهم من يستغني عن غيره ويكمل في علمه)[بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٤ ص٢٥٣].

٤. الاختصاص - المفيد: ص٣٣٥.

وهو عالم مثالي يقوم على العلاقة الوطيدة والحقيقية بينه وبين الروح، وهذا بدوره يستلزم الانسلاخ عن عالم المادة أو التجرد عن كل ما يربطنا به؛ لأنه عالم يقتضي التعلق والالتصاق بالشهوات ومداراة البدن وتلبية حاجاته التي تمتد وتتفرع إلى حدود بعيدة ينغمس الإنسان في لهواتها وتستولي عليه الغفلة والبقاء بعيدا عن عوالم الروح، وآخرها عالم السماء السابعة، وهو عالم العقل، وهو مرتبة ومقام يحوزه الأنبياء والمرسلين والأوصياء (ع) الذين اصطفاهم الله وسماهم، مع أنه مفتوح لمن يخلص بمقدار يأهله أن يكون من أهل هذا المقام.

يقول السيد أحمد الحسن: (...فالإنسان موجود في السماء الدنيا والمطلوب منه أن يرتقي إلى السماء السابعة ليتم عقله ويعرف ربه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١] أي لعلكم ترتقون إلى السماء السابعة الكلية؛ سماء العقل)[٢].

فكل من لم يصل إلى مقام العقل أو السماء السابعة الكلية ويستقر مقامه فيها فليس له من مقام العقل إلا ظله وهم ما دون الأنبياء والرسل والأوصياء (ع) ولعل هذه علة اختصاص الوحي بهم - الوحي الرسالي- الذي يعلم من خلاله الحجة الإلهي مراد الله ويعلم ما تنطوي عليه كلمات الله في كتبه المقدسة المنزلة إليهم، وقد علم سبحانه منهم الوفاء والأمانة والإخلاص فأتمنهم على وحيه.

فالأنبياء والأوصياء (ع) أخلصوا لله سبحانه إخلاصا مكنهم من الحصول على مقام العقل الكلي في السماء السابعة، فصاروا هم المخصوصون بمعرفة الخطاب الإلهي النازل منه عبر الحجب النورية ومقام العقل، والذي غالبا ما ورد في الآيات والروايات الذي به يعرف الله ويعرف مراده ويعرف خطابه النازل عن طريق الوحي، هو مقام السابعة الكلية.

من خلال ما تبين نفهم لماذا قال الإمام السجاد (ع) إن دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة.

قال علي بن الحسين (عليهما السلام): (إن دين الله عز وجل لا يصاب بالعقول الناقصة والآراء الباطلة والمقاييس الفاسدة، ولا يصاب إلا بالتسليم، فمن سلم لنا سلم، ومن اقتدى بنا هدى، ومن كان يعمل بالقياس والرأي هلك، ومن وجد في نفسه شيئا مما نقوله أو نقضي به حرجا كفر بالذي أنزل السبع المثاني والقرآن العظيم وهو لا يعلم)[٣].

فالعقول الناقصة بمقابل العقول الكاملة أو التامة التي نالها حجج الله (ع)؛ ولأنها لم ترتقي لتكون في مرتبة سماء العقل أو السماء السابعة الكلية، فإن دون هذه المرتبة لمن يدعي العلم ليس سوى آراء باطلة ومقاييس فاسدة؛ لأن حقائق الدين الإلهي وما ضمنتها الكتب السماوية إنما تُنال في مقام العقل التام أو السماء السابعة الكلية.

---

١. غافر: ٦٧.

٢. الجواب المنير - السيد أحمد الحسن: ج٤ ص٣١١.

٣. كمال الدين وتمام النعمة - الصدوق: ج١ ص٣٥٢.

فأمر طبيعي أن تكون سلامة الدين لمن لم ينال هذه المرتبة في التسليم لأصحاب هذه المرتبة التي لا يمكن لأحد أن يدعي أنه يدري ويعرف بحقائقها وحقائق النصوص التي وصلتنا منها، وقيدت بحدود هذا العالم ولوازمه، وأهمها الألفاظ وصور وتشكيلات الحروف والآيات التي هي من لوازم هذا العالم[١] وهي الوسيلة الممكنة لنقل رسائل الوحي، وعلة ذلك متعلقة بالقابل المحدود وعجزه عن التكيف مع طبيعة، ونوع المعلومة النازلة من تلك العوالم القدسية.

لا يمكن نسبة أي درجة من درجات العجز للجهة التي جاء منها الوارد الملكوتي أبدا، وإنما يرجع ذلك إلى قصور وتقصير القابل في التعامل مع المعلومة الملكوتية، وبالتالي ظلت رهينة ترجمانها الحقيقي، والعارف بما وراء هذه النصوص ومراد قائلها الأول؛ ولأنها وصلت إلينا بهذا الشكل بعد رحلة التنزل من العوالم العلوية، والتي اقتضت أن تتلائم مع كل عالم تنزل إليه بما يوافق طبيعة ونوع المعلومة التي يستطيع أن يفهمها أهل كل عالم بلغة يناسب ذلك المقام وتلك المرتبة.

فالعقل الناقص أو ظل العقل يبقى يدور في فلك الأوهام، ولا يمكن أن يدرك شيئا من الحقائق - التي أطْلَع الله سبحانه خلفاءه عليها وكل بحسبه - إلا أن يرتبط صاحب العقل الناقص، والذي ضيع فرصته في أن يكون من أهل العقول التامة - بسبب غفلته- مع صاحب العقل التام في زمانه، ويسير بمعيته ويرتقي لينال من تلك الحقائق المعرفية التي خلق من أجلها بمقدار تسليمه وإخلاصه.

إذن مفردة العقل أو العقول عندما ترد في القرآن أو في روايات الأئمة (ع) ليست كما يتوهم أهل الظاهر بأنها المُدرِكة التي يمتاز بها بنو البشر، وأنه بها تدرك الحقائق وينال بها دين الله ويعرف بها مراد الله من خلال نصوص الكتب المقدسة، فتفسر آياتها بهذا الإطار وتتم عقلنة الخطاب الإلهي بمعالجة نصوصه المقدسة بموجب المباني والقواعد والضوابط والمسارات التي تم اعتمادها.

ووفق ما تم اعتماده من المناهج العقلية أصبحت نصوص الكتب المقدسة وأحاديث وروايات حجج الله تحت طائلة المباني والقواعد المبتدعة، لتتطابق وتنطبق على ما وضع لها.

في رسالة الصادق (ع) للشيعة وأمرهم بمدارستها:

(قد أنزل الله القرآن وجعل فيه تبيان كل شيء، وجعل للقرآن ولتعلم القرآن أهلا لا يسع أهل علم القرآن الذين أتاهم الله علمه أن يأخذوا فيه بهوى ولا رأي ولا مقاييس، أغناهم الله عن ذلك بما آتاهم الله من علمه، وخصّهم به، وضعه عندهم كرامة من الله أكرمهم بها. وهم أهل الذكر الذين أمر الله هذه الامّة بسؤالهم، وهم الذين من سألهم .وقد سبق في علم الله أن يصدقهم ويتبع أثرهم .أرشدوه وأعطوه من علم القرآن ما يهتدي به إلى الله بإذنه وإلى جميع سبل الحق. وهم الذين لا يرغب عنهم وعن مسألتهم وعن علمهم الذي أكرمهم الله به وجعله عندهم

---

١. (المشكلة أنها من عالم آخر فلا يمكن أن تعبر عنها بدقة تامة بهذه الألفاظ التي هي في حقيقتها من هذا العالم وتعبر عن هذا العالم، فقولي لك الحيز والحدث إنما سيجرّ إلى فهمك المعاني المقابلة لهذه الألفاظ في هذا العالم؛ حيث إنّ ذاك العالم لا تعبر الألفاظ عنه تماماً مهما كانت؛ لأنها غير معدة للتعبير عنه، فهي ليست منه بل غريبة عنه)[مع العبد الصالح - السيد أحمد الحسن: معنى السماء الأولى].

إلّا من سبق عليه في علم الله الشقاء في أصل الخلق تحت الأظلّة، فأولئك الذين يرغبون عن سؤال أهل الذكر، والذين أتاهم الله علم القرآن ووضعه عندهم وأمرهم بسؤالهم)[١].

عن علي بن حسان، عن عمه عبد الرحمن بن كثير قال: قلت لأبي عبد الله (ع): (فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) قال: الذكر محمد (ص)، ونحن أهله، ونحن المسؤولون قال: قلت:* (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون)* قال: إيانا عنى ونحن أهل الذكر ونحن المسؤولون)[٢].

من خطبة لأمير المؤمنين (ع): (فإنّ علم القرآن ليس يعلم ما هو إلّا من ذاق طعمه فعلم بالعلم جهله، وأبصر به عماه، وسمع به صممه وأدرك به علم ما فات، وحيا به بعد إذ مات، وأثبت عند الله .تعالى ذكره .به الحسنات، ومحابة السيئات، وأدرك به رضوانا من الله تعالى، فاطلبوا ذلك من عند أهله خاصة؛ فإنّهم خاصة نور يستضاء به، وأيمة يهتدى بهم، وهم عيش العلم وموت الجهل)[٣].

فأهل القرآن مخصوصون من عند الله سماهم ونصبهم[٤] لا لقرابة لديه أو رغبة منه سبحانه وهو الحكيم، إنما أخلصوا له سبحانه إخلاصا جعل أرواحهم المقدسة محلا لنزول وحيه، فعرفهم إياه دون غيرهم.

إذن تلاوة القرآن وعلمه وتأويله وتفسيره حق للأئمة (ع) حصرا، والعجب لا ينقضي عندما تجد هذه الروايات المشهورة في كتب الطائفة التي تدعي ولايتها لآل محمد (ع) وهي تنهى بشكل صريح عن تفسير القرآن وتبين حقيقة مبثوثة في كتاب الله وفي أقوال آل محمد (ع) بأن آيات القرآن بعيدة عن قلوب الرجال، وأنهم غير قادرين البتة على تفسيره أو تأويله أو الخوض فيه؛ ولأنهم كما يقول أبو عبد الله (ع) "ليس يعلم ذلك أبدا ولا يوجد"، وهذه الحقيقة تكشف لنا علة التلازم الوثيق بين الكتاب والعترة من جهة، وعلة ارتباطهم (ع) بالوحي، وأنهم ترجمانه في هذا العالم بل في كل العوالم.

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ج٧٥ ص٢١٤.

٢. وسائل الشيعة - الحر العاملي: ج٢٧ص٦٤، الكافي - الكليني: ج١ ص٢١١ قريب منه.

٣. وسائل الشيعة - الحر العاملي: ج١٨ ص١٣٧.

٤. عن أبي عبد الله في رسالة له (ع): (وأما ما سألت من القرآن فذلك أيضا من خطراتك المتفاوتة المختلفة ؛ لأن القرآن ليس على ما ذكرت، وكل ما سمعت فمعناه غير ما ذهبت إليه. وإنما القرآن أمثال لقوم يعلمون دون غيرهم؛ ولقوم يتلونه حق تلاوته، وهم الذين يؤمنون به ويعرفونه، فأمّا غيرهم، فما أشد استشكاله عليهم وأبعده من مذاهب قلوبهم! ولذلك قال رسول الله (ص): إنه ليس شيء بأبعد من قلوب الرجال من تفسير القرآن، وفي ذلك تحير الخلائق أجمعون إلّا من شاء الله. وإنما أراد بتعميته في ذلك أن ينتهوا إلى بابه وصراطه، وأن يعبدوه وينتهوا في قوله إلى طاعة القوّام بكتابه والناطقين عن أمره، وأن يستنبطوا ما احتاجوا إليه من ذلك عنهم لا عن أنفسهم.

ثم قال: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ}[النساء: ٨٣] فأما غيرهم فليس يعلم ذلك أبدا ولا يوجد، وقد علمت أنه لا يستقيم أن يكون الخلق كلّهم ولاة الأمر؛ إذ لا يجدون من يأتمرون عليه ولا من يبلغونه أمر الله ونهيه، فجعل الله الولاة خواصّ ليقتدي بهم من لم يخصّهم بذلك، فافهم ذلك إن شاء الله). وإياك وتلاوة القرآن برأيك، فإنّ الناس غير مشتركين في علمه كاشتراكهم فيما سواه من الأمور، ولا قادرين عليه ولا على تأويله، إلّا من حدّه وبابه الذي جعله الله له، فافهم إن شاء الله، واطلب الأمر من مكانه تجده إن شاء الله)[المحاسن - البرقي: ج١ ص٢٦٨].

عن أبي ولاّد قال سألت أبا عبد الله (ع) "الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ". قال. فقال: هم الأئمة(عليهم السلام))[١].

عن أبي جعفر (ع) وقد سأله سائل: أو ما يكفيهم القرآن؟ قال (ع): بلى، لو وجدوا له مفسّرا. قال: وما فسّره رسول الله (ص)؟ قال: بلى فسّره لرجل، وفسّر للأمّة شأن ذلك الرجل وهو علي بن أبي طالب عليه السلام)[٢].

فالسبيل واضح، هو رجل وهذا الرجل نصبه الله سبحانه وسماه في كل زمان، وما دون هذا الرجل مدعون يفترون على الله الكذب وهم عما أنذروا معرضون؛ لأن هذا الرجل عارف بمراد الله في آياته وأسرارها وظاهرها وباطنها وأسباب تنزيلها وما تكتنزه من مقاصد، وأن غيره جاهل بها ومحجوب عنها[٣].

قال رسول الله (ص): (معاشر الناس تدبروا القرآن وافهموا آياته وانظروا إلى محكماته ولا تتبعوا متشابهه، فو الله لن يبين لكم زواجره ولا يوضح لكم تفسيره إلا الذي أنا آخذ بيده ومصعده إلى - وشائل بعضده - ومعلمكم إن من كنت مولاه فهذا علي مولاه، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام أخي ووصيي، وموالاته من الله عز وجل أنزلها علي، (معاشر الناس) إن عليا والطيبين من ولدي هم الثقل الأصغر، والقرآن الثقل الأكبر، فكل واحد منبئ عن صاحبه وموافق له لن يفترقا حتى يردا على الحوض، هم أمناء الله في خلقه وحكماؤه في أرضه، ألا وقد أديت، ألا وقد بلغت ألا وقد أسمعت، ألا وقد أوضحت، ألا وإن الله عز وجل قال وأنا قلت عن الله عز وجل...)[٤].

يتبين بالقطع واليقين من قول سول الله (ص):

١- لشدة وصرامة الأمر يقسم رسول الله (ص) لتأكيد حصرية التبيين والتفسير بعلي (ع)، وطبعا بمن يقوم مقامه من الأوصياء، باعتبار ضرورة وجود الحجة والقيم والمبين مادامت السموات والأرض، وأنه يجري مجرى الشمس والقمر.
٢- استخدم (ص) ثلاث أدوات يتفق معظم المفسرين فضلا عن النحويين على طبيعة عملها إذا دخلت في سياق الكلام وهما (لن) التي تفيد التأبيد- وإن كان هناك رأيا آخر للبعض في نفي تأبيدها- فهي بالنتيجة تنفي الفعل، و(لا) كذلك، ثم استخدم أداة الحصر (إلا) ليمتنع وجود جهة أو شخص غير من حصر فعل التبيين والتوضيح به.

---

١. تفسير العياشي: ج١ ص٥٧.
٢. الكافي - الكليني: ج١ ص٢٥٠.
٣. عن الصادق (ع): (...وذلك أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض واحتجوا بالمنسوخ وهم يظنون أنه الناسخ واحتجوا بالمتشابه وهم يرون أنه المحكم واحتجوا بالخاص وهم يقدرون أنه العام واحتجوا بأول الآية وتركوا السبب في تأويلها ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه ولم يعرفوا موارده ومصادره إذ لم يأخذوه عن أهله فضلوا وأضلوا .واعلموا رحمكم الله أنه من لم يعرف من كتاب الله عز وجل الناسخ من المنسوخ والخاص من العام والمحكم من المتشابه والرخص من العزائم والمكي والمدني وأسباب التنزيل والمهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤلفة وما فيه من علم القضاء والقدر والتقديم والتأخير والمبين والعميق والظاهر والباطن والابتداء من الانتهاء والسؤال والجواب والقطع والوصل والمستثنى منه والجار فيه والصفة لما قبل مما يدل على ما بعد، والمؤكّد منه والمفصل وعزائمه ورخصه ومواضع فرائضه وأحكامه ومعنى حلاله وحرامه الذي هلك فيه الملحدون والموصول من الألفاظ والمحمول على ما قبله وعلى ما بعده فليس بعالم بالقرآن ولا هو من أهله ومتى ما ادعى معرفة هذه الأقسام مدع بغير دليل فهو كاذب مرتاب مفتر على الله الكذب ورسوله ومأواه جهنم وبئس المصير)[وسائل الشيعة - الحر العاملي: ج٢٧ ص٢٠١].
٤. الطبرسي - الاحتجاج: ج١ ص٧٤- ٧٥.

٣- بين رسول الله (ص) سلسلة المبينين للقرآن إلى يوم القيامة، وأنهم أمناء الوحي، وأنه (ص) أدى ما أمره الله وبلغ وأسمع وأوضح كل ذلك لإتمام الحجة وبيان أهمية وخطورة أمر تنصيب المنبئين عن القرآن، وحصر هذا الأمر بهم ثم ختم (ص) بأنه لم يتكلم من نفسه وأن ما قاله عن الله سبحانه.

لا أعتقد أن إنسانا سويا يقرأ ما قاله رسول الله (ص) ثم يغمض عينيه ويصم سمعه ويذهب بالاتجاه المعاكس ويضرب بكلام رسول الله (ص) عرض الجدار؛ بل أن هذا ينم عن عقول معوجة ومستخفة بكلام رسول الله (ص) إذا ما ذهب الأمر إلى أبعد من ذلك ودخل في دائرة العمل المقصود.

فكل منهج يُعمل به ليكون بديلا عن الرجوع إليهم (ع) سواء كان هذا الرجوع لرواياتهم أو لشخوصهم - فلا يخلو منهم زمان- فهو منهج متقوم بالآراء الباطلة والمقاييس الفاسدة كما وصفها الإمام السجاد (ع)، فلم ينته الأمر بوصف طريقة التعامل مع النصوص كونها باطلة وفاسدة؛ بل النتيجة تقضي بهلاك من تبنى منهج الآراء والمقاييس، وإن كان ظاهرا يدعي الانتماء لمدرستهم ومنهجهم (ع)، ولكن في الحقيقة فإن ابتداع منهج ونظام للتعامل مع النصوص المقدسة فهو ترجمة عملية للذين يجدون في أنفسهم حرجا مما يقولون أو يقضون، وبالتالي الكفر بالذي أنزل المثاني والقرآن العظيم.

فلا يكون للكلام عن العقل أي قيمة معرفية حقيقية مالم تشخص مرتبة العقل الحقيقية.

يقول السيد أحمد الحسن:

(بالعقل يعرف حجة الله، وبالعقل يعرف الله، وبالعقل يعبد الله، والسماء السابعة هي سماء العقل، والأنبياء والأوصياء هم أصحاب العقول، والعقل الأول هو محمد (ص))[١].

فهي إذن معادلة اقتضت النواميس السماوية أنه ليكون الإنسان حائزا على درجات القرب أن يصارع الدنيا والشهوات، ويكون ساحقا لأناه ويقر بفقره المادي والمعنوي له سبحانه قولا وفعلا[٢]

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٣].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[٤].

فيُخلص ليكون محلا لنزول الوحي، ويفترض أن يكون هذا الطريق مفتوحا لكل بني البشر وهذا من عدل الله، فالفائزين بهذه المقامات كالأنبياء والرسل والأوصياء (ع) لم يحصلوا عليها كهبات مجانية من الله سبحانه، وإنما

---

١. الجواب المنير- السيد أحمد الحسن: ج٢ س١٥٨.

٢. بخصوص المعصوم (ع): (أنه محتاج إلى الله سبحانه وتعالى ليوصل قطرة الدم التي أودعها الله في قلبه إلى أطراف جسمه، كذلك هو محتاج لله ومفتقر إلى الله سبحانه وتعالى ليوصل له العلم الذي أودعه في عقله التام إلى نفسه في هذا العالم)[المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٤ س١٥٧].

٣. طه: ١١٤.

٤. البقرة: ٢٨٢.

بالجد والاجتهاد والورع و التوسل بلسان الفقير المعدم للغني المطلق، فصفحات وجودهم (ع) بسيطة كالسهل ينحدر إليه الماء فلا يعترض طريقه ما يغير أو يعيق مساره.

هؤلاء الحجج هم الذين يعقلون، وفي مرتبة العقل الحقيقي الذي به يعرفون لغة الوحي، وهم الذين تخاطبهم الآيات وهم الذين يكشفون عن مقاصد النصوص في الكتب المقدسة، أما الآخرين الذين توهموا بأن لديهم ما يتيح لهم محاكاة النص واستنطاقه ومعرفة مراده سبحانه، فأولئك انتزعوا مفردة العقل من القرآن وتم تسطيحها حتى أصبحت لا تمتلك ذلك العمق والمدلول الحصري الخاص والعميق، فبدل أن تكون مرتبة قدسية مخصوصة بمن امتلك روح القدس - أي في السماء السابعة الكلية- أصبحت مرتبة دنيا؛ بل في أسفل عوالم التنزل يمكن أن تنسب لكل من درس العلوم الظاهرية وأخذها من أوهام الرجال!

السيد أحمد الحسن يرجعنا إلى أصل الخلقة والهدف منها عندما يقول:

(المطلوب من كل إنسان أن يتذكر ويخلص ليكون نبيا يوحى إليه ويعرف الحقيقة وما يريده منه بارئه سبحانه، فقد فطره الله على هذا وخلقه لهذا وهو ممتحن ليكون هكذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢])[٣].

فهذه هي الحقيقة، وهي التجرد عن الدنيا وملذاتها والانشغال بعالم الملكوت، وقد تحققت عند خلفاء الله بأعلى نسبة ممكنة للمخلوق دون بقية الخلق، وهي عندهم بدرجات ومراتب كذلك، ولذلك استحقوا أن يكونوا محلا لنزول الوحي؛ أي أصبحوا بمقام أتيح لهم أن يخاطبهم الله بالوحي ويعرفهم لغة الخطاب الإلهي وما تنطوي عليه من علوم ومعارف وأسرار، يكشفون عن بعضها لمن يستقبلها وله حظ للسماع منهم (ع) في عالم الملك ويأخذ منها بقدر تصديقه ويقينه وجلاء صفحة وجوده عن كدورات التعلق بالدنيا والحجب المانعة عن عالم الملكوت، وشدتها متعلقة بشدة التعلق بالدنيا، وجوهر هذه العلوم والمعارف التي تستبطنها النصوص المقدسة متمحور ومتعلق بعلة خلقنا ووجودنا والمشروع المعرفي السماوي والهدف منه.

وهذا المشروع يعمل على طول مسيرة الخلق وحتى تحققه، وعلاقته بالمعرفين المرسلين من قبله سبحانه الذين يحملون رسالة الوحي، والذين لهم القابلية على تكييف ما يوحى لهم كنصوص الكتب المقدسة أو ما يخص التكليف الآني في الزمان والمكان والظرف الذي يحيط بصاحب الرسالة - باعتبار أن خليفة الله يوحى له في كل آن- وفق ما يتطلبه المشروع الإلهي بما يتناسب ونوع الحضور النفسي والروحي للقابل.

وهنا تبرز أهمية وضرورة حصر بيان المراد الإلهي في كل آن برجل يختاره الله ويبين مراده في ما نزل إليه بالوحي كالقرآن والإنجيل والتوراة عارفا ومهيمنا على العوالم التي نزل منها.

فالنص القرآني مثلا عند المعصوم لم يكن أبدا قيد هذه الألفاظ الظاهرية؛ بل أن هذه المنظومة اللفظية تنطوي على طبقات وبطون وصور متشعبة وكثيرة؛ بل لا متناهية ومفاتيحها بيد المعصوم يوظفها بمقدار ما

---

١. الذاريات: ٥٦.

٢. البقرة: ٢٨٢.

٣. عقائد الاسلام - السيد أحمد الحسن: ص١٣.

يلائم أحوال الناس في زمانه[١]؛ لأنه متصلا بالوحي في كل آن ؛ ولأنه مطلع ومهيمن على الحقائق التي يحجبها النص اللفظي الظاهر، وهذا يعني أنه ليست الحقائق القرآنية حبيسة المعاني الظاهرية المستوحاة من النص الظاهري والألفاظ، لتستهلك اللغة والنحو والقواعد العقلية والمنطق كل طاقتها المتجددة وعمقها الملكوتي المتسربل بالقداسة والأسرار المحمولة على جناح الوحي.

ومن هنا يمكن أن نعرف علة المتشابه[٢] و المحكم، ولماذا أن القرآن كله محكم عند المعصوم من آل محمد (ع) ومتشابه على الناس؟ وأيضا لماذا تبقى الآيات رهينة بيان المعصوم في كل زمان وأنها تجري مجرى الشمس والقمر[٣]؟

عن أبي عبد الله (ع): (يا جابر، إن للقرآن بطناً، وللبطن ظهراً، وليس شيء أبعد من عقول الرجال منه: إن الآية لينزل أولها في شيء، وأوسطها في شيء، وآخرها في شيء، وهو كلام متصرف على وجوه)[٤].

فهل أن الوجوه التي ينصرف إليها الكلام في متناول رجل الدين والفقيه أو المفسر مثلا؟!

قالَ رسولُ اللهِ (ص): إنَّا (أُمِرنَا مَعاشِرَ الأنبياء أُمِرنا أن نُكَلِّمَ الناسَ على قَدرِ عُقولهم)[٥].

فالعقول المخاطبة بقول رسول الله (ص) هي تلك العقول الناقصة الفاقدة للأوزان[٦] المحجوبة عن الحقائق النازلة من العوالم العلوية التي احتواها القرآن، ولذلك فعملية الفرز بين من خاطبهم الله سبحانه بالوحي وبين الناس الذين خاطبهم الأنبياء أو الرسل أو الحجج محسومة على حد قول رسول الله (ص).

فعقول الناس محدودة وناقصة بدلالة "قدر" الوارد في نص الحديث، هذا من جهة، والضمير "هم" دلالة نسبة هذه العقول المحدودة من جهة أخرى، والتي هي في حقيقتها ليست عقول بموازاة عقول الرجال الإلهيين أصحاب العقول الذين خاطبهم الوحي؛ بل هي ظل العقل ولازم وجود الظل وجود شاخصه، فوجوده ليس أصليا؛ لأنه فشل في أن يكون من هذه المجموعة الموحى إليها، وإلا فإمكانية أن يكون منهم كانت موجودة بالقوة ومتاحة

---

١. ورد عنهم (ع): (ما كل ما يعلم يقال، ولا كل ما يقال حان وقته، ولا كل ما حان وقته حضر أهله)[بحار الأنوار - المجلسي: ج٥٣ ص١١٥].

٢. عن الإمام الرضا (ع) أنه قال: (من رد متشابه القرآن إلى محكمه فقد هدي إلى صراط مستقيم، ثم قال (ع): إن في أخبارنا محكماً كمحكم القرآن، ومتشابهاً كمتشابه القرآن، فردوا متشابهها إلى محكمها ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلوا)[وسائل الشيعة (آل البيت): ج٢٧ ص١١٥]. (فالإنسان غير المعصوم لو أخلص نيته لله سبحانه وتعالى وأراد الخوض في فهم كلامهم (ع) وبالخصوص في ما ورد عن قضية صاحب الأمر (ع) لربما وقع في سوء الفهم جملة وتفصيلاً، وإذا أصاب فهم أمر ما فقطعاً سيقع الخطأ منه في فهم أمر آخر؛ لورود الباطل على عقله كونه غير معصوم، فما بالك فيمن يتعصّب لأمر ويتحامل على أمر وهو يجهلهما معاً ؟!) [نصيحة إلى الحوزة العلمية- السيد أحمد الحسن].

٣. إن القرآن حي لم يمت، وإنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما يجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا.) [بحار الأنوار - المجلسي: ج٣٥ ص٤٠٤].

٤. وسائل الشيعة - الحر العاملي: ج٢٧ ص٢٠٤، تفسير العياشي: ج١ ص١١.

٥. بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٥ ص٣٨٤.

٦. (أن العقل ميزان وليس أوزان. فالعقل يقايس المعلومات التي تعطى له ويبين ما فيها، وثقله وخفته أو حتى عدمه وعدم قيمته. ولهذا ولكي تتحقق مهمة العقل بصورة صحيحة، لابد من وجود أوزان قياسية حقيقية ثابتة يقينية، لكي تكون المرجع في الموازنة). [عقائد الإسلام- السيد أحمد الحسن: ص١٤].

لمن يخلص؛ بل يمكن أن نقول معارا وهذه الإعارة بقدر، وهذا القدر متعلق بمقدار سعي الناس للتواصل مع أصحاب العقول الحقيقيين وتصديقهم والأخذ منهم.

قال رسول الله ص: (أول ما خلق الله العقل)[١].

و قال (ص): (أول ما خلق الله نوري)[٢].

فالعقل محمد (ص) وهو أول صادر وأول مستقبل.

عن أبي عبد الله (ع) قال، قال رسول الله (ص):(خلق الله العقل فقال له أدبر فأدبر، ثم قال له أقبل فأقبل، ثم قال: ما خلقت خلقا أحب إلي منك، فأعطى الله محمدا (ص) تسعة وتسعين جزءا، ثم قسم بين العباد جزءا واحدا)[٣].

وروي بطريق آخر (أن الله عز وجل لما خلق العقل قال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، فقال تعالى: و عزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أكرم علي منك، بك أثيب وبك أعاقب، وبك آخذ وبك أعطي)[٤].

فبمحمد ومعرفته واتباعه والسجود له يعاقب المرء أو يثاب، وليس ما تسالم عليه أغلب فقهاء الدين والمفسرين بأن العقل المقصود في القرآن أو في الروايات هو ما نسميه نحن بالعقل الذي عندنا وبه نقايس ونفسر كتاب الله ونحدد مراده سبحانه بقراءتنا للنصوص المقدسة، وبه نختار عقيدتنا ونحقق مستقبلنا مع الله؛ بل أن حظنا منه مقدار ما نعقله عنهم (ع) ونصدق به ونسلم له.

الفرق بين العقل الحقيقي وبين صورته يعتمد على العلاقة الوجودية القائمة على حقيقة الأصل ووهمية ظله أو صورته كما بينها السيد أحمد الحسن:

(بالعقل يعرف حجة الله، وبالعقل يعرف الله، وبالعقل يعبد الله، والسماء السابعة هي سماء العقل، والأنبياء والأوصياء هم أصحاب العقول، والعقل الأول هو محمد(ص) أمّا ما موجود عند كل الناس فهو صورة للعقل، إن أخضعها الإنسان لقانون الله سبحانه وتعالى وصل بها إلى الحق وأوصلته إلى اتباع حجة الله والسجود مع الساجدين. وإن أخضعها للشيطان (لعنه الله) أمست الشيطنة النكراء التي تزدري بالإنسان في ظلمات بعضها فوق بعض إذا اخرج يده لم يكد يراها، والحمد لله وحده)[٥].

فالقرآن هو خطاب إلهي نزل به الوحي على رسول الله (ص) وخاطب عقله الكامل التام الذي بلغ أعلى مرتبة يمكن أن يصلها مخلوق لتنعكس فيه الحقائق والمرادات الإلهية بأعلى وأجلى صورها الممكنة للمخلوق، فمن هذا الذي يستطيع أن يدعي أن عقله محط نزول هذه الفيوضات القدسية ليساوي بها مرتبة محمد(ص)

---

١. بحار الأنوار: ج١ ص٩٧.
٢. نفس المصدر.
٣. بحار الأنوار - المجلسي: ج١ ص٩٧.
٤. نفس المصدر.
٥. الجواب المنير - السيد أحمد الحسن: ج٢ س١٥٨.

والأوصياء من بعده، أو على الأقل يكون مشاركا لهم في تلقي الخطاب الإلهي، وبالتالي تكون له حصة في الاطلاع على الأسرار المكنونه والحقائق المدفونة في أعماق النص القرآني؟!

الذين اختاروا مسارا آخرا للدين وتقمصوا الدور الحصري للحجج الإلهيين قد أوهموا أنفسهم بوجود فرصة لاستنساخ المهمة الإلهية المنوطة بالرجال الذين خاطبهم الله بالوحي وبالخصوص مفسري الشيعة وفقهائهم، وفاتتهم الحقيقة المستقرة الواضحة في روايات مستفيضة عن أهل البيت (ع)، والتي مفادها أن الكتاب وصاحبه لا يفترقان، وأن صاحب الكتاب وهو المعصوم من آل محمد (ع) موجود، وأن الأرض لا تخلو منه طرفة عين، وخلاف ذلك فإنه مجانبة للحكمة واتهام مباشر للمشروع الإلهي ولله سبحانه.

لذلك نقول كل المسارات التي تبنت تفسير الخطاب الإلهي وبكل عناوينها وأهدافها أعاقت بشكل أو بآخر رسالة الوحي، وفوتت الفرصة على الكثير للإصغاء إلى صوت الوحي، وحاولت إقناعهم بإمكانية أن يكون نتاجهم صوت آخر وبديل ناجز يحقق الهدف الذي خلقوا من أجله، وفي الحقيقة لم يثبت لا من قريب ولا من بعيد بحسب ما قدموه أنهم عرفوا هدف الخلق، ولم يثبت الواقع أنهم على خط الوحي.

فالذي هيمن على طبيعة المناهج التفسيرية وغيرها هو العمل على الفهم لظاهر الآيات، وهو نتيجة طبيعية لمن ليس له حظ وتواصل مع الغيب ومقاصده، وهذا أيضا بسبب العزوف عن لزوم خط خلفاء الله الذين قال عنهم الكتاب الكريم أن الآيات بينات في صدورهم، وهذا حصر واضح يستدعي إقرار المتبرعين لتفسير القرآن بالفقر وصفرية المعلومة الحقة الكامنة وراء حجاب الألفاظ الظاهرية للنصوص المقدسة.

فمنظومة التفسير تم حشوها بكل ما يحكي عن ظواهر الآيات والروايات، طبعا إن كان فعلا يلامس المعاني الحقيقية حتى لظاهر النصوص! فالحظ من أداء الصلاة هو العبادة والتقرب من الله والاعتناء بحركاتها وضبط مخارج حروف الآيات دون معرفة حقائقها أو الحقائق المحجوبة وراء الحركات والألفاظ، وكذلك بقية الفروض والعبادات كالصوم والحج والزكاة وغيرها، وحتى قراءة القرآن التي حث عليها القرآن نفسه وأهل البيت(ع) فقد كان نصيبه عندهم هو على بذل الجهود في إقامة المسابقات لحفظ القرآن وتعليم القراءات والاستمتاع بأداء القراء.. الخ.

ولذلك فقد تم استفراغ الطاقات وتذويبها في ممارسات خلفت قناعات عند الأتباع بأنها أكثر من كافية لتحقق العبادة المرجوة، وبالتالي فهم بعيدون عن الغيب وحقائق الغيب والوحي والمعرفين به.

يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا

قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[1].

هذا الوصف أكثر من كافي لبيان مناهج هؤلاء الذين تخاطبهم الآية المباركة، فقد حصرت العلم كونه ظاهرا، ولطالما تثير فينا آيات الكتاب وأحاديث الرجال الإلهيين(ع) الهمة في الولوج في أعماق القضايا وتذوق زبدتها والحصول على المزيد من حقائقها التي لا تنتهي عند حد سوى أنها تحكي عن قابلية وسعة صفحة وجود طلابها.

---

[1]. الروم: ٧.

قال رسول الله(ص): "لَيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَ لَهَا ظَهْرٌ وَ بَطْنٌ وَ مَا مِنْ حَرْفٍ إِلَّا وَ لَهُ تَأْوِيل "وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ"[١])[٢].

وعنه (ص):("إِنَّ لِلْقُرْآنِ ظَهْراً وَ بَطْناً وَ لِبَطْنِهِ بَطْنٌ إِلَى سَبْعَةِ أَبْطُن")[٣].

وورد عنهم (ع) في الحديث (..إن للقرآن سبعين بطنا)[٤].

وقال عليّ(ع): "ظَاهِرُهُ عَمَلٌ مَوْجُوبٌ وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ مَكْنُونٌ مَحْجُوبٌ وَهُوَ عِنْدَنَا مَعْلُومٌ مَكْتُوبٌ"[٥].

ملاحظة: مسألة بطون الكتاب السبعة أو السبعين ربما لا تعني العدد بعينه؛ بل هي كناية عن الكثرة، وقد بينا في بحثنا أن عوالم التنزل ومراتبها غير متناهية ولا يمكن إحصائها، فالآية لها في كل عالم معنى وحقيقة.

فالفرق بين حقائق القرآن والنصوص الدالة عليها وبين ظاهر النصوص لا يمكن لنا نحن المحجوبون أن نضع حدودا لها، ولكن لنا أن نتصور من خلال الوصف الإلهي عمق المأساة عندما نعرف أن الدنيا بما فيها عالم شبيه بالعدم لم ينظر الله إليه منذ خلقه، وليس له حظ من الوجود إلا قابليته على الوجود وأنه عالم طارئ وجد لأداء الامتحان الثاني[٦]، فكيف إذا كانت حصة المعرفة لمن يكون مصدرهم وحي الشياطين هو ظاهر هذه الحياة والتي وصفها الله سبحانه بالدنيا.

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٧].

علي بن إبراهيم: "يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا" (يعني ما يرونه حاضرا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰافِلُونَ، قال: يرون حاضر الدنيا، و يتغافلون عن الآخرة)[٨].

فالعلم المطلوب هو ليس العلم الظاهري بدلالة "يعلمون ظاهرا"، والتي وردت في سياق الآية بصيغة الاستخفاف والاستهجان لهذا النوع من العلم؛ فالعلم بظاهر الحياة الدنيا لا تجنى منه ثمرة مالم يكن مرتبطا بسبب وجوده والغاية منه، أو ارتباطه بالملكوت ومراد الله منه، إذ أن الحياة الدنيا والعلم الموصوف والمحيط بها لا يعدل شيئا في ميزان العلم الحقيقي المنشود والمطلوب، فما فائدة علم بعالَم مصيره الفناء والزوال وليس له حظ من الوجود إلا قابليته على الوجود؛ بل أن وجوده وجودا اعتباريا، اللهم إلا ما يتم تحصيله ليكون سببا في الرجوع إلى الله ومعرفة أصلنا السماوي وسبب وجودنا في هذا العالم والهدف منه .

---

١. آل عمران: ٧.

٢. بحار الأنوار - المجلسي: ج٣٣ ص١٥٥.

٣. التفسير الصافي - الفيض الكاشاني: ج١ ص٣١، عوالي اللئالي - محمد بن على بن أبى جمهور الإحسائي: ج٤ص١٠٧.

٤. كفاية الأصول - الآخوند الخراساني: ص٣٨.

٥. دعائم الإسلام - ابن حيون المغربى النعمان بن محمد: ج١ ص٥٣.

٦. الامتحان الأول كان في عالم الذر، وعالم الدنيا هو الفرصة الثانية التي منحها الله للفاشلين في الامتحان الأول.

٧. الروم: ٦،٧.

٨. البرهان في تفسير القرآن- هاشم البحراني: ج٤ ص٣٣٨.

قال تعالى: ﴿اضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[١].

أما ظاهر النصوص القرآنية الموجودة بين أيدينا فلا يعني أنها حقيقة القرآن، مثلما يراها الذين لا يرون أبعد من هذا العالم "الحياة الدنيا"، وإلا فالقرآن حقائق نازلة من تلك العوالم العلوية إلى هذا العالم وقد أظهرها لهذا العالم محمد (ص)، فالقرآن في مراتب أعلى وبالخصوص مرتبة السماء السابعة وما قبلها من العوالم العلوية أو النورية فهو حقائق كلية تناسب تلك العوالم يطلع عليها ويهيمن عليها محمد (ص) ومن قام مقامه من الأوصياء (ع).

فاعتماد القراءة الظاهرية للنصوص التي تنتهي بتشكيل صور وعقائد وأحكام لا تعدو أن تكون وسيلة يستخدمها إبليس لضرب الدين وتقويض أصل الدين.

فالمفسرين والفقهاء تجاهلوا أقوال الأئمة (ع) في خطورة تفسير القرآن أو تأويله أو بيانه بأي وسيلة كانت، لكنهم سوقوا قواعد ومبان تخالف منهج أهل البيت(ع) في التعامل مع النصوص القرآنية تقلب الحقائق رأسا على عقب، وهو عماد ما توعد به بإضلال الناس" لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ".

فتحقُق هذا الوعيد مرة يكون في التشكيك في شخص الرجل الإلهي والناقل للعلم الرباني وقرين القرآن، وإثارة زوبعة من الشبهات حوله لتنتهي النتيجة بتكذيبه، وعندما يعجز إبليس في بلوغ هذه النتيجة من خلال هذه السلوكيات يعمد للدخول في خط مواز وصناعة منهج يحاكم به علوم خليفة الله، وهو يعلم أن هذه المناهج أجنبية على المنهج القرآني ولا يمكن أن تلتقي مع مخرجاته الحقة ليستقطب أكبر عدد من الجمهور، وزعزعة ثقته بعلم خليفة الله وبالتالي تكذيبه وتكذيب اتصاله بالسماء، والحقيقة الصادمة التي تنتهي إليها هي تكذيب السماء واتهام الله سبحانه!

والنتيجة المتحصلة من هذا المنهج هو وضع الناس أمام تفسيرات لا يمكن أن تتحقق على أرض الواقع بشكلها الذي قُدم كونه من المسلّمات، التي تم ضبط قياساتها وأبعادها وفق المنهج العقلي المبتدع، وبذلك يتم ضمان بقاء الاتباع بعيدا عن خط خلفاء الله ومنهجهم الحق ببقاء وديمومة المنهج المناهض للمنهج الإلهي، وللأسف هذا ما طلبه إبليس.

عن زرارة، عن أبي جعفر (ع) قال: (ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن إن الآية تنزل أولها في شيء، وأوسطها في شيء، وآخرها في شيء....)[٢].

وهذا نموذج معاصر يوضح السقطة التي وقع بها البعض ممن التزموا محاكمة المعصوم بالمنهج العقلي، الذي يستمد نديته من ظواهر النصوص ويضبطها بقواعد مبتدعة.

---

١. الكهف: ٤٥.

٢. تفسير العياشي: ج١ ص١٧، بحار الأنوار - المجلسي: ج٨٩ ص١١٠.

سؤال وجه للسيد أحمد الحسن، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[١] ؟

الجواب: (أمير المؤمنين علي (ع)، فهو الإنسان وهو في خسر نسبةً إلى محمد (ص)، فمقام الرسول (ص) أعلى وأعظم من مقام الإمام علي (ع)، فالرسول محمد (ص) هو مدينة الكمالات الإلهية في الخلق أو مدينة العلم، وعلي (ع) هو الباب، والرسول (ص) صاحب المقام المحمود وصاحب مقام ألقاب قوسين أو أدنى، وهو (ص)من فتح له مثل سمّ الإبرة وأخذ يخفق بين الحق والخلق، وأمير المؤمنين (ع) دون هذه المرتبة وقد قال (ع): (لو كشف لي الغطاء لما ازددت يقيناً)[٢]، أي غطاء وحجاب اللاهوت الذي كشف لمحمد (ص))[٣].

فبيان السيد أحمد الحسن كان محصورا في " وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ"؛ أي أعطى معنى هذا المقطع من السورة بمعزل عن الآية الثالثة للسورة، ولم يتعرض لمعنى الآية الثالثة ولم يربط بين ما تقدم بيانه من الآيتين مع ما تبقى من السورة المباركة.

ما فعله الذين يحكّمون عقول الرجال أنهم حملوا معنى الآيتين على كل السورة، وتبرعوا هم لسحب المعنى الذي بينه السيد أحمد الحسن بخصوص الآيتين على كل السورة، وهذا يخالف قول أبي جعفر (ع) في الرواية المتقدمة، أن معنى الآية مختلف، وأنها تنزل أولها في شيء وأوسطها شيء وآخرها شيء فكيف بآيات السورة؟! وهو ما حصل في بيان سورة العصر.

وجه سؤال آخر للسيد أحمد الحسن وهو بحد ذاته ترجمة للخلط والخبط الذي يعتري العقول الناقصة، وهذا نص السؤال:

في (المتشابهات) في تفسير سورة العصر، قلت: (إن الإنسان علي بن أبي طالب (ع)، وهو في خسر نسبةً إلى رسول الله (ص))، ولكن كيف يستثني الذين آمنوا، وهذا يشعر أنهم أفضل من علي (ع) بحسب ما بينت أنت؟!

الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين.

(القرآن كلّه في الفاتحة، والفاتحة في البسملة، والبسملة في الباء والباء في النقطة[٤] أي أنّ القرآن كلما ارتقينا إلى الله سبحانه وتعالى قل تفصيله؛ لقلة الجزئيات والمتنافيات كلما ارتقت العوالم الملكوتية، حتى تصل إلى النور والكليات فيكون القرآن نوراً كلياً. وما بينتُه عن سورة (والعصر) هو في مرتبة عالية من القرآن، حيث لا وجود لغير محمد وعلي وفاطمة (ع) - وعلي وفاطمة عليهما السلام نور واحد- فلا وجود لغيرهم، فيكون تمام السورة في ذلك العالم هو: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، هذه هي سورة العصر في ذلك العالم العلوي، فلا وجود لبقية السورة في ذلك العالم، وهو: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ليكون لهذا الاعتراض وجه.

---

١. العصر: ١-٣.

٢. المناقب - لابن شهرآشوب: ج١ ص٣١٧.

٣. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٣ س١٠٩.

٤. عن أمير المؤمنين (ع): (إن علوم الكون كلها في القرآن، وعلوم القرآن كلها في السبع المثاني، وعلوم السبع المثاني في البسملة، وعلوم البسملة في النقطة، وأنا تلك النقطة) [عليّ المرتضى نقطة باء البسملة - العلوي السيد عادل: ج١ ص٧٦].

أما في هذا العالم، فالإنسان هو جنس الإنسان، أي إنّ الإنسان بسبب وجوده في العالم الجسماني في خسر وتسافل، إلا إذا آمن بولي الله في زمانه وعمل معه ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾)[١].

وهذا المضمون متجسد في سورة أخرى بينها السيد أحمد الحسن ليؤكد فيها حقيقة ارتباط معاني وحقائق الآيات القرآنية بتعدد العوالم وعلاقة الآيات بكل عالم نزلت فيه.

وتأكيد هذا المعنى ورد كذلك في سؤال وجه للسيد أحمد الحسن:

ما تفسير السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾([النصر:١-٣]) ؟

الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين وسلم تسليماً.

(الفتح المبين بيّنته في أكثر من موضع في الفاتحة وفي المتشابهات[٢]، وكذا التوبة وطلب العفو والمغفرة عن الذنب المرافق لصفحة وجود المخلوق وإن كان في مرتبة ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، وهذا هو الأنا والظلمة التي لابد أن تحتويها صفحة المخلوق مهما كان مقامه. فالسورة هكذا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾.

أمّا قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ فهي في هذا العالم الجسماني تتعلق بالناس، فهم التائبون، وهم المستغفرون عن ذنب التقصير مع ولي الله وحجته على عباده. وأيضاً ولي الله يحمد الله ويستغفر لهم ودونما استغفاره لا يغفر لهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾([النساء: ٦٤]).

ولولا نصر الله وتأييده لا يتحقق الفتح المبين للرسول، ومع الفتح المبين لابد أن يتحقّق الفتح في هذا العالم، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً)[٣].

أكدنا في فقرات سابقة من البحث أن للقرآن وآيات القرآن مراتب لا متناهية، وبالخصوص في مقامات أول الخلق وما دونها في التنزل، حتى تصل النوبة لهذا العالم الجسماني لتكون دلالات الآيات ومصاديقها مرتبطة بحيثياته، وهي بالتالي موقوفة على إحكام المعصوم الذي يهيمن على كل العوالم التي نزلت منها الآيات وصولا لعالم الامتحان الظلماني.

---

١. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٤ س١٥٩.

٢. ذكر السيد أحمد الحسن ذلك في المتشابهات: ج١ط٢ص٣، وص١٧و٢١. وفي الجزء الثاني من المتشابهات: ط٢ ص٤٧،وص٤٨. وفي الجزء الثالث: ط٢ ص١٠٣.

٣. الجواب المنير - السيد أحمد الحسن: ج٢ س٥٧.

فالذي يقرأ ويفسر لا يمس حقائقها وإنما يفهم شيئا من ظاهرها؛ لأنه يتكلم عن علم مضنون، باعتبار أن العلم اليقيني لا يتحصل إلا من خلال القناة الرسمية التي يمر عبرها، هذا من جهة، فضلا عن كون العلم اليقيني أساسا لا يمكن أن يكون مبذولا إلا لأشخاص سماهم الله واختصهم بوظيفة التعريف بالمنظومة الإلهية فأصبحوا نواقل أمينة عارفة بالعلم الإلهي.

وأما ما يقولون عنه كونه علما سواء بالإشارة أم بصريح العبارة فهو ادعاء يحتاج أن يقدموا دليلا على كونهم مخصوصون بهذا العلم، وأن الله أطلعهم على هذا العلم، فدونه خرط القتاد، وعلى العكس فالواقع يشرح لنا البون الشاسع بين ما يُقدم وبين العلوم الحقة.

ووفق هذه الرؤيا يمكننا أن نقول بأن الآية المباركة "يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا" هي بمثابة ذم وتوبيخ؛ بل اعتراض على من ينتحلون مقام الرسالة والنبوة أو الإمامة كتراجم لرسالة الوحي، وهو إيحاء وتنبيه على سفلية الحياة الدنيا وكونها ليست محط نظر الله ولا حتى أولياءه وحججه.

فإذا كان غاية ما يعلمه المنتحلون كمفسرين ومتحدثين عن الدين هو ظاهر الحياة الدنيا فهذا يعني أنهم مبعدون عن الاتصال بوحي الله، وأنهم يخوضون في آيات الله ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[١].

إذن فالمطلوب هو ليس العلم ظاهرالحياة الدنيا، فالدنيا بما فيها سيكون مآلها أن تكون صعيد جهنم لمن لم يصل أبعد منها ومن ظاهرها، فمن لم يدله الظاهر على باطنه فلا ينفعه شيء، وإنما صار مظهر الدنيا؛ بل كل صورها كونها آخر تنزل من عوالم الوجود لاقتضاء نفاذ أمر الله ومشيئته في مسيرة الخلق؛ بل هو عرَضا يستفيد منه المتذكرون لارتقاء سلم العروج إلى العوالم الحقيقية وبلوغ معارفها وعلومها، وهذا ما حدى بخلفاء الله على طول مسيرتهم بنبذ هذه الدنيا؛ لأن كل ما يعلم منها فلا يعدو الدوران في فلك عالمها الزائل.

فعلمٌ يكون غاية ما يصل إليه صاحبه هو ظاهر هذه الدنيا لا ينفع وليس له حظ في دين الله ولا ما نزل به الوحي.

قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٢]

فالمبين متصلا بالله عارفا بمراده، وروحه مهيمنة على حقائق ومعاني القرآن في كل مراتبه، أما غيره فمحجوب عنه كل ذلك.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٣]

فهم لا يسمعون كلام الله، بالنتيجة فهم لا يسمعون الوحي ولا يفقهون رسالته.

---

١. الأنعام: ٦٨.

٢. النحل: ٤٤.

٣. الأعراف: ١٧٩.

أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) في قوله (لهم قلوب لا يفقهون بها): (أي طبع الله عليها فلا تعقل (ولهم أعين) عليها غطاء عن الهدى (لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) أي جعل في آذانهم وقرا فلن يسمعوا الهدى)[١].

هذا الوجود قائم مادام هناك إنسانا يمكن أن يكون سامعا للوحي الرسالي، وهذا ما ورد معناه في قول الأئمة (ع): عن ابن الطيار قال: سمعت أبا عبد الله (ع): (يقول لو لم يبق في الأرض إلا اثنان لكان أحدهما الحجة)[٢].

وقد تواترت الروايات عن أهل البيت (ع) أنه لو خليت الأرض من الحجة - أي من قابل وسامع للوحي الرسالي وناقل أمين للعلم الإلهي- لساخت.

روى الشيخ أبو جعفر الطوسي رحمه الله بإسناده إلى الفضل بن شاذان عن داود بن كثير قال: قلت لأبي عبد الله (ع): (أنتم الصلاة في كتاب الله (عز وجل) وأنتم الزكاة وأنتم الحج؟ فقال: يا داود نحن الصلاة في كتاب الله (عز وجل)، ونحن الزكاة ونحن الصيام ونحن الحج، ونحن الشهر الحرام ونحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله ونحن قبلة الله ونحن وجه الله، قال الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، ونحن الآيات ونحن البينات، وعدونا في كتاب الله (عز وجل): الفحشاء والمنكر والبغي والخمر والميسر والأنصاب والأزلام والأصنام والأوثان والجبت والطاغوت والميتة والدم ولحم الخنزير، يا داود إن الله خلقنا فأكرم خلقنا وفضلنا وجعلنا أمناءه وحفظته وخزانه على ما في السماوات وما في الأرض، وجعل لنا أضداداً وأعداءً، فسمانا في كتابه وكنى عن أسمائنا بأحسن الأسماء وأحبها إليه، وسمى أضدادنا وأعداءنا في كتابه وكنى عن أسمائهم وضرب لهم الأمثال في كتابه في أبغض الأسماء إليه وإلى عباده المتقين)[٣].

إذن حقائق الصلاة والزكاة والحج والكعبة والقبلة ووجه الله هم آل محمد(ع)، وأما ظاهر هذه المناسك في عالمنا هذا فهي للدلالة على تلك الحقائق والوصول إليها؛ لأن الوصول إلى تلك الحقائق هي الغاية، ولم يكن أداء العبادات هو الغاية، وليست مراده سبحانه، إنما هي ممارسات لازمها وجودنا في آخر العوالم وأشدها ظلمة، فمعرفة حقائقها هو الهدف الذي يصل بالعابد لمعرفة الله وهو المطلوب.

(اللهم صل على محمد وآل محمد شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومعدن العلم وأهل بيت الوحي)[٤].

ورد في زيارة الناحية المقدسة عن القائم (ع): (..قتلوا بقتلك الإسلام وعطلوا الصلاة والصيام ونقضوا السنن والأحكام وهدموا قواعد الإيمان وحرفوا آيات القرآن..)[٥].

فمن هذا الذي يجد في القرآن ضالته وصاحبه مقتول؟!

---

١. تفسير القمي: ج١ ص٢٤٩.
٢. الكافي - الكليني: ج١ ص١٧٩.
٣. بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٤ ص٣٠٣.
٤. مصباح المتهجد - الشيخ الطوسي: ص٨٣٣.
٥. بحار الأنوار - المجلسي : ج٩٨ ص٣٢٢.

تعددت أشكال القتل، فمرة يكون جسديا كقتل أمير المؤمنين (ع) وقتل الحسين (ع) بالسيف وقتل الأئمة (ع)؛ بل حتى رسول الله (ص) بالسم[١]، ومرة يكون قتل شخصيته كالإمام المهدي (ع) وإبعاده وعزله بالقوة الغاشمة كالسلطان الجائر وسادة القوم الذين مكنهم الناس من حكمهم وتسلطهم، فقدموا عقائد مغايرة تسببت في قلب الحقائق وإغراق المنظومة الفكرية بقواعد عقلية أغلقت الطريق - على الناس- الموصل للإمام المهدي (ع)، وزرعت في طريقه جملا من الإشكالات والشبهات.

ولذلك أبعد ناقل العلم الحقيقي أو خليفة الله عن ترجمة القرآن وبيانه للناس، إذ لا إسلام ولا صلاة ولا صيام ولا سنن ولا أحكام، ولم تبق قواعد للإيمان.

أما تحريف القرآن وهذا ما يخص صميم بحثنا فهو تحريف الكلم من بعد مواضعه.

﴿يحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[٢].

وتحريفه عن مواضعه.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[٣].

ابن كثير: (أي: يتأولون على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل، قصدا منهم وافتراء)[٤].

والقصد أبعد مما يتصوره أهل الظاهر؛ لأن أصل الكلم وأصل الدين هم الرجال الذين يساوي وجودهم الدين كله والقرآن الناطق[٥] في كل زمان.

---

١ .عن الإمام الرضا (ع)(... أن هذا الأمر يملكه اثنا عشر إماما من ولد علي وفاطمة (عليهما السلام) ما منا إلا مسموم أو مقتول..)[كفاية الأثر- الخزار القمي: ص٢٢٦]، أن النبي (صلى الله عليه وآله) قد سم في مرض وفاته بالدواء الذي نهاهم أن يسقوه إياه عندما يغمى عليه! ومع ذلك سقوه فأفاق وغضب من فعلهم وأمرهم أن يشربوا منه جميعا إلا بني هاشم! وقد روته صحاحهم فقال بخاري: ٧ / ١٧: (قالت عائشة: لددناه في مرضه فجعل يشير الينا أن لا تلدوني، فقلنا كراهية المريض للدواء. فلما أفاق قال: ألم أنهكم أن تلدوني؟! قلنا: كراهية المريض للدواء، فقال: لا يبقى في البيت أحد إلا لد وأنا أنظر! إلا العباس فإنه لم يشهدكم). ورواه الحاكم: ٤ / ٢٠٢، وفيه: والذي نفسي بيده لا يبقى في البيت أحد إلا لد إلا عمي. قال فرأيتهم يلدونهم رجلا رجلا... فلد الرجال أجمعون، وبلغ اللدود أزواج النبي فلددن امرأة امرأة)! [جواهر التاريخ- الكوراني: ج٣ ص٢١٧].

٢. المائدة: ٤١.

٣. النساء: ٤٦.

٤ .تفسير ابن كثير: ج٢ ص٢٨٥.

٥. قال أمير المؤمنين (ع) في وصف إعراض هذه الأمة عن الإمام والقرآن: (وإنّه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله!! وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا أنفق منه إذا حرّف عن مواضعه، ولا في البلاد شيءٌ أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر، فقد نبذ الكتاب حُملته، وتناساه حفظته، فالكتاب يومئذٍ وأهله منفيان طريدان وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤوٍ!! فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم؛ لأنّ الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا، فاجتمع القوم على الفرقة وافترقوا عن الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم! فلم يبق عندهم منه إلاّ اسمه، ولا يعرفون إلاّ خطه وزبره!! ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثله، وسمّوا صدقهم على الله فرية، وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة)[نهج البلاغة بشرح محمد عبده: ج٢ ص٣١]، [بحار الأنوار - المجلسي: ج٣٤ ص٢٣٣].

قال عليّ بن إبراهيم: قوله تعالى: "فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِيثٰاقَهُمْ لَعَنّٰاهُمْ" يعني نقض عهد أمير المؤمنين(ع) وَ "جَعَلْنٰا قُلُوبَهُمْ قٰاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ" قال: (من نحى أمير المؤمنين(ع)عن موضعه، والدليل على أن الكلم أمير المؤمنين(ع)، قوله: وَ جَعَلَهٰا كَلِمَةً بٰاقِيَةً فِي عَقِبِهِ يعني الإمامة)[١].

ولهذا ورد في زيارة عاشوراء (لعن الله أمة دفعتكم عن مقامكم وأزالتكم عن مراتبكم التي رتبكم الله فيها)[٢].

يقول السيد أحمد الحسن: (..نجد اليوم وبوضوح تام عجز من يدعون أنهم علماء الإسلام طوال أكثر من ألف عام عن بيان معنى لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[٣]. فهم بين من يضيف كلمة للآية ويحرفها بهواه وكأنّه سبحانه كان عاجزاً تعالى علواً كبيراً عن إضافة هذه الكلمة، وبين من يقول بجواز الإتيان على الله سبحانه وتعالى، وهكذا هم كحاطب ليل لا يعلم أين يقع فأسه، فهم بين نارين نار: أن يقولوا بأن الله يأتي ويذهب، فينزلوه منزلة المخلوق المحتاج للمكان والحيز أو وسط الانتقال، وبين أن ينفوا عنه الإتيان والذهاب بتحريف الآية وادعاء أن هناك محذوفاً فيها، وبهذا فهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه وعن مواضعه دون خوف منه سبحانه و يا لها من جرأة.

أما المسيحيون، فقد جعلوا الآتي على السحاب المذكور في التوراة والإنجيل هو عيسى (ع)، واعتبروا أن عيسى (ع) هو الله سبحانه وتعالى. وجعلوا اللاهوت المطلق تجسد بجسد في هذا العالم، وبهذا أعلنوا فقره وحاجته ونقضوا ألوهيته المطلقة تعالى الله علواً كبيراً)[٤].

فرجال الدين والمفسرين يصادرون المراد الإلهي من خلال تفسيرهم للنصوص بحسب قواعد موضوعة تحرف المراد الإلهي، فيغيرون المقاصد عن مواضعها ومن بعد مواضعها، فالله يريد شيء في الآية وهذا المقصد لا يعرفه إلا من خوطب به، والذي عرفه الله وأطلعه عليه وهو الوصي من آل محمد (ع) وعدل القرآن وصاحبه.

فكل ما يصدر من المفسرين لكتاب الله لا يعدو أن يكون نتاج عقولهم الناقصة والمحجوبة عن حقائق وأبعاد ومقاصد النص، وهذا اتهام واضح من قبل الإمام الصادق (ع) لعقول الرجال الذين حشروا أنفسهم في أمر طالما حذرهم الله ورسوله وآل محمد (ع) من إقحام أنفسهم في تفسير النص الإلهي، ولم يكن أمرا إلهيا بحد ذاته وعليهم أن يطيعوه، وإنما لعلة النقص في عقولهم وعدم قدرتها وأهليتها لمعرفة المراد الإلهي من النص.

لا يمكن أن يكون التعاطي مع النصوص المقدسة من قبل المفسرين مثلا هو تحصيل معلومات إضافية تضاف إلى خزين أو رصيد المعلومات حالها حال أي معلومة أرضية يمكن تحصيلها ، وبالتالي يكون الهدف من تفسير النصوص هو الثراء العلمي الظاهري! وعندها سيكون فاقدا للهدف والغاية منه والحكمة، وسيكون كلام الله سبحانه خال من الحكمة وإرساله للرسل والأنبياء والحجج عبثي وحاشاه.

---

١. البرهان ج٢ ص٢٦٣.

٢. بحار الأنوار - المجلسي: ج٩٨ ص٢٩٤.

٣. البقرة: ٢١٠.

٤. كتاب التوحيد - أحمد الحسن: لماذا هذا الكتاب.

فالكتب المقدسة لم تنزل لهذا العالم إلا لأمر خطير وهدف علوي سماوي مرتبط بالله سبحانه، وأن تحصيل حقائقها في عالم الامتحان مرة لا يحتاج مزيد من العناء سوى حضور الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وهي معرفة حامل العلم الإلهي والتسليم له ومسايرته، أو قد يتطلب مسيرة بحث مضنية وشاقة لمن تلوثت فطرته تترجم حالة الصراع مع الظلمة للوصول إلى النور بالبحث عن المعرف الحقيقي بالله سبحانه.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[١].

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[٢].

ابن كثير في تفسيره:

قال العوفي عن ابن عباس ﴿يغشاه موج﴾ الآية،(يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهي كقوله ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم﴾ [البقرة: ٧])[٣].

وفي تفسير الطبري:

(... والبحر اللجي مثلا لقلب الكافر، يقول: عمل بنية قلب قد غمره الجهل، وتغشته الضلال والحيرة، كما يغشى هذا البحر اللجي موج من فوقه موج من فوقه سحاب، فكذلك قلب هذا الكافر الذي مثل عمله مثل هذه الظلمات، يغشاه الجهل بالله، بأن الله ختم عليه، فلا يعقل عن الله، وعلى سمعه، فلا يسمع مواعظ الله، وجعل على بصره غشاوة فلا يبصر به حجج الله، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض... (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ) عميق، وهو مثل ضربه الله للكافر، يعمل في ضلالة وحيرة، قال: (ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ))[٤]

هذا نموذج من تفسير لمن لم يخوله الله سبحانه ببيان مراده من آيات الكتاب في خلقه، فلم يعدوا أن يكون بيانه لظاهر يصف به الضلال والحيرة، ويتكلم عن حجج الله التي لم يعيها من يصفه بالكافر؛ لأنه لم يعرف معنى الكافر الحقيقي الذي يغمض قلبه وعينيه عن حقيقة التسليم لأهل الدين والإقرار بولايتهم التي يفصل بين الكفر والإيمان، وهو في نفس الوقت يخوض بعمل يضعه في جملة من يصفهم في تفسيره!

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[٥]

أما معنى الآية وأسباب نزولها عند ترجمان الوحي فأمر آخر، فهو يكشف عن روح النص وأسسه وأساسه بل أصله الذي منه نزل؛ ولأنه مرتبط بالغاية والهدف.

---

١. الانشقاق: ٦.

٢. النور: ٤٠.

٣. تفسير ابن كثير: ج٦ ص٦٥.

٤. تفسير الطبري: ج١٩ ص١٩٧-١٩٨.

٥. البقرة: ٢٥٦.

عن الحكم ابن حمران قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عز وجل "أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج" - (قال: فلان وفلان) - من فوقه موج - قال: أصحاب الجمل وصفين والنهروان - من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض - قال: بنو أمية - إذا أخرج يده - يعني أمير المؤمنين عليه السلام في ظلماتهم - لم يكد يريها - أي إذا نطق بالحكمة بينهم لم يقبلها منه أحد إلا من أقر بولايته، ثم بإمامته - ومن لم يجعل له نورا فما له من نور) * أي من لم يجعل الله له إماما في الدنيا فماله في الآخرة من نور: إمام يرشده ويتبعه إلى الجنة)[١].

لا شك أن تأويل الآية منوط بخليفة الله، وأن مصاديقها ومعانيها قد تتعدد، ولكن ما لا يمكن تجاهله هو المحور والقطب الذي تدور حوله آيات الله، فالنور هو الإمام وهو حامل وناقل العلم الإلهي، وهو وحي الله.

الإمام المنصب من الله هو أصل الدين وعيبة العلم، وروحه مهبط الوحي الإلهي ومنه يترشح كل صواب، ومن جنباته تتفجر عيون العلم والبركة النازلة، وهو الناطق عن الله في خلقه.

نماذج أخرى تبين أبعد ما يذهب إليه المفسرون:

الطبري: وقوله (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) يقول تعالى ذكره: (يخرج من بطون النحل شراب، وهو العسل، مختلف ألوانه، لأن فيها أبيض وأحمر وأسحر، وغير ذلك من الألوان)[٢].

مكارم الشيرازي: تكلم عن الوحي الغريزي للنحل وكيف بنى النحل بيوته السداسية ودقتها والفعاليات المنتظمة التي يقوم بها النحل، والعسل الذي يخرج من بطونها كغذاء للإنسان والمنافع الكثيرة للعسل وشفاءه للأمراض الكثيرة وهي من عجيب صنع الله، وكيف هيء الله النحل للعمل بلا كلل ولا ملل قائلا: (وكل ذلك السعي وتلك المثابرة ليس في واقعه لملأ بطنها بقدر ما عبّر عنه القرآن الكريم بـ (للناس))[٣].

فالطبري والشيخ الشيرازي لم يكشف لهم روح القرآن وملكوتيه؛ وكل ما فعلوه أنهم حشروا النص القرآني في محيط الواهمة الضيقة فوجدوا لها مصداقا ظاهرا يراه ويفهمه الجميع، فقيّدوا النص بهذا الحد ووصف ما يصفه الآخرون بالبداهة، ولكنهم في الحقيقة فصلوا النص عن عمقه الملكوتي، وتم تجريده عن مقاصده ووجوهه، التي ذكر الإمام الصادق (ع) وجها منها لم يخطر ببال المفسرين لو عُمِّروا الدهور كلها قبل أن يسمعوها ممن خصه الله بمعرفة ظاهرها وباطنها.

أبو الفرج في حديث ان المعلى بن طريف قال: ما عندكم في قوله تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) فقال بشار: النحل المعهود؟ قال: هيهات يا أبا معاذ النحل بنو هاشم (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) يعني العلم)[٤].

---

١. تأويل الآيات - شرف الدين الحسيني:ج١ ص٣٦٥.

٢. تفسير الطبري: ج١٧ ص٢٤٩.

٣. الأمثل - مكارم الشيرازي: ج٨ ص٢٤٥-٢٥٠.

٤. بحار الأنوار - المجلسي: ج٣٥ ص٥٦، مناقب آل أبي طالب - ابن شهر آشوب: ج٢ ص١٤٢.

الفصل الثاني

الوحي والرسالة

الوحي والتجلي

كل المخلوقات العلوية المقدسة تباينت مراتبها وفقا لسعة صفحة وجودها ومساحة تجلي النور فيها، وهذا يعتمد على إخلاصها وقربها من الله سبحانه، وطالما ذكرنا وسنذكر في قادم بحثنا حقيقة غاية في الأهمية ونحن نتكلم عن موضوع الوحي الإلهي وهو أن أشرف وأقدس المخلوقات وأقربها لله سبحانه هو سيد الخلق محمد (ص) وهذه الدرجة من القداسة والشرافة تعود لدرجة الإخلاص.

فالملائكة بمختلف درجاتها ورتبها تمثل فئة من هذه المخلوقات التي حازت على درجات القرب، ولكن بالرغم من علو مراتبها ودنوها من النور فهي غير قادرة على استيعاب الآيات القرآنية في مرتبة أعلى، باعتبار أن الآيات القرآنية يتم الكشف عن معانيها وحقائقها بدرجة تنسجم مع كل مرتبة تنزل فيها ابتداءً من صدورها الأول؛ بل نستطيع أن نقول أن كل ملك هو بمثابة رتبة معرفية لها القابلية على استيعاب الوارد الإلهي بمقدار هذه الرتبة التي تتجسد فيها سعة صفحة وجود الملك وقابليته[١]، وهذا التدرج بالرتب المعرفية كان هو لأساس في تفاضل كل خلفاء الله ابتداءً من العارف الأكمل محمد(ص).

وحتى جبرائيل الملك المقرب في حواره مع رسول الله (ص)(... فلما انتهيت إلى حجب النور قال لي جبرئيل: تقدم يا محمد وتخلف عني فقلت: يا جبرئيل في مثل هذا الموضع تفارقني؟ فقال: يا محمد إن انتهاء حدي الذي وضعني الله عز وجل فيه إلى هذا المكان فإن تجاوزته احترقت أجنحتي بتعدي حدود ربي...)[٢].

وفي رواية أخرى قال له:" تقدم أمامك فو الله لقد بلغت مبلغا لم يبلغه أحد من خلق الله قبلك"[٣].

فالفرق بين الملائكة والإنسان في القابلية على استحصال المعرفة وأجنحة الملائكة[٤] هي مراتب العلم، وأن جبرائيل وإن كان في مرتبة عالية تبقى سعة صفحة وجوده أدنى وأقل من صفحة وجود الإنسان.

---

١. (وأُفق الملائكة ضيق نسبة إلى أفق الإنسان؛ لاختلاف الفطرة في كلا المخلوقين، ففطرة الإنسان تؤهله لأنْ يعرف كلّ أسماء الله سبحانه، فإنّ الله خلق آدم على صورته، وفطرة الملائكة تؤهلهم لمعرفة بعض أسماء الله سبحانه وتعالى، وتختلف الملائكة فيما بينها وتتفاضل بحسب الأسماء الإلهية التي فطرت وأهلت لمعرفتها: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١]. [المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٢ س٦٤]، (الجناح المتعارف عندنا يستعمله الطائر ليرتفع ويرتقي في جو السماء، وكذلك الملائكة (ع)، فهم بالأجنحة يرتقون في السماوات، وكلما زادت هذه الأجنحة زاد ارتقاؤهم وارتفعت مقاماتهم، وكل جناح بالنسبة للملائكة هو: اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى. فالملائكة مفطورون على معرفة بعض أسماء الله لا جميعها، كما هو حال الإنسان. فالملك الذي يعرف اسماً واحداً له جناح واحد يرتقي به، والذي يعرف اسمين جناحان، والذي يعرف ثلاثة أسماء له ثلاثة أجنحة، وهكذا.) [المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٣ س٧٤].

٢. عيون أخبار الرضا (ع) - الشيخ الصدوق: ج ٢ ص ٢٣٧-٢٣٨، بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٦ص٣٣٧.

٣. التفسير الصافي - الفيض الكاشاني: ج٧ ص٣١، بحار الأنوار- المجلسي: ج١٨ص٣٧٣، تفسير الميزان - الطباطبائي: ج١٣ص٢٠.

٤. انظر كتاب المتشابهات - السيد أحمد الحسن: س١٤٧.

ومحمد (ص) الإنسان الأكمل والحجاب بين الله وخلقه - كما تبين فيما سبق- فلا يمكن لجبرائيل أن يتحمل هذه المرتبة من العلم وهو في مقام أدنى بكثير.

يقول السيد أحمد الحسن: (فجبرائيل (ع) ليس له طاقة على معرفة أو تحصيل آيات القرآن في هذه المرتبة بل وحتى دون هذه المرتبة، حتى تصل النوبة في التنزل والتجلي إليه وإلى ملائكة الله المقربين (ع)، فيعلمون من القرآن ما شاء الله لهم أن يعلموا، لما أظهره وجلاّه في عوالمهم (ع))[١]

فتسلسل المقامات يقتضي وجود نظام محكم .

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٢].

وقوله عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٣].

كل شيء بدأ بنظام وانتهى إلينا وفق نظام من أول علاقة تشكلت مع الخالق المبدع سبحانه وأول مخلوق وفق نظام مقنن ومحسوب، وكل وصف للنظام الذي يخضع له كوننا ومن ثم علاقتنا مع الله ومع رسله ومع الآخرين مترشح عن ذلك النظام الفوقي وفق سلسلة تراتبية من تبدل صور النظام لتتكيف مع طبيعة العالم الذي نزل فيه.

فالتنزل في مراتب الوجود من بداية الخلق الأول وحتى مرتبة وجودنا في هذا العالم غير متناهية، فهو بصورته الأولى تنزّل من البساطة والكلية إلى التفصيل والتعقيد بشكل متوازي مع تكثر العوالم النازل فيها، والمرتكز الأول والأساس في هذا التنزل مرتبط بالوحي؛ لأنه الجهة الناقلة لذلك النظام، بالتالي فالوحي له في كل عالم ينزل إليه حلة جديدة تناسب ذلك العالم وسعة صفحات وجود أهل ذلك العالم.

عندما نتحدث عن شيء اسمه نظام أو قانون ولو على مستوى التقعيد والتنظير البشري الذي وصل به الحال في مستويات من النظم المهمة إلى درجة من الصرامة والإحكام ما لا يمكن بحال أن يخترق أو يُزج في بنيته قواعد أو بيانات خارجية.

فلا يمكن أن يتسلل أحد ليغير في بيانات النظام وأحكامه ولا على مستوى تنفيذ التطبيقات التي يضبطها في الزمان والمكان ولا يمكنه التعاطي مع المتغيرات التي تحيط بالوسط الذي يشمله هذا النظام انتهاءً بالمجموعات والأفراد الذين ينتخبهم ويختارهم القائم على رأس النظام، فالفرصة غير متاحة إلا لمن وضع هذا النظام.

ولا أريد الاسترسال في ما يترتب على أي خرق قانوني أو تلاعب في نصوص هذا النظام أو قوانينه، وكيف يتعامل القائمون على تطبيقه مع الدخلاء والغرباء، وبشكل أدق مع المنتحلين، وكيف ينظر إليهم القانون وبأي ميزان يزنهم، وكل التداعيات الأخرى المعروفة.

---

١. نفس المصدر السابق.

٢. القمر: ٤٩.

٣. الحجر: ٢١.

فعلى مستوى الحكم العقلي على الظواهر التطبيقية فالعقل يحكم بدون أي تراجع على أي أداء بشري لشخص أو أشخاص ينتحلون صفة أو وظيفة في أي مضمار بالفشل والدونية من زاويتين على الأقل.

الأولى: فقدان ذلك الفرد الأهلية للقيام بالمهمة المعينة التي يضطلع بها.

الثانية: عدم قانونية وجوده في هيكل المنظومة التي زج نفسه للعمل بها، ومن ثم النتائج المترتبة أو ثمرة العمل والأداء للمنصب أو الوظيفة التي شغلها سواءً على مستوى سرعة الحكم على النتائج أو حتى على المدى المنظور.

ولا أعتقد أن الشك يساور مؤمنا بحقانية وقداسة الكتاب السماوي الذي نزل على أشرف مخلوق خاطبه العليم الحكيم ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾[١] من جهة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢] وهو محمد (ص)، أو يمكن أن يقدح بدقة وصرامة النظام لكتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، من جهة أخرى.

القرآن ذلك الكتاب المهيمن على كل الكتب السماوية النازلة، كونها خاضعة لكل النواميس والنظم التي سنها الله سبحانه وتعالى.

ولعل أهم ما نريد أن نسلط الضوء عليه في هذا النظام وهو ما يرتبط ببحثنا الذي يتمحور حول الوحي الرسالي، ورسالته التي حمل أعباء تطبيقها وإيصالها للمكلفين أنبياء الله ورسله وخلفاءه (ع)، وهم يمثلون الركيزة والواسطة التي يتم من خلالها تمرير المراد الإلهي المسنون وفق نظام مقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتعيين واختيار هؤلاء الأمناء ضمن هذا النظام الساري في كل الوجود والذي لا يتخلف عن الانقياد والاذعان له حتى الجمادات والكيانات غير العاقلة، فضلا عن العنصر الأول والأساس الذي من أجله خلق الوجود وهو الإنسان.

وبالمرور على سيرة خلفاء الله (ع) وكيف ألزموا أنفسهم وقيدوها بأعلى درجات الخضوع والتذلل والتطبيق الصرف للرسالة الإلهية دون أن يكون لذواتهم المقدسة رأي أو حكم، وكيف نحروا أنفسهم وأفرغوها من كل أشكال الالتفات لوجودهم أمام خالقهم وتنفيذ دستوره المقدس الخالص، فكانوا قرطاسا خاليا يكتب فيه خالقهم بمداد الوحي ما يشاء، وهو يعلم سبحانه أن لا تبديل ولا تغيير ولا تفريط بكل صغيرة وكبيرة، وأنهم لم يهادنوا أحدا من خلقه من أجل أيصال رسائل الوحي ولو كلفهم حياتهم الشريفة.

خاطب سبحانه محمدا (ص) وهو أقرب الخلق إليه وحجابه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٣] وابتدأ بمحمد (ص)، لنفهم منه أن الله سبحانه يخبرنا بحقيقة الأيدي الفارغة للمخلوق وأنه يستجدي العطاء منه سبحانه.

فالعلم ابتداءً من الله وهو دائم الفيض لا تنتهي عطاءاته ولا ينفذ مداده، فيغترف من بحر جوده المخلصون الذين ركزوا نظرهم اليه سبحانه، وانشغلوا به وأخلوا صفحات وجودهم من كل وارد دونه.

---

١. الشورى: ١٥.

٢. القلم: ٤.

٣. طه: ١١٤.

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[١].

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

وأنهار العلم تجري بأوديتها ولا يمكن أن تسلك غير المنخفض الذي تهيأ واستعد ليكون وعاءً يحتويها. فالأودية هي القلوب وقلوب حجج الله هي الأودية الحقيقية التي جرت فيها أنهار العلم الإلهي.

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾[٣].

أبي الجارود، عن أبي جعفر (ع): (..."أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها" يقول: الكبير على قدر كبره، والصغير على قدر صغره. قوله: " الله أنزل من السماء ماء" يقول: أنزل الحق من السماء فاحتملته القلوب بأهوائها: ذو اليقين على قدر يقينه، وذو الشك على قدر شكه، فاحتمل الهوى باطلا كثيرا وجفاء، فالماء هو الحق، والأودية هي القلوب، والسيل هو الهوى، والزبد هو الباطل، والحلية والمتاع هو الحق..)[٤].

عن أمير المؤمنين (ع): (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ فالزبد في هذا الموضع كلام الملحدين الذي أثبتوه في القرآن، فهو يضمحل ويبطل ويتلاشى عند التحصيل، والذي ينفع الناس منه فالتنزيل الحقيقي، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والقلوب تقبله، والأرض في هذا الموضع محل العلم وقراره)[٥].

فالتنزيل الحقيقي هو ما يتنزل على حجج الله المخصوصين بالوحي؛ لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتقبله القلوب النقية المقرة بالفقر والحاجة المطلقة إليه سبحانه.

وعندما يقول أمير المؤمنين (ع): "والأرض في هذا الموضع محل العلم وقراره" فالمقصود بالأرض ليس كما يذهب إليه أهل الظاهر، فالأرض دين الله وكتاب الله، ودين الله هو حجة الله كما توضح سابقا، فمحل العلم وقراره هو حجة الله الذي ينزل إليه الوحي.

علي بن إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[٦] أي دين الله وكتاب الله واسع فتنظروا فيه ..)[٧].

---

١. الكهف: ١٠٩.

٢. لقمان: ٢٧.

٣. الرعد: ١٧.

٤. بحار الأنوار - المجلسي: ج٩ ص٢١٦، البرهان - البحراني: ج٣ ص٢٤٣، التفسير الأصفى - الفيض الكاشاني: ج١ ص٦٠١.

٥. بحار الأنوار - المجلسي: ج٩٠ ص١١٣.

٦. النساء: ٩٧.

٧. تفسير البرهان - هاشم البحراني: ج٢ ص١٥٥.

فالدين وكتاب الله هو حجة الله في كل زمان، والفيض الإلهي هو ذلك النهر المتدفق بالعلم والحكمة والنور ليس ممنوعا على أحد؛ بل الأمر متوقف على من يأتي بوعاء فارغ وطاهر من أوساخ الشيطان وإملاءاته.

في الكتاب المقدس، فَقَال لَه يسوع: (لَيْسَ أَحَدٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْمِحْرَاثِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْوَرَاءِ يَصْلُحُ لِمَلَكُوتِ اللهِ)[١].

عن أمير المؤمنين (ع)، قال: "يا طالب العلم، إنّ العلم ذو فضائل كثيرة، فرأسه التواضع..."[٢].

عنه (ع): (تواضعوا لمن تتعلموا منه العلم ولمن تعلمونه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم جهلكم بعلمكم)[٣].

وعنه (ع): (لا يتعلم من يتكبر)[٤].

وعنه (ع): (اتّهموا عقولكم, فإنّه من الثقة بها يكون الخطأ)[٥].

الإمام الصادق (ع): (اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم)[٦].

وعنه (ع): (التواضع أصل كل خير نفيس و مرتبة رفيعة ...)[٧].

فالأنسان مجبول على أن يتواضع لله ويقر بفقره، وأن لا يرى لنفسه قدرة على التحصيل الذاتي فيما يخص دين الله الحق؛ بل يأخذه ممن اصطفاهم الله، فضلا من أن لا يرى لنفسه وجودا حقيقيا أمام خالقه سبحانه.

ورد في دعاء أبي حمزة الثمالي عن الإمام زين العابدين (ع) : (مِنْ اَيْنَ لِيَ الْخَيْرُ يا رَبِّ وَلا يُوجَدُ إلاّ مِنْ عِنْدِكَ)[٨].

وأي خير أفضل من العلم الموجب للنجاة.

قد لا تنكشف للكثيرين حقيقة التواضع، ونحن نتكلم في مضمار الأفكار والعقائد أو منظومة الدين الحق بشكل أدق، فهي ليست ممارسة ظاهرية وسلوك خارجي يمارسه البعض ليوحي بأنه يرتدي لباس التواضع.

حقيقة التواضع الذي نتكلم عنه هو الاعتقاد الراسخ بصفرية المعلومة الحقة، وفقرها ابتداءً والإقرار فعليا للمطلق سبحانه بالحاجة، وما يأتي منه سبحانه عن طريق الجهة المعصومة الناقلة لها بطريقها الآمن - الوحي- وعندها سيكون محلا سهلا تنحدر إليه الفيوضات العلوية ويكون مستعدا لقبولها والاستئناس بها، وفي هذه الحالة يرفعه الله سبحانه بمقدار إقراره بهذا الفقر والتواضع بهذا المعنى، وبمقدار إخلاصه وقبوله بالفيض

---

١. الكتاب المقدس: لو ٩: ٦٢.
٢. الكافي - الكليني: ج١ ص٤٨.
٣. موسوعة العقائد الإسلامية - محمد الريشهري: ج٢ ص٢٧٠.
٤. نفس المصدر.
٥. العلم والحكمة في الكتاب والسنة - محمد الريشهري: ص١٧٤، عيون الحكم والمواعظ - الليثي الواسطي: ص٩١.
٦. الكافي - الكليني: ج١ ص٣٦.
٧. بحار الأنوار - المجلسي: ج٧٢ ص١٢١..
٨. مفاتيح الجنان: ص٢٣١.

واستقراره في قرارة نفسه وقلبه، فهو في هذه الحالة غني بهذا المقدار تظهر عليه آثار الفيض وتجلله هيبة الاستغناء عن غيره.

ملأى السنابلِ تنحني بتواضعٍ والفارغاتُ رؤوسُهُنّ شوامخُ

قال عيسى (ع): (بِالتَّوَاضُعِ تُعْمَرُ الْحِكْمَةُ لَا بِالتَّكَبُّرِ وَ كَذَلِكَ فِي السَّهْلِ يَنْبُتُ الزَّرْعُ لَا فِي الْجَبَلِ)[١].

وقال الإمام الكاظم (ع): (... إن الزرع ينبت في السهل و لا ينبت في الصفا، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع و لا تعمر في قلب المتكبر الجبار؛ لأن الله جعل التواضع آلة العقل و جعل التكبر من آلة الجهل)[٢].

العلاقة بين الماء النازل من السماء والسهل الذي ينبت فيه الزرع تحكي عن أصل العلاقة بين العلم والنور والحكمة النازلة على جناح الوحي من الملكوت وبين التواضع وتتجلى بوضوح، فالماء مرتبة شريفة وعالية سواء في صورته المادية التي ترمز للحياة وتعطيها صورتها الجميلة وترفدها بالعطاء وتمدها بأسباب الحياة، وينبت بسببها الزرع وتورق الأشجار وتثمر، أو في صورته العلوية التي هي أصل كل شيء حي﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

ففي المعنى الأول طالما ينحدر الماء من الأعالي ليشق طريقه في كل سهل ومنخفض، وهو في المعنى الآخر نور متعالي يشق طريقه في قلوب المتواضعين المقرين بالفقر والفاقة والحاجة المطلقة.

تعاظمت الأنا عند إبليس فتكبر[٤]، فماذا كانت النتيجة؟ طرد عن حرم الله وخرج من جنته فأركس نفسه في ظلمات البعد الأبدي .

فالميزان الذي تعتدل كفتيه بين العلم والجهل والفقر والغنى هو صفرية الوزن ابتداءً، ثم خلو الكفة وكل ما يحسب في أحد كفتيه هو ما يعادله من الأوزان الحقيقية؛ أي المعايير والنظم والمناهج المعصومة التي يقدمها خليفة الله في كل زمان.

قال الإمام الحسين (ع): (إِلهِي كَيْفَ لا أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي فِي الفُقَراءِ أَقَمْتَنِي أَمْ كَيفَ أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي)[٥] هو الإقرار الحقيقي بالفقر وهو الغنى الحقيقي بنسبته إليه سبحانه.

---

١. أصول الكافي- الكليني: ج١ ص٣٧.

٢. بحار الأنوار - المجلسي: ج ٧٥ ص٣١٢، ميزان الحكمة - محمد الريشهري: ج٤ ص٣٥٥٨.

٣. الأنبياء: ٣٠.

٤. (القرآن هو الإمام الحجة على الخلق في كل زمان) قال الإمام علي (ع): (أنا القرآن الناطق)[ينابيع المودة لذوي القربى - القندوزي: ج١ ص٢١٤]، وقراءته هي قراءة صفحته على الناس في هذه الحياة الدنيا، فيجب على الناس طاعته والخضوع لأمره، وهذا هو السجود الذي رفضه إبليس (لعنه الله)، ويرفضه كل مصاب بداء إبليس (لعنه الله) فإعراض الناس عن القرآن الناطق، وهو الإمام وحجة الله في زمانهم (ع)، وترك طاعته هو ترك السجود، وهو نظير ترك إبليس (لعنه الله) السجود لآدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠] [المتشابهات- السيد أحمد الحسن: ج٤ س١٦١].

٥. دعاء عرفة: مفاتيح الجنان.

يقول السيد أحمد الحسن:

(فالإنسان غير المعصوم لو أخلص نيته لله سبحانه وتعالى وأراد الخوض في فهم كلامهم (عليهم السلام) وبالخصوص في ما ورد عن قضية صاحب الأمر (ع) لربما وقع في سوء الفهم جملة وتفصيلاً، وإذا أصاب فهم أمر ما فقطعاً سيقع الخطأ منه في فهم أمر آخر؛ لورود الباطل على عقله كونه غير معصوم، فما بالك فيمن يتعصّب لأمر ويتحامل على أمر وهو يجهلهما معاً؟! ولعل من خاض في رواياتهم (ع) يعلم أنّه حدث في يوم أنّ أحد الذين ظلموا أنفسهم كتب كتاباً في تفنيد القرآن الكريم، فأرسل إليه الإمام (ع) (لعل المتكلم أراد شيئاً من كلامه غير الذي فهمته أنت) فاتعظ هذا الشخص ومزّق كتابه الباطل[١])[٢].

الله سبحانه قطع الطريق على كل من يتذرع بضرورة سد الثغرات ليجد مسوغا لحلوله محل من تجب ولايته والأخذ منه، ولكي لا تنطلق النفوس المستكبرة في فضاءاتها الموهومة ثم توهم المتخاذلين عن استيفاء طاقتهم واستفراغ الوسع في طلب الحق من مضانه ومن ثم إيهام ذواتهم بحقانية هذا السلوك وحقانية ما يصدر منه.

عن أبي جعفر(ع): (والله ما ترك الله أرضا منذ قبض آدم (ع) إلا وفيها إمام يهتدى به إلى الله)[٣].

إذن بغير هذا الإمام لا سبيل للهداية، وإلا خلا قول أبي جعفر (ع) من الحكمة وحاشاه، والهداية رهن ما ينقله هذا الإمام من الله بالوحي.

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[٤].

قال الإمام الحسين (ع): (لما أنزلت هذه الآية على رسول الله (ص) (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) قام أبو بكر وعمر من مجلسهما فقالا: يا رسول الله هو التوراة؟ قال: لا قالا: فهو الإنجيل؟ قال: لا قالا: فهو القرآن؟

---

١. روى ابن شهر آشوب، قال: (أبو القاسم الكوفي في كتاب التبديل إنّ إسحاق الكندي كان فيلسوف العراق في زمانه أخذ في تأليف تناقض القرآن وشغل نفسه بذلك وتفرّد به في منزله وأن بعض تلامذته دخل يوماً على الإمام الحسن العسكري فقال له أبو محمد (ع): أما فيكم رجل رشيد يردع أستاذكم الكندي عما أخذ فيه من تشاغله القرآن، فقال التلميذ: نحن من تلامذته كيف يجوز منا الاعتراض عليه في هذا أو في غيره، فقال له أبو محمد: أتؤدي إليه ما ألقيه إليك؟ قال: نعم، قال: فصر إليه وتلطف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله، فإذا وقعت الأنسة في ذلك فقل قد حضرتني مسألة أسألك عنها فإنه يستدعي ذلك منك فقل له أن أتاك هذا المتكلم بهذا القرآن، هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم منه غير المعاني التي قد ظننتها إنك ذهبت إليها؟ فإنه سيقول لك إنه من الجائز لأنه رجل يفهم إذا سمع، فإذا أوجب ذلك فقل له: فما يدريك لعله قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه فيكون واضعاً لغير معانيه. فصار الرجل إلى الكندي وتلطف إلى أن ألقى عليه هذه المسألة فقال له: أعد علي، فأعاد عليه فتفكّر في نفسه ورأى ذلك محتملاً في اللغة وسائغاً في النظر، فقال: أقسمت عليك إلاّ أخبرتني من أين لك؟ فقال: إنه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك، فقال: كلا ما مثلك من اهتدى إلى هذا ولا من بلغ هذه المنزلة، فعرفني من أين لك هذا؟ فقال: أمرني به أبو محمد، فقال: الآن جئت به وما كان ليخرج مثل هذا إلاّ من ذلك البيت، ثم إنه دعا بالنار وأحرق جميع ما كان ألفه) [مناقب آل أبي طالب - ابن شهرآشوب: ج٣ ص٥٢٥]، [بحار الأنوار - المجلسي: ج١٠ ص٣٩٢].

٢. نصيحة إلى طلبة الحوزة العلمية - السيد أحمد الحسن.

٣. الكافي - الكليني: ج١ ص١٧٩، الإمامة والتبصرة - ابن بابويه القمي: ص٢٩.

٤. يس: ١٢.

قال: لا. فأقبل أمير المؤمنين علي عليه السلام فقال رسول الله (ص): هو هذا إنه الإمام الذي أحصى الله تبارك وتعالى فيه علم كل شيء)[١].

وهو في الأئمة (ع) واحدا بعد واحد إلى يوم القيامة كما تقدم في محله.

عن موسى بن عقبة أن معاوية أمر الحسين (ع) أن يصعد المنبر فيخطب، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (نحن حزب الله الغالبون، وعترة نبيه الأقربون، أحد الثقلين اللذين جعلنا رسول الله ثاني كتاب الله، فيه تفصيل لكل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعول علينا في تفسيره، لا نتظنى تأويله، بل نتبع حقائقه، فأطيعونا، فان طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة، قال الله: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ﴾[٢]، وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ ... الحديث)[٣].

لهذا منع الأئمة (ع) الذين كانوا يفتون الناس ويفسرون القرآن برأيهم أمثال أبي حنيفة[٤].

---

١. معاني الأخبار - الصدوق: ص٩٥.

٢. النساء: ٥٩.

٣. الاحتجاج - الشيخ الطبرسي: ج٢ ص٢٢.

٤ .عن شعيب بن أنس، عن بعض أصحاب أبي عبد الله (ع)، قال: (كنت عند أبي عبد الله (ع) إذ دخل عليه غلام كندة فاستفتاه في مسألة فأفتاه فيها، فعرفت الغلام والمسألة فقدمت الكوفة فدخلت على أبي حنيفة، فإذا ذاك الغلام بعينه يستفتيه في تلك المسألة بعينها فأفتاه فيها بخلاف ما أفتاه أبو عبد الله (ع)، فقمت إليه فقلت: ويلك يا أبا حنيفة إني كنت العام حاجاً فأتيت أبا عبد الله (ع) مسلماً عليه فوجدت هذا الغلام يستفتيه في هذه المسألة بعينها فأفتاه بخلاف ما أفتيته. فقال: وما يعلم جعفر بن محمد أنا أعلم منه، أنا لقيت الرجال وسمعت من أفواههم، وجعفر بن محمد صحفي، فقلت في نفسي: والله لأحجن ولو حبواً، قال: فكنت في طلب حجة فجاءتني حجة فحججت فأتيت أبا عبد الله (ع) فحكيت له الكلام فضحك ثم قال: عليه لعنة الله أما في قوله: إني رجل صحفي فقد صدق، قرأت صحف إبراهيم وموسى، فقلت له: ومن له بمثل تلك الصحف؟

قال: فما لبثت أن طرق الباب طارق وكان عنده جماعة من أصحابه، فقال للغلام: انظر من ذا؟ فرجع الغلام، فقال: أبو حنيفة. قال: أدخله، فدخل فسلّم على أبي عبد الله (ع)، فردّ (ع)، ثم قال: أصلحك الله أتأذن لي في القعود فأقبل على أصحابه يحدثهم ولم يلتفت إليه. ثم قال الثانية والثالثة فلم يلتفت إليه، فجلس أبو حنيفة من غير إذنه، فلما علم أنه قد جلس التفت إليه فقال: أين أبو حنيفة؟ فقال: هو ذا أصلحك الله، فقال: أنت فقيه أهل العراق؟ قال: نعم. قال: فبما تفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنة نبيه. قال: يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حق معرفته، وتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: نعم، قال: يا أبا حنيفة ولقد ادعيت علماً ويلك ما جعل الله ذلك إلا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم ويلك ولا هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا (ص)، وما ورثك الله من كتابه حرفاً، فإن كنت كما تقول - ولست كما تقول - فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾ ([سبأ:١٨]) أين ذلك من الأرض؟ قال: أحسبه ما بين مكة والمدينة، فالتفت أبو عبد الله (ع) إلى أصحابه فقال: تعلمون أن الناس يقطع عليهم بين المدينة ومكة فتؤخذ أموالهم ولا يأمنون على أنفسهم ويقتلون؟ قالوا: نعم. قال: فسكت أبو حنيفة، فقال: يا أبا حنيفة أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿مَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ ([آل عمران:٩٧])، أين ذلك من الأرض؟ قال: الكعبة. قال: أفتعلم أن الحجاج بن يوسف حين وضع المنجنيق على ابن الزبير في الكعبة فقتله كان آمنا فيها؟ قال: فسكت، ثم قال: يا أبا حنيفة إذا ورد عليك شيء ليس في كتاب الله، ولم تأت به الآثار والسنة كيف تصنع؟ فقال: أصلحك الله أقيس وأعمل فيه برأيي. قال: يا أبا حنيفة إن أول من قاس إبليس الملعون، قاس على ربنا تبارك وتعالى فقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. فسكت أبو حنيفة. فقال: يا أبا حنيفة أيما أرجس البول أو الجنابة؟ فقال: البول. فقال: الناس يغتسلون من الجنابة ولا يغتسلون من البول، فسكت. فقال: يا أبا حنيفة أيما أفضل الصلاة أم الصوم؟ قال الصلاة. فقال: فما بال الحائض تقضي صومها ولا تقضي صلاتها؟ فسكت ..... الحديث) [بحار الأنوار - المجلسي: ج٢ ص٢٩٢- ٢٩٣].

عن زيد الشحام، قال: (دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفر (ع) فقال: يا قتادة أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: هكذا يزعمون، فقال أبو جعفر (ع): بلغني أنك تفسر القرآن؟ فقال له قتادة: نعم فقال له أبو جعفر (ع): فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت، وأنا أسألك .. إلى أن قال أبو جعفر (ع): ويحك يا قتادة! إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت قد فسرته من الرجال، فقد هلكت وأهلكت ويحك يا قتادة! إنما يعرف القرآن من خوطب به)[١].

حتى المعصوم لا يستخدم عقله بالمعنى المتداول والمتعارف الذي تقيسه العقول الناقصة؛ بل يأخذ من عقله التام، والمعصوم يكون قد استقر في مرتبة السماء السابعة وهي مرتبة العقل الكلي وكل ما دونها فهي مرتبة ظل العقل كما تم بيانه.

كيف يستزيد المعصوم من العلم كما هو وارد عنهم (ع)؟ وهل هو يجهل ثم يعلم؟

جواب للسيد أحمد الحسن:

(بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين إذا كان المراد أنه يجهل بمعنى لا يعلم ثم يعلم فلا، وهذا خطأ، لكنه يدرك ما أودع في عقله التام بالله سبحانه وتعالى، حيث إنه (ع) محجوب بالجسد عند نزوله إلى عالم الأجسام في هذه الدنيا للامتحان، أي كما أنه محتاج إلى الله سبحانه وتعالى ليوصل قطرة الدم التي أودعها الله في قلبه إلى أطراف جسمه، كذلك هو محتاج لله ومفتقر إلى الله سبحانه وتعالى ليوصل له العلم الذي أودعه في عقله التام إلى نفسه في هذا العالم، أي إنه يعلم ويزداد علماً مما أودع في عقله التام، أي وجوده في بيت الله (المقامات العشرة، عشرة الإيمان)، أي إنه يزداد علماً من علمه المكنون المخزون في قلبه أو عقله التام، (وليس العلم في السماء ولا في الأرض، ولكنه في الصدور فاستفهم الله يفهمك)[٢] فـ (الجامعة) و (الجفر) و (مصحف فاطمة) كلها علم وليست هي العلم، بل العلم هو ما يحدث في كل ساعة، وهو من المعصوم وإلى المعصوم)[٣].

إذن فالعلم هو ما يحدث في الليل والنهار، وهذا مرتبط بالوحي للمعصوم في كل آن، وهو دليل على بطلان ما يصدر من مدعي تمثيل الدين والمتكلمين نيابة عن المعصوم؛ لأن النصوص القرآنية أو حتى روايات الأئمة (ع)

---

١. وسائل الشيعة - الحر العاملي: ج٢٧ ص١٨٥.

٢. روي عن أمير المؤمنين (ع): (ليس العلم في السماء فينزل إليكم، ولا في تخوم الأرض فيخرج لكم، ولكن العلم مجبول في قلوبكم، تأدبوا بآداب الروحانيين يظهر لكم) [العلم والحكمة في الكتاب والسنة- الريشهري: ص٣٦]، [جامع الشتات - للخواجوئي: ص٢١٥].

٣. المتشابهات- السيد أحمد الحسن: ج٤ س١٥٧. عن أبي بصير قال: (دخلت على أبي عبد الله (ع) فقلت له: جعلت فداك إن شيعتك يتحدثون أن رسول الله (ص)علم علياً (ع) باباً يفتح له منه ألف باب؟ قال: فقال: يا أبا محمد علم رسول الله (ص) عليا (ع) ألف باب يفتح من كل باب ألف باب، قال: قلت: هذا والله العلم. قال: فنكت ساعة في الأرض، ثم قال: إنه لعلم وما هو بذاك. قال: ثم قال: يا أبا محمد وإن عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة؟ قال: قلت: جعلت فداك وما الجامعة ... قال: إنه لعلم وليس بذاك. ثم سكت ساعة، ثم قال: وإن عندنا الجفر وما يدريهم ما الجفر ... قال: إنه لعلم وليس بذاك. ثم سكت ساعة ثم قال: وإن عندنا لمصحف فاطمة وما يدريهم ما مصحف فاطمة عليها السلام؟ ... إنه لعلم وما هو بذاك. ثم سكت ساعة ثم قال: إن عندنا علم ما كان وعلم ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة .. إنه لعلم وليس بذاك. قلت: جعلت فداك فأي شيء العلم؟ قال: ما يحدث بالليل والنهار، الأمر من بعد الأمر، والشيء بعد الشيء إلى يوم القيامة)[الكافي - الكليني: ج١ ص٢٣٩-٢٤٠].

معلومات وتعاليم ومصاديق متحركة مرتبطة بالخالق المدبر متكيفة مع الزمان والمكان لعلة تعلقها وارتباطها بمسيرة المشروع المعرفي المتجدد السائر نحو الكمال، وبلوغ الهدف المقدس والعبادة الحقيقية أو معرفته سبحانه، ولذلك فإن وجود ناقلا للعلم مقننا لحركته المتجددة لها ضرورة تقتضيها الحكمة في أعلى صورها؛ لأنها متعلقة بالحكيم المطلق سبحانه.

فكل الأشياء والأحداث عبر الزمان والمكان ثابتة ومعروفة عنده سبحانه، ولكن عندما يكون الإنسان طرفا في هذا المشروع فسيقع تحت تأثير الزمان والمكان والظروف والمتغيرات، فلابد أن يكون هذا الإنسان أو خليفة الله في كل زمان مهيمنا على العوالم والعوامل المؤثرة في إحداث التغييرات، وأن يكون مسددا بالوحي النازل من عند الله ليتم تقنينها والتعامل معها وفق المخطط الإلهي المرسوم والمسنون من قبله سبحانه كونه محلا لمشيئة الله[١].

علي بن إبراهيم: ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[٢] قال: (يحيي و يميت، و يرزق و يزيد و ينقص)[٣].

(وقد بين الله تعالى في أول سورة يوسف ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٤]، أي ترتقون إلى السماء السابعة الكلية سماء العقل فتتم عقولكم. ولا يبعث نبي حتى يتم عقله، ويمسح القائم (ع) (وهو يد الله) على رؤوس أصحابه فتتم عقولهم، أي يمسح على رؤوسهم بالعلم وتتم عقولهم إذا عملوا بهذا العلم وارتقوا في ملكوت السماوات إلى السماء السابعة، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمّىً وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٥])[٦].

فعن أبي عبد الله (ع)، قال: (ما كلّم رسول الله (ص) العباد بكنه عقله قط، وقال: قال رسول الله (ص): إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم)[٧].

يقول السيد أحمد الحسن:

---

١. في حديث لعلي (ع) لسلمان وجندب(..ونحن إذا شئنا شاء الله ...من أنكر شيئا مما أعطانا الله فقد أنكر قدرة الله عز وجل ومشيئته فينا) [بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٦ص٧]، عن أبي محمد (ع): (كذبوا بل قلوبنا أوعية لمشيئة الله فإذا شاء شئنا) [نفس المصدر: ج٢٥ ص٣٣٧]، وفي حديث رسول الله (ص): " إن الله جعل قلب وليه وكرا لإرادته فإذا شاء الله شئنا" [نفس المصدر: ج٢٦ ص٢٥٦]. مما خرج على يد الشيخ الكبير أبي جعفر محمد بن عثمان بن سعيد-ره- من الناحية المقدسة (اَللّٰهُمَّ اِنّي اَسـاَلُكَ بِمَعاني جَميعِ ما يَدْعُوكَ بِهِ وُلاةُ اَمْرِكَ، الْمَأْمُونُونَ عَلى سِرِّكَ، الْمُسْتَبْشِرُونَ بِاَمْرِكَ، الْواصِفُونَ لِقُدْرَتِكَ الْمُعلِنُونَ لِعَظَمَتِكَ، اَسـاَلُكَ بِما نَطَقَ فيهِمْ مِنْ مَشِيَّتِكَ، فَجَعَلْتَهُمْ مَعادِنَ لِكَلِماتِكَ، وَاَرْكاناً لِتَوْحيدِكَ، وَآياتِكَ وَمَقاماتِكَ الَّتي لا تَعْطيلَ لَها في كُلِّ مَكان، يَعْرِفُكَ بِها مَنْ عَرَفَكَ، لا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَها إِلاّ اَنَّهُمْ عِبادُكَ وَخَلْقُكَ)[بحار الأنوار - المجلسي: ج٩٥ ص٣٩٢-٣٩٣].

٢. الرحمن: ٢٩.

٣. تفسير البرهان - هاشم البحراني: ج٥ ص٢٣٧.

٤. سورة يوسف: ٢.

٥. غافر: ٦٧.

٦. اضاءات من دعوات المرسلين - السيد أحمد الحسن:اضاءة من فاتحة سورة يوسف ج٣ ق١.

٧. الكافي - الكليني: ج٨ ص٢٦٨، بحار الأنوار - المجلسي: ج١ ص٨٥.

(وما دام أن العاقل هو الذي يعبد الرحمن ويكسب الجنان بعقله، فمن أين لعامة البشر من معرفته؟ بل دون ذلك خرط القتاد، نعم من أين يعرف من لا يعلم ما يكسب غداً وفي أي أرض يموت من معرفة العاقل الذي يكسب الجنان بعقلة؟ ولذلك انحصر اختيار الخليفة بيد الله تعالى الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ لأنه لا يمكن أن يكون القائد والمشرع للبشر شيطاناً أو بهيمة ولو نسبياً، فتعين التشريع والقيادة بالعاقل الحقيقي والعاقل الحقيقي لا يعرف إلا الله تعالى، فلا يمكن أن يكون إلا بتعيين إلهي. ولا يمكن لأصحاب العقول الناقصة الذين لا يعرف هل هم من أهل النار أم من أهل الجنة، أن يشرعوا الأحكام والقوانين بعقولهم التي لا يعرف هل هي من النكراء والشيطنة أم هي من العقل الممدوح عند الله تعالى والذي تكتسب به الجنان، فالنتيجة مجهولة ولا يعرفها إلا الله تعالى ومن أعلمه الله بها، وايكال زمام الدين الإلهي بيد أشخاص مجهولي الحقيقة والنهاية يعتبر مجازفة لا تغتفر بهذا الدين الحنيف، الذي هو نتاج تضحيات وعناء ودماء الأنبياء والمرسلين والأئمة والشهداء والصالحين (ع)...)[١].

إذا كان ما عندنا هو ظل العقل وليس العقل- باعتبار أن العقل الحقيقي الذي به تدرك حقائق الأشياء وتنال به العقائد الحقة هو مقام السماء السابعة كما تقدم، فإن إخضاع الدين الذي يتعاطاه رجال الدين والمفسرين وغيرهم للعقل وبحسب ما يعرّفه الآخرون هو بالنتيجة إخضاع الوحي للعقول الناقصة، وإن كان هذا الوصف فيه تساهل كبير إذا ما أردنا أن نحدد مقام العقل الذي به يدرك الوحي ومحتوى الوحي النازل من مصدر الفيض.

فأقول أن عقلنة الدين نتيجة هذه السلوكيات والمناهج تساوي عقلنة الوحي؛ ولأن الدين رجل منصب من قبل الله يوحى إليه، فهذا يعني أنهم يتقمصون دور المعصوم.

فالعقلنة تشمل عقلنة القواعد بشكل عام ومن ثم عقلنة القرآن؛ بل وعقلنة الدلالات وحتى اللغة، وبالتالي أقلمة الآيات والروايات بمفاهيم ومصاديق تتكيف مع سياقات نحوية ومباني عقلية، فتنسحب دلالاتها على دلالات يفترضها النحويون وأصحاب العقول الناقصة.

فوضع القواعد النحوية وإلزام اللغة بأن تسير بمقتضاها، واجترارها وفق هذه القواعد على لغة القرآن، وجعلها حاكمة على القرآن فهو تعسف واضح، وبعبارة صريحة فالنحويون لا يكترثون بالمعاني التي وراء الألفاظ، ولا يدرون كم هم جائرين على روح اللفظ القدسي ومعناه، وتجريده من كل ما قد ينصرف إليه، مادام صرفه اللغوي والنحوي يبقى في قالبه وبنيته النحوية المفترضة.

هذه القواعد تسللت للبناء الذهني للمفسرين بشكل قسري ليصبح أداة توجه السياقات النصية، كي تتسق وتتساوق مع البناء اللغوي والعقلاني، فكانت النتيجة تجريد النص عن عمقه المعنوي وبعده المتعال، ولهذا حصر الله عز وجل في كتابه الكريم ورسول الله(ص) والائمة (ع) بأن يكون المبيّن هو رجل عارف بأصل معاني تلك الألفاظ، أو كشف له حجاب الألفاظ وأطلعه الله على حقائقها ومعانيها بعيدا عن المنظومة اللغوية والنحوية وصنّاعها قبل أن تنزل من حقيقتها إلى قوالب لفظية متشكلة من خلال لغة التخاطب الذي يتعاطاها الناس.

---

١. الجواب المنير - السيد أحمد الحسن: ج٢ س١٥٨.

هذا إذا ما تجاوزنا بالأساس وبغض النظر عن موضوع عقلنة النحو وقواعد اللغة، فإن كل إنسان ما عدى خلفاء الله محرم عليه دخول حرم القرآن وساحة قدسه؛ لأن الذي خوطب به[1] هو عِدله والعارف بلغة الوحي ومضامينها، فشتان بين اللغة وتراكيب الألفاظ في عالمنا وبين لغة الوحي التي يعرفها مستقبِل الوحي.

فعلى المستوى الأرضي لو أردنا أن نستعرض شاهدا يبين لنا ولو بمقدار شكل ونوع التجني على النص المقدس واقتحام أسواره الحصينة، فنفترض أنه لو كان بين أيدينا نص قانوني وضعي ستجد هناك اختلافا حتى بين أصحاب الاختصاص في تفسير هذا النص من أجل تطبيقه وتعميمه، وطالما حصل لغطا وشجارا في الوقوف على حدود قانون معين ومقاصده مالم تبينه اللجنة التي وضعت هذا القانون، وهو نص أرضي صرف، فكيف بنصوص سماوية تمثل مراد الله سبحانه نزلت حقائقها في نفوس قدسية ترجمت لغة السماء.

فالنظام فيما يخص حركة الوحي الإلهي يعني أن عملية نزول الوحي ومروره بالعوالم العلوية أو الملكوتية وصولا إلى ناقله في الأرض - المعصوم- تكون خاضعة لنظم وقوانين تتناسب مع كل عالم وحقيقته.

فعندما نتكلم عن الوحي وهو يطوف في ملكوت الله، فحقيقته ومضامينه متعلقة بعلوية وشأنية المرتبة الملكوتية، وهي قطعا مختلفة عن صورتها في عالم الدنيا؛ أي تتبدل صورتها وتتشكل مضامينها وفق ما يناسب عالم الدنيا، وتكون مقيدة بلغة الخطاب الدنيوي أو ما نعبر عنه بالألفاظ.

عوالم التنزيل تبدأ من مقام محمد (ص) أو مقام الحجاب الأول بين الله وخلقه إلى مقام العقل أو السماء السابعة الكلية والسموات الست وعالم الدنيا وفي كل عالم مراتب لا تنتهي، فالقرآن المهيمن على كل الكتب السماوية له في كل مرتبة معنى يخص أهل ذلك العالم وتلك المرتبة،

فعندما نقرأ آية من آيات القرآن لا يعني أن الآية محصورة ضمن نطاقها التنزلي الذي ترجم في هذا العالم من قبل المترجم الحقيقي، فالقران = محمد، ومحمد مهيمن على كل المراتب = الوجود كله، فنستطيع القول بأن القرآن أو آيات القرآن لها مراتب تبدأ من مرتبة محمد (ص) نزولا حتى أخر ظهوراتها في هذا العالم المادي الجسماني، وما يمكن أن يتحصل عليه أهل هذا العالم ابتداءً، ثم ترتقي صورة المعلومة مع ارتقاء القابل بحسب مسايرته وتسليمه للمترجم الإلهي، فيصل إلى ما شاء الله من المراتب بحسب إخلاصه وقابليته.

يعني أي أن أحد غير خليفة الله يحتاج من يترجم له وحي الله، والترجمة مرة تحصل دون أن يكون المتلقي طرفا فيها، وهي الصور والمعاني التي تتشكل في نفس خليفة الله يترجم بها الحقائق التي ينقلها الوحي له بمقدار مقامه، وهي الرسالة التي تظهر في هذا العالم بكتاب سماوي يناسب مقام الرسول كقرآن محمد (ص) وتوراة موسى(ع) وإنجيل عيسى (ع)، أو بيان لحقائق وأحكام وتشريعات،.

فمرة تكون الترجمة بعد صياغة الرسول للوحي بلسان قومه، وهي ما يخص المقاصد والمعاني والمصاديق والزمان والمكان وظروف تطبيقها وانطباقها فتكون نصوص الكتاب موقوفه على تفسير وتأويل الرسول أو المعصوم (ع) الذي يقوم مقامه في كل زمان؛ لأن كل مقاصد النص بكل ظروفها حاضرة في نفس الرسول أو

---

١. قال أبو جعفر (ع) لقتادة:(ويحك ياقتادة إنما يعرف القرآن من خوطب به) الكافي - الكليني: ج٨ ص٣١٢.

المعصوم المتصلة بالغيب والوحي، وهي منطبقة تمام الانطباق مع المراد الإلهي في كل آن؛ لأن المعصوم محل مشيئة الله كما مر سابقا.

فالكتب السماوية وأعلى صورها القرآن كلام متشابه على الناس ومحكم عند الخليفة الإلهي، وهذه حقيقة تفرضها طبيعة المعلومة النازلة من المقامات العلوية، ولهذا نجد هذا التلازم بين كلام المعصوم - أقصد حديثه وروايته- وبين النص القرآني من هذه الجهة.

فكيف يمكن لغير خليفة الله الموحى إليه أن يقدم نفسه قيما على الدين وعارفا بمراد الله من خلال النص المعبر عما يحمله الوحي وهو خارج المنظومة الإلهية وتسلسل الرجال المنصبين من قبل الله والمختارين لنقل العلم الإلهي؟!

فكما أن الدنيا وهذا الكون الجسماني تجلي لعوالم ملكوتية، وأن كل ما يحدث فيه صور معبرة تشير إلى عوالم أرقى، وكما أن أسياد تلك العوالم والعارفين بطرقها وأسرارها مختارين من قبل الله سبحانه، فإن لهم تجليات في هذا العالم وهم عارفين في أسرار وعلة هذا الوجود والنظام الذي يسير بموجبه، وهو عالم يغص بالمصاعب والمشاكل والمخاطر على كل المستويات الروحية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية وكل ما يمت بصلة في حياة الإنسان وعلاقته بالله سبحانه، بسبب ظلمانية هذا العالم وبعده عن مصدر الفيض، وكونه مسرحا لشياطين الجن والإنس وجنود إبليس الذين يعملون ليل نهار لتزييف الحقائق وإبعاد الناس عن وحي الله.

وبالتالي ستكون الحلول والخطوات التي تضبط مسيرة الإنسان ووصوله إلى أعلى مراتب الكمال الممكنة وضبط العلاقة مع الله سبحانه، الذي أوجدهم وأنزلهم إلى هذا العالم للامتحان، وهو الطريق للوصول إلى الهدف من خلقهم كالتشريع والأحكام والأخلاق وعلى كل المستويات، كذلك كالنظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وكلها بالنتيجة، مرتبطة بأصل العلاقة بين الخالق والمخلوق.

علاقة الوجود (الخلق) بالوحي

عرفنا أن هذا العالم او الكون الذي نعيش فيه عالم مؤقت خُلق ووجد لغاية وهدف وهو امتحان الخلق، وأنه عالم مؤقت مصيره الزوال، وأن كل الخلق سيغادره ذاهبا إلى عالم آخر وصفت أحواله كثيرا في القرآن الكريم.

فلماذا سيصل الكون إلى الانهيار وحالة الهرج والمرج، وبالنتيجة انهيار وفناء العالم الجسماني، وما علاقة ذلك بالوحي؟

بداية لابد أن نعرف لماذا خلق الكون أصلا، وهل هناك حكمة من خلقه؟ ثم ما علاقة خلق الكون بالخالق الحكيم سبحانه؟

طبعا الإجابة على هذه الأسئلة ربما نكون قد مررنا بها ضمنا خلال البحث، أو قد تمر علينا بعض تفاصيلها في فقرات قادمة، ولكن باختصار الحديث القدسي يقول: "كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف" فالبداية هي بداية مشروع إلهي معرفي يختزلها القرآن بآية صريحة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[١] أي: ليعرفون، وأكيد فإن خلق الأكوان ومنها كوكبنا الذي نعيش فيه له علة وهدف، كما في الحديث القدسي المشهور: (يا أحمد لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا علي لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما)[٢].

(فلولا محمد لما خلقت السموات والأرض؛ لأنها خلقت من نوره، ولولا علي لما خلق محمد، فلولا علي لما عرف محمد (ص)، فهو بابه الذي منه يؤتى، ومنه - أي الباب أو علي - الفيض المحمدي في السموات والأرض يتجلى، ولولا فاطمة - أو باطن الباب، أو الآخرة - لما خلق محمد وعلي، فلولا الآخرة لما خلق الله الخلق، ولما خلقت الدنيا)[٣].

فيمكن أن نقول بدأ المشروع المعرفي بإشراق الفيض أو العلم الإلهي في صفحة وجود أقرب مخلوق استطاعت صفحة وجوده أن تستقبله وتكون محلا لتجلي صفات الله وأسمائه وهو محمد (ص)، فكان هو الحجاب بين الله وبين خلقه، فلكي تتنزل هذه الفيوضات في مراتبها الوجودية كان الوحي سبيلها.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٤].

لما كان الغرض من الوحي هو إيصال الرسائل من الخالق والمالك والمتصرف بالكون وبالخلق ليوصلهم إلى معرفته وينظم ويدبر الحياة، وعلاقة ذلك باستمرار الوحي المتعلق باستمرار إرسال الرسل الذين يترجمون ما يحمله الوحي، فيقتضي التلازم بين ضرورة وجود الوحي واستمراره وبقاءه كالحبل السري الذي يحافظ على ديمومة بقاء الطفل حيا.

فالوحي يحافظ على ديمومة وجود الخلق بقاءً واستمرارا، وهذا التلازم بمقتضى وجود رجل إلهي يوحى إليه في كل زمان، مرتبط بالهدف من الخلق والوجود، وهو علة استمرار وبقاء الخلق والوجود، وهذا الوحي هو الجهاز الذي يعمل على ضبط إيقاع الكون والوجود والخلق، ويعمل على رفد المنظومة الكونية بأسباب استمرارها الذي يقتضيه تحقق الهدف من وجودها وخلقها أصلا.

أن الوحي يمثل الهيمنة والسيطرة من قبل المهيمن والحكيم والمسيطر والراصد الأبدي للكون الذي يخضع للتغيير في الزمان والمكان والظروف والتغييرات العامة والخاصة بالوجود والخلق، بما في ذلك الادراك والعقول وقابلية الخلق على استقبال الفيض النازل من الغيب.

وأن غياب القابل يفسر سبب إرجاء تحقق المشروع الإلهي بأعلى مستوياته في زمان القائم (ع) والقفزة الثقافية الكبيرة في زمن السومريين ودخول الدين على الخط وما نقله السومريين عن أسلافهم من آدم (ع)

---

١. الذاريات: ٥٦.

٢. مجمع النورين - الشيخ أبو الحسن المرندي: ص١٤.

٣. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج١ س٨.

٤. الشورى:٥١.

وأولاده الصالحين(ع)، الذين بعثهم الله لأقوامهم وصولا إلى نوح (ع)[١]، وهي محطات على طريق المشروع المعرفي، والوصول إلى الغاية من الخلق.

فالوحي الرسالي بقدر ما هو دائم البث والاتصال بمن لا تخلو منه الأرض طرفة عين وهو حجة الله في كل زمان، بقدر ما يلفت تدبرنا في تاريخ الرسالات والأمم التي رافقت نزولها.

يمكننا أن نشخص قفزتين ثقافيتين في تاريخ الإنسانية، أولاها حصلت في زمن السومريين الأوائل، والقفزة النوعية التي تمظهرت بأشكالها المختلفة على مستوى الوعي الديني، ومن خلال التراث الثمين الذي نقلته تلك المجموعات البشرية.

والأخرى تحصل في زمن القائم من آل محمد (ع)، تبدأ ملامحها في بداية ظهوره المقدس، ثم تواصل مسيرتها الحافلة بالإنجازات العلمية والرقي الاخلاقي المرتبط بأصل الأخلاق الانسانية، وظهور ثمارها في جيل استطاع أن يكون قابلا حقيقيا للعلوم السماوية، التي عجزت عن استقبالها وقبولها أجيال ضاربة في عمق التاريخ لآلاف متمادية من السنين بالرغم من ترادف الرسالات السماوية على تلك الأمم، ولعل هذه الحركة الثقافية والعلمية مرتبطة بشكل واضح بما أخبر عنه آل محمد (ع):

عن أبي عبد الله "ع" قال : (العلم سبعة وعشرون حرفا فجميع ما جاءت به الرسل حرفان فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين فإذا قام القائم "ع" اخرج الخمسة والعشرين حرفا فبثها في الناس وضم إليها الحرفين حتى يبثها سبعة وعشرين حرفا)[٢].

ومن هنا نعرف القيمة المعرفية التي يحملها الوحي الرسالي ومدى ارتباطه بحركة الزمان وتبدل الأحوال لدى المجتمع البشري وما يحتاجه ويلائمه في كل زمان، وعلاقة ذلك بناقل رسالة الوحي، ومنه نفهم شدة التلازم الوثيق بين وحي الرسالة ومستقبِلها في كل زمان، ومدى التكيف المعرفي والمساحة المعرفية للمكلفين؛ بل أن الوحي الرسالي قبل أن يصل للمكلفين فهو مقنن وفق المقدار الذي يتحمله المترجم أو القابل الأول، وهو الخليفة الإلهي من جهة، وسعة صفحة وجود القابل منه (ع) من جهة أخرى، وقد مر بيان الأسباب الموجبة لهذا التقنين.

فلما بلغ الأمر هذه الدقة وحصر المراد الإلهي المنقول عبر الوحي بهذه الدرجة من التقنين والضبط، فهل يقبل عاقل أن يتبرع أشخاص محجوبون خسروا فرصتهم بأن يكونوا قوابل حقيقية ونوعية كالرسل والأنبياء والأوصياء (ع) لتقديم أنفسهم ممثلين عن الدين، وبالتالي تصديهم لرسالة الوحي وترجمتها بلغاتهم الأعجمية القاصرة والعاجزة تماما عن إدراك محتوى الرسالة ومعرفة مضمونها؟! فضلا عن تبرعهم في إصدار تشريعات وعقائد جوهرية وخطيرة كالتوحيد والإمامة، وما يتعلق بهما و بحسب قواعدهم على أنها مراد الله سبحانه!!

فمراد الله أن يُظهر دينه على الدين كله، وأن يتحقق مشروعه سبحانه على هذه الأرض، وبقاء الأرض أو الكون الجسماني، واستمرار وجوده متعلق ببقاء واستمرار الوحي ووجود ناقل معصوم يختاره الله في كل زمان، ثم بعد

---

١. راجع كتاب من أسرار سومر و آكاد للدكتور علاء السالم: ص١٩- ٢٨.

٢. العقل والجهل في الكتاب والسنة - محمد الريشهري: ص٢٨٣، مختصر بصائر الدرجات - الحسن بن سليمان الحلي: ص١١٧.

ذلك ينتفي السبب لوجود هذا العالم وبقاءه برحيل آخر خليفة إلهي منصب على هذه الأرض بانقطاع الوحي وناقله.

ولذلك فعلة بقاء كوننا واستمراره مرتبطة بالوحي؛ لأنه كالحبل السري الذي يغذي الوجود وعلة وجوده، وبالتالي عندما تُعرِض الناس ولم يبق سامع للوحي سيتحول هذا الكون إلى صعيد جهنم وينهار؛ لأنه ببساطة سينتفي الغرض من وجوده.

ومسألة علاقة الوحي بوجود الخلق وبقاءه واستمراره ترجع في الأصل إلى علاقة الخالق المطلق بالوجود وكون كل شيء قائم به، وهذا يعني علاقته بالتجلي الذي يمثله خليفة الله الكامل ومن يقوم مقامه كما ورد عن الإمام المهدي (ع)"نحن صنائع ربنا والخلق من بعد صنائع لنا"[١] وما جاء في الحديث القدسي مؤكدا هذا المعنى "لولاك ما خلقت الأفلاك"[٢]، ولهذا لو خلت الأرض من حجة لساخت بأهلها، وهذا يبين أن الخلق قائم ومرتبط بما يرتبط به سبب وجودنا وهم خلفاء الله وتراجمة وحيه.

---

١. الاحتجاج: عن الشيخ الموثق أبي عمر العامري رحمة الله عليه قال: تشاجر ابن أبي غانم القزويني وجماعة من الشيعة في الخلف فذكر ابن أبي غانم أن أبا محمد عليه السلام مضى ولا خلف له ثم إنهم كتبوا في ذلك كتابا وأنفذوه إلى الناحية، وأعلموا بما تشاجروا فيه، فورد جواب كتابهم بخطه صلى الله عليه وعلى آبائه: (بسم الله الرحمن الرحيم، عافانا الله وإياكم من الفتن، ووهب لنا ولكم روح اليقين، وأجارنا وإياكم من سوء المنقلب، إنه أنهي إلي ارتياب جماعة منكم في الدين، وما دخلهم من الشك والحيرة في ولاة أمرهم، فغمنا ذلك لكم لا لنا وسأونا فيكم لا فينا، لأن الله معنا فلا فاقة بنا إلى غيره، والحق معنا فلن يوحشنا من قعد عنا، ونحن صنائع ربنا، والخلق بعد صنائعنا. يا هؤلاء ما لكم في الريب تترددون وفي الحيرة تنعكسون أو ما سمعتم الله عز وجل يقول: " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " أو ما علمتم ما جاءت به الآثار مما يكون ويحدث في أئمتكم على الماضين والباقين منهم عليهم السلام؟ أو ما رأيتم كيف جعل الله لكم معاقل تأوون إليها، وأعلاما تهتدون بها من لدن آدم إلى أن ظهر الماضي عليه السلام كلما غاب علم بدا علم، وإذا أفل نجم طلع نجم، فلما قبضه الله إليه ظننتم أن الله أبطل دينه، وقطع السبب بينه وبين خلقه، كلا ما كان ذلك ولا يكون، حتى تقوم الساعة، ويظهر أمر الله وهم كارهون.

وإن الماضي عليه السلام مضى سعيدا فقيدا على منهاج آبائه عليهم السلام حذو النعل بالنعل وفينا وصيته وعلمه، ومن هو خلفه، ومن يسد مسده، ولا ينازعنا موضعه إلا ظالم آثم، ولا يدعيه دوننا إلا جاحد كافر، ولولا أن أمر الله لا يغلب، وسره لا يظهر ولا يعلن، لظهر لكم من حقنا ما تبهر منه عقولكم، ويزيل شكوككم، لكنه ما شاء الله كان، ولكل أجل كتاب.

فاتقوا الله، وسلموا لنا، وردوا الأمر إلينا، فعلينا الاصدار، كما كان منا الايراد، ولا تحاولوا كشف ما غطي عنكم، ولا تميلوا عن اليمين، وتعدلوا إلى اليسار، واجعلوا قصدكم إلينا بالمودة على السنة الواضحة، فقد نصحت لكم والله شاهد علي وعليكم، ولولا ما عندنا من محبة صلاحكم ورحمتكم، والاشفاق عليكم، لكنا عن مخاطبتكم في شغل مما قد امتحنا من منازعة الظالم العتل الضال المتابع في غيه، المضاد لربه، المدعي ما ليس له، الجاحد حق من افترض الله طاعته، الظالم الغاصب...) بحار الأنوار- المجلسي: ج٥٣ ص١٧٨-١٧٩.

٢. (يا أحمد، لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا علي لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما)([مستدرك سفينة البحار- علي النمازي الشاهرودي: ج٣ ص٣٣٤.]). ولهذا قدم حرف الزهراء (عليها السلام) الـ(ا) على حرف علي (ع) الـ(ل) وعلى حرف محمد (ص) الـ(م)، فالتقديم في هذا المقام لبيان أن (لولا فاطمة لما خلقتكما) أي لولا الآخرة والتي فيها المعرفة الحقيقية، فلولا المعرفة لما خلق الخلق فالله خلقهم ليعرفوا ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾([الذاريات: ٥٦])[الجواب المنير - السيد أحمد الحسن: ج٦ س٥٢٩].

الوحي والنفس الإنسانية الأولى

يقول السيد أحمد الحسن: (فمعلومات الإنسان يأتي بعضها من هذا العالم الجسماني عن طريق البصر والسمع مثلاً، ويأتي بعضها من الملكوت الأعلى ومثال ما يأتي من الأعلى هو الوحي للأنبياء (ع) والرؤيا الصادقة. وهذه المعلومات تنطبع في صفحة الإنسان أو ما يمكنك تسميته موضع الذاكرة أو المعلومات، وهو في النفس الإنسانية (الروح) وليس في الجسد كما يتوهم كثير من الناس أنه في الدماغ، بل الدماغ هو تماماً كجهاز الفاكس أو التلفون فهو ليس موضع حفظ المعلومات الدائم، بل هو جهاز يوصل المعلومات من وإلى وجود الإنسان في هذا العالم الجسماني..... فمثلاً يمكن أن يجتمع في إنسان واحد: الانشغال بالجسد الذي يؤثر سلباً على قدرة الإنسان على تحصيل المعلومة من الملكوت فضلاً عن تذكرها فيما بعد، مع زيادة النور في صفحة وجود الإنسان الذي يوثر إيجاباً على قدرة الإنسان على تحصيل المعلومة ...)[١].

إذن طرفا النفس هما الملكوت والعالم الجسماني، فبمقدار انشغالها بأحدهما يتحقق انتسابها لعالم النور أو الظلمة، أما ما يأتي من عالم النور فهو العلم وأكيد عكسه الجهل وهو عالم الظلمة أو العالم الجسماني.

فنفوس الأنبياء والرسل والأوصياء (ع) ترتقي في عوالم الملكوت وهي السموات الملكوتية وسماء العقل أو السابعة، ونفس الإنسان إذ ترتقي ويكون لها وجود في مرتبة السماء الثانية يمكن أن تسمى روحا حقيقيا، وهو المحرك للجسد من حيث أنه تجلي من تجليات الملكوت الأعلى؛ أي من الروح الحقيقي، وعندما يكون له تجليا في السماء السابعة فهو تجلي العقل فيسمى عقلا، وهذا ما نطلق عليه العقل الحقيقي، وهو المقام الذي يشترك فيه الأنبياء والمرسلين والأوصياء (ع)؛ أي أن تنعكس فيه روح الإيمان وروح القدس، وهذا المقام هو مقام الروح الحقيقي والعقل، وهو على مراتب.

فبدون ارتقاء النفس لمقام السماء السابعة لا يمكن اقترانها بمرتبة العقل الحقيقي ومراتبه كما يقول السيد أحمد الحسن:

(ثم إن النفس إذا ارتقت إلى أدنى مرتبة في السماء السابعة؛ يقترن بها ويكون فيها روح القدس، وكلما ارتقت النفس أكثر كان روح القدس المقترن بها أعظم. وهذه السماء السابعة هي سماء العقل، فكلما كان روح القدس في النفس المرتقية إلى هذه السماء أعظم كان العقل أفضل وأكبر...إن أدنى مراتب العقل تبدأ من هذه السماء السابعة الكلية، أما ما دونها وحتى في السماء السادسة الملكوتية فهو ظل العقل وليس بعقل. وهكذا مع ارتقاء النفس تتغير وتتبدل حقيقتها، فمع دخولها السماء الملكوتية الثانية يقترن بها روح الإيمان ويبدأ ظل العقل يتوجه إلى نور العقل. ومع دخولها السماء السابعة يقترن بها روح القدس والعقل، ولا يبعث نبي من الأنبياء (ع) حتى يكون له مقام في السماء السابعة الكلية، وبهذا يكون قد استكمل العقل الذي هو سبب للعصمة، وأيضا اقترن بنفسه روح القدس)[٢].

---

١. رحلة موسى إلى مجمع البحرين - السيد أحمد الحسن: النسيان.

٢. عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص٢٦٨.

أما علاقة روح القدس بالعلم فهي معنية بمرتبة معرفية تخص حالة الارتقاء، ولذلك بين السيد أحمد الحسن بأن لكل مرتبة من مراتب العصمة روح قدس، فهي متعلقة بدرجة العلم.

(....ويكون الروح القدس واسطة لنقل العلم للإنسان الموكل به)[١]

وهنا نقول أن عقول الأنبياء والرسل والأوصياء (ع) هي المعيار الذي توزن به العقائد والتشريعات والأحكام، وهو النور الكاشف للحقائق النازلة من ملكوت الله ووحيه في الكتب المنزلة، وهو القادر على بيان معانيها الظاهرة والباطنة، وليس للعقول المحجوبة القاصرة والمقصرة حظ ونصيب من روح القدس وأداء ما يناط بالمقدسين (ع) من مهام التبيين.

أما لماذا الكلام في العلاقة بين الوحي والنفس الإنسانية؟

فلأن أول نفس إنسانية هي نفس آدم (ع) وهي الفارز بين الخلق قبل آدم(ع) وبعده، وهي الانتقالة التي أصبح فيها الخلق قادرا على سماع الوحي والتعامل مع السماء، وبداية تباشير المشروع المعرفي المرتبط بفيوضات السماء، التي تقتضي وجود ناقل لها قادر على استيعابها وترجمتها وإيصالها للخلق؛ لأن صفحة وجود آدم (ع) مستعدة لنفخ الروح ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾[٢]؛ ولأن إخلاصه كان في مستوى يؤهله لحمل العلم الإلهي ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣] وبالتالي تتم الحكمة في اختيار الله سبحانه لهؤلاء المقدسين ابتداءً من آدم وحتى آخر خليفة إلهي ناقلا للعلم الإلهي متصلا بالوحي على هذه الأرض.

أما أمر الملائكة بالسجود له أو الطاعة؛ فلأن طاعته طاعة الله، وهذه الطاعة وهذا الإلزام لا يصدر من الحكيم المطلق لرغبة منه سبحانه دون أن تكون الحكمة من هذا الفعل متقدمة على أي تفسير آخر، فلا محيص من ارتباطها بالغاية والهدف من الخلق وتنفيذ المشروع الإلهي المرتبط بهذه الغاية وهي معرفة الله، وهذا المشروع لا يمكن أن يتم إلا من خلال معرف مرتبط به سبحانه يستطيع معرفة ما يريده وإيصاله للخلق بشكل يؤدي إلى تحقيقه، ولهذا كان اختيار الأنبياء والرسل والأوصياء (ع) قيد تحقق المشروع وإنفاذه في الخلق.

ولذلك نستطيع أن نقول أن المشروع المعرفي بدأ منذ خلق النفس الإنسانية الأولى القادرة على استقبال الوحي ومعرفة لغة الوحي وإيصالها للخلق، فيمكن تشخيص حالين أو مرحلتين بارزتين في مسيرة الخلق.

المرحلة الأولى: في بداية خلق الانسان على هذه الأرض، وخطوات تطوره استمرت لأزمان سحيقة في القدم كانت من أجل تهيئته والوصول الى آلة الذكاء الفائق[٤]، واستعداده لنزول النفس الانسانية واستقبال الوحي، وهذا ما تحقق عند نزول نفس آدم (ع) والأنبياء والرسل (ع) حتى وصل نموذج المشروع أو نسخته إلى مرحلة من النضوج

---

١. الجواب المنير - السيد أحمد الحسن: ج١ س٢٣.

٢. الحجر: ٢٩.

٣. البقرة: ٣١.

٤. راجع كتاب وهم الإلحاد - السيد أحمد الحسن: ص٢١٨-٢٢١.

المتعلق بالرسل مرة، وبالمتلقي مرة أخرى، والتي تجسدت في توراة موسى (ع) وإنجيل عيسى[١] واكتماله بقرآن محمد (ص)، الذي تجسدت فيه أعلى مرتبة يمكن أن يصلها مخلوق، ويحتوي المراد الإلهي في أعلى درجاته من حيث اختصاصه بناقل العلم الإلهي وترجمانه.

المرحلة الثانية: فهي من جهة اختصاصه بالمتلقي أو القابل، فهو يسير باتجاه تكامله حتى وصوله لدرجة حضور القابل النوعي- أقصد القابل القادر على قبول رسائل الملكوت أو العلم الإلهي الذي ينقله خليفة الله في زمانه- وهذه يمكن أن نسميها الحلقة الثانية أو الأخيرة من تنفيذ المشروع الإلهي، وهي كما وصفها آل محمد (ع) تأتي في آخر الزمان أو في زمن القائم (ع)، فهي نهاية المشروع الإلهي المعرفي على هذه الأرض وكمال تحققه وقد تمت الحجة البالغة من جهة، ووصول مجموعة من الخلق الى هدف الوجود، وهو القابلية على استقبال العلم الإلهي[٢] وظهوره وتجليه، وقيام دولة الله وإعلاء كلمته؛ أي تمكين خليفته الكامل، وبسط حكم الله وعدله في الأرض من جهة أخرى.

فالنفس مالم ترتقي تبقى بحدودها البهيمية؛ أي تقترن بروح الحياة وروح القوة وروح الشهوة[٣]، ولكن ما إن ترتقي في مراتب السموات، فسيكون اقترانها بروح الإيمان، ومن ثم بروح القدس، وهذه الأخيرة تتجلى عند المعصوم رسولا أو نبيا أو إماما، وهي أيضا مراتب.

والأمر الفاصل بين حال النفس قبل وبعد اقترانها بروح الإيمان وروح القدس هو ما يفسر لنا علاقتها بالوحي والعلم، أو درجة تعلقها بعالم الظلمة "الدنيا" أو عالم النور "الملكوت"، وهي بحد ذاتها كاشفة عن محدودية المعرفة في ظاهر الحياة الدنيا، وبين انطلاقها في عوالم النور في حال ارتقائها في مراتب السموات، وصولا لمرتبة العقل التام، أو السابعة الكلية كما تبين.

يقول السيد أحمد الحسن:

---

١. ورد في دعاء السمات: (..وبمجدك الذي ظهر على طور سيناء فكلمت به عبدك ورسولك موسى بن عمران، وبطلعتك في ساعير وظهورك في جبل فاران...)[مصباح المتهجد- الطوسي: ص٤١٩]. فالطلعة والظهور لا تخصان طلعة وظهور الله سبحانه؛ لأنها تتحدث عن مكان وهذا ممتنع على الله سبحانه، إذن هو تجلي الطلعة في عيسى (ع) والظهور بمحمد (ص)، ومرتبة عيسى (ع) دون مرتبة محمد (ص). فالانتقال من مقام عيسى (ع) إلى مقام محمد (ص) هو في طور تكامل المشروع المعرفي.

٢. عن مثنى الحناط عن أبي خالد الكابلي عن أبي جعفر "ع" قال: قال إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع به عقولهم وأكمل به أحلامهم" [الكافي - الكليني: ج١ ص٢٥]، (عن الحسن بن محبوب عن صالح ابن حمزة عن ابان عن أبي عبد الله " ع " قال العلم سبعة وعشرون حرفا فجميع ما جاءت به الرسل حرفان فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين فإذا قام القائم "ع" اخرج الخمسة والعشرين حرفا فبثها في الناس وضم إليها الحرفين حتى يبثها سبعة وعشرين حرفا) [مختصر بصائر الدرجات - الحسن بن سليمان الحلي: ص١١٧].

٣. عن المفضل ابن عمر قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض وهو في بيته مرخى عليه ستره فقال: يا مفضل إن الله تبارك وتعالى جعل للنبي صلى الله عليه وآله خمسة أرواح: روح الحياة، فبه دب ودرج، وروح القوة فبه نهض وجاهد، وروح الشهوة فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الايمان فبه أمر وعدل، وروح القدس فبه حمل النبوة، فإذا قبض النبي صلى الله عليه وآله انتقل روح القدس فصار في الامام. وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يسهو، والأربعة الأرواح تنام و تلهو وتغفل وتسهو، وروح القدس ثابت يرى به ما في شرق الأرض وغربها وبرها وبحرها، قلت: جعلت فداك يتناول الامام ما ببغداد بيده؟ قال، نعم! وما دون العرش. [بحار الأنوار- المجلسي: ج٢٥ ص٥٨].

(وفي السماء الأولى مراتب كثيرة، ونفس أي إنسان موجودة فيها بحسب مقامها ومرتبتها، فالنفس المقتصر وجودها على أدنى مراتب هذه السماء حظها هو ادراك ظاهر ما في هذا العالم الجسماني في هذه الحياة الدنيا،﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[١])[٢].

أما الوحي لعامة الناس اقترن بزمن نزول الوحي على آدم (ع) بعد أن أراهم الله الرؤيا[٣]، وكان هذا أول اتصال الخلق بالملكوت أو الغيب أو الوحي قبل نزول آدم (ع)، وهم في مرتبة دون مرتبة الوجود الآدمي المتحقق بنزول آدم (ع)، كما ورد في تسميتهم بالنسناس أو أشباه الناس[٤]، وعلاقة الرؤيا بخليفة الله كونها كذلك رسالة من الغيب أو الملكوت بلغة مشفرة ومرموزة لا يعلم أسرارها وتفسيرها ومدى انطباقها على المصداق وفي وعلاقتها بهذا العالم الجسماني إلا الذي يفهم ويعرف لغة الوحي ويترجم لغة الوحي، أو تكون رؤيا تسعف الرائي في تشخيص خليفة الله في زمانه.

يقول السيد أحمد الحسن:

(الرؤى دليل تشخيص مصداق خليفة الله. الدليل القرآني القائم هو أنّ الرؤى الصادقة هي وحي ونص من الله عند خلقه، يعرفهم به على خليفته في أرضه. باعتبارها - (أي الرؤى الصادقة)- وحياً إلهياً..)[٥].

رسالة الوحي

مررنا في أكثر من موضع على محتوى رسائل الوحي وطبيعتها ومراتب تنزلها، أما علاقتها مع طبيعة اللغة البشرية فتعتمد على طبيعة التوظيف، وترجمة المعصوم.

عن يعقوب بن جعفر الجعفري قال: سأل رجل يقال له عبد الغفار المسمى أبا إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: (ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) قال: (أرى هاهنا خروجا من حجب، وتدليا إلى الأرض، وأرى محمدا رأى ربه بقلبه، ونسب إلى بصره، فكيف هذا؟ فقال أبو إبراهيم: دنى فتدلى، فإنه لم يزل عن موضع ولم يتدل ببدن. فقال عبد الغفار: أصفه بما وصف به نفسه حيث قال: (دنى فتدلى) فلم يتدل عن

---

١. الروم: ٧.

٢. عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص٢٦٧.

٣. عن الحسن بن عبد الرحمن، عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: إن الأحلام لم تكن فيما مضى في أول الخلق وإنما حدثت فقلت: وما العلة في ذلك؟ فقال: إن الله عز ذكره بعث رسولا إلى أهل زمانه فدعاهم إلى عبادة الله وطاعته فقالوا: إن فعلنا ذلك فما لنا فوالله ما أنت بأكثرنا مالا ولا بأعزنا عشيرة: فقال: إن أطعتموني أدخلكم الله الجنة وإن عصيتموني أدخلكم الله النار فقالوا: وما الجنة والنار؟ فوصف لهم ذلك فقالوا: متى نصير إلى ذلك؟ فقال: إذا متم فقالوا: لقد رأينا أمواتنا صاروا عظاما ورفاتا، فازدادوا له تكذيبا وبه استخفافا فأحدث الله عز وجل فيهم الأحلام فأتوه فأخبروه بما رأوا وما أنكروا من ذلك فقال: إن الله عز وجل أراد أن يحتج عليكم بهذا هكذا تكون أرواحكم إذا متم وإن بليت أبدانكم تصير الأرواح إلى عقاب حتى تبعث الأبدان) [الكافي - الكليني: ج٨ ص٩٠].

٤. راجع كتاب وهم الإلحاد - السيد أحمد الحسن: ص١٣٥.

٥. عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص٨٠.

مجلسه إلا وقد زال عنه، ولولا ذلك لم يصف بذلك نفسه. فقال أبو إبراهيم عليه السلام: أن هذه لغة في قريش، إذا أراد رجل منهم أن يقول: قد سمعت يقول: قد تدليت، وإنما التدلي: الفهم.)[١].

يتضح من خلال بعض المفردات والتراكيب اللفظية أن مضامين الوحي تشكلت في نفس محمد (ص) بلغة قريش، وأن صياغة مضمون الوحي أو الآيات القرآنية كان من محيطه (ص)، وهذا ما أكدنا عليه ونؤكد عليه لمن يتصور أن النصوص الموجودة في الكتب السماوية هي كما نزلت من تلك العوالم أو منه سبحانه بقالبها اللفظي؛ بل أن محتوى الوحي له في كل عالم ومرتبة تجلي باللغة المناسبة للعالم النازل فيه.

موسى بن جعفر (ع) يقول لعبد الغفار السلمي "إن هذه لغة قريش" ومنه نفهم أن اللغة طرأ عليها التغيير وإلا لكان عبد الغفار يعرف معنى هذه المفردة! فمن جهة معالجة المفردة في صياغتها الظاهرة وفي محيط اللغة السائدة فالإمام (ع) يبين أن استعمالا آخر لمفردة سمعت - التي حلت محل تدليت بحسب استخدام قريش- وهو تدليت.

أما من جهة عمق المفردة الملكوتي ومضمونها الذي يريد إيصاله ويعنيه الله سبحانه فعلى الأقل فإن المعصوم الذي كشف عن معنى خافٍ على غيره لهذه المفردة التي اختُلف في معنى لفظها فضلا عن معناها الحقيقي الذي يعرفه حجة الله المتصل بالوحي فقال: التدلي يعني الفهم، وهو ربما يعني وجها من وجوه معانيها ومقاصدها التابعة لمقامات الآية في عوالمها التي نزلت منها.

فمن أين يستطيع من كان غاية ما يحيط به عقله هو ظاهر العبارات والآيات أن يتحصل على حقائق لهذه الألفاظ؟!.وطبعا هذا نموذج من نماذج كثيرة لا أريد الخوض في استعراضها.

عالمنا الجسماني وكل ما يدور فيه من أفعال وأقوال وعبادات تتشكل من خلالها طبيعة العلاقات بين بني البشر يفرز لنا أمثالا كثيرا ما استخدمها القرآن الكريم وآل محمد (ع) لتقريب صور ومعاني لحقائق في عوالم الملكوت "وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يعقلون" أي لعلهم من خلالها يصلون إلى عالم العقل.

فكل ما يجري في عالمنا ليس هو الهدف بعينه؛ بل يراد منه ومن خلاله الارتقاء للعمل الحقيقي وهو المعرفة، تلك المعرفة الحقة المرتبطة بوحي الرسالة التي ما إن كانت روح الإنسان مرتقية في عالم النور ستنال منها بمقدر إخلاصها، فلا يخفى على عاقل أن كثير من الوثائق المهمة - وخصوصا في عصرنا الحالي- التي تخص جهات أو أشخاص يحافظ على سريتها أصحابها أو من كلف الائتمان عليها لكي لا تصل لأيدي العابثين أو من يريدون بأصحابها سوءًا، فيفشون أسرارها أو يعملوا على توظيفها بطريقة خاطئة، أو استخدامها في غير مجالاتها؛ بل وتشمل حتى الأشخاص مأموني الجانب، ولكنهم يفقدون الأهلية أو المقومات التي تؤهلهم لتنفيذ وتفعيل محتوياتها.

فالرسالة الإلهية النازلة عبر الوحي مشفرة قطعا بطبيعتها؛ لأن جنس المعلومة فيها مختلف لاختلاف طبيعة العالم الذي نزلت منه، ولا يمكن أن يفك رموزها ويتعاطى معها إلا أهلها الذين تطوف أرواحهم في كل العوالم

---

١. الاحتجاج - الطبرسي: ص٣٨٦.

التي نزل فيها ومنها الوحي، والأولى أن تصان وتحجب عن غير أهلها، وهي ما يتشكل في نفس المعصوم من معاني الوحي، فيترجمها وفق اللغة التي يفهمها او يتعاطاها الناس؛ بل وحتى الرسول نفسه، وهي ترجمة حقيقية وصادقة وأمينة للحقائق العلوية النازلة من الغيب، التي تترجم مراد الله وإنفاذ مشيئته في خلقه، والتي يتحقق بها الهدف من الخلق، مع ملاحظة أن صور تلك المعاني وحقائقها تتعدد في ظهورها ومرامها بحسب قدرة المتلقي ويقينه وصفاء مرآته.

مضمون ومحتوى الرسالة الموحاة أو العلم والتعليم والتكليف وما يصل للمكلف من عقائد وتشريع وأحكام وكل ما يضع المكلف على جادة الصواب وسلوك طريق النجاة الذي وجد في هذا العالم من أجله وبلوغ الغاية، فهو لتقديم كل ما يصلح شؤون الدنيا والآخرة، ويضمن حياة حرة كريمة هادفة تحقق الغرض من وجودها أصلا.

في خطبة لسلمان (رضوان الله عليه) بعد دفن النبي (ص): (أما والذي نفس سلمان بيده لو وليتموها عليا عليه السلام لأكلتم من فوقكم ومن تحت أرجلكم، ولو دعوتم الطير في جو السماء لأجابتكم، ولو دعوتم الحيتان من البحار لأتتكم، ولما عال ولي الله، ولا طاش لكم سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله...)[١].

عندما يكون الناطق عن الله هو من اختاره سبحانه أمينا لوحيه ويتولاه الناس ويطيعوه، فالنتيجة المحتومة أن لا يختلف في حكم الله اثنان.

هذا النداء هو نداء ممتد على طول الزمان والمكان متعلق بالغاية والهدف من الوجود والخلق، فإصلاح الإنسان وبناءه أخلاقيا وتخليصه من شرور النفس والشيطان والأنانية، حتما سينتج مجتمعات صالحة خالية من الكراهية والأنانية والظلم، وهذا ما يفترض أن يكون لو أن الناس قبلت برسالة الوحي والتزمت بمنهجها وطبقت مضامينها التي جاء بها الرسل والأنبياء والأوصياء (ع)، وكانت نتيجة لإيمانهم بهؤلاء المعرفين واجتنابهم لمن دخلوا غيلة على خط الدين وقدموا مناهج حرفت مسيرة الدين وأضلت من قَبِل بها وتبناها.

وهو مضمون قول الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا﴾[٢]

عن أبي جعفر (ع) في قوله تعالى: "وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا"، قال: يعني لو استقاموا على ولاية علي بن أبي طالب أمير المؤمنين والأوصياء من ولده (عليهم السلام)، وقبلوا طاعتهم في أمرهم ونهيهم لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا، يقول لأشربنا في قلوبهم الإيمان والطريقة هي ولاية علي بن أبي طالب (ع) والأوصياء (عليهم السلام))[٣].

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله (ع): (لأذقناهم علما كثيرا يتعلمونه من الائمة (ع))[٤].

وحضور هذا المعنى مستفيض في بيان آل محمد (ع).

---

١. غاية المرام - السيد هاشم البحراني: ج٦ ص١٧٩، بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٩ ص٨٠.
٢. الجن: ١٦.
٣. الكافي - الكليني: ج١ ص٢٢٠.
٤. نفس المصدر.

محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن محبوب، عن أبي ولاد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: "الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به" قال: هم الأئمة عليهم السلام)[١].

الحسن بن أبي الحسن الديلمي: عن جعفر بن محمد الصادق(ع)، في قوله تعالى "اَلَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ" قال: (يرتلون آياته، ويتفقهون به، ويعملون بإحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيه؛ ما هو- والله- حفظ آياته، ودرس حروفه، وتلاوة سوره، ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنما هو تدبر آياته والعمل بأحكامه، قال تعالى: "كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ")[٢].

هذه نماذج واضحة البيان تضعنا على حقيقة أن مضمون ومعاني الآيات لا يتحصل من درس حروفه وحفظها، والنظر في تراكيب الجمل وبناءها، واستخراج معاني وصور وأحكام من تشكيلات الحروف والكلمات والآيات، وهذا ما نقصده من أن لغة الوحي والمعاني والمقاصد والحقائق محتجبة وراء هذه الألفاظ ولا يمكن لأحد مطلقا كشف حجابها في كل المقامات والمراتب سوى من كان هو حجابها، وهو الإمام المنصوص، الذي استحق أن يكون وعاءً تنزل فيه هذه الحقائق.

فالإمام الصادق (ع) وهو ترجمان القرآن في زمانه وقرينه، يحاكي كلام الله سبحانه ويقول، أن قيمة وعظمة القرآن في تدبر آياته.

يقول السيد أحمد الحسن: (تدبر القرآن والتفكر في آيات الله والالتجاء إلى الله وأوليائه لفهم القرآن وملكوت السماوات والغيب أمور قد حث عليها الرسول محمد (ص) والائمة (ع)، فعليكم بالتدبر والتفكر والالتجاء إلى الله وإلى أوليائه لفهم الحقائق)[٣].

ففهم الحقائق لا تتحصل بجهد ذاتي وقواعد يضعها أناس، وإنما تتحقق بمعرفة الخليفة الإلهي والحصول عليها منه.

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٤].

تعليقات:

١- موضع التدبر هو القلوب وليس العقول الناقصة، وعلاقة القلوب بالملكوت، يعني أن ترتقي النفس وتتوشح برداء الإيمان في مراتب الملكوت وتكون قريبة من مصادر تلك العوالم القدسية، وتسمع من أصحاب العقل التام في السماء السابعة الكلية.

٢- بما أن القرآن متشابه على الناس- كما توضح- فالمقصود بالقرآن هو عدله ومبينه "لتبين للناس ما أنزل إليهم"، فالقرآن ورتبته في هذا العالم إنما نزل لانتشال الناس من الظلمة، وصاحب القرآن في هذا

---

١. الكافي - الشيخ الكليني: ج١ ص٢١٥.

٢. البرهان - هاشم البحراني: ج١ ص٣١٦.

٣. الجواب المنير - السيد أحمد الحسن: ج٥ س٤٠٩.

٤. محمد: ٢٤.

العالم تحققت له معاني وحقائق القرآن في عوالم متقدمة على الخلق وبنسبة لا تقبل المقايسة، ونزوله لهذا العالم فضل من الله يذكرهم ويهديهم بهدي القرآن الذي هيمنت روحه المقدسة على أسراره ومعانيه، فلا يعني مطلقا قشور المعاني المتحصلة من ظاهر الألفاظ، وهي رأس مال المبتدعين الذين يحاصرون القرآن بجيوش قواعدهم ونظامها السفلي أو وحي الشيطان.

٣- تدبر القرآن أو الآية هو تدبر بيان المعصوم فيها، ونتيجة هذا التدبر مرتبطة بإخلاص المتدبر وآفاق المعاني المتحصلة من بيان المعصوم تتسع بمقدار الإخلاص، وليس من تدبر اللفظ وأشكاله وتراكيب الجمل أو الآيات.

٤- إذا أردنا أن نصرف معنى التدبر للقرآن في ملاحقة الآيات بنصوصها فلا تعدوا أن تكون تلك الآيات التي ترجعنا إلى القرآن الناطق أو خليفة الله في كل زمان ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[١].

٥- المحصلة من قوله تعالى "افلا يتدبرون القرآن" هو الإمام المبين والكتاب المبين وهو القرآن؛ لأن القرآن يهدي إلى الإمام والإمام يهدي إلى القرآن، والكتاب المبين الذي أحصى الله فيه كل شيء هو الإمام.

في بيان معنى الحديث (إن أمرنا الحق وحق الحق، وهو الظاهر وباطن الظاهر وباطن الباطن، وهو السر وسر السر وسر المستسر وسر مقنع بالسر)، وعنه(ع) : (أمرنا سر مستسر وسر لا يفيده الا سر وسر على سر وسر مقنع بسر)[٢].

يقول السيد أحمد الحسن:

(...فهم السر، وأمرهم (علمهم ومعرفتهم) متعلق بسر السر (الله)، وهم أيضاً سر مقنع بالسر، وهذا القناع أو السر الأخير ليس سراً حقيقياً في الخلق، بل هو سر نسبة لسائر الخلق، أما بالنسبة لمحمد وآل محمد وهم من الخلق فهو ليس بسر، بل هو قناعهم، والحجاب بينهم وبين الخلق، وهذا السر هو: الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون والمؤمنون الممتحنون، فقد تبين أنهم (ع) سر في سر وسر مستسر، وسر لا يفيده إلا سر: (أي لا يعرفه إلا سر، وهم الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون والمؤمنون الممتحنون). وسر مقنع بسر، (أي سر محتجب بسر، وهم الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون والمؤمنون الممتحنون).أما موضعهما في كتاب الله، فقد قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾)[٣].

فتدبر القرآن هو تدبر بيان من يحكم القرآن المتشابه على الناس، وهو من يبين معانيه وحقائقه بحسب قدرة القابل في كل زمان.

---

١. الإسراء: ٩. عن أبي عبد الله (ع) في قول الله عز وجل : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، قال : يهدي إلى الإمام) الكافي- الكليني: ج٢ ص١٦٩. علي بن الحسين عليهم السلام، قال: الامام منا لا يكون إلا معصوما وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها ولذلك لا يكون إلا منصوصا. فقيل له: يا ابن رسول الله فما معنى المعصوم؟ فقال: هو المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة، والامام يهدي إلى القرآن والقرآن يهدي إلى الامام، وذلك قول الله عز وجل : "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم")[معاني الأخبار - الصدوق: ج١ ص١٣٢].

٢. بحار الأنوار - المجلسي: ج٢ ص٧١ عن بصائر الدرجات.

٣. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٤ س١٨٠.

إذن فالمعيار في الكشف عن بعض معاني القرآن وحقائقه لا يعود لطريقة المتطفلين على القرآن، فالذي وقع فيه أهل الظاهر من التوهم هو نسبة الإعجاز المفترض إلى المنظومة اللفظية الظاهرية لنصوص القرآن.

يقول السيد أحمد الحسن:

(... بل لو تدبّرنا التحدّي في القرآن لوجدناه شاملاً للجميع لأهل العربية وغيرهم، وللإنس والجن: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[١]. فلو كان الإعجاز في تركيب الألفاظ أي بالبلاغة أو الأسلوب أو غيرها، لكان التحدّي لغير أهل العربية لا معنى له مع أنّ الآية تشملهم، فإذا كان الأمر كذلك أي إن إعجاز القران باطني نفسي كان بقاء آية واحدة من القرآن كافياً لبقاء إعجازه، بل جزء من آية كافٍ، مثل: ﴿اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[٢]، أو ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، بل الباء في البسملة كافية لإثبات إعجازه. روي أنّ أمير المؤمنين (ع) تكلم في أسرار الباء في البسملة ليلة كاملة[٣]. روي أن أمير المؤمنين(ع) تكلم في أسرار الباء في البسملة ليلة كاملة.

وقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[٤].

فلا تتوهم أنّ سبب إيمان هؤلاء العلماء الربانيين القسيسين والرهبان هو: البلاغة أو الأسلوب، بل الحقائق التي وراء تلك الألفاظ[٥]، والتي جعلت أعينهم تفيض من الدمع. وهؤلاء وأمثالهم هم الحجة في كشف إعجاز القرآن لبني آدم، لا من أقتصر علمه على القشور والألفاظ فقط)[٦].

هذا البسط والاستعراض؛ أي في مقام وسر محمد (ص) وآل محمد (ع) وعلاقة ذلك بالقرآن وهيمنتهم عليه ومعرفتهم بكل مراتب وبطون الآيات، ونحن بصدد رصد العلاقة بين لغة الوحي في مراتبها العلوية نزولا لتشكلها في هذا العالم وظهورها بألفاظ ولغة أهله ليس الغرض منه بيان سمو مراتبهم (ع) وإظهار ملكاتهم القدسية - فالقرآن والأحاديث والروايات المتواترة وثقت علو شأنهم وقربهم من الله سبحانه- بقدر ما هو إظهار عجز وجهل

---

١. الإسراء: ٨٨.

٢. البقرة: ٢٥٥.

٣. ذكر في الصراط المستقيم: قال ابن شهر آشوب: سمعت مذاكرة أنه (ع) تكلم لابن عباس في الباء من بسم الله إلى قرب الفجر وقال: (لو زادنا الليل لزدنا) [الصراط المستقيم - علي بن يونس العاملي: ج١ ص٢١٩].

٤. المائدة: ٨٢-٨٣.

٥ .(وإيصال الحقيقة يمكن أن يتم بألفاظ مختلفة، بل وحتى من خلال معان مختلفة أيضا فالمطلوب الأهم هو هذه الحقيقة وليس اللفظ بل ولا حتى المعنى والحقيقة القرآنية متجلية بمحمد (صلى الله عليه وآله) قبل أن تنزل عليه لفظيا بالقرآن المقروء، بل ومتجلية حتى بأوصيائه (عليهم السالم) وإن كانت بمستوى أدنى لهذا فلا إشكال أن يعرف محمد (صلى الله عليه وآله) ما سيقوله جبرائيل (صلوات الله عليه) قبل أن يكمله،﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ [(القيامة: ١٦- ١٨)] وهذا هو المعنى الحقيقي لحفظهم للقرآن والتوراة والإنجيل وكل الكتب السماوية، وهو ال يتعارض مع عدم معرفتهم بألفاظها المكتوبة بها في هذا العالم) [عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص٢٤٩-٢٥٠].

٦. العجل - السيد أحمد الحسن: ج٢ التحريف في القرآن الكريم.

المتبرعين لتمثيل الدين والكتب المقدسة، وحجم الخطيئة في حصر مضامين وحقائق وأسرار القرآن بين أسوار الألفاظ، وحصر رسالة ولغة الوحي ومراد الله في حدود عقول الرجال.

الوحي والرؤيا

إن أول نافذة ملكوتية أطل بها الوحي السماوي على أهل الأرض كانت الرؤيا، وهي التي فتح الله سبحانه بها بوابة الاتصال بين خلقه مع الرسل والأنبياء والأوصياء ومع الناس بعد ذلك.

(أول ما بدأ رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة وكان يرى الرؤيا فتأتيه مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلا فكان يخلو إلى غار حري)[١].

فلم يكن نبيا ولا رسولا مصدقا بالوحي إلا من خلال الرؤيا ابتداءً، وكذلك المكلفون فأول ما بدأ اتصالهم بالوحي هو الرؤيا التي أراها الله إياهم عند نزول آدم (ع) فكذبوه فجعل الله الرؤيا.

إن الناس على طول مسيرة الإنسانية على هذه الأرض أكثرهم لا يوقنون بآيات الله الملكوتية ولا يؤمنون بالرؤيا، والكشف في ملكوت السماوات، لأنهم قصروا نظرهم على هذه الأرض، وعلى المادة، وهي مبلغهم من العلم، ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾[٢].

يبين السيد أحمد الحسن العلاقة الصميمية بينه وبين خلقه من خلال وحي الرؤيا:

(وفي الجانب الآخر الأنبياء والأوصياء والرسل وأصحابهم يؤمنون بآيات الله، ويؤمنون بالرؤيا والكشف في ملكوت السماوات، وإنها طريقٌ لوحي الله سبحانه وتعالى، وما كانوا أنبياء لولا إيمانهم هذا، ولذا مدحهم الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٣] .

وقال: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[٤].

وقال تعالى عن الرؤيا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[٥]. فمدح إبراهيم (ع)؛ لأنه صدق بالرؤيا، ومدح مريم كذلك ؛ لأنها صدقت بالرؤيا، ومدح يوسف؛ لأنه صدق بالرؤيا وأوّلها، قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٦])[٧]

---

١. مناقب آل أبي طالب - ابن شهرآشوب: ج١ص٤٢، بحار الأنوار - المجلسي: ج١٨- ص١٩٥.

٢. النجم: ٣٠.

٣. الصافات: ١٠٤- ١٠٥.

٤. التحريم: ١٢.

٥. يوسف: ٣.

٦. يوسف: ٤٦.

٧. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٤ س١٤٥.

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١].

عن أبي عبد الله (ع) قَالَ: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: "سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ" فأي آية في الآفاق غيرنا أراها الله أهل الآفاق؟)[٢].

فمسألة أن تكون الرؤيا حجة وبيان للعبد من الله سبحانه إبراز لحقانية الملكوت وقدسية الوحي والانفراد به كونه الطريق الوحيد للاتصال بالله، وطريق مفتوح للناس يعرفهم بناقل العلم الإلهي والمعرف به سبحانه، ولذلك كان التكذيب بالرؤى وتسفيه محتواها من قبل من يدعون العلم وسيلة من وسائل وحي الشيطان لوضع الحواجز والمصدات في منافذ الاتصال بالوحي.

(....فكون الناس قد لوثوا فطرتهم وصمّوا آذانهم عن سماع صوت الحق وغلفوا قلوبهم برين المادة والهوى فهذه خطيئتهم عليهم أن يُكفّروا عنها أولاً ليسمعوا قول الحق وصوت الحق، ولذلك قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣]، فالكفر بالطاغوت يوفر على أقل تقدير بيئة الحرية الملائمة لسماع صوت الحق وسماع صوت الله)[٤].

الكثير من الأذكار والتسبيحات الواردة نصوصها في الكتب المقدسة أو على لسان الرسل والأئمة (ع)، والتي يورث الدوام عليها صفاء القلب وعدم الوقوع في ظلمة الغفلة يتصور الكثير أنها مجرد أذكار، وهم قد يعتادون عليها ويحصلون على الأجر والثواب، وهذا ديدن أهل الظاهر الذين اختزلوا دين الله بالأجر والثواب والأذكار والتسبيحات وضنوا أنها كافية ليصلوا إلى الهدف من خلقهم - فالكثير لا يعرف هدفا للخلق أبعد من الحصول على المكافئات واللذائذ التي اعتادوا عليها في حياتهم، وتصوروا أن نسختها ستكون في الآخرة، وقد سطر في الكثير من المؤلفات والمصنفات وتفسير الآيات، حتى حُولت الجنان إلى محافل للمتع المادية والجسمانية، وهذه صورة كاشفة عن الغفلة، وسبب ذلك هو الالتصاق بعالم الظلمة والمادة وعزل النفس عن ملكوت الله والسماع من الملكوت.

تمخض عن هذا الفهم داء خطير، وهو رفض صوت الملكوت ورسالة الملكوت، وهذا الرفض مرة يكون بإعلان الحرب على سفير الملكوت وحامل رسالة الوحي، وهو حجة الله في كل زمان، ومرة بالعمل على حجب هذه الرسالة وصناعة الخط البديل، واقناع الناس بأن ما يقدم لهم يسد مسد العلم النازل بالوحي.

---

١. فصلت: ٥٣.

٢. كامل الزيارات - ابن قولويه: ج٢ ص٣٢٩، عنه البرهان- البحراني: ج٤ ص٧٩٤.

٣. البقرة: ٢٥٦.

٤. الجواب المنير - السيد أحمد الحسن: ج٣ س٢٤٢.

فعندما تبين الآية الكريمة بأن الكفر بالطاغوت بداية للإيمان بالله، فهو إشعار وإعلام بأن الكفر بالأصوات الأرضية وما يصدر عنها من عقائد وأحكام التي منشأها العقول القاصرة والنفوس الغافلة سيكون مفتاحا لفتح النافذة أو النوافذ للإطلال على عالم الملكوت، والتهيئة لاستقبال زائره المقدس وبالتالي القبول برسالته.

(... فالرؤيا دليل إلهي غيبي وروحاني وطريق مباشر بين العبد وربه سبحانه، وهو من أدلة الغيب، أما الدليل الروحاني الذي هو من أدلة عالم الشهادة فهو قانون معرفة حجة الله الذي أثبته الحق في كتابه وركنه الأول وصية رسول الله (ص)...)[١].

أدلة الحجج (ع) يمكن أن نصنفها على نوعين:

- ✓ أدلة غيبية ملكوتية
- ✓ وأدلة من عالم الشهادة

والفرق بين دليل الغيب، ودليل الشهادة يعكس لنا الفرق بين طبيعة العالمين واختلافهما، وأكيد فإن عالم الغيب والملكوت أشرف وأعلى مرتبة بكثير من عالم الشهادة لقربه من عالم النور وتدني عالم الشهادة في مراتب التنزل؛ بل هو في آخرها وأشدها ظلمة، وبناءً على ذلك يكون تصديق دليل الغيب لمن يؤمن بالغيب أكثر وثاقة لديه من دليل الشهادة؛ بل قد لا يحتاج إليه أصلا؛ لأن الرؤيا وحي الله.

لذلك نلاحظ حجم التخبط الذي وقع فيه كل من أهمل الغيب إن لم نقل لم يصدقه ولم يشكل لديه قيمة معتبرة في الحجية التي ترافق خلفاء الله (ع)، وقد انعكس هذا التخبط على الفهم لمفردات كثيرة وردت في القرآن غلب على تفسيرها الفهم المادي وحصره في عالم الشهادة.

يقول السيد أحمد الحسن:

(وليس المراد فتح مكّة في هذه الآية، وإن كان فتح مكّة من لوازم هذا الفتح؛ لأنّ الفتح في الملكوت يتبعه فتح في الشهادة، فما بالك إن كان الفتح في عالم اللاهوت! بين الذات الإلهية ومحمد (ص)، وهو إماطة شيء من الحجاب)[٢].

واحدة من الوقائع التي حصلت مع الأنبياء (ع) والتي ذكرها القرآن وتاهت في معرفة حقيقتها عقول الرجال، تلك هي قصة رؤيا إبراهيم (ع) في الملكوت.

في سؤال وجه للسيد أحمد الحسن، كيف يليق بنبي من أولي العزم وهو إبراهيم (ع) أن يقول عن الكوكب أو القمر أو الشمس بأنه ربي؟!

---

١. الجواب المنير عبر الأثير - السيد أحمد الحسن: ج٤ س٣٩٠ اللجنة العلمية.

٢. شيء من تفسير سورة الفاتحة - السيد احمد الحسن.. مراتب اسماء الله.

الجواب: (متوهم من يظن أن هذا الكلام حصل من إبراهيم (ع) في عالم الشهادة، أي في هذه الحياة الدنيا وإن كان إبراهيم (ع) ربما أعاده في هذه الحياة الدنيا؛ للتبكيت بقومه الذين يعبدون..)[١]

ولما كانت الرؤيا واقعة في أروقة الوحي وصورة من صوره فهي بنسبة تعلقها بالرائي يمكن أن تنقسم إلى قسمين:

- **رؤيا المعصوم**

فهي من جهة علاقتها بالوحي الرسالي أو التبليغي أو الإخبار بأمر غيبي، باعتبار أن وحي الرسالة بدأ بالرؤيا، واستمر بعد بعثتهم (عليهم السلام)، فضلا عن طرق الوحي الأخرى التي ذكرتها الآية المباركة ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٢]، وما ينبغي الالتفات إليه ونحن بصدد الكلام عن الوحي، هو أن الوحي أصلا بدأ بالرؤيا، وأن الأنبياء والرسل (ع) عرفوا طريق الوحي ابتداءً عن طريق الرؤيا وصدقوا بها، فكانت سببا لتحصيل الكمالات والارتقاء، وأن يختارهم الله أمناء وحفظة لوحيه سبحانه، ولذلك كان الجحود بالرؤيا وتسفيهها وإبعادها عن ساحة الحجية في الاتصال بالله هو إنكار وجحود الوحي بعينه.

وهذا الطريق مفتاح الاتصال بالغيب وبداية انكشاف الستر عن عالم المادة، وأن وراء هذا العالم السفلي عوالم النور والملكوت أو عوالم الغيب.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٣].

عن علي(ع)، قال: (رؤيا المؤمن تجري مجرى كلام تكلّم به الرب عنده)[٤].

فكلام الله هو وحي الله، والرؤيا مصداق لكلامه ووحيه سبحانه، والذي يفهم هذه العلاقة فلا شك أنه ينزل الرؤيا منزلة الوحي، كما هو وحي الله للأنبياء والرسل والأئمة (ع)، كونها كلام الله من هذه الجهة، فهي طريق الغيب عندما ترتقي النفس أو الروح وتخرج من عالمها السفلي المادي وتسيح في عوالم الملكوت، وهو الساحة التي تترجم فيه الرؤيا كلام الله ووحي الله بما يناسبها في ذلك العالم، وهو أشرف وأصدق وأنقى من عالمنا المادي الذي هو مسرح الشياطين وإلقاءاتها بل لا مقايسة أصلا؛ لأنهم ممنوعون من عالم الملكوت ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[٥]، ولذلك فإن آيات الله وكلام الأنبياء والرسل دائما تدعونا وتجذبنا إلى عالم الغيب والملكوت؛ لأنه مرتبط بغاية خلقنا وتخليصنا من ظلمة هذا العالم وإرجاعنا لعالم النور.

يقول السيد أحمد الحسن:

---

١. لمزيد من التفصيل راجع كتاب المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج١ س٧.

٢. الشورى: ٥١.

٣. البقرة: ٣.

٤. كنز الفوائد - الكراجكي: ص٢١١، بحار الأنوار- المجلسي: ج٥٢ ص٢١٠.

٥. الشعراء:٢١٢.

(...فالرؤيا يمكن أن تكون وحيا مباشرا من الله أو من وراء حجاب، أو تكون وحيا من رسول يرسله الله، يكمن أن يكون هذا الرسول ملك عظيم كجبرائيل أو أحد ملائكة الرؤيا، او يكون من أرواح الأنبياء السابقين (عليهم السلام)[١].

إذن فطرق الوحي وإن تعددت وكانت الرؤيا أحدها فارتباطها ومعرفة مقاصدها ومعانيها مختص بحجج الله وخلفاءه (عليهم السلام)، وهؤلاء المقدسين ارتقت أرواحهم فاغترفت من معين الملكوت الصافي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فأي ميزان أهمل هؤلاء الذين جحدوا الرؤيا، التي كانت محل ثناء الله على ابراهيم (ع) لتصديقه إياها.

يقول السيد أحمد الحسن:

(فالرؤيا آيات الله وكلمات الله، وهي الميزان الحق الذي يعرف به الإنسان أنه على جادة الحق، وعلى الصراط المستقيم، والذين يجحدون بالرؤيا هم أعداء الله المكذبون للأنبياء والأوصياء، ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٢])[٣].

إذن تكذيب الرؤيا يساوي تكذيب الوحي، وقد حاول أصحاب الرأي والاجتهاد أن يخرجوا الرؤيا من دائرة الوحي ونسبتها إلى حديث النفس والشيطان؛ لأن الذرائع والحجج العقلية التي بين أيديهم عاجزة تماما عن تكذيب الوحي كونه كلام الله، وأن تكذيبه سيفقدهم الكثير في هذه المواجهة، ولذلك كان تكذيب الرؤيا والجحود بها سلاحا فعالا لتكذيب الأنبياء والأوصياء، وبذلك يتم إبعاد الغيب والملكوت عن ساحة الحجية والإبقاء على حجية العقل والعقلاء حاكمة على حجية الأنبياء والأوصياء (ع).

يقول السيد أحمد الحسن:

(ويجب الالتفات أنّ رؤى الأنبياء (ع) كانت قبل إرسالهم وبعد إرسالهم، أي إنّ وحي الله سبحانه وتعالى لهم بدأ بالرؤيا، ثم وحتى بعد إرسالهم لم ينقطع هذا السبيل (الرؤيا) من سُبل وحي الله سبحانه وتعالى عنهم. والرسول محمد (ص) كان يرى الرؤى قبل بعثته وإرساله، وكانت تقع كما يراها، ولولا أنّ الأنبياء المرسلين (ع) صدّقوا وآمنوا وعملوا بتلك الرؤى التي رأوها قبل إرسالهم؛ لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من المقام العالي، والقرب من الله سبحانه وتعالى؛ ولما اصطفاهم الله أصلاً لرسالاته ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾)[٤].

ثم ماهي طبيعة الرؤيا ورموزها، وكيف يفسرها المعصوم أو يترجمها؟ فهنا يكمن سر علاقة الرؤيا بالوحي، فعالم الرؤيا الذي تحدث فيه الرؤيا هو عالم ملكوتي متعلق بملك الرؤيا، والوحي من عالم ملكوتي، ولغة الملكوت

---

١. عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص٨٣.
٢. الأنعام: ٣٣.
٣. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٤ س١٣٤.
٤. النبوة الخاتمة - السيد أحمد الحسن: الرؤيا والنبوة.

لغة علوية مرموزة أو مشفرة، فلكي تمرر إلى عالمنا وتتحول إلى عبارات ولغة نفهمها ونعرف مقاصدها ومصاديقها لابد أن يترجمها شخص يعرف لغة تلك العوالم.

فرؤيا المعصوم واحدة من الطرق التي يكلم الله خلفاءه المنصبين (ع) ويوصل لهم مراده سبحانه للخلق، فكما أنهم يفهمون ويعرفون محتوى رسائل الوحي والحقائق المنقولة لهم عبر الوحي فأرواحهم المقدسة مطلعة على رموز الرؤيا التي يرونها أو يراها غيرهم من الناس، وهذه واحدة من خصائص المعصوم (ع) انه لا يحتاج الناس والعكس صحيح.

عن الوشاء عن أبان الأحمر عن الحارث بن المغيرة النصري عن أبي عبد الله الصادق (ع): قال سمعته يقول: (إن الأرض لا تترك إلا بعالم يحتاج الناس إليه ولا يحتاج إلى الناس، يعلم الحلال والحرام)[١].

- **رؤيا غير المعصوم**

وهي رؤيا كذلك من الملكوت، وهي شهادة إلهية عند الإنسان للمكلفين بالأنبياء والرسل يشهد الله لهم، وهو وحي أيضا ولكن هذه الرؤيا قد تأتي بدرجات، إما رؤيا واضحة ودالة على مصداقها كحضور شخص المعصوم أو اسمه، أو أنها رؤيا تتسم بالرمزية وفهمها وتأويلها يبقى موقوف على المعصوم؛ لأن الله لم يطلعه على رموز الرؤيا وهي حصرا عند المعصوم.

فإذا كانت مضامين الوحي حقائق أو معاني لا تنالها عقولنا المحجوبة حتى يترجمها المعصوم، فالرؤيا وحي ومصدرها تلك العوالم التي يمر بها أو ينزل منها الوحي بغض النظر عن المرتبة، فلابد أن تكون مبهمة حتى يترجمها المعصوم ويفك رموزها؛ لأن محتواها ومضمونها موسوم بلغة الملكوت.

الوحي بالرؤيا بالنسبة للناس لا يكاد ينفصل عن أفاق الأفكار والعقيدة التي يدور في فلكها المكلف، أو بعبارة أخرى تأتي الرؤيا لتحاكي المنظومة الفكرية التي ينشغل بها فكر الإنسان لتخبره بحقيقة معينة، وهذه الحقيقة إما تأتي لترسيخ فكرة أو عقيدة أو معلومة بسيطة أو معقدة، فإذا كانت بسيطة فهي تحمل بيان واضح الدلالة يفهمه الرائي، كإخباره بحقانية خليفة الله في زمانه، والشهادة له، أو معقدة أي أنها رموز تحتاج لرجل إلهي يترجمها.

فالوحي الإلهي كما هو مفتوح يباشر الأرواح النقية التي ترتمي في ساحة المعصوم، فيكون من محيطها ويطوف في رحابها ويكلمها بحسب من تعلقت روحه بمقام من مقامات الارتقاء، فكذلك هناك وحي من نوع آخر وهو وحي الشياطين، فالذي تسافلت نفسه واختارت أن تأخذ من غير الله أومن يؤدي عن الله، فستكون وعاءً لوحي الشياطين الذين يحملون الوحي البديل بالضرورة، ولذلك لا يمكن أن نطلق مسمى رؤيا على أي شيء يراه النائم سوى الرؤيا الصادقة.

قال رسول الله (ص): (الرؤيا الصالحة بشرى من الله، وهي جزء من أجزاء النبوّة)[٢].

---

١ المحاسن - البرقي: ج١ ص٢٣٤.

٢. بحار الأنوار - المجلسي: ج ٥٨ ص١٩٢، الدر المنثور - السيوطي: ج٣ ص٣١٢، ميزان الحكمة - الريشهري: ج٢ ص١٠١٠.

فلماذا سميت صادقة أو صالحة؟

فعنه (ص): (إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب. وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً. ورؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة)[١].

ولو أننا لسنا بصدد إثبات حجية الرؤيا- التي لم تسلم حجيتها من طعن الجهلاء المدعون للعلم- بقدر ما نريد أن نبرهن قداسة وشرافة الطريق الذي تأتي منه والمنظومة العلوية التي تحكم ظاهرها وباطنها ومن ثم معرفتها وتأويلها، وهذا هو القاسم المشترك الأول الذي يربط عالم الرؤيا بالوحي الذي نزل بالكتب المقدسة وما احتوته من حقائق وأسرار وعلوم وإخبارات عصية على فهم المحجوبين.

فوحي الشياطين من هذا الجانب يعمل من أجل إضعاف جبهة الوحي والتشكيك في مصادر البث الملكوتي، وهي محاولات لحصر الحجية التي يقدمها خلفاء الله ومحاصرة أدلتهم والتشويش عليها بضجيج الإيحاءات السفلية من قبيل تكذيبها، وإضعاف حجيتها وخلق الثغرات في هذه الجبهة، وبالتالي خلق ذرائع لسد تلك الثغرات المفترضة بتأسيس مناهج وقواعد من الوحي العقلي التي يطوف في مدارها الشياطين.

(أنّ رؤيا المؤمن صحيحة؛ لأنّ نفسه طيبة، ويقينه صحيح، وتخرج فتتلقى من الملائكة، فهي وحي من الله العزيز الجبار)[٢].

فالفرق بين الرؤيا الصالحة أو الصادقة والأحلام، هو أن الرؤيا من الملكوت الذي لا يدنس حرمه الشياطين، وأن كثير من الأحلام هي من النفس إلا ما رحم ربي؛ لأن النفس تستقي صورها ومعلومتها من العالم السفلي الذي يعبث في طرقه الشياطين، وهذه صورة أخرى تبين فساد العقول المحجوبة التي تغذيها النفس المنشغلة بعالم الظلمة.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[٣].

يؤكد السيد أحمد الحسن أوضح صورة لوحي الله:

(قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤]. فالإيمان بالرسول كما هو واضح ربما لا يكون كافياً للنجاة، خصوصاً إذا مات الرسول أو الحجة وجاء وصيه وفشل الإنسان في معرفته والالتحاق به، ولهذا بيّن الله سبحانه وتعالى أن هناك أداة تعصم الإنسان من الضلال، وهناك ثمن أيضاً لهذه الأداة، فثمنها كما هو واضح في الآيات هو التقوى، وهذه الأداة هي النور والفرقان الذي يميز به الإنسان بين الحق والباطل.

---

١. بحار الأنوار - المجلسي.: ج٥٨ ص١٩٢، صحيح مسلم: ج٧ ص٥٢، سنن الترمذي: ج٣ ص٣٦٣.
٢. بحار الأنوار - المجلسي: ج٥٨ ص١٧٦، عن "جامع الأخبار" والتعبير عن الأئمة (ع)".
٣. الشعراء: ٢١٠-٢١١.
٤. الحديد: ٢٨.

وهذه الأداة هي عبارة عن وحي الله سبحانه وتعالى للمتقين، وتعريفهم بالحق والباطل، وأوضح صورة لهذا الوحي يعرفها كل الناس تقريباً هي الرؤى التي يراها الناس، فالمتقي يُعرّفه الله بالرؤيا طريق الحق وطريق الباطل، فلا يبقى إلا أن يؤمن بالغيب ويعمل به، والحقيقة أن المتقي لابد أن يؤمن بالغيب ويعمل به؛ لأن صفة الإيمان بالغيب ملازمة له.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[١])[٢].

الوحي الرسالي

الوحي أو الإلقاء الإلهي في صفحة وجود المعصوم، وهو طريق الاتصال بين الله وبين الرسل والأنبياء والائمة(ع)، والوحي انطباع لمعاني وحقائق في نفس المعصوم، وهذا يتضمن الكتب السماوية، وما يلقى في صفحة المعصوم من مستجدات الأمور.

فالمعصوم يوحى إليه في كل آن، فالمعصوم يستزيد أو يأخذ ما يحتاجه في إبلاغ رسالته من عقله التام- أي في مقام السماء السابعة الكلية- وأكيد عطفا على ما سبق من كون ما يتنزل من علوم وأحكام وتعاليم من مرتبة أعلى كالسماء السابعة كونها من عالم ملكوتي أرقى مختلف في طبيعة وجوده ورتبته ونظامه، سيخضع كل ما يخرج- العقل التام- منه أو يتنزل إلى مرتبة أدنى إلى ترجمة محتوى المعلومة أو الرسالة من اللغة التي كانت تعبر عنها في تلك العوالم، كونها معان وحقائق إلى لغة المعصوم الذي يتعاطاها في زمنه؛ أي إلى ألفاظ وعبارات يفهمها المكلف بعد أن يترجمها المعصوم من لغتها العليا إلى لغة عصره التي تفرضها الطبيعة المادية الجسمانية، فاللسان يميز لغة القوم الذي ينزل فيهم ذلك الرسول أو المعصوم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[٣].

مسلم بن خالد المكي عن جعفر ابن محمد عن أبيه (عليهما السلام) قال: (ما أنزل الله تعالى كتابا ولا وحيا إلا بالعربية، فكان يقع في مسامع الأنبياء عليهما السلام بألسنة قومهم، وكان يقع في مسامع نبينا بالعربية فإذا كلم به قومه كلمهم بالعربية فيقع في مسامعهم بلسانهم، وكان أحدنا لا يخاطب رسول الله بأي لسان خاطبه إلا وقع في مسامعه بالعربية، كل ذلك يترجم جبرئيل "ع" عنه تشريفا من الله عز وجل له)[٤].

وهذا ما دأبنا على ترسيخة في هذا البحث، وهو ما يفترض الالتفات إليه عند رصد العلاقة بين الوحي والموحى إليه والناس، وهو ما يدفعنا بالضرورة لجعل ما ينزل من الوحي على خلفاء الله مصدرا وأصلا ترجع إليه كل معاني الدين ومقاصده، وتتفرع منه كل المعارف والعلوم في كل زمان بحسب حضور القابل وقدرته على سماع كلمات الله.

---

١. البقرة: ٢ - ٣.

٢. الجواب المنير - السيد أحمد الحسن: ج٥ س٤٠٥.

٣. ابراهيم: ٤.

٤. علل الشرائع - الصدوق: ج١ ص١٢٦.

فالتراجع والنكوص الذي أصاب الناس في علاقتها مع الله سبحانه كان بسبب قلب هذه العلاقة، لتكون المناهج والقواعد المبتدعة حاكما على الوحي؛ أي عرض النصوص سواء كانت من الكتب السماوية أو أحاديث وروايات لمعصومين (ع) على مباني عقول الرجال وجعلها نظاما فوقيا تحتكم إليه نصوص الكتب السماوية فتفسر بحسبه وتضبط مساراتها ومعانيها.

فكلام الله هو الأصل الذي يحكم ويضبط النصوص ومعانيها، ولا يمكن أن تبينه وتحيط بمقاصده ألسن الناس ولغاتهم السفلية.

علي بن محمد، عن صالح بن أبي حماد، عن الحجال، عمن ذكره، عن أحدهما (عليهما السلام) قال: سألته عن قول الله عز وجل" بلسان عربي مبين" قال: (يبين الألسن ولا تبينه الألسن)[١].

وحي خلفاء الله ووحي الناس

وحي خلفاء الله هو العلم المتجدد الذي يطلع عليه خليفة الله في كل آن، وهو العلم الإلهي وما يصلح أمور الدين وأحوال الناس.

أما وحي الناس فهو الوحي الي يرشدهم لبيان حال خلفاء الله وصدقهم والدلالة عليهم وفرض اتباعهم والتمسك بهم، كونهم الطريق الوحيد الذي يوصلهم إلى الله؛ ولأن الناس فشلوا في استقبال وحي الرسالة لاشتداد الظلمة في صفحات وجودهم، وبالتالي انحسار القابلية لاستقبال الوحي الإلهي الموجب للعصمة[٢]، وهذا الانحسار سببه الظلمة التي تشغل صفحة وجود الإنسان الملتفت إلى نفسه؛ أي المتعلق بحبال العالم السفلي وكثافته وظلمانيته الناجمة عن ابتعاده عن مصدر النور وكثرة الحجب الظلمانية التي استحوذت على آفاق نفسه، ولعل هذا ما يعنيه الإمام الصادق (ع) بجنود الجهل التي ازدحمت في ساحة المكلف، ومنعت النور من تخللها وإضاءتها بنور العلم والوحي، على عكس صفحة وجود المعصوم التي هي نور مشوب بظلمة الوجود، والتي لولاها لما بقي المعصوم أي لفنى وطبعا كل بحسبه.

يقول السيد أحمد الحسن:

---

١. الكافي - الكليني: ج٢ ص٦٣٢، شرح أصول الكافي - محمد صالح المازندراني: ج١١ص٨٥.

٢. معنى المعصوم - الإمام الصادق (ع) - لما سأله هشام عن معنى المعصوم -: المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله، وقال الله تبارك وتعالى: *(ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم)، الإمام زين العابدين (ع): الإمام منا لا يكون إلا معصوما، وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها، ولذلك لا يكون إلا منصوصا. فقيل له: يا بن رسول الله فما معنى المعصوم؟ فقال: هو المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن، لا يفترقان إلى يوم القيامة، والإمام يهدي إلى القرآن، والقرآن يهدي إلى الإمام، وذلك قول الله عز وجل: * (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) [معاني الأخبار - الصدوق: ص١٣٢]، عن الرسول محمد (ص) أنه قال: (... يا علي، اقرأهم مني السلام من لم أر منهم ولم يرني، وأعلمهم أنهم إخواني الذين أشتاق إليهم، فليلقوا علمي إلى من يبلغ القرون من بعدي، وليتمسكوا بحبل الله وليعتصموا به، وليجتهدوا في العمل، فإنا لا نخرجهم من هدى إلى ضلالة..) [الأمالي - للصدوق: ص٦٥٨]، في زيارة الإمام الحسين(ع): (..أشهد أنك أديت صادقاً، ومضيت على يقين، لم تؤثر عمى على هدى، ولم تمل من حق إلى باطل) [المقنعة - للشيخ المفيد: ص٤٦٦].

(حتى الاطلاع على الغيب بصورة دقيقة وصحيحة ليس بأمر هين أو ممكن لكل أحد وإن أخلص لله سبحانه وتعالى؛ لأنها معلومات تنزل إلى هذا العالم السفلي، وبالتالي يمكن أن تختلط بوساوس الشيطان وما شابه من باطل، لهذا فالغيب النقي الذي لا يمكن أن يمسه وساوس الشيطان وما شابه فقط عند الرسل؛ لأن جهتهم محمية من قبله سبحانه، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾[١] أي لأنه توجد حماية للغيب النازل للرسول فلا يمكن أن يختلط بكلام الشيطان أو الباطل، ولهذا فهو صحيح ودقيق.

وهؤلاء الملائكة الذين يسخرهم الله لهذا النبي المرسل ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[٢] يكونون من بين يديه ومن خلفه ليحفظونه بأمر الله سبحانه وتعالى من شر شياطين الإنس والجن، ومن إلقاءاتهم وباطلهم، فهذا الرصد الملائكي يكون مانعا وصادا للشياطين من التدخل أو الإلقاء في رسالة السماء عند نزولها إلى هذا العالم السفلي الجسماني، وبالتالي تصل رسالة السماء إلى النبي المرسل صحيحة ونقية ومحفوظة من إلقاء الشيطان ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٣])[٤].

لابد أن نعلم بأن الأمر الإلهي لكي يصل إلى هذا العالم الجسماني سواءً كان لرسول أو نبي أو حتى إذا كان وحيا للمخلصين من الناس فهو يمر عبر العوالم من مرتبة الذات أو قل من مرتبة الحجاب الأول إلى نهاية عوالم الظلمة، ففي عالم الملكوت فهو محمي من وساوس الشيطان وإلقاءاته، ولكنه في هذا العالم السفلي سيكون معرضا لإلقاءات الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس.

لماذا يكون معرضا لإلقاءات الشيطان؟ لأنه في العالم السفلي أو عالم الظلمة الثاني، أو عالم الامتحان الثاني بعد امتحان الذر- عالم الظلمة الأول- فالإنسان يصارع فيه الشيطان أو النفس، التي تعتبر خرطوم الشيطان[٥]، فهي في صراع مع الظلمة التي أطلق في ساحتها العنان للشيطان، وقد توعد إبليس أن يغوي الناس ويقعد لهم صراط الله المستقيم.

الصراط المستقيم لا يعدوا أن يكون الدين الحق، وهو الرجل الذي ينصبه الله في كل زمان، وكل ما يُقرب الناس إلى هذا الرجل من عقائد حقة وأعمال يرضاها الله، فالشيطان لا يدع سبيلا حتى يسخره في التشكيك في هذا الطريق، والالتفاف على منظومة السماء، فقد تم تأسيس علوم عقلية بديلة كعلم الرجال وغيره كمناهج بمقابل مناهج الأئمة (ع).

---

١. الجن:٢٧.

٢. الرعد: ١١.

٣. فصلت: ٤٢.

٤. النبوة الخاتمة - السيد أحمد الحسن: النبوة.

٥. رسول الله (ص): (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك)، علي (ع): (نفسك أقرب أعداءك إليك) ميزان الحكمة - الريشهري: ص ١٨٤٧- ١٨٤٨.

استخدم النحو والفقه والأصول وعلم الرجال والفلسفة والمنطق، وكل ما يؤسس من هذه المباني ليبث في عقول الغافلين المنهج البديل والخطوات الموجبة للسير في الطريق الآخر، وزرع البدائل في نفوسهم المستعدة لقبوله.

في النتيجة هما طريقان، حق أو باطل، وبعبارة أخرى: الدين أو الوحي من الله أو من غيره.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[١].

هما خياران لا غير، فكل ما ينتمي لمنظومة الحق فهو من الله، وكل ما ينتهي للباطل فهو من الشيطان، وهذا ما صرحت به آيات الكتاب المبين.

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٢].

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾[٣].

فإلقاءات الشيطان بطرقه المتعددة تمنع وصول الوحي أو رسالة الوحي- ليتحقق مراد إبليس لأغوينهم أجمعين- ويبلغ مراده في تأخر اليوم المعلوم الذي وعده الله إياه.

ومما يتبناه الشيطان وجنوده هو إشغال الناس بالاهتمام بالمظاهر والظواهر العبادية دون التدبر والتركيز على مقاصدها وحقائقها، والغرض هو إبعادهم عن المقاصد الحقيقية المؤثرة في نفوسهم والتي تصنع منهم سامعين للوحي ولِما نزل به الوحي على خلفاء الله في كل زمان وإغراقهم في سفاسف ابتدعها هو وجنوده، لتكون مائدة يتلذذ بها هؤلاء الغافلون يستهلك الانشغال بها أوقاتهم القصيرة وفرصتهم في هذه الدنيا في طلبها، بما زرع في نفوسهم المشغولة والمنشغلة ما يؤمن لهم صحة المسيرة وإبراء ذمتهم، بأن طلب ما يقدموه من قواعد ومباني لتكون مانعا يحجبهم ويشغلهم عن سماع صوت الوحي.

الوحي والمعصوم

لماذا الوحي ولماذا خص به المعصوم؟

قبل الكلام بهذه الخصيصة، وأقصد العصمة وعلاقتها بالوحي، أقول وبحسب ما تقدم من البحث أن الله سبحانه يريد أن يُعرف فخلق الخلق والوجود لتنفذ مشيئته سبحانه، فعندما فشل الخلق في أن يكون قابلا للتجلي الإلهي أو أن يكون تجليا لأسمائه سبحانه سوى محمد (ص) وما دونه من الأئمة والرسل والأنبياء(ع)، ولما كان السبيل الوحيد لخطاب أقرب الخلق إليه محمد (ص) هو الوحي؛ إذن صار الوحي هو المحور لنفاذ المشيئة

---

١. الحج: ٦٢.

٢. الإسراء: ٨١.

٣. الكهف: ٥٦.

الإلهية في تعريفه نفسه للخلق، وصار مشروع الخلق والتكوين ساحة لنزول الوحي؛ بل الهدف منه هو استقبال الوحي.

فإذا لم يتحقق وجود المستقبل الأول للوحي وهو الخليفة المنصب من قبله سبحانه فسينتفى الغرض من وجود الخلق لانتفاء تحقق العلة من وجوده، ومن هذا نعرف لماذا وردت العديد من الروايات التي تبين أن خلو الأرض من الحجة سيكون سببا في انهيار الأرض[١].

لم يكن السبب في موضوع حصر الوحي الرسالي بخلفاء الله؛ لأن الله سبحانه نص عليهم واختارهم فحسب، وإنما القضية ناضرة إلى الإخلاص الذي سبق هذا الاختيار، وهذا الاختيار نتيجة مترتبة على إخلاصهم، والحكمة تقتضي وضع الشيء في مكانه، فكيف بالحكيم المطلق؟ ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٢].

فهذا الاحكام الرباني في اختيار الناقل للعلم متعلق بمرتبته ونوع المعلومة الواصلة إليه، أي بعبارة أخرى بين المعصوم - أو صفحة وجوده- وبين الوحي.

فمثلا على مستوى التجربة الإنسانية في عصرنا لا يمكن لأحد أن يفتح جهازا مشفرا أو ملفا على جهاز حاسوبه إلا من وضع كلمة السر أو من أعطي كلمة السر، فكيف إذا كان الأمر يخص الحكيم المطلق فأكيد ستكون الدقة والإحكام بأعلى ما يمكن تصوره بالنسبة لنا فضلا عن العالم المطلق والحكيم المطلق.

فمسألة أن الوحي الرسالي مقصور على شخوص مختارة من قبل الله فهذا يفسر لنا أيضا بأن حصرية الوحي بهؤلاء الرجال الإلهيين متعلق بنوع المعلومة ونوع المستقبِل وكفاءته.

أما نوعه فهذا يعني أن قاعدة بيانات المستقبِل مصممة ومعدة للتفاهم مع لغة الوحي، وأما كفاءته فهي تعتمد على سعة صفحة وجود المستقبل وقابليته على استيعاب لغة الوحي بدرجة ما أو مرتبة ما، ونوع المستقبل وكفاءته نتيجة لدرجة إخلاصه، وهو بحد ذاته سبب أهليته وكون قاعدة البيانات -إن صح التعبير- مصممة ومعدة لفهم لغة الوحي، لكي لا يساء الفهم ويتصور من يتصور أن الله سبحانه منح المخصوصين بالوحي الرسالي ابتداءً دون سعيهم وإخلاصهم.

فعدل الله يقتضي أن يكون كل خلقه قد أتيحت لهم الفرصة بأن يكونوا خلفاءه وحملة لوحيه، فهو سبحانه لم يختارهم ابتداءً ليكونوا أهل الوحي؛ بل هم من اختاروا وهم من أخلصوا حتى صارت أرواحهم وعاءً طاهرا يتسع وحي الله وكلماته؛ لأنهم حاربوا الظلمة فانحسرت حتى لم يكد يعد لها وجودا في صفحات وجودهم إلا بمقدار تشخصهم ووجودهم فتمايزت مراتبهم (ع) بهذا المقدار؛ أي بمقدار بقاء نسبة ظلمة الوجود، وبهذه النسبة كانت عصمة كل واحد منهم (ع) وقد مر بيان ذلك.

---

١. عن أبي حمزة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أتبقى الأرض بغير إمام؟ (قال: لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت) [الكافي - الكليني: ج١ ص١٧٩].

٢. البقرة: ٢٦٩.

فالوحي لا يسعه إلا هذه الكيانات النورية الطاهرة من دنس الانشغال بغيره سبحانه، وأما ما دونهم فقد أصبحوا خارج العمود النوري النازل منه سبحانه محجوبين عنه بمقدار ابتعادهم وانشغالهم، وفرصة الاختيار منحت لجميع الخلق في امتحانهم الأول في عالم الذر وكل قد اختار مرتبته بحسب إقباله أو حتى إدباره.

(والأنبياء والمرسلون والأئمة (ع) من الجماعة الأولى، وقد رأوا النور من وراء الحجب؛ لأنهم لم يلتفتوا يميناً أو شمالاً، بل تعلقت أرواحهم بالملأ الأعلى، وقصروا نظرهم على جهة الفيض الإلهي، فلم يغفلوا عن الله سبحانه وتعالى، وهم (ع) أيضاً درجات، فمنهم من ركز كل وجوده في النظر إلى جهة الفيض الإلهي، ومنهم من هو أقل من ذلك، وكل واحد منهم (ع) أُعطي بحسب ما أَعطى، ورأى من آيات ربه بحسب ما سعى بالنظر لها.

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[١]، ففي ذلك العالم كان جميع بني آدم مختارين، وكل واحد منهم يمتلك فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكل واحد بإرادته قَصَرَ نظرَه على النور فأصبح من المقربين، أو على الظلمات فأمسى من أصحاب الجحيم. فالأنبياء والمرسلون والأئمة (ع) هم الذين اختاروا الله سبحانه، وقصروا نظرهم على النور فاصطفاهم الله سبحانه.

أما العصمة: فهي درجات وليست واحدة كما يتوهم بعضهم، وكل واحد من الأنبياء والمرسلين والأئمة (ع) اختص بدرجة من درجات العصمة بحسب اختياره هو، فالمعصوم هو: من اعتصم بالله عن محارم الله سبحانه وتعالى)[١].

وهذا يقودنا لمسلمة يفترض أن تكون حاضرة عند الكلام في هذه المنطقة المعرفية، وهي مراتب الوحي أو محتوى الوحي بمستوى الحقيقة التي يحملها للمستقبل، وهي تتدرج بحسب سعة المستقبل- ومنها نفهم لماذا خُصت التوراة بموسى (ع) والإنجيل بعيسى (ع) والقرآن بمحمد (ص)- وهي ذات العلاقة بين محتوى الوحي أو محتوى الرسالة وبين مستقبلها وسعة صفحة وجوده.

- **إخلاص المعصوم**

ما يميز خلفاء الله عن غيرهم من البشر أنهم يوحى إليهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[٢].

فهل أن من يوحى إليهم أناس عاديون أم أنهم متفوقون بدرجة لا يمكن حصر نسبتها مقارنة بغيرهم من البشر، وأن وراء هذا التفوق أسباب أخرى ليست كالتي يمكننا تصورها والإحاطة بها بحسب آفاق تفكيرنا ومعرفتنا المحدودة جدا والتي لا تعدوا ظواهرها العالم المادي، حتى يتبين لنا ما معنى يوحى إليهم؟

فهؤلاء الرجال الإلهيين أخلصوا لله إخلاصا أوصلهم لدرجة أن تكون صفحات وجودهم خالية من أي إلقاء سوى إلقاء خالقهم، فأصبحوا تلك الأرض الخاشعة التي ينزل فيها الغيث الإلهي "الوحي" لتنبت بالعلم والمعرفة، فلخلو ساحتهم من الإلقاء الباطل وخلوها من الادعاء وإقرارها بالفقر والحاجة المطلقة له سبحانه لا يشتبه عليهم أمر ولا يرون إلا خالقهم؛ أي كانت صفحة وجودهم منشغلة به سبحانه.

---

١. المتشابهات- السيد أحمد الحسن: ج١ س١٧.

٢. الكهف: ١١٠.

عن أبي الحسن الثالث (ع) أنه قال: (إن الله جعل قلوب الأئمة موردا لإرادته، فإذا شاء الله شاؤوا، وهو قول الله تعالى: (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله)[١].

وفي حديث رسول الله (ص): (إن الله جعل قلب وليه وكرا لإرادته فإذا شاء الله شئنا)[٢].

وعن أبي محمد (ع) قال: (كذبوا بل قلوبنا أوعية لمشيئة الله فإذا شاء شئنا)[٣].

وفي الزيارة المطلقة للإمام الحسين (ع) عن الإمام الصادق (ع): (بكم فتح الله وبكم يختم الله، وبكم يمحو الله ما يشاء وبكم يثبت، وبكم تنبت الأرض أشجارها، وبكم تنزل السماء قطرها ورزقها ... إرادة الرب في مقادير أموره تهبط إليكم وتصدر من بيوتكم)[٤].

فكل ما يريد الله سبحانه أن يوصله للخلق أودعه عندهم بأن أوحى إليهم كل ما يريد.

ولا شك وبحسب ما تقدم وما سيأتي أن كل المقامات بكل مسمياتها ومنها اللاهوت تكون على مراتب تتعلق بدرجة إخلاص المختارين (ع)، فهي تتنزل من مرتبة محمد (ص) إلى ما دونه من الأئمة والرسل والأنبياء (ع)، وأيا كانت هذه المقامات أو الوجودات فهي لا تنفك عن كونها مراتب معرفية، والمنطق يقول أن لكل مرتبة فوقية لغتها ومنظومتها، فإذا أراد صاحب المرتبة الأعلى أن يوضح لما دونه مرتبة لابد أن تتنزل المنظومة المعرفية بشكل يتناسب وقابلية صاحب المرتبة الأدنى، وهو ما نقصده عندما نقول اللغة التي تناسب كل عالم.

فمصدر الفيض هو الحكيم المطلق سبحانه، جل عن ملائمة كيفياته وتنزه عن مجانسة مخلوقاته، لذا حصل التواصل بينه سبحانه وبين خلقه، وانتقل الفيض الإلهي إليهم مرورا بعوالم الملكوت ومراتبها، وهذا ما تقدم بيانه في معرفة مقامات الألوهية والربوبية.

- **أمانة المعصوم**

الأمين على شيء هو الحريص بأعلى درجات الحرص على حفظ الشيء كما هو دون التصرف فيه ونقله إلى الجهة التي أرادها الذي ائتمنه عليه.

فخليفة الله ناقلا للعلم الإلهي الذي أراد الله سبحانه أن يوصله للخلق، وهذه هي وظيفة الرسول بشكل مجمل، أما ما يخص الكيفية والطريقة التي يوصل بها رسالته فهذا يتعلق بقابلية الرسول وسعة صفحة وجوده وهيمنته على العوالم التي تتنقل فيها الرسالة والمتعلقة بإخلاصه وقربه من النور المطلق، وبالتالي فالحكمة ترافق عملية نقل محتوى الرسالة لاعتبارات كثيرة، ذكرنا معظمها فيما يتعلق بقدرة الرسول على ترجمة معاني وحقائق الرسالة الموحاة من جهة، وقدرة وقابلية القابل، فضلا عن الظروف والمتغيرات المحيطة في زمن نزول الرسالة، ووجود خليفة الله بين الناس.

---

١. بحار الأنوار - المجلسي : ج٢٥ ص٣٧٢، بصائر الدرجات - الصفار: ص٥١٧.
٢. بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٦ ص٢٥٦.
٣. نفس المصدر: ج٢٥ ص٣٧٧.
٤. كامل الزيارات - بن قولويه: ص٢٠٠.

وردت صفة أمناء الله في موارد كثيرة:

(السلام على رسول الله أمين الله على وحيه وعزائم أمره الخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل والمهيمن على ذلك كله ورحمة الله وبركاته)[١].

(السَّلامُ عَلَيْكَ يا أمِينَ اللهِ فِي أَرْضِهِ وَحُجَّتَهُ عَلى عِبادِهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا أمِيَر المُؤْمِنِينَ)[٢].

والموارد كثيرة في هدا المعنى[٣].

فهل سمى الله أمناء لوحيه غيرهم (ع)؟ وهل أن تسميتهم يمكن أن تتيح الفرصة ليكون غيرهم أمينا لوحي الله؟! أم أنه أمر يتعارض مع الحكمة التي تقتضي هذا التلازم وأعني به بين أشخاص مسمّون بأسمائهم مختارون من قبل الله، وكيف إذا كان الحكيم المطلق سبحانه من وضع هذه المعادلة وهذا الاقتران؟!!

ثم أن هذه المعادلة وهذا التنصيص لم يختل لفترة ما أو زمن معين ليقول قائل قد تضطرنا الظروف التي تحيط بنا في فترة من الفترات بخلوها من رجل إلهي معين من قبل الله سبحانه أو لم يسمه الله، وتخلف السنة الإلهية في مضيها في سنة التنصيب، وأنه يمكن أن تكون هناك فراغات زمنية خالية من رجل إلهي منصب، أو أن الساحة العلمية غير قادرة على إثبات وجود خليفة إلهي ناقل للعلم في زمن ما، ليتم سد هذا الفراغ بدليل عقلي سفلي محض وفق ما يسمونه بمبدأ سد الثغرات، أم أنها سنة إلهية سارية في الزمان والمكان؟!!

سيما أن عملية إيصال الرسالة الإلهية أو العلم الإلهي تتضمن أمرين هما: النقل والترجمة، يعني أن خليفة الله ناقلا للعلم أمينا عليه وترجمان له- باعتباره نازل من جهة علوية لا يعرفها غيره (ع)- في كل زمان، فضلا عن كونه يوحى له في كل آن؛ لأن هذه الخصيصة مرتبطة بنوع القابل وقدرته وزمانه وهذا ممتنع معرفته على غيرهم (ع)، لكي لا يتبرع مدعي للعلم ويقول أن الرسالة وصلتنا ولنا القدرة على معرفة مضامينها وأسرارها؛ أي ترجمتها، اللهم إلا أن يدعي ارتباطه بالملكوت أو الله فضلا عن تخويله منه سبحانه!! وهو محض افتراء.

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ج٩٧ ص٢٨٤.

٢. بحار الأنوار - المجلسي: ج٩٩ ص١٧٧، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (ع) في الكتاب والسنة والتاريخ - محمد الريشهري: ج ٧ ص٣١٠.

٣. (السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ وَ مَوْضِعَ الرِّسَالَةِ وَ مُخْتَلَفَ الْمَلائِكَةِ وَ مَهْبِطَ الْوَحْيِ وَ مَعْدِنَ الرَّحْمَةِ وَ خُزَّانَ الْعِلْمِ وَ مُنْتَهَى الْحِلْمِ وَ أُصُولَ الْكَرَمِ وَ قَادَةَ الْأُمَمِ وَ أَوْلِيَاءَ النِّعَمِ وَعَنَاصِرَ الْأَبْرَارِ وَ دَعَائِمَ الْأَخْيَارِ وَ سَاسَةَ الْعِبَادِ وَ أَرْكَانَ الْبِلادِ وَ أَبْوَابَ الْإِيمَانِ وَ أُمَنَاءَ الرَّحْمَنِ وَ سُلالَةَ النَّبِيِّينَ وَ صَفْوَةَ الْمُرْسَلِينَ وَ عِتْرَةَ خِيَرَةِ رَبِّ الْعَالَمِين..)[الزيارة الجامعة- مفاتيح الجنان: عباس القمي]،(السلام عليك يا وارث نوح أمين الله..)[زيارة الحسين (ع)- مفاتيح الجنان: ص٦٢٨]،الإمام الرضا (ع): (الْإِمَامُ أَمِينُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَ حُجَّتُهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَ خَلِيفَتُهُ فِي بِلادِهِ، وَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ)[الكافي - الكليني: ج١ص١٩٨]، [تحف العقول - البحراني: ص٤٣٦]، في دعاء الإمام المهدي (ع): (اَللّهُمَّ اِنّي اَسـاَلُكَ بِمَعاني جَميعِ ما يَدْعُوكَ بِهِ وُلاةُ اَمْرِكَ، الْمَأْمُونُونَ عَلى سِرِّكَ) [إقبال الأعمال - السيد ابن طاووس: ج٣ص٢١٤]. من خطبة رسول الله (ص) يوم الغدير:(... معاشر الناس إن عليا والطيبين من ولدي هم الثقل الأصغر، والقرآن الثقل الأكبر، فكل واحد منبئ عن صاحبه وموافق له لن يفترقا حتى يردا على الحوض، هم أمناء الله في خلقه وحكماؤه في أرضه...)[الاحتجاج - الطبرسي: ج١ص٧٥]، وفي العهد القديم: (وَأَمَّا عَبْدِي مُوسَى فَلَيْسَ هكَذَا، بَلْ هُوَ أَمِينٌ فِي كُلِّ بَيْتِي) [سفر العدد- إصحاح: ١٢، ١-٨].

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[١].

الحقيقة الغيبية التي أوجدت وانشأت هذا العالم هي قوة حكيمة، والحكمة عند كل الحكماء ومن يطلق عليهم حكماء بأي نسبة أو درجة يعرّفونها، بأنها وضع الشيء في موضعه واتقانه، فكيف بالحكيم المطلق؟! فأكيد ستكون الحكمة المطلقة مقرونة بكل قول وحكم وبيان.

فالاختيار لمن يكون أمينا لوحي الله وعارفا به سيكون اختيارا حكيما، وهو بحد ذاته دليل على عجز غير المختارين، وحاكما على بطلان كل ما يصدر منهم، وهو بالتأكيد نتاج عقولهم القاصرة، والقواعد التي أفرزتها لتكون المنهج في محاكمة النصوص وبيانها.

كيف والحال أن الرجال الذين يقدمون هذا النتاج على أنه يمثل دين الله، وهم في الحقيقة يقولون بحسب ما يفرضه الواقع بأن ما يقدموه يخرج من أروقتهم وقواعدهم ومبانيهم، وليس لديهم ما يثبت أن ما يقدموه مرتبط بوحي الله ولو على مستوى الادعاء.

أفضل العبادة هو أن يعرف الإنسان سر وجوده ويعرف الغرض من الخلق، وبالنتيجة هي معرفة الله، والخالق سبحانه رحيم مطلق وحكيم مطلق، فخلق الإنسان من وراءه حكمة، ونحن ككيانات واعية نحتاج أن نعرف الغرض من خلقنا، وبما أننا عاجزون عن الوصول لهذه الحقيقة باستقلالنا عن جهة مرتبطة بالخالق سبحانه فلا يتحقق هذا الغرض الا بوجود وتنصيب ناقل للعلم، وهذا غير متوفر لكل الناس.

يقول السيد أحمد الحسن:

(...وترك فعل ما يتحقق به الغرض مع القدرة عليه نقض للغرض لا يصدر من الحكيم المطلق، وخليفة الله يحقق ذلك فلابد من تنصيبه ...المالك العالم المطلق لابد ان يأمر المكلفين العاملين في ملكه بإنفاذ ارادته؛ لأنه الأعلم بصلاح ملكه ومن فيه وإلا لكانوا معذورين في إنفاذ جهلهم في ملكه، وبهذا يكون قد جانب الحكمة إلى السفه، وهذا لا يصح من الحكيم المطلق، وليتحقق هذا الأمر لابد من إيصال أمره للمكلفين، ولا سبيل الى ذلك مع وجود الملك وغياب المالك عند المكلفين العاملين في ملكه إلا بواسطة من حضر عنده المالك؛ أي من يوحى له ويتصل بالمالك ويعرف إرادته، فلا يصح ترك نصب - خليفة الله - الواسطة مع القدرة ؛ لأنه نقض للغرض الذي يريده المالك هو تنفيذ إرادته في ملكه)[٢].

أليس الله إن كان غائبا فهو غائب عن الناس جميعا، فلماذا لا يوصل لنا الله الغرض من الخلق وينقل إرادته لكل واحد منا؟!

يقول السيد أحمد الحسن:

(غيابه ليس حقيقيا بل عندهم بسبب تقصيرهم وغفلتهم وإلا فهو الشاهد الغائب وبإمكان كل أن يخلص ويتواصل مع ربه ويعرف إرادته سبحانه وتعالى وذلك بأن يطلعه الله على الغيب فأما أن يكون خليفته في أرضه

---

١. الأحزاب: ٦٢.

٢. عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص٣٣- ٣٤.

الذي يزوده في كل شيء هو وبقية الخلق وبحسب ما يناسب حاله ومقامه، وأما أن يكون من عباد الله الذين يعرفهم الله بعض الغيب والمفروض أنهم ينتفعون منه لمعرفة خليفة الله في أرضه ويطيعوه لأنهم لا يعرفون إلا القليل ويبقون محتاجين للخليفة ليتكاملوا)[١].

فيمكن أن نفهم من قول السيد أحمد الحسن "وبإمكان كل أن يخلص ويتواصل مع ربه ويعرف إرادته سبحانه وتعالى" أن هذا الطريق متاحا من حيث أصل الفطرة وبداية خلق الإنسان- كل إنسان- وهذا يدور مدار العدل الإلهي؛ أي أن الله سبحانه منح الإنسان- كل إنسان- فرصة التواصل مع الله في أعلى مراتبها وهي عندما يكون إخلاصه بدرجه تؤهله ليكون خليفة الله، أما هنا ونحن في دار الامتحان الثاني فبالتأكيد نكون قد خسرنا فرصتنا في امتحاننا الأول - في عالم الذر- بأن نكون من الذين اختارهم الله أمناء على وحيه، إذن لم يبق لدينا سوى أن نعرف هؤلاء الأمناء المختارين ونلزم طريقهم ونتبعهم لنعرف منهم ما يوصلنا إلى الله ومراده سبحانه.

انعكاس وحي الرسالة على الموحى إليه

علمنا أن صفحة وجود الموحى إليه - رسولا أو نبيا أو إماما- مهيئة أصلا بأن تنطبع بها حقائق الغيب النازلة من الوحي، وبالتالي فإن حجم أو نسبة التعاطي لروح ونفس المعصوم تكون بأعلى صورة ممكنة لمرتبته فتظهر صفاتها وتنفعل بها روحه فتنعكس أفعالا وأقوالا صافية لا يشوبها الشك والظنون؛ بل هي ممتلئة باليقين.

أما كيف يمكننا أن نثبت هذه الميزات وننسبها لهم (ع) ونقولها بضرس قاطع؛ فلأن شهادة الله فيهم واضحة في القرآن والتي حاز أعلى مراتبها محمد (ص) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢] والشواهد القرآنية والنصوص كثيرة.

وإذا أردنا أن نحصل على أدلة واقعية فسنجدها واضحة جلية في مسيرتهم (ع) يمكن أن نوجز أبرز مظاهرها.

١- الصفات التي اتصفت بها شخصية الرسول أو الخليفة كالأخلاق والصدق والرحمة والتواضع والصبر والدعوة للتسامح ...الخ.
٢- النتاج الذي قدموه والإرث الذي تركوه مصون عن القدح والطعن.
٣- ذم الدنيا والتضحية والإيثار لأجل الآخرين.
٤- كل ما تكلموه وأنبأوا به تحقق عقلا وفعلا على أرض الواقع.
٥- عجز غيرهم كأفراد ومجموعات وزعامات دينية وسياسية في تقديم منهج أخلاقي عادل خال من الأنانية والاضطراب، بل فشل غيرهم (كما يقول بعضهم: وعدُونا بالجنة ولم يقدّموا لنا سوى الجحيم).
٦- وحدة الرسالة والمنهج على طول الخط الرسالي.
٧- إجماع كل أهل الديانات السماوية وغيرها على أن الأرض تنتظر منقذا من الظلم والجور والخراب الذي عم كوكبنا، وهو من سيصلحه، وهذا المنقذ هو منهم (عليهم السلام)، وهذا ينبئنا على رصانة ورفعة المنظومة التي تسلسل فيها هؤلاء القادة الإلهيين المتصلين بالوحي، وهو المصدر الحصري لإيصال الرسائل من الحكيم المطلق والعليم المطلق بمقابل الأطروحات الأرضية المضطربة التي مالها من قرار،

---

١. نفس المصدر السابق: ص٣٤.
٢. القلم: ٤.

والتي أثبت الواقع فشلها وعجزها؛ بل وكونها سببا في التراجع والتقهقر الذي مني به الخلق وعلى كل المستويات.

العلم الإلهي

تعرضنا فيما سبق للهدف من الخلق وهو بإيجاز شديد معرفة الله، ولكي تتحقق المعرفة لابد أن يصل العلم الإلهي للخلق، فالوحي واسطة لإيصاله للأنبياء والرسل والمعصومين (ع) فيكون ناقل هذا العلم هو المعصوم - نبي، رسول، إمام - وهذا العلم يُنقل من عالم الغيب أو الملكوت بواسطة هذا الوحي، وطالما هناك خلق على هذه الأرض يبقى الهدف موجود وهو إيصاله إلى المعرفة، ويبقى لازم الإيصال هو القابل الكامل وهو المعصوم المتصل بالوحي.

عن أبي عبد الله (ع) قال: (.. الْعِلْمُ قَالَ مَا يَحْدُثُ بِاللَّيْلِ والنَّهَارِ الأَمْرُ مِنْ بَعْدِ الأَمْرِ والشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ..)[١].

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[٢].

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[٣].

محمد (ص) يتلقى الفيض من الله سبحانه فلا يوجد وسيط بينه وبين الله، وهذا الفيض هو القرآن أو أعلى وأوسع مرتبة معرفية يمكن أن يتحملها مخلوق من العلم والحكمة.

إذن ارتباط الوحي الذي يجسد طريق التواصل بين محمد (ص) والغيب المطلق متقوم بالحكمة والعلم؛ لأنها صادرة من الحكيم المطلق والعليم المطلق " وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ " فإذا ما علمنا أن مصدر الوحي حكيم وعليم فقطعا سيكون اختياره لمن يتصف بالحكمة ويحمل العلم منبثق من هذا المعنى فالله سبحانه خاطبه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٤]، وهذا التوافق منسجم مع الهدف من الخلق "أحببت أن أعرف" أي أن يقدم نفسه للخلق فيُعرف، فصورة الله هو هذا المعنى؛ أي "التخلق بأخلاق الله".

لابد من الإشارة إلى ما سبق بيانه بأن الدعوة للتخلق بأخلاق الله مفتوحة لجميع الخلق وهي ما تعكسه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي ابتداءً لا تفرق بين مخلوق وآخر ولا يستثنى منها حتى الرسل والأنبياء، ولكن الجميع خاض السباق وفاز في هذا المضمار محمد (ص)، وكانت صفحة وجوده بدرجة "يكاد زيتها يضيء" أو "قاب قوسين".

وخلاصة ما نعنيه هو أن الفيض الإلهي نزل عند أقرب مخلوق أفرغ صفحة وجوده فواجهه سبحانه بصفحة بيضاء خالية من سواه، فكل مخلوق لا يخلو من ظلمة تشوب النور وهي ظلمة الوجود التي لولا وجودها حتى

---

١. الكافي - الكليني: ج١ ص٢٣٩.
٢. النمل: ٦.
٣. النجم: ٣-٤.
٤. القلم: ٤.

بالدرجة التي تكاد تكون معدومة وهي درجة محمد (ص) لما كان هناك خلق ولا مخلوق، وما حالة التذلل والانكسار أمام الخالق المتفضل من قبل أشرف مخلوق وهو محمد (ص) إلا ترجمة معرفية في أعلى صورها تعبر عن أعلى درجات الحياء من التشخص والوجود أمام الخالق العظيم الذي لا يستحق الوجود أحد غيره، وهذه صفة من اختارهم الله ليعرّفوا المخلوقين به فعرَف منهم الصدق والأمانة في نقل ما يمليه عليهم وحيه سبحانه، وكان مما تمخض عنها الأمانة والصدق فكتب بها حروف المعرفة وجلالة القدس وجماله فترجمها محمد(ص) بصدق ونقلها بأمان لمستحقيها كل بحسبه.

قال رسول الله (ص): (لم أكن أعلم ذلك حتى عرفنيه الآن جبرائيل (ع)، وما كنت أعلم شيئاً من كتابه ودينه أيضاً حتى علمنيه ربي، قال الله (عز وجل): ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾)[١].

عن أبي حمزة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العلم، أهو علم يتعلمه العالم من أفواه الرجال أم في الكتاب عندكم تقرؤنه. فتعلمون منه؟ قال: (الامر أعظم من ذلك وأوجب، أما سمعت قول الله عز وجل: " وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان" ثم قال: أي شيء يقول أصحابكم في هذه الآية، أيقرون أنه كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الايمان؟

فقلت: لا أدري - جعلت فداك - ما يقولون، فقال [لي]: بلى قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الايمان حتى بعث الله تعالى الروح التي ذكر في الكتاب، فلما أوحاها إليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء، فإذا أعطاها عبدا علمه الفهم)[٢].

فمسألة وجود الرسول والنبي والإمام في هذا العالم كذلك مقرونة بامتحانهم، وأن استحقاقهم بأن يكونوا نواقل للعلم هو إخلاصهم بمرتبة تؤهلهم بأن تكون صفحات وجودهم مستعدة لاستقبال الوحي والعلم المنقول.

يقول السيد أحمد الحسن:

(إذن، فالأنبياء والأوصياء (ع) ممتحنون بهذا العالم، فكما حجب غيرهم وأغفل عن الامتحان الأول والإيمان الأول في عالم الذر، حجبوا (ع) ليكون هذا الامتحان الثاني عادلاً فالكل أغفلوا عن عالم الذر بحجاب الجسد، والمطلوب تجريد الروح بمرتبة ليعرف الإنسان الحقيقة وينظر في ملكوت السماوات، وقد تجرد الأنبياء والأوصياء، والمطلوب من الكل التجرد لينجحوا في الامتحان كما أن الله سبحانه وتعالى ساوى كل بني آدم في الفطرة لتتم كلمته سبحانه أنه هو العادل الحكيم، فالكل مفطورون على معرفة أسماء الله سبحانه، ليكونوا وجه الله وأسماءه الحسنى، وكل من قصَّر فحظه ضيَّع)[٣].

---

١. تفسير الإمام العسكري (ع): ص٦٤١.

٢. الكافي - الكليني: ج١ ص٢٧٤ ح٥.

٣. اضاءات من دعوات المرسلين - السيد أحمد الحسن: ج٣ ق١ اضاءة من رؤيا يوسف.

فالمشروع الإلهي هو أن يتصل الوحي بقابله ومستقبله الذي تهيئت صفحة وجوده لتستضيفه وهو الرجل الإلهي المتخلق بأخلاق الله، وبمقابل ذلك تعمل منظومة إبليس[١] لصناعة الحجب المانعة من وصول الوحي والسماح لشجرة الشيطان أن تنبت وتتفرع أغصانها في نفوس المحجوبين الذين روّضهم الشيطان وأبهرهم بزخرف الدنيا، فلم يعد هناك متسع لدخول زائر الملكوت.

المشروع المناهض لمشروع السماء منظومة سفلية تترجم وحي الشيطان وتأخذ المبهورين به إلى ظلمة الجحيم ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٢].

بما أن العلم ليس ما كان بل هو ما يكون، وبما أن علم خليفة الله منه سبحانه، وأن الخليفة الإلهي يتلقى العلم عن طريق الوحي، فلابد من الحكم باستمرار نزول الوحي، وطالما أن هناك خلق فلابد أن يكون حجة إلهي يزودهم بالعلم الموحى إليه بحسبهم وبما يضمن لهم النجاة، وأن يكون الوحي ملازما لهذا الخليفة وبالتالي الوحي باق ما بقي الخلق، وبه نثبت اتصال الله بالخلق ومنه نخلص بأن بقاء الخلق والوجود وعدم انهياره وفناءه منوط بانقطاع اتصال خالقه به.

فهناك دائما رسائل قادمة من الغيب، والرسائل تأتي وفق الحكمة تعالج كل مستجد في دين الله بحسب تغير القابل وتغير الظروف المحيطة به، والله سبحانه أعلم بما يصلح شأن الخلق في كل لحظة وفي كل آن، ولذلك ترتب على هذا المبدأ ترادف نزول الرسالات والرسل أو خلفاء الله في كل زمان.

قد تتغير الكثير من التشريعات والأحكام والوسائل التي يتم من خلالها التواصل مع خلفاء الله؛ بل وحتى طبيعة التعامل مع فهم العقائد والقابلية على استقبال الفيض الإلهي عن طريق حجة الله بما يناسب درجات الارتقاء لعقول المكلفين، وهذا يقتضي أن يكون بينهم خليفة إلهي يعلم ما لا يعلمه الناس ويعلم ما يصلح حالهم على كل الأصعدة والمستويات، ولا يتحقق ذلك إلا بالوحي في كل آن لخليفة الله الحاضر، وهذا ما بينه السيد أحمد الحسن (ع) في معرض حديثه عن علم خليفة الله في أرضه كما ذكرنا آنفا.

ومن هذا نفهم علاقة الوحي بخلفاء الله وعلاقتهم بالمكلفين.

عن أبي عبد الله (ع) فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ: (عٰالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَةِ) فَقَالَ: (الغيب: مالم يكن، والشهادة: ما قد كان)[٣].

فالذي لم يكن هو في علم الله سبحانه فهو في بطن الغيب، وهذا يحتاج إلى ناقل له في كل آن يصلح حال الخلق، أما من جهة ما يحمله خليفة الله من علوم أوحيت إليه فقد لا يجد في زمانه قابل يستطيع تحمل هذه

---

١. قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

٢. الأنعام: ١٢١.

٣. معاني الأخبار - الصدوق: ج١ ص١٤٦.

العلوم، فيحجم خليفة الله عن الإفصاح عنها إلا بقدر محدود، ولذلك قال أمير المؤمنين (ع): (إن ها هنا لعلم جما وأومأ إلى صدره: آه لو أجد له حملة)[١].

وبعكس ذلك نجد إخبارات آل محمد (ع) بأن العلم المذخور عند قائم آل محمد (ع) المتمثل بالسبعة وعشرون حرفا سيبثها في زمن ظهوره المقدس وذلك لعلة وجود القابل النوعي، وهذه علة أخرى تفسر لنا استحالة أن يفوض لأي أحد تفسير النصوص المقدسة والكشف عن مراد الله منها، وهذه المرة تتلاشى فرصة أن يكون إنسان غير حجة الله في مقام القيمومة على النص.

لا توجد هناك إمكانية أو فرصة لبيان النص الإلهي من أي أحد سواء من يدعي أنه يمكن أن يكون في مقام تفسير النص فيكون سارقا ومعتديا ومغتصبا لحق الله، ولا لأي إنسان، لعدم جاهزية الجميع لاستقبال العلم النازل، وإنما العقد مبرم مع خليفة الله وقابله المسلّم والساجد الذي لا يرى نفسه سوى صفحة بيضاء خالية تنتظر أن يكتب فيها حجة الله بمداده المقدس.

العلاقة بين الوحي وقدرة خليفة الله على القراءة والكتابة

لم يثبت أن الرسول محمد (ص) مارس القراءة والكتابة[٢]، بل ثبت أنه احتاج لمن يقرأ ويكتب لكتابة الوحي وكتابة الصلح، ليترشح من هذه الحقيقة أن ما يخرج من تحت جناح الرسول إلى الخلق من علوم وأحكام في هذا العالم الجسماني لا علاقة لها بعلوم اللغة وتحصيلها أو الكتابة، أما في ما يخص مقام خليفة الله في غير هذا العالم الجسماني فالأمر مختلف؛ لأن العلوم والمعارف مودعة في روحه وصفحة وجوده فيمكن أن يكشف له الله بعضا منها لحكمة يقتضيها وأمر لابد منه.

وأنا هنا لا أطرح مسألة أمية الرسول[٣] كونه لا يقرأ ولا يكتب من جهة ما يطرحه المشككون بنوة محمد (ص) بقدر ما هو متعلق بمن يدعون الإيمان بمحمد (ص) ورسالته السماوية النازلة من العوالم العلوية وهم يتعاملون معها وكأنها نتاج عقلي أرضي تُنال حقائقه وعلومه عقول الرجال الذين قيدوا القرآن بقواعدهم العقلية، حتى أصبحت قيمته تساوي عندهم قيمة معرفة الألفاظ وتراكيبها وقواعد النحو التي تضبطها، والتي لا يوجد أي ملمح لنص قرآني أو قول محكم لرسول الله (ص) وأوصياءه الأئمة (ع) لاعتماد هذه الضوابط التي بزعمهم نستطيع من خلالها استلهام معاني القرآن وحقائقه ومنهجه العقائدي الأخلاقي والتشريعي؛ بل قدسية رسالة الرسول أو المعصوم وعصمتها وحاكميتها تستمد من ارتباطها بالوحي وكون المعصوم مختصا ببيانها حصرا.

يقول السيد أحمد الحسن: (...أن علم الحجة هو ما بينته وهو وحي مستمر من الله بكل ما تحتاجه الإنسانية للنجاة ومعرفة الحق ومعرفة ما يريده الله منهم، وليس من علم الحجة الواجب في شيء المعرفة بلغات الكتب السماوية أو باللغات الأخرى، أو حفظ ألفاظ الكتب السماوية، نعم لا بد أن يكون هو الحافظ لكل المعاني الواردة في كل الكتب السماوية وللحقائق المشيرة لها ودون أن يحتاج لقراءتها أو توفرها بين يديه، فالكتب

---

١. شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ج ١٨ ص ٣٤٦، ميزان الحكمة - محمد الريشهري: ج٤ ص٣٣١٥.

٢. عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص١٨٨-١٨٩.

٣. راجع كتاب دفاع عن الرسول - الدكتور علاء السالم: ص١٢٤.

السماوية كلها مودعة في صفحة المعصوم كحقائق ومعان في مرتبتي المعنى والحقيقة ولكل حجة كتابه ومعرفته الخاصة به وبأهل زمانه)[١].

فالرسول يترجم الوحي أو الحقائق النازلة عن طريق الوحي إلى معان وألفاظ تناسب ما يفهمه القوم.

ولذلك ذهب الكثير من رجال الدين والمفسرين للتشنيع على من يقول أن الرسول لم يقرأ ويكتب؛ لأن أعلى سقف لقياساتهم التي ينظرون من خلالها لمرتبة المعصوم هو ما يظهر من ممارساته وملكاته المادية التي تتمظهر في حدود هذا العالم ولوازمه، لتكون المقايسة في تحديد عصمة الرجل الإلهي ورتبته هو مجموعة المواصفات المفترضة التي يجب أن يمتاز بها المعصوم وبدونها تسقط حجيته.

المشكلة تكمن في أن أبعد ما يذهبون إليه في الحصول على فهم للنصوص المقدسة أو إنتاج حكم على عقيدة أو تشريع يبدأ من حدود هذا العالم وينتهي فيه، وعمدة ما يستدلون به على طريقتهم في التعامل مع النصوص الدينية ووقوفهم على المناهج التي وضعوها بأنفسهم - وهي لا تمت بصلة بروح القرآن ومنهج خلفاء الله - هو الحكم العقلي، وأن تخضع النصوص والمفردات التي وضعوا لها المعاني طوع تصوراتهم، وبالتالي عزلها تماما عن أصلها الملكوتي.

إنما أنا بشر مثلكم

ما الخصيصة التي افترق بها رسول الله (ص) عن الذين خاطبهم عندما قال لهم " إنما أنا بشر مثلكم"؟

هل وضع محددات أخرى لتصنع الفارق سوى اتصاله بالوحي " يوحى إلي"؟

وهذا لا يعني سوى أن محمدا (ص)المنصوص عليه هو من يستطيع أن يدعي ارتباطه بالوحي، وأن غيره مصروف عن هذا الادعاء[٢].

فالقوة والهيمنة والثقة لدى محمد (ص) هو انطلاقه من نقطة اتصاله بالوحي، النقطة التي يفترض أن تكون الجهة التي ينتهي إليها كل شيء يعبر عن الدين - عقيدة، تشريع، أحكام، أخلاق- يعني أن محمدا (ص) هو من ينقل الدين للآخرين حصرا[٣]، وهذا ما أراد (ص) أن يفهمه للآخرين؛ لأنهم موجودون في هذا العالم لأجل هذا، فلا سبيل لأن يكون مصدر آخر للدين سوى من يوحى إليه.

---

١. عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص١٨٩.

٢. قال تعالى: "وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ" [الحاقة: ٤٤-٤٥]، فادعاء النص الإلهي غير ممكن ؛ لأنه محفوظ كي يتحقق الغرض منه. راجع كتاب عقائد الإسلام – السيد أحمد الحسن: ص٨٨-٩٣.

٣. أكيد أن محمدا (ص) هو في قمة هرم القادة الإلهيين المقصودين بنقل العلم الإلهي أو الدين، وبالتالي فهذه الحصرية لا تشمل من يقوم مقام محمد (ص) وهم أوصياءه إلى يوم القيامة والأنبياء والمرسلين (ع)، فالأرض لا تخلو من ناقل للعلم في كل زمان كما توضح سابقا.

والآن هل يمكن أن يتكلم أحد عن الدين ويكون قيما على الدين ويُنسب إليه شيء من الدين؟! والحال أن كل المرتبطين بالدين منصوص عليهم من قبل الله سبحانه، وهي سلسلة خلفاء المنصبين والممتدة منذ اول خليفة في هذه الأرض إلى يوم القيامة " وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم" .

في الجانب الآخر هو حال من يتصورون أنهم معنيون بالاضطلاع بأمر الدين، وأنهم لا يحجبهم عن لغة الوحي سوى هذه الألفاظ، وأن بينهم وبين معرفة ما يحمله الوحي هو فقط التعرف على قواعد النحو ومعاني الألفاظ، وفي الحقيقة فهذه عملية عقلية صرفة، وهي أجنبية وبعيدة عن منهج الوحي الإلهي، فهي مسيرة دؤوبة لعزل ملكية القرآن عن ملكوته، وتوسيع الفجوة بين المتلقي وبين مصدر النور وحقيقة الأخبار السماوية النازلة.

ولو اجتهدنا لسرد الشواهد القرآنية أو الكتب السماوية، وما تحدث به خلفاء الله عن النظر للملكوت والسماع منه بكل الوسائل التي أتيحت لهم أو ما منحها لهم الله سبحانه وتعالى وهي مصداق قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[١]، لطال بنا المقام، لكنه تبين لنا في ما سبق سلسلة الرجال الذين يكلمهم الوحي، والطرق أو الوسائل التي يوحي بها الله إليهم (ع).

قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ(ع): (وأما قوله تعالى: وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ، ما ينبغي لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا، وليس بكائن إلا من وراء حجاب، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء[كذلك] قال الله تبارك وتعالى علوا كبيرا، قد كان الرسول يوحى إليه من رسل السماء، فيبلغ رسل السماء رسل الأرض، وقد كان الكلام بين رسل الأرض وبينه من غير أن يرسل بالكلام مع رسل أهل السماء)[٢].

وقد قال رسول الله (ص): يا جبرائيل، هل رأيت ربك؟ فقال (ع): إن ربي لا يرى. فقال رسول الله (ص): من أين تأخذ الوحي؟ فقال آخذه من إسرافيل. فقال: و[من] أين يأخذه إسرافيل؟ قال يأخذه من مَلك فوقه من الروحانيين. فقال: فمن أين يأخذه ذلك المَلك؟ قال: يُقذف في قلبه قذفا. فهذا وحي، وهو كلام الله عز وجل، وكلام الله ليس بنحو واحد، منه ما كلم الله به الرسل، ومنه ما قذفه في قلوبهم، ومنه رؤيا يريها الرسل، ومنه وحي وتنزيل يتلى ويقرأ، فهو كلام الله، فاكتفِ بما وصفت لك من كلام الله، فإن معنى كلام الله ليس بنحو واحد، فإن منه ما يبلغ رسل السماء رسل الأرض)[٣].

كل الذي وصفه أمير المؤمنين (ع) حول طبيعة الوحي وطرقه ثم قال (ع) للشاك "فاكتف بما وصفت" فالقضية أبعد من أن تنالها عقول الرجال، فهل يعرف أهل العلم الظاهر لماذا معنى كلام الله ليس بنحو واحد؟ ومن هم رسل السماء وما المقصود برسل السماء وما نوع العلاقة بينهم وبين رسل الأرض؟!

أعتقد أن الإجابة عن هذه الأسئلة ومثيلاتها يمكن الحصول عليها ولو بشكل مجمل بمراجعة بسيطة لما طرحناه في فقرات سابقة ومن خلال قراءات معصومة لأهل البيت (ع) لبعض الآيات، أو من خلال بيانهم لبعضها

---

١. الشورى: ٥١.

٢. البرهان في تفسير القرآن - هاشم البحراني: ج٥ ص٨٥٠.

٣. نفس المصدر.

وبيان السيد أحمد الحسن وإحكامه لبعضها تبين علة هذا الاختصاص، ولماذا هذه الخصوصية في من يوحى إليهم إذا كان رجال الدين لهم فيها نصيب.

أبو عبد الله (ع) عن رسول الله (ص) (....يا محمد علي أول ما اخذ بميثاقه من الأئمة يا محمد على آخر من اقبض روحه من الأئمة وهو الدابة التي تكلمهم يا محمد علي أظهره على جميع ما أوجهه إليك ليس لك ان تكتم منه شيئا يا محمد أبطنه الذي أسررته إليك فلبس فيما بيني وبينك سر دونه يا محمد على علي ما خلقت من حلال وحرام علي عليم به)[١].

غاية المرام وفصل الخطاب هو أن الوحي وما يتعلق بالوحي النازل على الرسل والأنبياء والأوصياء (ع) دونه ستار القدس وسر في سر لا ينال من كنوزه المبعدون والغافلون، الذين صموا أسماعهم وأسماع قلوبهم عن السماع من الوحي و خسروا فرصتهم في أن يوحى إليهم.

محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن علي بن أسباط، عن أسباط بن سالم قال: سأله رجل من أهل هيت - وأنا حاضر - عن قول الله عز وجل: " وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا " فقال: (منذ أنزل اللّه عزّ و جلّ ذلك الروح على محمد (ص) ما صعد إلى السماء، و إنّه لفينا)[٢].

عن هشام بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) قال: خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل لم يكن مع أحد من مضى غير محمد (ص) وهو مع الأئمة يوفقهم ويسددهم وليس كلما طلب وُجد)[٣].

فإذا كان خلفاء الله محتاجون للروح يوفقهم ويسددهم[٤] والأمر مختص بمحمد وآل محمد (ع) فهذا يقضي حتما بفساد ما يقدمه غيرهم مستندا إلى حجج عقلية مقطوع ببطلانها.

نحن إذا انتزعنا صفة الإيحاء من مجموعة البشر ستكون النتيجة أن الجميع متساوون من هذه الجهة؛ أي أنهم لا يوحى إليهم، وهذا الفارق كفيل بأن يضع هذه المجموعة في الجهة المفتقرة التي حجب عنها الوحي أو التي لم يكن لها نصيب من نزول الوحي إليها، فهي بالنتيجة معزولة عن أخبار السماء وتعاليمها وأنها بالفعل تحتاج من ينقل لها أخبار السماء، وهم الرجال الذين سماهم الله وخصهم بالوحي دون غيرهم.

أما لماذا اختصهم الله؟ فقد تقدم بيان ذلك، ولكن نريد هنا أن نقف على حقيقة التعمية والاجترار للمتلبسين الذين قفزوا على هذا الفارق الكبير بين الموحى إليهم من دونهم، واختزلوا الفجوة والهوة الواسعة بين من يوحى

---

١. مختصر بصائر الدرجات - الحسن بن سليمان الحلي: ص٣٦.

٢. الكافي - الكليني: ج١ ص٢٧٣.

٣. ينابيع المعاجز - هاشم البحراني: ص٧٥.

٤. محمد بن شريح قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: (والله لولا أن الله فرض ولايتنا ومودتنا وقرابتنا ما أدخلناكم بيوتنا ولا أوقفناكم على أبوابنا والله ما نقول بأهوائنا ولا نقول برأينا الا ما قال ربنا)،عن الحسن بن محبوب عن أبي حمزة الثمالي عن جابر قال أبو جعفر عليه السلام يا جابر والله لو كنا نحدث الناس أو حدثناهم برأينا لكنا من الهالكين ولكنا نحدثهم بآثار عندنا من رسول الله صلى الله عليه وآله يتوارثها كابر عن كابر نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم). [بصائر الدرجات - الصفار: ص٣٢٠].

إليهم وبينهم، وهذا إن تسامحنا في وضع الفارق بين المجموعتين وإلا فالحقيقة لا توجد حتى نسبة للمقايسة، فهي أقرب ما تكون من المقارنة بين الوجود وعدمه.

فالخطاب القرآني الصريح والواضح جاء على لسان النبي (ص) "إنما أنا بشر يوحى إلي" وهي أعلى صفة أو خصيصة ممتنعة على الناس يحتج بها سبحانه على من يخاطبون الرسل والأنبياء(ع) لتكون الفاصل الحصري الممتنع والعصي على المماثلة والمشابهة لتضع الحاجز والسد المنيع الذي لا يقبل اشتراك جهتيه بهذه الصفة.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١].

ولذلك عندما كان خطاب الناس للرسل وادعائهم بالتساوي معهم كونهم بشر مثلهم كان جوابهم بإبراز الصفة التي صنعت هذا الفارق، بأن الله منّ على عباده المنصبين باختصاصهم بالوحي ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[٢] واختصاص هذا الوحي مقرون باختيار الله لمن تقدست أرواحهم وكانوا محلا لنزول نور الوحي منه سبحانه.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾[٣].

إذن هناك سبب لهذا الاختيار، وهو الاستماع للوحي وهذا يعني أن الوحي الرسالي لا يصح لكل أحد، وأن الوحي متجدد ما بقيت السموات والأرض، فلابد أن يكون هناك مختارا في كل زمان ينزل إليه الوحي ويوحى له في كل آن لعلة تبدل الزمان والمكان وتغير الظروف المحيطة بأهل كل زمان وعلاقتها بالمسيرة المعرفية نحو الكمال الممكن للمخلوق.

فكيف يمكن أن نتصور وجود إمكانية لأي مكلف بطاعة الله لمعرفة ما نزل به الوحي دون وجود هذا المختار في كل زمان؟!! وإلا لو صح أن يقول قائل أنه بإمكان فهم المراد الإلهي واستحصال عقيدة أو تشريع بمعزل عن المختار من قبل الله سبحانه في كل زمان، باعتبار وجود القرين للقرآن دائما مادام أن القرآن يجري مجرى الشمس والقمر لصح لمعترض أن يقول:

١- ما كان لله أن يختار من يوحي إليه مادامت هناك إمكانية وقدرة على معرفة مراد الله بمعزل عنه، وهذا يعني اتهام الله سبحانه بمجانبة الحكمة وحاشاه، وأعتقد أن هذا السياق لا يقبله من له مسكة من العقل، فهو كمن يقول يكفي لمدير المدرسة أن يزود طلبة الصف السادس بكتب المرحلة ويقول لهم ليس لدينا مدرسون أرجو أن تتواجدوا هنا يوم الامتحان وتجيبوا على الأسئلة!! وهو يعتقد أن الجميع يفترض أن يجيبوا، وهذا السفه بعينه.

---

١. إبراهيم: ١٠-١١.

٢. الكهف: ١١٠.

٣. طه: ١٣.

٢- ما هي حكمة وجود أئمة لا يخلو منهم زمان إذا كان وجودهم أو عدم وجودهم - بغض النظر عن أسباب عدم تواجدهم بين الناس- ينتهي بوجود فرصة للمكلف أن يكتفي بالقرآن - المصحف- ليعمل بنهجه وقوانينه ودساتيره التي يدعي إمكانية استخراجها والعمل بها، وبالتالي يضمن نجاته وقبول ما تحصل عليه من عقائد وتشريعات وأخلاق وأحكام ويبرأ ذمته أمام الله من خلالها؟!!

فهل تسمح حصرية الاختيار بانشطار الوحي ليكون صنفان أو وجهان؟! صنف يختص بخلفاء الله وآخر يذهب لغيرهم، أي بمعنى آخر أن هناك اشتراك في منظومة الوحي يوفر مساحة تمكن أو تسمح للمتطفلين - الذين لم يسمهم ويختصهم الله - بأن يتعرفوا على لغة الوحي فتنعكس من خلالهم صورته وحقائقه وتنكشف لهم مقاصده ومعانيه! فهذا خلاف الحكمة والقصد من وراء حصر الوحي برجال مسمون بأسمائهم؛ بل مخالف للقواعد الرصينة التي اعتمدت اختصاص الوحي برجال توافرت فيهم خصائص بعينها شكلت بمجموعها نواظم لا تسمح للمرور من خلالها إلا لمن امتلكوا مفاتيحها.

الفصل الثالث

السنة الإلهية

وحدة المشروع الإلهي

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[1].

لابد من تثبيت الأصل العبادي أو المعرفي، وهو معرفة الله سبحانه ومراده ومشروعه، وبما أن مشروع الله عز وجل يقتضي أن يصل إلى الخلق كما هو فلابد أن يختار من لديهم الاستعداد والقابلية لأداء هذه المهمة العظيمة، ولا يمتلك هذه الخصائص إلا من كانت صفحة وجوده خالية من الأنا ومنشغلة به سبحانه؛ أي مخلصة لا تريد إلا رضاه وتنفيذ أوامره، فكان من حمل أعباء هذه المهمة العظيمة هم الرسل والأنبياء والأوصياء(عليهم السلام) لتوافر هذه الخصائص والمواصفات بهم؛ ولأنهم نجحوا بالاختبار الذي أعده الله لجميع الخلق، ففازوا وكانوا الأقرب إلى النور المطلق وحباهم بهذه المنزلة الرفيعة وحملهم وحيه.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ* لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[2].

ما يمكن استنتاجه من الآية المباركة:

أولا: هذا القول هو ترجمة الرسالة الحقيقية المطابقة لمراده سبحانه كما نزل بها الوحي وصياغتها ثم بيان معانيها ومقاصدها للمتلقي؛ أي أن بيان الرسول أو الإمام لمعنى الآية هو انطباق ذات القيد بعدم سبقهم له سبحانه بالقول - أي البيان- وهذا ما نقصده بأن حجة الله يوحى له في كل آن، وهو تلازم وثيق لا ينفك في زمان أو مكان، لكي لا يأتي متقول على الله ويقول أنا استطيع أن أخبركم بمراد الله دون حاجتي لرجل اختاره الله صاحبا وقرينا للقرآن مبينا له في كل آن؛ لأن قوله أو فعله سيطعن في حكمة الله وحصر الوحي وبيانه للناس برجال نصبهم وسماهم لا يخلو منهم زمان.

وثانيا: أن القول بوجود فرصة وقدرة للمكلف بمعرفة مراد الله والكشف عن المعاني والمقاصد في آيات القرآن بجهد ذاتي من خلال تفسير الآيات أو ما ظهر لهم من معانيها بعد إخضاع ألفاظها وكلماتها لقواعد وضعها أناس لا تربطهم أي صلة بالقرآن وجهة صدوره، أومن خلال توليفات البعض لألفاظ وتشكيلات حروفها في مواضع مختلفة، وبالتالي الاكتفاء بما حصلوا عليه كونه مجزٍ لإبراء ذمتهم أمام الله سبحانه وتعالى فهذا خلاف حتى ظاهر الآية.

---

[1]. الأنبياء: ٢٥.

[2]. الأنبياء: ٢٦-٢٧.

فهؤلاء العباد المكرمين هم المخلصون الذين أعجزوا إبليس عن إغوائهم ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[١].

كان محمدا (ص) الفائز الأول والسبّاق إلى النور وصاحب الحضوة الأكبر بين المخلوقين ليكون المرآة النقية والصفحة المخلصة لتنعكس وتتجلى فيها أسماء الله سبحانه حتى قال عنه عز وجل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢]، ومع هذا كله خاطب الله سبحانه خلفاءه خطاب الخالق العظيم المهيمن للمخلوق الضعيف المحتاج المفتقر الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا حول له ولا قوة إلا به.

﴿.. بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[٣].

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٤].

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٥].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٦].

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[٧].

فالمشروع المعرفي يسير وفق إرادة صاحب المشروع وهو الله سبحانه "أحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف".

مسألة منطقية وبديهية أن يختار من ينفذ هذا المشروع بكل أمانة وصدق، وقد علم سبحانه ممن اختارهم بأنهم صفحة بيضاء يكتب فيها إرادته ويستودع فيها علمه دونما وجود أدنى احتمال للتوهم أو الاشتباه أو تعرض رسالتهم لإلقاءات الشيطان.

---

١. ص: ٨٢-٨٣.
٢. القلم: ٤.
٣. الانبياء : ٢٦- ٢٩.
٤. المائدة: ١١٦.
٥. المائدة: ١٧.
٦. المائدة: ٦٧.
٧. الإسراء: ٧٣-٧٥.

﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[١]

يقول السيد أحمد الحسن في معرض بيانه لهذه الآية المباركة:

(وهؤلاء الملائكة الذين يسخّرهم الله لهذا النبي المُرسل: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾([الرعد: ١١]). يكونون من بين يديه، ومن خلفه ليحفظونه بأمر الله سبحانه وتعالى من شر شياطين الإنس والجن، ومن إلقاءاتهم وباطلهم. فهذا الرصد الملائكي يكون مانعاً وصاداً للشياطين من التدّخل أو الإلقاء في رسالة السماء عند نزولها إلى هذا العالم السفلي الجسماني، وبالتالي تصل رسالة السماء إلى النبي المُرسل صحيحة ونقيّة ومحفوظة من إلقاء الشيطان: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾([فصلت: ٤٢.]))[٢].

فلا توجد أي فرصة لمشاركتهم (ع) إياه سبحانه في قول أو حكم.

فوراء هذا الاختيار حكمة نتيجتها إيصال الرسائل الإلهية للخلق كما هي، وبالتالي فإن هذه الحكمة تقتضي عدم إمكانية أن يكون هناك أشخاص لم يختارهم الله سبحانه ليقوموا بنفس وظيفة هؤلاء المختارين.

إذن هي وحدة الهدف في هذا المشروع، وهو التوحيد الحقيقي، وبالتالي وحدة الرسالات المترادفة والكتب المقدسة النازلة، ووحدة المؤهلات في الرجال الذين اختارهم الله عز وجل لحملها وإيصالها للخلق، وحصر إيصال المراد الإلهي في كل زمان، وبيانه للخلق بمستوياته المختلفة لعلة اختلاف مستويات القابل وقدرته، واستحالة أن يكون غيرهم قادر على إنجازه بأي نسبة مفترضة.

عن أبي عبد الله (ع) قال: (من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر وإن أخطأ فهو بعد من السماء)[٣].

مادام أن الأرض لا تخلو من مبين ومفسر للقرآن في كل زمان فكل منفرد ببيان أو تفسير لآية من كتاب الله دون الرجوع للمبين في زمانه وهو المعصوم (ع) فهو من أهل الرأي لا محالة، والرأي المقصود هنا هو كل ما يصدر من تفسير أو تقرير لآية من كتاب الله عز وجل من أي أحد دون المعصوم بمقابل ما يحكمه هو(ع).

الطبري في جامع البيان:

(لو كان في السماوات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء، وله العبادة والألوهة التي لا تصلح إلا له لفسدتا يقول: لفسد أهل السماوات والأرض. فسبحان الله رب العرش عما يصفون يقول جل ثناؤه: فتنزيه لله وتبرئة له مما يفتري به عليه هؤلاء المشركون به من الكذب)[٤].

الطبرسي في مجمع البيان:

---

١. الجن: ٢٧- ٢٨.
٢. النبوة الخاتمة - السيد أحمد الحسن: النبوة.
٣. تفسير الصافي - الكاشاني: ج١ ص٣٥.
٤. جامع البيان - ابن جرير الطبري: ج١٧ ص١٩.

وفي تفسير قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) ومعناه،(لو كان في السماء والأرض آلهة سوى الله لفسدتا وما استقامتا، وفسد من فيهما، ولم ينتظم أمرهم ...)[١].

((لو كان فيهما) أي في السماء والأرض، (آلهة إلا الله) أي: غير الله (لفسدتا) لخربتا وهلك من فيهما بوجود التمانع بين الآلهة لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر لم يجر على النظام، ثم نزه نفسه فقال: (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) أي: عما يصفه به المشركون من الشريك والولد)[٢].

النماذج التفسيرية المتقدمة تتفق على حقيقة امتناع تعدد الآلهة؛ أي بمعنى تعدد الإله المطلق والخالق المطلق- بحسب فهم المفسرين المحصور في هذا الإطار- ينتهي بفساد السموات والأرض وأهلها، وهذا من البديهيات عند كل فرق المسلمين وأهل الكلام والفلاسفة وغيرهم وهو ما يدل عليه ظاهر الآيات المباركة، ولكن الموضوع الأخطر؛ بل لبه وجوهره هو ما يساوي القول بأن نكران وتكذيب خليفة الله في كل زمان أو الإله المقيد بالإله المطلق واختيار واختراع غيره يعني فساد السموات والأرض؛ بل انهيار الكون لو خلي منه، طبعا لو تحقق هذا الأمر، وهو محال باعتبار أن الله بالغ أمره، وأن وجود خليفة له في الأرض أمر حتمي يوجب بقاء السموات والأرض إلى ما شاء الله أن تبقى.

وأما القصد بنكران خليفة الله في كل زمان سواء على مستوى نكران وتكذيب شخصه المقدس أو التصدي لمقامه في بيان وتفسير آيات الكتاب، وهو ألأكثر خطورة على الدين، وبدعوى سد الثغرة بحجة غياب المعصوم مثلا، فلا يخرج عن الفساد والإفساد.

الفهم الظاهري للآيات؛ بل كل ما جاء بالكتب المقدسة، والذي تبناه الفقهاء ورجال الدين والقرآنيون فهو منهج واضح البطلان؛ لأنه يؤدي إلى تغيير لملامح الدين والمناهج العقائدية والأخلاقية والتشريعية ؛ولأنه في الحقيقة عملية سلخ للمفردات القرآنية من عمقها الملكوتي الذي يستبطن المعاني والحقائق التي أرادها الله سبحانه.

عن الفضيل بن يسار، قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: (إن قائمنا إذا قام استقبل من جهل الناس أشد مما استقبله رسول الله (ص) من جهال الجاهلية. قلت: وكيف ذاك؟ قال: إن رسول الله (ص) أتى الناس وهم يعبدون الحجارة والصخور والعيدان والخشب المنحوتة، وإن قائمنا إذا قام أتى الناس وكلهم يتأول عليه كتاب الله يحتج عليه به، ثم قال: أما والله ليدخلن عليهم عدله جوف بيوتهم كما يدخل الحر والقر)[٣].

واضح جدا نوع العلاقة بين عبادة الحجارة وبين من يتأول على حجة الله.

---

١. تفسير الطبرسي: ج٧ ص٧٩.

٢. تفسير البغوي - بن مسعود: ص٣١٤.

٣. الغيبة - للنعماني: ج١ ص٣٠٥.

عن محمد بن الفضيل، عن أبي الحسن الرضا (ع) قال: قلت له: (أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لا، قلت: فانا نروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنها لا تبقى بغير إمام إلا أن يسخط الله تعالى على أهل الأرض أو على العباد، فقال: لا، لا تبقى إذا لساخت)[١].

لا شك ولا ريب في أن خالق السموات والأرض هو الله سبحانه، هي مسألة لا يختلف عليها اثنان عندما يكون الخطاب للمسلمين بكل طوائفهم، فهي مسألة عقائدية مفروغ منها وكل تفاسير المسلمين بكل طوائفهم تعج بهذا المعنى الصريح؛ بل حتى روايات أهل البيت (ع) ربما ركزت أو قصرت البيان على هذا المعنى في معظم أجوبتهم (ع) على سؤال الإله الواحد[٢]، وأكيد أن معنى الآية لا ينحصر بهذا المضمون؛ لأنه وكما بينا سابقا أيضا أن أجوبة خلفاء الله (ع) على أسئلة الناس على قدر عقولهم أو مقدار استعدادهم، وهذا ما يفتح الباب على عدم القطع يقينا بحصر معنى الآية بما تقدم، وإنما الأمر يحتمل وبقوة معان أعمق وأدق وأهم متعلقة بقدرة القابل لم يكشف عنها خليفة الله لعدم وجود القابل، وأن هدف وحكمة الخالق يرتكز عليها، فما كل ما يعرف يقال وهذا أمر واضح.

فهل أن الآيات التي يتبين من ظاهرها هذا المعنى- والتي حصرها المفسرون واختزلوها بهذا المعنى- هي حقيقة المراد الإلهي؟

فالحقيقة تدور على أمر عظيم تمحورت حوله كل الرسالات السماوية، والتي فشلت كل الأمم في الوقوف عليه، وكان أهم أسبابها تصدي الفقهاء ورجال الدين لبيان الآيات وإخضاعها لقواعد العقلية، وتعديهم على حق الله وحق خلفاءه الذين اختصهم ببيان مراده في كتبه المقدسة التي نزل بها الوحي على الأقل من خلال تصديهم لبيان آيات الكتاب وتقديمها للناس على أنها مراد الله سبحانه، وهي تعج بالمغالطات والمعارضة لحكم الله وحاكميته والتي نتج عنها تكذيب خلفاء الله وعزلهم عن الناس.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ* لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ* لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ* أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ..﴾[٣].

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[٤].

(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ* الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٥].

قد بينت فيما سبق وبحسب بيان السيد أحمد الحسن أصل الألوهية وحدودها وعلاقة ذلك بالإله المطلق، وأن الألوهية يمكن أن يتصف بها خلفاء الله في أرضه الذين ينفذون أمر الله ولا يسبقونه بالقول وهم بأمره

---

١. الكافي - الكليني: ج١ ص١٧٩.

٢. عن هشام بن الحكم، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما الدليل على أن الله واحد؟ قال: اتصال التدبير وتمام الصنع كما قال عز وجل: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [التوحيد - الصدوق: ص٢٥٠].

٣. الأنبياء: ٢١-٢٣.

٤. النمل: ٦٠.

٥. الحجر: ٩٥- ٩٦.

يعملون، وأن الخليفة الإلهي هو الله في الأرض وأن لفظ (ألله) يمكن أن يطلق على خليفة الله ويكون إلها بهذا المعنى، وقد مر ذكر الرواية التي ورد فيه "يا إله الآلهة" وهي كذلك قرين الآية الكريمة "وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ"[١].

وعرفنا مما سبق ببيان واضح وجود آلهة مقيدة بالإله المطلق سبحانه، أي يأله إليهم الخلق ليسدوا نقصهم باعتباره محل لتجلي أسماء الله بأعلى ما يمكن لمخلوق- وأقصد به الخليفة المنصب في زمانه وكل بحسب مرتبته- الذي ينقل العلم الإلهي، وأن مسألة السجود لهذا المخلوق كانت هي الاختبار الأساس للخلق، والتي فشل في التعاطي معها إبليس (لع).

للأسف ظلت سنة الفشل بهذا الاختبار سارية في الخلق، وخصوصا بعد أن توعد إبليس بإغوائهم في صدهم عن السجود لهذا الإله المنصب من قبل الإله المطلق سبحانه، واعتقد أني قد بينت ما يخص هذا المعنى بتفصيل لا بأس به.

فالإله المقيد بألوهيته سبحانه هو الذي أمر الناس أن يأخذوا منه التعاليم والأحكام وكل ما يفترض أن يأخذوه من أمور الدين الذي يضمن نجاتهم هو خليفته في أرضه، وهو وجه الله وعيبة علمه وسفيره في الخلق؛ لأنه ببساطة هو الجهة التي يمكن للمخلوقين أن يتصلوا معها ويتعرفوا على مراد الله منهم، فهو سبحانه غيب منيع تنزه عن مجانسة مخلوقاته، فاختار من مخلوقاته رجال أشرقت أرواحهم بنوره وكانوا محلا لائقا أمينا وشريفا لفيوضاته فاختارهم سبحانه.

شاء الله أن يجري الأمور بأسبابها وأن يكون محمد وآل محمد (ع) هم من ينقل تعاليم السماء وأحكام الله سبحانه للعباد؛ لأنهم فازوا بالقرب منه سبحانه فكانوا السبب المتصل بالسماء، وكل ما يخرج من غيرهم باطل ولا يصيب الحقيقة مهما كانت أشكاله ومصادره ودواعيه.

وقد ورد عن أهل العلم ومصدره(ع) معنى قول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾[٢]

عن أبي الجارود، عن أبي عبد الله (ع)، قوله: "أَ إِلَٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ "قال: (أي إمام هدى مع إمام ضلال في قرن واحد)[٣].

فإمام الهدى هو من اختاره الله ونصبه ناطقا عنه سبحانه، وهو الإله المقيد بالإله المطلق سبحانه يأله إليه العباد ليسد نقصهم ويرشدهم للحق الذي فيه نجاتهم ويوصل إليهم علوم وتعاليم الوحي الإلهي، وبمقابل ذلك الإله المزعوم المخترع أو إمام الضلال الذي ينصبه الناس يقدم لهم رأيا وتفسيرا ليس من الله جل شأنه.

قول الإمام الصادق (ع) لسدير: (ليس لكم أن تنصبوا إماما من قبل أنفسكم تسمونه محقا بهوى أنفسكم وإرادتكم. ثم قال (ع): ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: من أنبت شجرة

---

١. الأنبياء: ٢٩.

٢. النمل: ٦٠.

٣. مستدرك سفينة البحار - الشيخ علي النمازي الشاهرودي: ج١ ص١٧١.

لم ينبته الله يعني من نصب إماما لم ينصبه الله، أو جحد من نصبه الله، ومن زعم أن لهذين سهما في الاسلام وقد قال الله " وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة)[١].

أما وصفه سبحانه للمستهزئين بأنهم الذين يجعلون مع الله إلها آخر، وهذا قريب جدا من المعنى السابق، وهو اختيارهم لرجل غير الذي نصبه الله، وهم بالتالي يمنعون رسالة الوحي النازل على خليفة الله في كل آن.

فالاستهزاء بحسب فهم الآية المباركة هو غض الطرف عن خليفة الله والاستخفاف به وتركه والذهاب إلى غيره، وأكيدا فالأعذار مقطوعة بخصوص عدم توفر الأدلة التي تعرف بها الرجل في كل زمان؛ لأن الله سبحانه عندما يختص لعلمه حملة برجال سماهم في كل زمان ثم لا يزودهم بأدلة يثبتون بها حجيتهم، أو يسمح لغيرهم أن يقدم منهجا يتكلم عن مراد الله، فهذا إغراء للناس بالباطل وحاشاه سبحانه.

في خطبة لأمير المؤمنين (ع) على منبر الكوفة أنه قال (... واعلموا أن الأرض لا تخلو من حجة لله ولكن الله سيعمي خلقه منها بظلمهم وجورهم وإسرافهم على أنفسهم ولو خلت الأرض ساعة واحدة من حجة لله لساخت بأهلها ولكن الحجة يعرف الناس ولا يعرفونه كما كان يوسف يعرف الناس وهم له منكرون ثم تلا: (يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ)[٢].

فالغاية من قصة الخلق هي المعرفة، وهذه تتحقق بأيصال رسالة الوحي للناس، وهذا لا يتم ولا يمكن أن يكون إلا بنصاب الحكمة التي اقتضت أن يختار الله من يستطيع استقبال الوحي الرسالي، ويكون أمينا عليه ويوصله للخلق؛ لأنهم غير قادرين على معرفة مراد الله باستقلالهم حتى يترجم لهم خليفة الله مراده.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾[٣].

فهداية الخلق بالوحي والسماع من الوحي، وأي طريق آخر يختاره الناس هو كفر بالوحي وصدود عنه وعن مرسله.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٥].

والله سبحانه خاطب أشرف خلقه وأشرف الأنبياء والرسل محمدا (ص) بتلك الصرامة ليعلم الخلق بأن المشروع منبثق منه سبحانه، وليس لأي مخلوق وإن كان محمدا (ص) أن يختار أو يغير.

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ج٦٥ ص٢٧٧.
٢. نفس المصدر: ج٥١ ص١١٣.
٣. طه: ١٣.
٤. سبأ: ٥٠.
٥. الشورى: ٥٢.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[١].

قال رسول الله (ص): (لم أكن أعلم ذلك حتى عرفنيه الآن جبرائيل (ع)، وما كنت أعلم شيئاً من كتابه ودينه أيضاً حتى علمنيه ربي، قال الله (عز وجل): ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾[٢].

عن محمد بن الفضيل، عن أبي حمزة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العلم، أهو علم يتعلمه العالم من أفواه الرجال أم في الكتاب عندكم تقرؤنه. فتعلمون منه؟ قال: (الأمر أعظم من ذلك وأوجب، أما سمعت قول الله عز وجل: " وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان " ثم قال: أي شيء يقول أصحابكم في هذه الآية، أيقرون أنه كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان؟ فقلت: لا أدري - جعلت فداك - ما يقولون، فقال [لي]: بلى قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان حتى بعث الله تعالى الروح التي ذكر في الكتاب، فلما أوحاها إليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء، فإذا أعطاها عبدا علمه الفهم.)[٣].

بعد كل ما تقدم عن وحي الله الذي نقله لنا محمد (ص) بكتابه الكريم، وكيف خاطب الله سبحانه أعز وأشرف مخلوقاته، وما في خطابه من الصرامة، وهي تماما تُظهر لنا ماذا يعني خالق ومخلوق وإن كان بدرجة محمد (ص) وعيسى وموسى وباقي الحجج الميامين(ع)، وماذا يعني أنه غالب على أمره، وأن الذين يصدون عن وحيه وعن حججه إن هم كالأنعام بل أضل وإن ظنوا أن لهم عند الله قدرا.

فكيف يمكن أن نقرأ اللهجة التي يخاطب بها الله سبحانه محمدا (ص) عندما يقول عز وجل :(وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)؟! و كيف يتصور من يتصور ما أشعرنا به محمد (ص) بهذه الخشية والخوف مع كل ما عرفناه من قرب مقام محمد (ص) من الله سبحانه، وأهليته لحمل الرسالة وأمانته عليها واختيار الله له حبيبا؛ بل وخير خلقه، فأثنى عليه سبحانه وقال "وإنك لعلى خلق عظيم".

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[٤].

---

١. الأحقاف ٩.

٢. بحار الأنوار- المجلسي: ج ٩٤ص٥٧، تفسير الإمام العسكري (ع)- المنسوب إلى الإمام العسكري (ع): ص٦٤١.

٣. الكافي - الكليني: ج١ ص٢٧٣- ٢٧٤، تفسير الصافي - الفيض الكاشاني: ج٦ ص٣٧٩.

٤. الشورى: ١٣- ١٥.

لو تدبرنا سياق الآيات التي سبقت هذا المقطع والتي بعده، وطبيعة الخطاب وما يعالجه، ومن خلال وحدة المواضيع وحضورها في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، ووحدة المعاني والتي تضمنتها هذه الآيات يمكن أن نفهم:

١- التأكيد على أن سنة الله واحدة في الخلق وأن دين الله واحد وهدفه واحد، ولم يتخلف هذا المنهج في زمن ما منذ بدأ الرسالات وتنصيب أول خليفة إلهي في الأرض وهو آدم (ع) حتى آخر خليفة من أوصياء محمد (ع)[١]، وأنه خطاب لمحمد (ص) وآل محمد (ع) بأن سنة التنصيب وحملة المشروع الإلهي وما نزل به الوحي إليهم (ع) وإليك يا محمد (ص)، وأن هذا الدين قائم برجال سماهم الله واجتباهم واختصهم بالوحي، وبين فيها الحقيقة المرة التي رافقت كل الرسالات وحملتها وأوصيائهم (ع) في كل زمان، وهي إعراض الناس وأصحاب النفوس المستكبرة على خلفاء الله وقبولهم باتباع أناس مثلهم لم يخاطبهم الله سبحانه ولم ينزل إليهم وحيه فسماهم المشركين.

٢- كانت نتيجة الافتراق عن حجة الله بسبب ما عرفوه من اختصاص هذا الحجة الإلهي وصلته بالله سبحانه، وأنه هو الدين وإليه يرجع سادة القوم وكبارهم وصغارهم، فأخذتهم حمية إبليس بعدم السجود، وثارت فيهم الأنا ونشب الحسد في صدورهم، فقرروا أن يقفوا بوجهه ويمنعوه من قيادة المسلمين وإيصال أخبار السماء إليهم لكي لا يندرس وجودهم وقيادتهم المفترضة للناس.

علي بن إبراهيم، قال: قوله (... مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ قال: يتفرقوا بجهل، ولكنهم تفرقوا لما جاءهم العلم و عرفوه، وحسد بعضهم بعضا، وبغى بعضهم على بعض، لما رأوا من تفضيل أمير المؤمنين(ع) بأمر الله، فتفرقوا في المذاهب، وأخذوا بالآراء و الأهواء)[٢].

بعد ما استعرضناه من كتاب الله وكلام الطاهرين(ع) بالتأكيد على أصل الاستخلاف الإلهي والنص على حملة الوحي، يتعين علينا الخروج بنتائج تضعنا أمام مقارنة - إن صح أن يكون هناك وجه للمقارنة- بين ما يُلزم خلفاء الله أنفسهم أمام خالقهم، والمسؤولية العظيمة المناطة بهم، وبين من افترقوا عن مصدر النور بدرجة أنهم أوهموا

---

١. عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عن أبيه الباقر عن أبيه ذي الثفنات سيد العابدين عن أبيه الحسين الزكي الشهيد عن أبيه أمير المؤمنين عليهم السلام قال : ((قال رسول الله (ص) في الليلة التي كانت فيها وفاته لعلي (ع) يا أبا الحسن أحضر صحيفة ودواة فأملا رسول الله (ع) وصيته حتى انتهى إلى هذا الموضع فقال : يا علي انه سيكون بعدي إثنا عشر إماماً ومن بعدهم اثنا عشر مهدياً فأنت يا علي أول الإثني عشر إمام سمّاك الله تعالى في سمائه علياً المرتضى وأمير المؤمنين والصديق الأكبر والفاروق الأعظم والمأمون والمهدي فلا تصح هذه الأسماء لأحد غيرك يا علي أنت وصيي على أهل بيتي حيّهم وميتهم وعلى نسائي فمن ثبتها لقيتني غداً ومن طلقتها فأنا برئ منها لم ترني ولم أرها في عرصة القيامة وأنت خليفتي على أمتي من بعدي فإذا حضرتك الوفاة فسلّمها إلى ابني الحسن البر الوصول فإذا حضرته الوفاة فليسلّمها إلى ابني الحسين الشهيد الزكي المقتول فإذا حضرته الوفاة فليسلّمها إلى ابنه سيد العابدين ذي الثفنات علي فإذا حضرته الوفاة فليسلّمها إلى ابنه محمد الباقر فإذا حضرته الوفاة فليسلّمها إلى ابنه جعفر الصادق فإذا حضرته الوفاة فليسلّمها إلى ابنه موسى الكاظم فإذا حضرته الوفاة فليسلّمها إلى ابنه علي الرضا فإذا حضرته الوفاة فليسلّمها إلى ابنه محمد الثقة التقي فإذا حضرته الوفاة فليسلّمها إلى ابنه علي الناصح فإذا حضرته الوفاة فليسلّمها إلى ابنه الحسن الفاضل فإذا حضرته الوفاة فليسلّمها إلى ابنه محمد المستحفظ من آل محمد فذلك إثنا عشر إماماً ثم يكون من بعده إثنا عشر مهدياً فإذا حضرته الوفاة فليسلّمها إلى ابنه أول المقربين (المهديين) له ثلاثة أسامي أسم كاسمي وأسم أبي وهو عبد الله وأحمد والاسم الثالث المهدي وهو أول المؤمنين) [الغيبة - للشيخ الطوسي: ص١٠٧].

٢. تفسير القمي: ج٢ ص٢٧٣ عنه البرهان - هاشم البحراني: ج٤ ص٨١٢.

أنفسهم بأن لهم مكان في منظومة التبليغ عن الله وبيان مراده سبحانه وحمل مشروع الهداية للناس، وهم أقصى ما وصلوا إليه أحكام ومفاهيم وعقائد عقلية أرضية ليس لها علاقة بالسماء لا من قريب ولا من بعيد.

عن محمد بن شريح قال، قال لي أبو عبد الله (ع): (لولا أن الله فرض ولايتنا ومودتنا وقرابتنا ما أدخلناكم ولا أوقفناكم على بابنا فو الله ما نقول بأهوائنا ولا نقول برأينا ولا نقول الا ما قال ربنا)[١].

والموارد التي تعزز هذا المعنى كثيرة[٢].

نفهم من الرواية المتقدمة والموارد التي تعزز مضمونها:

- بأن الأئمة (ع) لا يفتون الناس بالرأي، وإنما بآثار من رسول الله وأصول العلم التي لا يمتلكها غيرهم، وإلا فالقرآن بين أيدي الناس!
- أن نتيجة من يفتي بالرأي هو الهلاك وإن كان معصوما فكيف بالناس؟!
- حصر الإمام الصادق (ع) مسألة البيان بالله عز وجل ورسول الله (ص) وأن رسول الله (ص) بينها لهم دون الناس، وهذا ما يفترقون به عن الناس " كنا هؤلاء الناس".
- قطع الإمام الصادق (ع) بعجز الناس عن بيان مراد الله وأحكامه وأنها ممتنعة عليهم.
- كل شيء يقوله أي منهم (ع) حقيقته موجوده في كتاب الله وتفصيل كل شيء في القرآن عندهم (ع)؛ أي أن أصلها موجود في كتاب الله، فقولهم تفصيل لآيات الكتاب المشتبهة على الناس والمغيبة معانيها ومقاصدها عنهم بسبب قصورهم عن بلوغها، وهذه علة قول الإمام الصادق (ع) في الرواية المتقدمة "فلولا ذلك كنا كهؤلاء الناس".

في سؤال وجه للسيد أحمد الحسن وجدت من الضروري إيراده في هذا المبحث، وإن كان النص طويلا بعض الشيء وسأنقله كما هو.

أن الله تعالى يقول عن القرآن: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[النحل:٨٩]، والآية تقول إن الله نزل القرآن لتوضيح كل شيء، وأنا لا أجد كل شيء في القرآن، فإذا القرآن كان موضحاً لكل شيء فأين البكتيريا من القرآن، أو أين القطار من القرآن، أو أين أجد من القرآن مكونات الخشب وهو شيء والقرآن بين كل شيء؟

---

١. بصائر الدرجات - الصفار: ص٣٢٠.

٢. عن محمد بن يحيى عن جابر قال، قال أبو جعفر (ع): (يا جابر لو كنا نفتي الناس برأينا وهو انا لكنا من الهالكين ولكنا نفتيهم بآثار من رسول الله صلى الله عليه وآله وأصول علم عندنا نتوارثها كابر عن كابر نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم) عن فضيل بن يسار عن جعفر (ع) أنه قال: (إنّا على بينة من ربنا بينها لنبيه فبينها نبيه لنا فلولا ذلك كنا كهؤلاء الناس)،(عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر (ع) أنه قال:(لو انا حدثنا برأينا ضللنا كما ضل من كان قبلنا ولكنا حدثنا ببينة من ربنا بينها لنبيه فبينها لنا) (عن سماعة عن أبي الحسن (ع): (قال قلت له كل شيء تقول به في كتاب الله وسنته أو تقولون فيه برأيكم قال بل كل شيء نقوله في كتاب الله وسنة نبيه) [بصائر الدرجات - الصفار: ص٣٢٠].

أرجو منكم سيدنا أن تبينوا لي كيف للقرآن أن يبين لي كل شيء من أمور الدين والدنيا، (عفوا هنالك أحاديث كثيرة لم أذكرها تدل على شمولية القرآن الكريم لكل الأحكام والمعاملات، ونحن طبعاً لا نجدها في القرآن فارجوا التوضيح السريع).

الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين وسلم تسليماً.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾([النحل: ٨٩]).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾([الرعد: ٣١]).

قبل أن نبحث في القرآن وكيف يكون تبياناً لكل شيء دنيويا أودينيا لابد أن تلتفت إلى أن بيان القانون الكلي الذي تندرج تحته جزئيات كثيرة أو حتى قوانين جزئية هو بمثابة بيان لتلك الجزئيات أو القوانين الجزئية، وكمثال على هذا الأمر أقول: لو قلت (كل شيء لك طاهر حتى يتبين لك أنه نجس بعينه) فهذا قانون شرعي عام تنطوي تحته قوانين كثيرة، منها أن الماء المجهول الحال في الطريق طاهر، وإن الإناء المجهول الحال والملقى على الأرض طاهر، وإن الحصير المجهول الحال الموضوع في قارعة الطريق أو في فناء الدار طاهر، وهكذا يمكنك تفريع قوانين كثيرة عن هذا القانون الكلي.

أيضاً في مجال العلم الجسماني المعروف لو قلت: (لكل فعل ردة فعل) فهذا قانون فيزيائي عام تتفرع عنه قوانين كثيرة جداً، فمن رد الفعل من تصادم الذرات وأجزاءها إلى قوانين الاحتكاك، إلى قوانين الطيران، إلى قوانين كثيرة جداً كلها تقع ضمن هذا القانون العام وهو (لكل فعل ردة فعل).

الآن نعود للقرآن ونقول كيف بيّن القرآن كل شيء؟ وأين بيّن القرآن كل شيء؟

ويكون بحثنا في جهتين على الأقل هما جهة الدين وجهة الدنيا، أما جهة الدين فقد أعطى القرآن العقيدة التي بها النجاة وهي حاكمية الله ووجود خليفته سبحانه الذي يمتحن به خلقه على هذه الأرض في كل زمان، والدين منطوٍ تحت جناح خليفة الله في كل زمان، فالنجاة في إتباعه والعمل بما يأمر به ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾([البقرة: ٣٠])، كما بيّن القرآن قوانين العبادة الكلية، فالصلاة بيّن أنها قراءة قرآن وركوع وسجود، والصيام بيّن أنه ترك للشهوات في شهر رمضان، وهكذا بيّن القرآن قوانين كلية والباقي فيما يخص العبادات المذكورة يأخذ مما يسنه خليفة الله في أرضه.

أما فيما يخص الدنيا فالقرآن بيّن مثلاً قانوناً عاماً وهو أن عالم الأجسام كله يعود إلى القوة الأولى التي خلق منها ولا يزال دائماً ومتقوماً بها، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾([الأنعام: ٧٣])، وبالتالي فالقرآن بيّن أن

المادة الجسمانية تعود إلى القوة أو الطاقة كما يسمونها فالمادة ما هي إلا تكثف طاقة، وهذا الأمر تبين الآن بعد أكثر من ألف عام من خلال تطبيق نظرية اينشتاين النسبية الخاصة ومن خلال التجارب المختبرية وتحويل المادة إلى طاقة وكذا العكس.

فهذا قانون عام يحكم هذا العالم الجسماني وتندرج تحته قوانين.

إذن فتبيان كل شيء موجود في القرآن سواء كان تبيان هذا العالم الجسماني وما فيه أم تبيان الدين، أما ما ضمنته سؤالك من الأمثلة الجسمانية فهي تندرج كجزئيات ضمن البيان الكلي والعام في القرآن لهذا العالم الجسماني، فبيان القانون الكلي الذي يحكمها وجوداً وبقاءً وتركيباً بياناً لها، وأرجو أن لا يكون هناك خلط بين الذكر التفصيلي والبيان الذي نحن بصدده، فذكر هذه الأمور الجسمانية التي ذكرتها أنت بالتحديد غير موجود في القرآن؛ لأن القرآن ليس كتاب ذكر وإحصاء للموجودات في عوالم الملك والملكوت، وهناك كتاب إحصاء هو غير القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾([يس:١٢])، التفت إلى اختلاف هذه الآية عن الآية التي نحن بصددها ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فهناك فرق كبير بين إحصاء كل شيء وبين تبيان كل شيء، فتبيان الموجودات في القرآن موجود ضمن البيان العام لعوالم الخلق وحقيقتها، أما عدم إدراك الناس لهذا البيان الكلي فهو ليس لعدمه بل لقصورهم عن الإدراك، وهذا القصور أيضاً هم سببه وإلا فهم يمتلكون في فطرتهم القدرة على إدراك هذا البيان.

فهم في الحقيقة إيمانهم مشوب بالشك والريب الذي يجعلهم على أقل تقدير يبتعدون عن تدبر الصادر وإن ادعوا الإيمان بالمصدر، فمثلاً عندما يصرخ بهم القرآن منذ أكثر من ألف عام بقوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾([العنكبوت: ٦٤])، وعندما يقول لهم الأنبياء والأوصياء إنكم في هذه الدنيا تعيشون في الوهم والحقيقة هي الحياة الأخرى يضحكون منهم.

نعم، فالذين في زمانهم يضحكون منهم وبصلافة؛ لأنهم يكذبونهم أصلاً، والذين يأتون بعدهم يكذبون رواياتهم بحجة أنها غير معقولة ولا يقبلها العقل، إذن فالناس لا يقبلون من الغيب؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب بل يؤمنون بهذه الأجسام فقط، ولذا تجدهم لا يصدقون ما ورد وما يرد عن الأنبياء والأوصياء والقرآن من أن الدنيا دار ممر، وأن المادة الجسمانية مجرد وهم، وأن الآخرة هي الحقيقة الثابتة، في حين عندما يخبرهم مختبر تجريبي مثلاً المختبر الأوربي بأن المادة وهم ولا وجود لها وأن الموجود هو فقط قوة واحدة والمادة تكثف قوى تعود في الأصل لقوة واحدة فهم يستقبلون هذا الإخبار برحابة صدر ويصدقونها، حتى وإن لم يمكنهم تعقلها أو إدراكها، فهم يثقون بعلماء الفيزياء وبأقوالهم مثلاً لأنهم لمسوا تطبيقاً في هذا العالم الجسماني لكلامهم في السابق، في حين أن كلام الأنبياء والأوصياء هو غيبي وبعيد في أكثر الأحيان عن هذا العالم الجسماني، ويحتاج أن يثق الناس بالغيب والقوة الغيبية الحقيقية ليلمسوا آثاره، أي إن الثقة هنا تسبق الأثر في حين أنهم لمسوا الآثار الجسمانية للمادي الجسماني ثم وثقوا به، وبما أن الناس كل تركيزهم على هذا العالم ولا يكادون يرون سواه فتكون النتيجة أنهم يؤمنون بالمادي الجسماني ولا يؤمنون بالغيب، أو يؤمنون إيماناً ضعيفاً مهزوزاً يحاولون إيجاده في نفوسهم أو تقويته من خلال آثار جسمانية ملموسة أيضاً، أي إنه نصف إيمان أو ربع إيمان أو عشر إيمان ولكنه أبداً لن

يكون إيماناً كاملاً بالغيب، والحال هذه وهي أنه مشوب بالأثر الجسماني الملموس أو المعجزة أو الكرامة كما يسمونها.

مع الأسف فإن خيار أكثر الناس الذي لا يكاد يتبدل هو هذا العالم الجسماني وما فيه، وحتى إن أرادوا اختيار الإيمان بالغيب فهم يعمدون إلى أن يكون هذا الإيمان من خلال هذا العالم الجسماني فيقعون في تناقض كبير عندما يطلبون وبإصرار أن يكون المعرف بالغيب هو حدث جسماني معجز، بل ويصرون في كثير من الأحيان أن يكون قاهراً وغير قابل للتأويل أو الشك، فهم يريدون أن يتحول الغيب إلى جسماني محض فيكون الإيمان بالغيب صفر في ساحة إيمانهم المدعاة، ومع هذا فهم يعتبرون طلبهم صحيحاً ومشروعاً ليؤمنوا بالغيب، هل ترى كم هو في تناقض صارخ هذا الذي يطلبون هم مع ما يطلبه الله منهم وهو الإيمان بالغيب؟ فإذا عرفنا أن الله سبحانه وتعالى هو الغيب الحقيقي وتدبرنا حال هؤلاء لوجدناهم تماماً عبدة أصنام مئة بالمئة، فهم قد عَبَّدوا أنفسهم لهذا الصنم الأكبر أو العالم الجسماني...)[١].

إذا عرفنا ذلك، فإن المتصلين بالوحي والمفوض لهم بيان مراد الله وبيان كتابه الكريم لابد أن تتوافر فيهم مواصفات لا يتصف بها غيرهم .

أن يكون:

١- مؤهلا وأن تكون صفحة وجوده نقية بدرجة عالية من الإخلاص أي أن تكون مساحة النور غالبة بشكل لا تكاد تكون مشوبة بظلمة.
٢- أن يكون هذا المتصل رسولا أو نبيا أو إماما مختارا من قبله سبحانه لعلمه بمقامه واستعداده لاستقبال الوحي بمقدار إخلاصه وقربه من النور المطلق، وأن يكون مرتبطا بالله سبحانه متصلا بالغيب مسلما لأمره لا يرى لنفسه استقلالا في حكم أو بيان حتى يسمع من الله فيوصله للناس.

فمصدر الوحي واحد، ومستقبل الوحي والموحى إليه مسمى باسمه منصوص عليه من الله سبحانه، فبالتالي كل ما يصدر من هذه الجهة يمثل الحق كله والصدق كله، ويحمل في طياته مراد الموحي أي مراده سبحانه ومشروعه ومنهجه وحكمه وتشريعه، وأما من يوحى إليه فهو الأمين على هذا الوحي الصادق والمنفذ للمنهج والدستور الذي حمله إليه، وحركة الوحي تبدأ من مصدره وحتى وصوله إلى نفس أو روح الموحى إليه في هذا العالم مرورا بعوالم الملكوت التي هي أعلى رتبة وأرقى وجوديا من هذا العالم .

فإما أن تكون رسالة كرسالة محمد (ص) وعيسى وموسى (ع) ثم يقوم هذا الخليفة الإلهي بترجمة الحقائق والمعاني التي حملها إليه الوحي إلى معان وألفاظ تناسب طبيعة هذا العالم ونظامه، وهو من يعرف محتواها أو مضمونها من عقائد وأحكام وتشريعات تناسب حال المكلفين، وتنتهي بمن اعتقد بها وعمل بها إلى النجاة، أو أنه يتلقى معلومات من الوحي في مستجدات الأمور .

فمنظومة الوحي متكاملة كحقائق ومعان ونصوص تترجمها وتبينها بما يتفق ومستوى ونضوج القابل.

---

١. الجواب المنير - السيد أحمد الحسن: ج٤ س٣١٠.

وفي المقابل كل ما يصدر من عقائد وأحكام وتشريعات لم تؤخذ مباشرة من هذا الخليفة فهي:

١- من وحي الشيطان.
٢- لا تمثل الخط الإلهي ولا تمثل أحكامه وتشريعاته قطعا.
٣- مصدرها يعود إلى الخط المناهض للمنهج الإلهي.
٤- لا تمثل مطلقا الحكم والتشريع الواقعي الذي يريده الله سبحانه.

عن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع) قال: (من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر و إن أخطأ فهو أبعد من السماء)[١].

هذه منظومة السماء وقوانينها، ولكن الخط المناهض يقلب المعادلة:

في صحيح مسلم: (حدثنا يحيي بن يحيي التميمي. أخبرنا عبد العزيز بن محمد عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن بسر بن سعيد، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص، عن عمرو بن العاص؛ أنه سمع رسول الله (ص) قال: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران. وإذا حكم فاجتهد، ثم أخطأ، فله أجر)[٢].

وهذا حال المفسرين والمشرعين سواء قالوها صراحة أم لا؛ بل أن البعض منهم يقدمه مبرئا للذمة.

أقول: "إن أخطأ" واضح هو سيؤدي بالمكلف للضياع والتيه والضلال، وأما من أصاب فلأنه غير مأمور وغير مخول ببيان حكم الله، فاعتقد لأنه في الحقيقة يخالف مراد الله ويحجب الحقيقة التي أوكل بيانها سبحانه إلى خليفته الموجود في كل زمان فيكون دوره مانعا للمكلفين بالتعرف عليه واللحاق به والأخذ منه، وهذا على فرض إصابته للحكم أو البيان فعلا.

٥- أي حكم أو تشريع أو عقيدة صادرة من شخص غير منصوص عليه باطلة؛ لأن العقائد الحقة والتشريعات والأحكام أو منظومة المعرفة التي يقوم على أساسها سبب وجودنا وخلقنا مصدرها الغيب، ولم يحصل أو لم يستطع أحد من الخلق أن يثبت اتصاله بالغيب- وأقصد خط الغيب الذي يحمل رسائل السماء كالرسل والأنبياء والأوصياء (ع).

إذن فلا مناص من الحكم على بطلان كل عقيدة أو حكم أو تشريع مالم تكن من خليفة الله؛ لأنها ببساطة لم تأتي عن طريق الوحي أو الغيب وهو الطريق الوحيد لوصول كل هذه المعارف للمكلفين.

---

١. تفسير العياشي - محمد بن مسعود العياشي: ج١ص١٧، بحار الأنوار - المجلسي: ج٨٩ ص١١٠.

٢. صحيح مسلم: ج٣ ص٣٤٢. في البخاري: (عن عمرو بن العاص: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر) [كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم: ٧٣٥٢].

حديث الثقلين

حديث الثقلين أشهر من نار على علم، ولكني أورده هنا لا من جهة إثباته وحقانيته، وإنما بلحاظ علة التلازم بين الثقلين، وعلاقة ذلك بموضوع البحث كونه عنوانا يغطي مساحة واسعة من حقيقة الدين؛ بل يشغلها بالكامل.

سنن الترمذي عن زيد قال: قال رسول الله (ص): (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما)[١].

هذا التلازم بين الكتاب والعترة لا يخفى على متتبع فاحص لآيات القرآن وأحاديث آل محمد (ع) ورواياتهم التي ضمنت هذا المعنى بطرق مختلفة وصياغات تحتم مفاداتها على أن كتاب الله لوحده كتاب صامت يكتنف آياته الإبهام والمتشابه على غيرهم (ع)، فالقرآن كما وصفه رسول الله (ص).

عن أبي عبد الله عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (.....وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل وهو الفصل ليس بالهزل وله ظهر وبطن فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق....)[٢].

فباطن القرآن هو ما يفترض أن نصل إليه ونعرفه بدلالة وصف الرسول (ص) "باطنه علم" أي أن العلم في باطن القرآن وباطن القرآن عند ترجمانه في كل زمان، وظاهره عنده كما تبين في ما ذكرناه من روايتهم (ع)، وهذا ما أكدت عليه آيات القرآن، فالله سبحانه لم يرض بحكم ظاهر متوهم يقدمه أناس لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٣].

وهذا على الأرجح لا يعني علم من ظاهر القرآن؛ بل أن الله لم ينظر إلى الدنيا منذ خلقها وهذا ما أكد عليه حجج الله (ع) عند ذكرهم الدنيا، أما ما وراء ظاهر الدنيا أو علة خلقها فكونها دار امتحان وليس لها حظ من الوجود إلا قابليتها على الوجود، وقد تعرضنا بشيء من التفصيل في محله.

أمير المؤمنين (ع) : (...أنا الظاهر والباطن فأنا عندي علم الظاهر والباطن..)[٤].

والعلماء الحقيقيون هم آل محمد (ع) وهم معادن العلم وأصله فباطن القرآن وظاهره عندهم، والأمر ينتهي إلى دلالتين:

١- القرآن كتاب متشابه على الناس، فلابد من مبين له في كل زمان لا يفترق عنه لتتحقق الحكمة من وجود الكتاب مع ضرورة وجود المبين.

---

١. سنن الترمذي: ج٥ ص٣٢٩.
٢. الكافي - الكليني: ج٢ ص٥٩٩.
٣. الروم: ٧.
٤ الاختصاص - المفيد: ص١٦٣، عنه بحار الأنوار - المجلسي: ج٤٢ ص١٨٩.

٢- لا يمكن لأي أحد أن يحل محل قرين القرآن في كل زمان مطلقا؛ لأنه لا يملك العلم الباطن؛ بل وحتى الظاهر؛ لأنه بالأصل لا يعدوا كونه رقم في عداد المحجوبين عن الوحي.

فالقرآن النازل من العوالم العلوية له صور ومعان في كل عالم نزل فيه، وآخر هذه العوالم عالم الدنيا، وسادة هذه العوالم وعلومها هم محمد (ص) وآل محمد (ع).

كل العبادات الظاهرية في هذا العالم هي صور ظاهرية لحقائق علوية مرتبطة بكل فعل عبادي، فالصوم والصلاة والحج والزكاة كلها أعمال عبادية ظاهرية، ولكنها مفروضة في عالم التكليف، وهي تناسب وجودنا في عالم الدنيا.

يقول السيد أحمد الحسن:

(أنت في هذه الدنيا نفسك مشغولة بتدبير بدنك، لهذا كانت هذه العبادات لتُمنع النفس عن الانشغال بالبدن ولتُوجه إلى الانشغال بالله، انظر في عبادات الإسلام بحسب ظاهرها ستجدها في هذا، لا تأكل لا تشرب، اترك الشهوات، هذه عبادة الصيام وهي واضحة أنها منع للنفس عن الانشغال بالبدن، وغيرها أيضاً. الحج انظر فيه، الصلاة كذلك، كلها في أمرين: قطع صلة بهذا العالم وتوجيه إلى العالم الآخر، وذكر الله والانشغال بالله) [١].

أما حقائقها فهي في عوالم أرقى، وكل هذه المسميات تجتمع في أصل واحد وهو خليفة الله.

عن داود بن كثير قال: قلت لأبي عبد الله (ع): أنتم الصلاة في كتاب الله عز وجل وأنتم الزكاة وأنتم الحج؟ فقال: (يا داود نحن الصلاة في كتاب الله عز وجل، ونحن الزكاة، ونحن الصيام ونحن الحج ونحن الشهر الحرام ونحن البلد الحرام ونحن كعبة الله ونحن قبلة الله ونحن وجه الله قال الله تعالى: "فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"، ونحن الآيات ونحن البينات...)[٢].

فحجة الله هو الأصل وهو الجامع لكل صور الدين وحقائقها؛ لأنه محل الفيض الإلهي وكل الأحكام والشرائع والعلوم والأسرار من الله سبحانه منطوية تحت جناحه.

فإذا كان حجج الله لا يدعون أو ينسبون علومهم إلى ذواتهم المقدسة وإنما ينسبونها إلى رسول الله (ص) وبالتالي هي من الله سبحانه، فمن يتكلم في القرآن ويفسر آياته ولم يأخذها من قرين القرآن فهو ليس صائما وإن امتنع عن الطعام والشراب؛ بل وإن صامت جوارحه كما يعتبره أهل الظاهر غاية الصيام.

فالصائم الحقيقي هو الذي يصوم عن الرأي، وأن لا يفسد صيامه بتفسير أو تأويل أو حكم أو طرح عقائدي مبني على استنتاج عقلي ومباني مبتدعة لم يقررها المعصوم (ع)، فبالتالي اقتحامه هذه الأسوار يعد إفطارا متعمدا وكفارته النار.

---

١. مع العبد الصالح ج١ - السيد أحمد الحسن: العمل في عالم الذر.

٢. بحار الأنوار- المجلسي: ج٢٤ ص٣٠٣.

فرسول الله (ص) يقول: (من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار)[١].

وفي رواية أخرى: (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)[٢].

وعن الصادق عن أبيه (عليهما السلام) قال: (ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلا كفر)[٣].

في تفسير الصافي: أقول: (لعل المراد بضرب بعضه ببعض متشابهاته إلى بعض بمقتضى الهوى من دون سماع من أهله أو نور وهدى من الله)[٤].

إذا عرفنا ذلك سنفهم ما يحدث مع القائم من آل محمد (ص).

عن أبي عبد الله (ع): (...وإن قائمنا إذا قام أتى الناس وكلهم يتأول عليه كتاب الله، ويحتج عليه به...)[٥].

لا أعتقد أن ما يقصده أبو عبد الله (ع) خارج عن الحكم في بطلان التأول على القائم بكتاب الله أو الاحتجاج به عليه، وكأنما يريد الإمام الصادق(ع) أن يقول من أين لكم علم الكتاب كي تتأولونه أو تحتجون به على القائم؟!!

عن فضالة بن أيوب قال سئل الرضا صلوات الله عليه عن قول الله عز و جل قُلْ "أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ" فقال (ع):(ماؤكم أبوابكم الأئمة و الأئمة أبواب الله فمن يأتيكم بماء معين يعني يأتيكم بعلم الإمام)[٦].

فالمفسرون الذين يفسرون آيات الكتاب استنادا إلى فهمهم لظاهر الآيات ضمن سياقات المباني العقلية وغيرها فإن لسان حالهم يقول أنهم فرقوا بين الكتاب والعترة، وخالفوا القرآن ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٧] وخالفوا المحكم من روايات آل محمد (ع).

عن أبي جعفر (ع) قال: قال: (والله ما ترك الله أرضا منذ قبض آدم (ع) إلا وفيها إمام يهتدي به إلى الله وهو حجته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده)[٨].

فالعلاقة بين وجود الأرض وبقاءها وما يفيض عليها من خالقها علاقة تدبير، وهذا التدبير الذي يضمن بإنفاذه فيها اعتدال أمورها واستقامة أهلها وسعادتهم في الدارين.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قيل له: إن أبا الخطاب يذكر عنك أنك قلت له: إذا عرفت الحق فاعمل ما شئت فقال: (لعن الله أبا الخطاب والله ما قلت له هكذا ولكني قلت: إذا عرفت الحق فاعمل ما شئت من خير

---

١. نفس المصدر: ج ٣٠ ص٥١٢.
٢. نفس المصدر.
٣. التفسير الصافي - الفيض الكاشاني: ج١ص٣٥.
٤. نفس المصدر.
٥. الغيبة - النعماني: ج١ ص٣٠٥، بحار الأنوار - المجلسي: ج٥٢ ص٣٦٢.
٦. تفسير القمي - علي بن إبراهيم القمي: ج٢ ص٣٧٩، بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٤ ص١٠٠.
٧. النحل: ٤٤.
٨. الكافي - الكليني: ج١ ص١٧٩.

يقبل منك، إن الله عز وجل يقول: «من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب» ويقول تبارك وتعالى: « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة)[١].

فهل يوجد حق عند أحد دون خليفة الله، أو من أخذ منه في زمانه؟ فالحق هو خليفة الله في كل زمان، وهو من يدبر به الله سبحانه أمر الخلق والوجود، والتلازم ضرورة تقتضيها الحكمة من خلقنا ووجودنا في هذا العالم، أي مادام هنالك مستقبل وقابل للوحي يعيش على هذه الأرض فهو ضمانة عدم انهيارها وفناءها، وهذا المصداق متحقق على الأقل بوجود خليفة الله فضلا عن وجود قابل وناصر لهذا الخليفة ليكون محلا لنزول فيوضات الوحي.

عن محمد بن سنان، عن ابن الطيار قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: (لو لم يبق في الأرض إلا اثنان لكان أحدهما الحجة)[٢].

وهذا بيان وتأكيد واضح يقطع بأن المكلف لا يمكن أن يستغني عن حجة إلهي يأخذ منه دينه وتعاليمه، وبالتالي لا يمكن أن يستقل أحد بنفسه ويمسك بالحق، فلا شك أن كتاب الله موجود بين أيدي الناس في كل زمان، فإذا ادعى مدع أنه مكتف به يأخذ منه عقيدته وتعاليم دينه فهو حتما مكذب فعليا بحديث الثقلين ومنكر لضرورة وجود حجة إلهي على هذه الأرض، ولو كان على وجهها شخصا واحدا.

الخطيب في تاريخه عن ثابت مولى أبي ذر قال: دخلت على أم سلمة فرأيتها تبكي وقالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: (علي مع الحق والحق مع علي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة)[٣].

وهذا المعنى بيّن في كتاب الله ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٤].

علي بن الحسين عليهم السلام، قال: (الامام منا لا يكون إلا معصوما وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها ولذلك لا يكون إلا منصوصا. فقيل له: يا ابن رسول الله فما معنى المعصوم؟ فقال: هو المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة، والامام يهدي إلى القرآن والقرآن يهدي إلى الامام، وذلك قول الله عز وجل:" إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم)[٥].

قد يبرر البعض ركونه لتفسير القرآن أو بيانه أو استخراج العقائد والأحكام منه باستقلاله عن المعصوم من مفهومه للشق الأول من المعادلة "الإمام يهدي إلى القرآن"، وقطعا فإن مبرراته غير متقومة بالدليل القرآني نفسه.

---

١. معاني الأخبار - الصدوق: ج١ ص٣٨٨- ٣٨٩٩، عنه في بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٧ ص١٧٣.

٢. الكافي - الكليني: ج١ ص١٧٩، شرح أصول الكافي - مولي محمد صالح المازندراني: ج٥ ص١٢٨.

٣. بحار الأنوار - المجلسي: ج٣٨ ص٢٩، المعيار و الموازنة - أبو جعفر الإسكافي: ص١١٩، شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ج١٨ص٧٢، قريب من هذا المعنى في [النصائح الكافية - محمد بن عقيل: ص٢١٦]، [شواهد التنزيل - الحاكم الحسكاني: ج١ ص٢٤٦] .

٤. الإسراء: ٩.

٥. معاني الأخبار - الصدوق: ج١ ص١٣٢.

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[١].

فمن هو الكتاب المبين والذي فيه تبيان كل شيء كذلك يجيب القرآن:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[٢].

وردت عدة روايات موافقة تثبت أن الإمام المبين هو علي (ع)[٣] وعلى قاعدة كتاب الله وعترتي فلكل زمان رجل من علي (ع) يقوم مقامه.

وفي نفس الوقت لم يستطع أحد منهم أن يجيب فعليا عن معنى الشق الثاني من المعادلة" القرآن يهدي إلى الإمام" فكل معنى يقدمه وكل مبرر سيكون متهافتا وهو يبيح لنفسه الانفراد في فهم القرآن وتفسيره وإحكام معانيه ومقاصده، أو من خلال النظر في استدلالات ناتجة عن مقارنات وموافقات لآيات ومفردات في مواضع مختلفة من القرآن.

القول بضرورة وجود معصوم في كل زمان ثم الالتفاف على هذه العقيدة بتقمص مقامه ودوره، فهذه عملية عزل حقيقي للمعصوم، وهذا هو التفريق الحقيقي بين الكتاب والناطق عنه، وحجب رسالة الوحي وعزلها عن المكلفين.

فالقول بكونهم مصداقا لمن يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ليس مجازفة بقدر ما هو الوصف الواقعي الذي يجسد مواقف الصادين عن دين الله بأفعالهم، عندما يقدمون نتاجهم للناس ويظلمون أنفسهم بتبني منهجا كهذا يواجهون به الله سبحانه.

لا شك أننا لا نجد في الإرث الروائي ما يتخلف عن وصف الكتاب بأعلى ما يتصوره مسلم من القداسة والتبجيل، وكما هو الحال لا يتخلف في وصف عترة النبي (ص) بالقداسة والرفعة، فعندما يتواتر حديث عند المسلمين يجمع بين هذين العنوانين يقدمها سيد الرسل والأنبياء محمد (ص) باتفاق مطلق فهذا يعني أن هناك ملازمة تفرضه طبيعة هذا الاقتران والضمانة القطعية لمخرجاتها، فلماذا هذه الملازمة إذن؟ هل أن الغرض منها بيان مقام العترة وأن وجودها بمعية وجود القرآن يمثل حث الأمة على معرفة مقام وقدر العترة؟ أم أن هناك أصل لهذا الاقتران وأسباب ملحة للغاية؟

في الحقيقة هذه الملازمة تترجم لنا معادلة حكيمة ومحكمة يمثل طرفيها القرآن والعترة، وعليها يترتب الآتي:

---

١. النمل: ٧٥.

٢. يس: ١٢.

٣. تفسير علي بن إبراهيم: (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) أي في كتاب مبين، فهو محكم، وذكر ابن عباس عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (أنا والله الامام المبين، أبين الحق من الباطل. ورثته من رسول الله صلى الله عليه وآله)[بحار الأنوار - المجلسي: ج٣٥ص٤٢٧]، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر، عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) قام أبو بكر وعمر من مجلسهما فقالا: يا رسول الله هو التوراة؟ قال: لا، قالا: فهو الإنجيل؟ قال: لا قالا: فهو القرآن؟ قال: لا، قال فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هو هذا، إنه الامام الذي أحصى الله تبارك وتعالى فيه علم كل شيء) [مجمع البيان - الطبرسي: ج٣ ص٨٢].

١- أن الكتاب يجري مجرى الشمس والقمر مع قرينه ومبينه لا يختلفان ولا يتخلفان طرفة عين.
٢- وأن الدستور الذي ينظم الدين والدنيا هو القرآن في كل زمان.
٣- يستلزم وجود طرف المعادلة دائما مادام القرآن دستورا ما بقي الخلق وهو كذلك.
٤- يعني بالتالي ضرورة وجود رجل إلهي من العترة يكون عدلا للقرآن.
٥- المنطق والعقل السليم يحكم بالنظر لهذه المعادلة على حتمية وجود رجل في كل زمان، مادام القرآن هو الدستور ليكون مبينا لآياته وأغراضه ومراميه، وبالتالي يضع المكلفين على بينة من مراد الله سبحانه.(إنا نحن نزلنا الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم).

عن عبد الله بن سليمان قال: كنت عند أبي جعفر (ع) فقال له رجل من أهل البصرة يقال له: عثمان الأعمى: إن الحسن البصري يزعم أن الذين يكتمون العلم تؤذي ريح بطونهم من يدخل النار، فقال أبو جعفر (ع): (فهلك إذا مؤمن آل فرعون، والله مدحه بذلك، وما زال العلم مكتوما منذ بعث الله عز وجل رسوله نوحا، فليذهب الحسن يمينا وشمالا فو الله ما يوجد العلم إلا ههنا، وكان عليه السلام يقول: محنة الناس علينا عظيمة: إن دعوناهم لم يجيبونا، وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا)[١].

وهذا الحصر لهذه المهمة يقضي بعدم أهلية غير المعصومين(ع) للقيام بهذا الوظيفة وامتناع وجود رجل على طول الخط الزمني ابتداءً من شهادة رسول الله (ص) حتى آخر وصي يحتج الله به على الناس غيرهم (ع).

فالحكمة الصادرة من الحكيم المطلق تقضي بأن تستمر هذه المعادلة بوجود طرفيها حتى بلوغ الهدف من وجود الخلق، وأن تسري في الخلق؛ لأن الحكيم المطلق قضى أن تكون نجاتهم بنفاذ هذه المعادلة وامتثال الخلق لما يترتب عليه من تطبيقها.

بقي أن نعرف أن الخلق أو المكلفين في ساحة امتحان والذي من خلاله ترك الله تعالى للناس الاختيار، وهذا من عدله سبحانه، فإذا تنصل الإنسان عن التمسك بهذه المعادلة وهذا التلازم- وأقصد به الترابط الفعلي في الزمان والمكان- فهذا يعني الفشل في الامتحان وسببه تضييع الطريق الوحيد الموصل لمعرفة الله سبحانه.

فالحيود عن هذا الطريق واشتطاطه عن الصراط الذي رسمه رسول الله (ص)- وهو من الله قطعا[٢]- وهو ما يفسر لنا أهمية الصياغة المتقنة والمحكمة للعلة التي كتب من أجلها رسول الله (ص) وصيته وقال في مقدمتها "أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا"؛ أي أن الكتاب عاصما للأمة من الضلال؛ لأن لازمه وجود رجل من العترة في كل زمان ناطق عن آيات الله ومبينا لها، وهذه العصمة متحققة حتما بالالتزام الفعلي والرجوع والتسليم لرجل منصب يبين للناس ما تشابه عليهم من كتاب الله؛ لأنه متشابه على الناس ومحكم بالنسبة له (ع).

فتسمية رسول الله لأوصيائه إلى يوم القيامة ضامن لنفاذ أمر الله وتحقيق مراده سبحانه.

---

١ .بحار الأنوار - المجلسي: ج٢ ص٦٤- ٦٥.
٢. قال تعالى: " وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى" [النجم: ٣-٤].

أما فرض خلو زمان من هذا الرجل المبين الحقيقي للكتاب فهو خرق لدستور الله، وأما التصدي لموقع البيان من قبل آخرين فهو خرق آخر.

ولذلك فإن اقتران العترة مع الكتاب لو ناقشناها من حيث الأصل كونهم الثقل الأصغر بمقابل الثقل الأكبر والذي يمثل المشروع السماوي برمته، فهو الكتاب الحاوي على خارطة الطريق الموصل إلى غاية وجودنا وخلقنا، وهي معرفة الله سبحانه وعمادها معرفة الرجل الإلهي في كل زمان الذي يأخذ بأيدي الخلق لتعريفهم بالله، وذلك كونه السبيل الوحيد الذي يحقق هذا الغرض ووجوده يساوي الدين، وأما على مستوى التفريع أو التشريع فهو أيضا منطوي تحت مظلة المشرع الوحيد في كل زمان والذي ينقل تشريعاته من الله سبحانه.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[١].

قال أبو جعفر (ع): (أنا من الذين قال الله في كتابه "أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ")[٢].

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر (ع) يقول في هذه الآية: ("بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم"، فأومأ بيده إلى صدره)[٣].

وهذا هو الحصر الواضح بأن العلم والبيان لآيات الكتاب عندهم (ع) وليس عند غيرهم.

قال الإمام جعفر الصادق (ع): (عجبا للناس إنهم أخذوا علمهم كله عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فعملوا به واهتدوا ويرون أن أهل بيته لم يأخذوا علمه، ونحن أهل بيته وذريته في منازلنا نزل الوحي، ومن عندنا خرج العلم إليهم، أ فيرون أنهم علموا واهتدوا وجهلنا نحن وضللنا، إن هذا لمحال)[٤].

هذه هي الملازمة التي يحاول الصادون عن دين الله تفكيكها وفصلها وفصمها عن العروة الوثقى" فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"[٥]، فالعلم والهداية من الوحي وهو مصدر القداسة وجوهر اليقين وهو عند أوصياء محمد[٦] (ص) حصرا.

---

١. الإنعام: ٩٠.

٢. البرهان - البحراني: ج٢ ص٤٤٩.

٣. الكافي - الكليني: ج١ ص٢١٣.

٤. الكافي - الكليني: ج١ ص٣٩٨.

٥. البقرة: ٢٥٦.

٦. قال رسول الله "ص" الأئمة من ولد الحسين عليه السلام من أطاعهم فقد أطاع الله ومن عصاهم فقد عصى الله عز وجل هم العروة الوثقى وهم الوسيلة إلى الله عز وجل)، [عيون أخبار الرضا (ع) - الشيخ الصدوق: ج١ص٦٣] قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ستكون بعدي فتنة مظلمة الناجي منها من تمسك بالعروة الوثقى، فقيل: يا رسول الله وما العروة الوثقى؟ قال: ولاية سيد الوصيين، قيل ومن سيد الوصيين؟ قيل: يا رسول الله ومن سيد الوصيين؟ قال: أمير المؤمنين قيل: [يا رسول الله] ومن أمير المؤمنين؟ قال: مولى المسلمين وإمامهم بعدي قيل: يا رسول الله ومن مولى المسلمين وإمامهم بعدك؟. قال: أخي علي بن أبي طالب عليه السلام)[مائة منقبة - ابن شاذان: ج١ ص١٤٩]. فأي فتنة أشد من فتنة الدين واشتباه الأمر على الناس فلا نجاة ولا علم ولا بيان إلا باللجوء إلى أصل الدين وكهفه الحصين والعروة الوثقى آل محمد (ص).

فالله سبحانه ليس لديه قرابة مع آل محمد(ع) عندما يأمرنا بالاقتداء بهم؛ إنما هو سبحانه يحب خلقه ويريد لهم الخير والنجاة، وآل محمد (ع) لا يدعون الناس لاتباعهم والأخذ منهم رغبة منهم في ذلك وحاجة منهم إليهم[١]، إنما الأمر يتعلق بكونهم يعملون بأمر الله وبالرحمة التي تجلت فيهم(ع)؛ ولأن الله اختارهم بعد ما علم منهم الإخلاص والوفاء والأمانة، فحملهم علمه ومراده فكانوا هم الطريق الوحيد لمعرفته، وأصبح علم الكتاب وفصل الخطاب عندهم، وطريق العلم والحكمة لا يتعدد ليأخذ طريقا آخر غير طريقهم (ع).

إن تغييب الوحي ورسالته المقدسة هو كل ما يدعو لغيرهم (ع) أو يستغني عن وجودهم ولو في مقطع زمني معين، وفي هذا النطاق تجسدت العقيدة السنية بعدم وجود ضرورة لاستمرار هذه الملازمة بعد رسول الله(ص) والتي ظهرت أولى ملامحها في يوم السقيفة بمقولة حسبنا كتاب الله، والقضية أشهر من نار على علم.

أما العقيدة الشيعية الحقة فتقضي بضرورة استمرار القيمومة الإلهية بوجود رجل يمثل السماء ومتصل بها لا يخلو منه زمان، التزم به الشيعة بمقدار اعتقادهم بوجود اثني عشر وصيا بعد رسول الله (ص).

على المستوى الفعلي اقتصر هذا المنهج على ثلة قليلة من المؤمنين في زمن كل حجة إلهي، وعلى نفس هذا المستوى تنصل الشيعة عن اعتمادهم هذا المنهج في زمن الغيبة الكبرى للوصي الثاني عشر من أوصياء محمد (ص)، وهو الإمام محمد بن الحسن العسكري (ع) كذلك بدت ملامحها بممارسة عملية سد الفراغ وإصدار التشريعات والأحكام وإدخال المناهج العقلية في منظومة الاعتقاد، فتعاظمت خطورة هذا المنهج بالتنصل عن عقيدة وجود حجج بعد الإمام المهدي (ع) وبالتالي حلول المنظومة البديلة بالكامل والإقرار فعليا بانقطاع الوحي.

سنة النص من السابق على اللاحق

سنة التنصيب الإلهي وحاكمية الله منذ تنصيب آدم (ع) كأول خليفة إلهي إلى يوم القيامة هي السلسلة التي يستمر من خلالها وحي الله لرسله وأنبياءه وأوصياءه (ع)، ولولا وجود الدخلاء ومحاولاتهم الحثيثة على طول الخط لإيجاد واقتناص الفرص لحشر أنفسهم ضمن سلسلة الرجال الإلهيين ليتم إيهام الغافلين أنهم امتدادا طبيعيا لهذه السلسلة، وأن كل ما يصدر منهم فهو بالنتيجة منسوبا لها، وعلى صعيد آخر وهو الأخطر على طول الخط هو محاولات إيقاف المد الإلهي أو الوحي أو قل حجبه بإنكار وتكذيب المخصوصين بالوحي.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ* وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾[٢].

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٣].

---

١. عن الحارث بن المغيرة النضري، عن أبي عبد الله (ع) قال: (سمعته يقول: إن الأرض لا تترك إلا بعالم يحتاج الناس إليه، ولا يحتاج إلى الناس، يعلم الحلال والحرام) [المحاسن - للبرقي: ج١ ص٢٣٤]، الحارث بن المغيرة عن أبي جعفر (ع) أنه قال: لن يهلك منا أهل البيت عالم حتى يرى من يخلفه يعلم مثل علمه أو ما شاء الله، قال: قلت: ما هذا العلم؟ قال: وراثة من رسول الله (ص) ومن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهما. يستغني عن الناس ولا يستغني الناس عنه) [بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٦ ص١٧٤].

٢. الرعد: ٢١.

٣. البقرة: ٢٧.

هذه العلاقة وهذا التلازم بين العهد والميثاق والذي أراد وأمر الله سبحانه أن يوصل، هو تلك السلسلة المعصومة من خلفاء الله المتعلقة بأهل الأرض وإدامة تفعيل المشروع المعرفي الإلهي ونقل رسائل الوحي المعرفية للخلق، والذي كان سببا في وجود الأرض والعالم الجسماني ووجود الخلق، فالصراع بين النور والظلمة أو العلم والجهل ومن يمثل هاتين الجهتين في هذا العالم محصور بين هاتين الفئتين.

- الفئة لأولى: الذين يوفون بعهد الله ويقبلون خلفاء الله (ع) ويسلمون لهم وينصروهم ويمكنوهم من إقامة الدين " شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ"[١].
- الفئة الثانية: الذين ينقضون هذا العهد، فيقتلون الأنبياء والأوصياء (ع) إما تصفيتهم جسديا أو منعهم من الوصول للناس وإيصال رسائل الوحي، وهذا يحصل بطرق عدة أهمها ما تمت الإشارة إليه في أكثر من موضع في هذا البحث وهو تكذيب خلفاء الله وشن الحملات الدعائية المغرضة لعزلهم عن الناس، وصناعة الخط البديل المتمثل بالقواعد والمباني التي جُعلت حاكما على منهج المعصوم، لذلك نسب الله سبحانه لهم الإفساد في الأرض ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلالَةَ بِالْهُدَى﴾[٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[٣].

عن أبي عبد الله (ع): (...الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه - في علي - ويقطعون ما امر الله به ان يوصل " يعني من صلة أمير المؤمنين (ع) والأئمة عليهم السلام...)[٤].

علي بن ابراهيم، قال: حدثني أبي عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن (ع) قال: (إن رحم آل محمد صلى الله عليه وآله معلقة بالعرش يقول اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني وهي تجري في كل رحم ونزلت هذه الآية في آل محمد وما عاهدهم عليه وما اخذ عليهم من الميثاق في الذر من ولاية أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام بعده وهو قوله" الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق الآية" ثم ذكر أعداءهم فقال (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) يعنى أمير المؤمنين (ع) وهو الذي اخذ الله عليهم في الذر واخذ عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله بغدير خم ثم قال (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار))[٥].

عن عمر بن مريم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: (الذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل)، قال: (من ذلك صلة الرحم، وغاية تأويلها صلتك إيانا) [٦].

---

١. الشورى: ١٣.

٢. البقرة: ١٦.

٣. البقرة: ١١.

٤. تفسير القمي: ج١ص٣٥ عنه البرهان - البحراني: ج٣ ص٢٤٦.

٥. تفسير القمّي: ج١ ص٣٦٣ عنه البرهان ج٣ ص٢٤٦.

٦. تفسير العيّاشي: ج٢ ص٢٠٨ عنه البرهان- البحراني: ج٣ ص٢٤٧.

لو عرفنا أن آل محمد (ع) نزلوا إلى هذا العالم لهداية الناس وإيصال العلم الإلهي الموجب لمعرفته سبحانه، وهو سبب امتحاننا في هذه الأرض لتبين أن صلة الإمام أو صلة آل محمد (ع) هي الصلة الموجبة للإيمان بهم ناطقين عن الله، يوحى إليهم فيبينون الكتاب ويوصلون الناس إلى الله سبحانه.

وآل محمد (ع) نون القرآن أو نون العلم أو الوعاء الذي يستقبل ويحتوي العلم الإلهي، وهم عيبة علمه، بهم يعرف الله وبهم تتم كلمة الله وينفذ مراده من الخلق "نحن الأدلاء بنا عبد الله وبنا عرف الله"، وهم قرناء الوحي وضمانة وصوله لهداية الناس في كل زمان، فالذين يقطعون هذا الوصل إنما يقطعون هذه الصلة.

مصداق هذه الصلة متعلق بمراتب معانيها وعمقها، وأولها هي صلة المال، فهي آخر تنزل لمعاني الصلة في هذا العالم، والمراد منها هو ما وراء هذه الصلة المادية، وهي الصلة بالنور والتسليم وأن يعطي الإنسان نفسه وروحه وقد أفرغها من الأضداد والأنداد وإملاءات الشياطين لتنساب في جداولها مياه العلم وتنبت فيه ا أشجار المعارف الحقة.

عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله (ع) اَلَّذِينَ يَصِلُونَ مٰا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ؟ قال (نزلت في رحم آل محمد (ع) وقد تكون في قرابتك، ثم قال: فلا تكونن ممن يقول للشيء: إنه في شيء واحد)[١].

في البحار :(يعني إذا نزلت آية في شيء خاصّ، فلا تخصّص حكمها بذلك الأمر بل عمّمه في نظائره)[٢].

فإذا كان الغرض من وجودنا عبادة الله، فلا يصح أن تسمى عبادة وهي لا تحمل في جنباتها معرفة الله، وأولها معرفة المعرف به سبحانه، فهي لا تعدو أن تكون عبادة ظاهرية لم يتحقق الهدف منها، وهو الارتقاء في ملكوت السموات.

فمن له القدرة على رفدنا بمعاني الآيات التي خاطب الله بها رسوله الكريم (ص) والارتقاء بمدارجها للوصول إلى ما أراد الله سبحانه لعباده أن يصلوا إليه؟! فكل من لم يكلمهم الوحي في كل آن، فهم في عداد الغافلين الذين حجبت عنهم المعاني القدسية و المراد الإلهي.

وهذه المحصلة تخص كل رجال الدين يهود نصارى وسنة وشيعة وغيرهم؛ بل كل من اشتغل في القرآن وادعى حصوله على مراد الله من آياته، فالسنة بالأصل يقولون بعدم ضرورة وجود خلفاء بعد رسول الله (ص)، والشيعة أباحوا لأنفسهم فرصة الدخول على منظومة الدين، وكل من استعمل منهاجا وقواعد شخصية لفهم القرآن.

أما الدخول على منظومة الدين نناقشها مرة على مستوى الأصل فنقول:

أن الأصل هو أن الله سبحانه اتصل بخلقه ونقل إليهم مراده عبر الوحي، فبالمحصلة أن المعني بإيصال الوحي الرسالي هو الرجل الذي اختاره الله من بين البشر وكلمه من خلال وحيه، وهذا وإن كان أغلب أصحاب الأديان لديهم إقرار بعلوية وقداسة وملكوتية الوحي إجمالا، باعتبار جهلهم بطبيعة وآلية وديناميكية الوحي ورسالته الآتية من الحقيقة الموجدة أو الله.

---

١. الكافي - الكليني: ج٢ ص١٥٦.

٢. بحار الأنوار - المجلسي: ج٧١ ص١٣٠.

ومرة نناقشها على مستوى التفريع عن هذا الأصل، أو لنقل مستوى التطبيق التفصيلي لرسالة الوحي التي تنتهي عند مستقبلها الأصل وهو النبي أو الرسول أو من يقوم مقامهما، فكذلك اختلفت المناهج التي تتعاطى مع هذه الخصوصية عند أهل الأديان وإن كانت النتيجة المترتبة عليها واحدة، وهي نقل رسالة الوحي من أصلها السماوي إلى مستوى التنظير البشري والحيود عن المقاصد وقلب الحقائق وصرف المرادات الإلهية في غير مسالكها والابتعاد عن أهدافها.

فمثلا عقيدة الشيعة الذين يؤمنون بضرورة القيمومة الإلهية على الدين بكل صغيرة وكبيرة، وضرورة وجود هذا الخليفة الإلهي الناطق برسالة الوحي- الذي لا يخلو منه زمان- ظاهرها وباطنها، وصرف نصوصها في مواطنها المختلفة في الزمان والمكان والكيفية التي يتم من خلالها توجيه هذه النصوص في كل زمان، وهذا على مستوى الإيمان والالتزام بالنصوص القرآنية والنصوص الروائية الموجبة لهذا الالتزام.

ولكن الواقع يقول غير ذلك بلحاظ جملة من المسوغات لنقض هذا الأصل أو إخضاعه لعملية تسوية عقلية أُدرجت على أنها مسلّمة من المسلّمات في ضرورة حلول رجال الدين محل الرجل الإلهي المنصوص، بدعوى سد الفراغ من جهة وطرح نصوص متشابهة قدمت على كونها توفر الحصانة الشرعية لتمثيلهم للدين من جهة أخرى، وفي الجانب الآخر فالمذهب السني لا يرى ضرورة لاستمرار هذه القيمومة بعد رسول الله (ص).

أبو محمد القاسم بن العلاء (رحمه الله) رفعه، عن عبد العزيز بن مسلم قال: كنا مع الرضا (عليه السلام) بمرو فاجتمعنا في الجامع يوم الجمعة في بدء مقدمنا فأداروا أمر الإمامة وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها فدخلت على سيدي (عليه السلام) فأعلمته خوض الناس فيه، فتبسم (عليه السلام) ثم قال: يا عبد العزيز جهل القوم وخدعوا عن آرائهم، إن الله عز وجل لم يقبض نبيه (عليه السلام) حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء، بين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه الناس كملا، فقال عز وجل (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وأنزل في حجة الوداع وهي آخر عمره (صلى الله عليه وآله): (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) وأمر الإمامة من تمام الدين ولم يمض (صلى الله عليه وآله) حتى بين لامته معالم دينهم وأوضح لهم سبيلهم وتركهم على قصد سبيل الحق وأقام لهم عليا (عليه السلام) علما وإماما وما ترك [لهم] شيئا تحتاج إليه الامة إلا بينه، فمن زعم أن الله عز وجل لم يكمل دينه فقد رد كتاب الله ومن رد كتاب الله فهو كافر به...)[١].

إذن مسألة إكمال الدين بعد رسول الله (ص) وتبيان كل شيء وإتمام الدين محسومة بإقامة علي (ع) علما وإماما، فبه وبالأوصياء من ذريته تستمر عملية إكمال الدين واتمام النعمة، ولا يصح الفرض بوجود فراغ يسده أي أحد في مقام بيان الدين[٢] ومعالم الدين وكل ما يحتاجه الناس من بيان، وأكيد سيكون بيان القرآن تاج هذه المطالب وأول عنوان لها؛ بل كل ما يحتاج إليه الناس في الدين.

---

١. شرح أصول الكافي - المازندراني: ج٥ ص١٩٣.

٢. في بيان السيد أحمد الحسن لآية إكمال الدين: قال تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي

مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)النساء:٢٣) الذي اكتمل بحسب هذه الآية هو الدين؛ والدين هو الشريعة والعقيدة، والقول بعدم اكتمال أحدهما يتعارض مع ظاهر الآية كما أن عدم اكتمال أي منهما في واقعِ حال وفي أطروحةِ أي طائفة إسلامية يعني أن هذه الطائفة غيرُ محقةٍ لأن واقع حالها يخالف ظاهراً قرآنياً جلياً. السلفيون أو الوهابيون والسنة عموماً يشرّعون بالأمس واليوم دون وجود نصٍ عن المعصوم في مسائل كثيرة من المستجداتِ الحياتيةِ التي تتطلب حكماً شرعياً تعبدياً - وكمثال الصلاة في المناطق القريبة من القطب - وبالتالي فواقع حالهم يقول إن الدين عندهم غيرُ مكتملٍ ولهذا اضطَّروا للتشريعِ بالآراءِ عند فقد النص، كما أنهم أيضاً مختلفون فيما بينهم في العقيدة اختلافا كبيرا؛ فالسلفيون أو الوهابيون مثلاً يعتقدون بأن لله عينين ويدين وأصابع على الحقيقة، والأشاعرة كالأزهر لا يعتقدون بهذا بل يعتقدون بفساد العقائد السلفية الوهابية ...أما آل محمد (صلوات الله عليهم) فاكتمال الدين عندهم بتنصيب خليفة الله حيث إنه (صلى الله عليه وآله) من يتكفَّل بيان العقيدة الحقَّة والتشريع بأمر الله، وبالتالي لا توجد ثغرةٌ و لا تناقضٌ بين هذه العقيدة وبين ظاهر آية إكمال الدين، فالدين يكتمل بتنصيب الناطق عن الله أو خليفة الله بعد رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) وبهذا يكون الدين عقيدةً وتشريعاً قد اكتمل، فلا توجد ثغرة في هكذا دين يسدّها فقهاء غير معصومين بآرائهم وأهوائهم كما هو الحال في الاعتقاد السني المتعارض مع ظاهر الآية. أما مسألة غيبة المعصوم فنحن نقول: إن غياب المعصوم هو عبارة عن عملية تغييب له نتيجة عدم وجود القابل له ولمشروعه الإلهي - كما هو لا كما يفترضه ويتوهمه المنتظرون المفتَرَضون - وبالتالي فلا تعارض بين هذه العقيدة وبين ظاهر آية إكمال الدين.نعم، التعارض مع آية إكمال الدين يكون في ساحة من يعتقدون أنَّ المعصوم غاب وترك التشريع ليتبرّع فقهاءٌ غير معصومين ويشرّعوا في دين الله أو في المستجدات بآرائهم، ثم ليزيدوا الطين بلةً ويفرضوا على المؤمنين عقيدةَ وجوب تقليد غير المعصوم والنيابةَ عن المعصوم. والحقيقة إنه لا سبيل للتوافق مع ظاهر آية إكمال الدين سوى بما نقول ونعتقد من أنَّ إكمال الدين إنما صار بتنصيب خلفاء الله بعد رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) والذين يشرّعون ويوصلون التشريع من الله للناس، وأنَّ الإمام مغيّب لعدم وجود القابل، وأنَّ الزمانَ السابق لظهور المهدي الأول المذكور في وصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) هو زمان فترةٍ، وأنَّ الناس فيه مُرجون لأمر الله وغير مستحقين للثواب وإنما يثابون برحمة الله سبحانه وتعالى. فالآية تثبت بطلان كل منهج يقول بجواز خلو الزمان من خليفة الله كالمنهج السني أو السلفي الوهابي، وأيضاً تثبت بطلان كل منهج يقول بغيابٍ للمعصوم دون تقصير الأمة وعدم وجود القابل، فالآية تتعارض مع هذه المناهج في الصميم. حيث إن الدين عندهم - وبحسب واقعهم العملي - غير مكتملٍ إلهياً بخليفةٍ إلهي منصب من الله أو من نصبه للتواصلِ مع الناس كالسفراء، وانما يكمّله فقهاءٌ غير معصومين تبرّعاً وتطفّلاً في فترةٍ ما ليشرّعوا بالظن ويُنتجوا أحكاماً - هم يقولون - إنها ليست حكم الله الواقعي، وبالتالي فهم أنفسهم يقرّون أن الدين عندهم - وبحسب أطروحتهم - ناقص وغير مكتمل، وبالتالي فهم يقرّون من حيث لا يعلمون أن أطروحتهم العقائدية تتعارض مع آية اكمال الدين. ويجب الالتفات إلى أمرٍ في غاية الأهمية :وهو أن كلا المنهجين يرميان التقصير في ساحة الله و ساحة خليفة الله أو المعصوم، حيث يفترضان أنَّ الله ترك الدين لهم ليشرّعوا في كل ما يستجدّوا ويحتاجوا إلى حكمٍ شرعي، فبدلاً من أن يقرّوا هم بالتقصير - كونهم رافضين لخليفة الله المنصب أو من ينوب عنه - يفترضون أنَّ الله ترك الدين لأشخاصٍ غير معصومين وغير منصبين من المعصوم ليشرّع كلٌ منهم برأيه وبدون أي نصٍ شرعي، وهذا في الحقيقة طعن صريح بحكمة الله إضافة إلى أنه - كما تقدم - يتعارض مع قول الله سبحانه من أنَّه أكمل الدين) إذاً؛ خلصنا في هذا المختصر إلى :

• ان هناك منهجاً يفترض خلو الأرض من الحجة؛ ومثاله المنهج السني أو السلفي، وهو منهج واعتقاد يعارض ظاهر النص القرآني في مواضع منها آية اكمال الدين كما تبين.

• أما المنهج الآخر فهو الذي يقر بأن الزمانَ لا يخلو من الحجةِ و لكنه يقول بأن الحجةَ يمكن أن يغيب مع وجود القابل دون أن ينصب وينص على من يقوم مقامه بعينه ليقوم هذا النائب بإيصال حكم الله الواقعي، وبالتالي فمن يسد النقص في الدين هم فقهاء متبرعون من أنفسهم وغير منصبين من حجة الله، وتعارض هذا المنهج مع آية إكمال الدين واضح، فبحسب واقع حالهم؛ الله لم يكمل الدين ولهذا فالحل عندهم أن يتبرّع فقهاء غير منصبين ولا منصوصاً عليهم بأعيانهم لسد النقص بأحكامهم وفتاواهم التي لا تمثّل حكم الله الواقعي، والحقيقة إن هذا المنهج لا يفترق عن سابقه كثيراً فكلاهما يتعارضان مع آية اكمال الدين.

• أما المنهج الثالث - فهو ما طرحناه - وهو أن الزمان لا يخلو من الحجة و لا يصح أن يغيب الحجة ما لم ينصب من ينوب عنه، وفي حال غاب ولم ينصب من ينوب عنه علناً فتكون الأمة ككل مقصرةً ومنحرفةً عن الحق وليس فيها القابل للمنهج الإلهي الصحيح، وفي هذا الحال تُقام الحجة بتعيين الرسول أو النائب ولكن لا يُطلب منه الإعلان والتواصل مع الناس لعدم وجود القابل له

فالمشكلة تكمن في التعارض الواضح بين المتبنيات المكتوبة والموثقة في مصادرهم، في حين أن الواقع يقول بالتبني الفعلي والتطبيق العملي في خلق منظومة موازية توهم الآخرين، أو أريد لها أن توهم الآخرين، بأنها تمثل تسلسل طبيعي ونتاج بديهي للاتصال بحلقات الأصل، وكل بحسب الصياغات المقدمة لتمرير هذه المناهج.

إن حدود العقل الذي يتبارى أو يفترض أن يكون مضمارا مفتوحا يتبارى فيه الجميع لاقتناص المعلومة والحصول على المراد دون وصاية أحد مادام لم يكن نبيا أو رسولا أو وصيا، فهذا يندرج في منظومة حرية الاختيار التي تستلزم أن يكون الفرد حرا من هذه الجهة.

يبقى أن نفهم أي من هذه المسالك التي يمكن أن تكون مضمارا بكل مستوياته، هل هي المسالك المجردة - وأقصد تلك التي تكون من صنيعة الناس- والتي لا تنتهي إلى قاعدة وتأسيس معصوم لا يؤدي بمرتاديه إلى الخطأ والزيغ والحيود؟

وهذا المضمار شاهده في كتاب الله من قبيل (أو لم يتفكروا، أفلا يتدبرون، قل سيروا في الأرض، ...الخ؟!!).

فالذي أريد التأكيد عليه هو أن القائمين على فرض هذه المناهج البديلة والتي قدمت على أنها ليست بديلة، فهو استهلاك للنصوص التي يستفاد من بعض ظواهرها بأنها تخولهم بتقديم أنفسهم كمفسرين وناطقين باسم الدين، وأن هناك مساحة في دائرة الدين تسمح لهم بالتواجد فيها على هذا المستوى وبطريقة توحي بشرعيتهم التي كانت ولا زالت تمثل الورقة الرابحة بيدهم لتكون الجسور التي يعبرون من خلالها لاحتلال العقل الجمعي أو الوعي الجمعي، وهي في الحقيقة تغييب للمرتكزات الأصيلة، وفرض واقع لمرتكزات بديلة تحل محل منظومة الوحي والناطق باسم الوحي والتي يفترض أن تكون هي الجسور التي يعبر عليها كل طلاب الحق أو الباحثين عن النور والعبور إليه.

وفي هذا الحال تكون الأمة المؤمنة بخلفاء الله في زمانِ فترة (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).ويكون حال أفرادها أنهم مُرجَون لأمر الله (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) كحالِ الأحناف قبل بعث الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) وكحالِ الشيعة قبل بعث المهدي الأول المذكور في وصية الرسول محمد (صلى الله عليه وآله).في كتاب الغيبة للنعماني ... عن شعيبِ بن أبي حمزة، قال:" دخلتُ على أبي عبد اللهِ (عليه السلام) فقلتُ له: أنتَ صاحبُ هذا الأمر؟ فقالَ: لا. فقلتُ: فولدُك؟ فقالَ: لا. فقلتُ: فولَدُ ولَدِك؟ فقالَ: لا. قلتُ: فولَدُ ولَدِ ولَدِك؟ قالَ: لا. قلتُ: فمن هو؟ قالَ: الذي يملأها عدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً، لعلى فترةٍ من الأئمةِ يأتي كما أنَّ النبيَّ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ) بُعثَ على فترةٍ من الرسُل"

فالخلاصة: أنه لا يوجد منهج ينزّه ساحة الله من التقصير وكذلك يتطابق مع آية إكمال الدين ولا يتعارض معها غير المنهج الذي طرحناه وهو أن الزمان لا يخلو من

- حجةٍ ظاهرٍ متصلٍ بالأمةِ مباشرةً
- أو من خلال سفراء في حالِ وجود مانعٍ
- أو حجةٍ غائبٍ غير متصلٍ بالناس وفي هذا الحال فالزمان هو زمان فترة لعدم وجود قابل والمؤمنون فيه مقصّرون وحالهم أنهم مُرجَون لأمر الله.) بحث آية إكمال الدين- السيد أحمد الحسن- عقائد الإسلام.

لم تقتصر حملات ومحاولات التغييب لرسائل الوحي على هذا المنوال؛ بل طالت كل الكتب السماوية وأوقعت نفس التأثير على أصالة ونقاوة المعلومة النازلة عن طريق الوحي باتباع نفس المناهج والخطوات الرامية لصناعة المنهج البديل.

الإنجيل واحد من الكتب السماوية لا يقل أهمية وقداسة عن القرآن سوى أنه بمرتبة أدنى، وأن شمولية القرآن وقابله محمد (ص) أعظم وأكبر، فقد نالته يد التحريف وتزوير الحقائق، وما فعله الفريسيون في مواجهة عيسى (ع) واحتكار معرفة الناموس وتفسيره حتى قال عنهم عيسى (ع):

"وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ لأَنَّكُمْ تُغْلِقُونَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ قُدَّامَ النَّاسِ فَلاَ تَدْخُلُونَ أَنْتُمْ وَلاَ تَدَعُونَ الدَّاخِلِينَ يَدْخُلُونَ"[١].

فقال لهم: "حَسَنًا تَنَبَّأَ إِشَعْيَاءُ عَنْكُمْ أَنْتُمُ الْمُرَائِينَ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ هذَا الشَّعْبُ يُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا. وَبَاطِلًا يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ. لأَنَّكُمْ تَرَكْتُمْ وَصِيَّةَ اللهِ وَتَتَمَسَّكُونَ بِتَقْلِيدِ النَّاسِ.."[٢].

فمنهج الحق السماوي واحد لا يتعدد في كل زمان له ناطق يدافع عنه ويدفع عنه تلبيس المبطلين.

"وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ."[٣].

"أَنِّي أَشْهَدُ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالَ نُبُوَّةِ هذَا الْكِتَابِ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَزِيدُ عَلَى هذَا، يَزِيدُ اللهُ عَلَيْهِ الضَّرَبَاتِ الْمَكْتُوبَةَ فِي هذَا الْكِتَابِ."[٤].

وفي العهد القديم:

"أُعْطِي مَطَرَكُمْ فِي حِينِهِ، وَتُعْطِي الأَرْضُ غَلَّتَهَا، وَتُعْطِي أَشْجَارُ الْحَقْلِ أَثْمَارَهَا،"[٥].

"إِذَا سَلَكْتُمْ فِي فَرَائِضِي وَحَفِظْتُمْ وَصَايَايَ وَعَمِلْتُمْ بِهَا،"[٦].

"لاَ تَصْنَعُوا لَكُمْ أَوْثَانًا، وَلاَ تُقِيمُوا لَكُمْ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا أَوْ نَصَبًا، وَلاَ تَجْعَلُوا فِي أَرْضِكُمْ حَجَرًا مُصَوَّرًا لِتَسْجُدُوا لَهُ. لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ."[٧]

---

١. الكتاب المقدس: مت ٢٣: ١٣.
٢. الكتاب المقدس: مر ٧: ٦- ٨.
٣. الكتاب المقدس: يو ١٦: ١٣.
٤. الكتاب المقدس: رؤ ٢٢: ١٨.
٥. الكتاب المقدس - العهد القديم: سفر اللاويين ٢٦: ٤.
٦. الكتاب المقدس - العهد القديم: سفر اللاويين ٢٦: ٣.
٧. نفس المصدر: ٢٦:١.

ربما تختلف العبارات ولكن المضامين واحدة "لا تصنعوا لكم أوثانا" في العهد القديم" وفي القرآن "إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا"، "وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا".

لا يساور الشك عاقلا في أن الرجوع إلى منهج يصنعه أناس بمقابل منهج الله سبحانه بأنها دعوة واضحة لعبادة الأوثان، فالوثن كل ما يعبد من دون الله، والأصنام المنحوتة من الحجر مصداقا بسيطا مقارنة بأصنام بشرية تسرق عقول الناس وتحجبها عن الله وسماع كلماته من الأرباب والآلهة الذين نصبهم الرب والإله المطلق سبحانه وحملهم وحيه ورسالته المعرفية لإيصالها للناس.

عن الصادق (ع): (...من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس)[١].

"إِنْ عِشْتُمْ بِحَسَبِ شَرَائِعِي وَحَفِظْتُمْ وَصَايَايَ وَعَمِلْتُمْ بِهَا، فَإِنِّي سَأُعْطِيكُمُ الأَمطَارَ فِي أوقَاتِهَا المُنَاسِبَةِ لِتُنتِجَ الأَرْضُ مَحَاصِيلَهَا، وَأَشْجَارُ الحَقْلِ ثَمَرَهَا. سَيَسْتَمِرُّ دَرْسُ الحُبُوبِ حَتَّى وَقْتِ قِطَافِ العِنَبِ. وَيَسْتَمِرُّ قِطَافُ العِنَبِ حَتَّى وَقْتِ البِذَارِ. فَسَيَكُونُ لَدَيْكُمْ طَعَامٌ كَثِيرٌ، وَسَتَعِيشُونَ بِأَمَانٍ فِي أَرْضِكُمْ. سَأُعْطِي سَلَامًا لِأَرضِكُمْ، فَتَنَامُوا بِسَلَامٍ، وَلَنْ يُخِيفَكُمْ شَيءٌ فِيمَا بَعْدُ"[٢].

فقول موسى (ع) " لأني أنا الرب إلهكم" متوافقة تماما مع ما طرحناه بخصوص الألوهية والربوبية الغير مطلقة، والتي تمثل مقامات خلفاء الله، فالربوبية طلب العبد الفقير لسد نقصه والألوهية إفاضة الرب على العبد، وهكذا فالدائرة مغلقة على هذه الملازمة لا تسمح أن يتخللها غريب، هي علاقة مضروب عليها ختم القداسة والسر المصون.

فهذِهِ هِيَ كَلِمَاتُ دَاوُدَ الأَخِيرَةُ: «وَحْيُ دَاوُدَ بْنِ يَسَّى، وَوَحْيُ الرَّجُلِ الْقَائِمِ فِي الْعُلاَ، مَسِيحِ إِلهِ يَعْقُوبَ، وَمُرَنِّمِ إِسْرَائِيلَ الْحُلْوِ: رُوحُ الرَّبِّ تَكَلَّمَ بِي وَكَلِمَتُهُ عَلَى لِسَانِي. قَالَ إِلهُ إِسْرَائِيلَ. إِلَيَّ تَكَلَّمَ صَخْرَةُ إِسْرَائِيلَ: إِذَا تَسَلَّطَ عَلَى النَّاسِ بَارٌّ يَتَسَلَّطُ بِخَوْفِ اللهِ. أَلَيْسَ هكَذَا بَيْتِي عِنْدَ اللهِ؟ لأَنَّهُ وَضَعَ لِي عَهْدًا أَبَدِيًّا مُتْقَنًا فِي كُلِّ شَيْءٍ وَمَحْفُوظًا، أَفَلاَ يُثْبِتُ كُلَّ خَلاَصِي وَكُلَّ مَسَرَّتِي؟"[٣].

العهد الأبدي والوصاية الإلهية المقدسة في خلفاءه ناطقين عن وحي الله حقيقة جسدتها نصوص الكتب السماوية لتبين أن لا خيار للناس سوى معرفة الناطق عنه سبحانه في كل زمان، وأن هذا الحق محفوظ ومصان.

عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آبائه (عليهم السلام) قال: خطب الناس سلمان الفارسي رحمة الله عليه فقال فيها: (....ولكنكم أخذتم سنة بني إسرائيل، فأخطأتم الحق، تعلمون فلا تعملون، أما والله لتركبن طبقا عن طبق على سنة بني إسرائيل، حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، أما والذي نفس سلمان بيده لو وليتموها عليا (ع) لأكلتم من فوقكم ومن تحت أرجلكم، ولو دعوتم الطير في جو السماء لأجابتكم، ولو دعوتم الحيتان من البحار لأتتكم، ولما عال ولي الله، ولا طاش لكم سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله، ولكن أبيتم

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ج٦٩ ص٢٦٤.

٢. الكتاب المقدس - العهد القديم سفر اللاويين: ٢٦.

٣. الكتاب المقدس: سفر صموئيل الثاني(١- ٥).

فوليتموها غيره، فأبشروا بالبلاء، واقنطوا من الرخاء، وقد نابذتكم على سواء، فانقطعت العصمة فيما بيني وبينكم من الولاء)[١].

البيت القصيد "ولا طاش لكم سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله" وهذا يعني بالضرورة أن الولاية لغير علي (ع) وأولاد علي (ع) المنصبين إلى يوم القيامة- وأقصد بالولاية الحقيقية على مستوى القول والفعل والتسليم وليس على مستوى الادعاء- يعني ولاية لغير الله واتباع لغير الله والأخذ من الشيطان المطرود من ساحة الوحي والمتوعد بإيقاع الناس في شراكه "لأقعدن لهم صراطك المستقيم" وهو صراط الوحي وأهل الوحي.

الكلام إلى رسل وتلاميذ المسيح الذين لا يعلمون كل شيء؛ بل لا يعلمون إلا ما يعلمهم المسيح نفسه.

(لاَ يَعْلَمُونَ وَلاَ يَفْهَمُونَ. فِي الظُّلْمَةِ يَتَمَشَّوْنَ. تَتَزَعْزَعُ كُلُّ أُسُسِ الأَرْضِ)[٢].

فالظلمة مرتع وحي الشيطان يأنس بها من ابتعدوا عن نور الوحي الإلهي ومهبطه، الرجال المنصبون الأمناء عليه في كل زمان.

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣].

ور اثة الوحي

عندما نستعرض الخطاب القدسي الإلهي بخصوص الوراثة نحتاج أن نشخص شكل هذه الوراثة وقيمتها وأي شيء هو مخصوص بها، وهل أن الوراثة تخص الله المطلق الغني عن العالمين سبحانه بالمباشرة، أم أنها تتعلق بمن استخلفهم وارتضاهم خلفاء ناطقين عنه سبحانه؟ خصوصا إذا عرفنا أن حيازة الملك الدنيوي- الذي لم يقيم الله له وزنا على الإطلاق- بكل أشكاله غير موجود في حسابات الوارثين المذكورين.

إذن هي وراثة من نوع آخر تساوي قيمتها قيمة المشروع والغاية والهدف الذي خلقوا من أجله، أو قيمة العلم والمعرفة وما نزل به الوحي.

والآيات تصرح بأن الوارثين هم تلك المجموعة الموصوفة، وأن الوراثة المقصودة مره تكون وراثة هذا العالم الجسماني أو الأرض أو بشكل أدق وراثة كل العوالم، فالأرض الجسمانية وجود مؤقت كما أسلفنا، وإنما وراثتها من جهة نفاذ حكمهم ومنهجهم فيها، وهو وعد الله المتحقق في خلافة الإمام المهدي (ع) للأرض.

---

١. الاحتجاج - الطبرسي: ص١٤٩- ١٥٢عنه بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٩ ص٧٩-٨٠.

٢ .الكتاب المقدس: سفر المزامير ٨٢: ٥.

٣. البقرة: ٢٥٧.

من الطبيعي أن تكون وراثة كل العوالم لمن وجدت العوالم لأجله وكانوا سببا لخلقها[١] ولا يمكن تصور شيئا له من القداسة والشرافة أعظم من العلم والمعرفة، وما يترتب عليها سواء في هذا العالم أم في تلك العوالم العلوية ليستحق وراثتها من كانوا سببا وفي وجودها.

وكل وراثة في أي مستوى وجودي وفي هذا العالم الجسماني لا يمكن نسبتها لأحد؛ لأنها في حقيقتها وراثة معارة ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[٢].

---

١. عن رسول الله (ص) عن الله في الحديث القدسي: (لولاك لما خلقت الأفلاك..) [بحار الأنوار - المجلسي: ج٥٤ ص١٩٩].
(أن فاطمة (ع) هي باطن باب المدينة، وظاهر الباب هو علي (ع)، والمدينة محمد (ص)، في مقابل الأسماء الثلاثة: (الرحيم، الرحمن، الله)، فهم صلوات الله عليهم أركان الهدى الثلاثة وتجلي أركان الاسم الأعظم الثلاثة: الله، الرحمن، الرحيم.
والعلم كلّه في المدينة، فإذا أُريد إنزاله فمن الباب، وفي باطن الباب أولاً، ثم من ظاهر الباب إلى الخلق ([عن هاشم بن أبي عمارة الجنبي، قال: سمعت أمير المؤمنين (ع) يقول: (أنا عين الله، وأنا يد الله، وأنا جنب الله، وأنا باب الله) [الكافي - الكليني: ج١ ص١٤٥]، وباطن الباب فاطمة صلوات الله عليها فالنزول فيها، وهي وعاء العلم الباطن، وفيها نزل العلم وما في المدينة (رسول الله (ص) أو القرآن)،....فالقرآن ينزل في ليلة القدر، والقرآن ينزل في فاطمة، وليلة القدر هي فاطمة وكما قالوا (ع) : (نحن حجج الله وفاطمة حجة الله علينا) ([الأسرار الفاطمية - للشيخ محمد فاضل المسعودي: ص٦٩، نقلاً عن تفسير(أطيب البيان)])، وكما قال (ص): (فاطمة أم أبيها) ([كشف الغمة في معرفة الأئمة - الأربلي: ص٩٠.])، والأم وعاء، وفاطمة (أو باطن الباب) هي الوعاء الذي ينزل فيه القرآن، والقرآن محمد (ص).وهذا هو المعنى الباطن الثاني لهذا الحديث، عن رسول الله (ص) عن الله في الحديث القدسي: (لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا علي لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما) ([مستدرك سفينة البحار- الشهروردي: ج٣ ص١٦٩]، عن كتاب (ضياء العالمين) للشيخ أبي الحسن جد الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر]).وفاطمة (ع) هي وعاء نزول القرآن، فهي باطن باب المدينة الذي يفاض منه على الخلق، فوجودها ضرورة وبفقدانها لا يستقيم نظام الخلق لأنها ركن من الأركان الثلاثة، فهي وعاء نزول القرآن) [المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٤ س١٣٧].
المعنى الثاني للحديث القدسي كما بينه السيد أحمد الحسن:(محمد (ص) تجلي الله، وعلي تجلي الرحمن، وفاطمة تجلي الرحيم في الخلق. فكل الموجودات مشرقة بنور الله في خلقه وهو محمد (ص)، وباب إفاضة هذا النور الإلهي هما: علي وفاطمة عليهما السلام. قال تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ([فصلت: ٢]). وعلي ظاهر هذا الباب، وفاطمة باطن الباب، كظهور الحياة الدنيا وشهودها بالنسبة للإنسان فيها، وغيبة الآخرة وبطونها بالنسبة له أيضاً.
وعلي وفاطمة - أو الرحمن الرحيم - بينهما اتحاد وافتراق، كاتحاد زوجين متحابين ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ([النساء: ١])، واسمين يدلان على معنى واحد.
أما افتراقهما؛ فمن جهة سعة الرحمة في الرحمن وشمولها، وضيق الرحمة في الرحيم وشدتها، فالرحمن - أو علي (ع) - له جهة اختصاص مع هذه الحياة الدنيا، فسعة الرحمة في الرحمن شاملة للجميع، كما أن الفيض النازل من ظاهر الباب يشمل الجميع المؤمن والكافر، كما في الدعاء: (يا من يعطي من سأله و يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة).
أما في الآخرة فهو قسيم الجنة والنار باعتبار ارتباط الموجود به وافتراقه عنه في هذه الحياة الدنيا، لا باعتبار الآخرة.
أما الرحيم - أو فاطمة - فلها جهة اختصاص مع الآخرة، فهي التي تلتقط شيعتها - أي أهل الحق والتوحيد والإخلاص لله سبحانه - يوم القيامة، وهم الحسن والحسين والأئمة، ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى (ع)، والأنبياء والأوصياء، ومن دونهم من المخلصين، ولذا قال فيها رسول الله (ص): (فاطمة أم أبيها) ([بحار الأنوار - المجلسي: ج٣٤ ص١٩])، فالأم هي الأصل الذي يرجع إليه، ولذا قال فيها الحسن العسكري (ع) ما معناه: (نحن حجة الله على الخلق وفاطمة حجة الله علينا).فلولا محمد لما خلقت السموات والأرض؛ لأنها خلقت من نوره، ولولا علي لما خلق محمد، فلولا علي لما عرف محمد (ص)، فهو بابه الذي منه يؤتى، ومنه - أي الباب أو علي - الفيض المحمدي في السموات والأرض يتجلى، ولولا فاطمة - أو باطن الباب، أو الآخرة - لما خلق محمد وعلي، فلولا الآخرة لما خلق الله الخلق، ولما خلقت الدنيا) [المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج١ س٨].
٢. الأنعام: ٩٤.

ولكن كما أوضحنا في سابق البحث وبحسب قول الرضا (ع) "لا يعلم ما هنالك إلا بما ها هنا" لا فتراق الرتبة الوجودية لهذا العالم عن عوالم الملكوت، وخضوع عالمنا المادي لقوانين التحيز والزمان والمكان والتفاصيل الأخرى، والتي لا تشترك في مواصفاتها عوالم الملكوت ونظامها المختلف.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

ولا يحتاج المتدبر أكثر من أن يستعرض المواصفات المذكورة في الآية المباركة آنفا ليعرف، لماذا اختصهم الله بوراثة الفردوس وعلى من يمكن أن تنطبق هذه الصفات؟.

عن عيسى بن داود، عن الإمام موسى بن جعفر، [عن أبيه] عليهما السلام في قول الله عز وجل: (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلوتهم خاشعون - إلى قوله - الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون)، قال: (نزلت في رسول الله وفي أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم أجمعين)»[٢].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾[٣].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٤].

عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام في قوله عز وجل* (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)* قال: (آل محمد صلوات الله عليهم ومن تابعهم على منهاجهم (والأرض) أرض الجنة)[٥].

عن أبي جعفر عليه السلام قال: (قوله عز وجل: (إن الأرض يرثها عبادي الصالحون) هم أصحاب الإمام المهدي في آخر الزمان)[٦].

عن أبي جعفر (ع) قوله: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر) قال: (الكتب كلها ذكر (وان الأرض يرثها عبادي الصالحون) قال: القائم (ع) وأصحابه...)[٧].

بالتأكيد فإن وراثة الأرض مصروفة إلى أعلى غاياتها وهو السبب في وجودها، وحجج الله لم يركنوا إلى زخرف الدنيا وزبرجها، ولم تكن محط نظرهم أصلا، وإنما وراثتهم فيها لقيادة الناس وإنفاذ رسالتهم فيها ونشر التوحيد

---

١. المؤمنون: ١-١٠.
٢. تأويل الآيات - شرف الدين الحسيني: ج١ ص٣٥٢.
٣. الحجر: ٢٣ .
٤. الأنبياء: ١٠٥.
٥. تأويل الآيات - شرف الدين الحسيني: ج١ ص٣٣٢.
٦. نفس المصدر.
٧. تفسير القمي: ج٢ ص٧٧.

في ربوعها، وإلا فهم يرثون حقائقها الدائمة الأبدية، وأصحابهم الذين تابعوهم وعملوا بمنهجهم وصدقوا به وأعرضوا عن سواه، فمآلهم معروف مع من يتولون.

ورد هذا المعنى في الكتاب المقدس في رسالة بولس، وبغض النظر عن تشخيص مصاديق النص فهي شبيهه بما ورد بخصوص آل محمد (ع) وأصحابهم المخلصين من جهة انتسابهم لله ولمنهج الله سبحانه، وهذه تكرس وحدة المنهج الإلهي.

(اَلرُّوحُ نَفْسُهُ أَيْضًا يَشْهَدُ لأَرْوَاحِنَا أَنَّنَا أَوْلاَدُ اللهِ. فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَدًا فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضًا، وَرَثَةُ اللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ، وَمَا دُمْنَا أَوْلاداً، فَنَحْنُ أَيْضاً وَارِثُونَ؛ وَرَثَةُ اللهِ وَشُرَكَاءُ الْمَسِيحِ فِي الإِرْثِ)[١].

فالوراثة إذن منوطة بشخوص من أورثهم الله سبحانه، وهم المنصبين الذين حملوا المشروع السماوي والإرث القدسي.

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[٢].

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[٣].

الوراثة سنة كما أن تنصيبهم سنة لا تتغير ولا تتبدل، وسلسلة من صفوة الخلق اختارها الله لتكون محلا أمينا لوحيه.

فلا يعقل أن يأتي شخص غريب ليحشر نفسه في نسب عائلة أو بيت ويدعي حقه في وراثة أهله، فهذا الحق لا ينصرف إلى أهله من جهة الملكية الصرفة و عائدية الملك مثلا، إنما هو حق مرتبط بأهلية أصحابه، وهو حق قيادة المشروع السماوي في كل زمان، وهو ممتد مادامت السموات والأرض؛ لأنه صنو الوحي ورفيقه الذي لا يفارقه وعلامته الشاخصة على طول الخط، وأن صاحب الحق فيه يوحى له في كل آن؛ إذن هو ضمانة السماء لنفاذ أمرها في كل وقت وحين.

عن الحرث النضري قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام اخبرني عن علم عالمكم أحكمة تقذف في صدره أو وراثة من رسول الله صلى الله عليه وآله أو نكت ينكت في اذنه؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: (ذاك وذاك ثم قال: وراثة من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن علي بن أبي طالب عليه السلام علم يستغنى به عن الناس ولا يستغنى الناس عنه)[٤].

---

١ .الكتاب المقدس: رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١٦:٧، ١٦:٨.

٢. مريم: ٥-٦.

٣. فاطر: ٣١-٣٢.

٤. بصائر الدرجات - الصفار: ص٣٤٦.

عن الحسن بن محبوب عن أبي حمزة الثمالي عن جابر قال أبو جعفر (ع) قال: (يا جابر والله لو كنا نحدث الناس أو حدثناهم برأينا لكنا من الهالكين ولكنا نحدثهم بآثار عندنا من رسول الله (ص)يتوارثها كابر عن كابر نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم)[١].

وردت هذه المعاني في نصوص روائية كثيرة[٢].

فهي خلافة الله في الأرض للذين كلفهم الله بمشروعه وقانونه ودستوره، وبيان ما أنزله الوحي لتستقيم أمور الخلق؛ لأنهم الوحيدون الذين علمهم لغة الوحي وعلم الكتاب.

فلماذا أن المهدي(ع) هو المعني بوراثة الأرض؟

لأن المهدي (ع) هو من سينفذ خلافة الله في الأرض بأعلى وأجلى صورها، ويظهر كنوز العلم الذي لم يجد قابلا في زمن الحجج السابقين(ع)، ويظهر العوار والفشل الذي كان يركب المغتصبين للملك والمشروع الإلهي المعرفي، الذين احتلوا كل المساحات التي يفترض أن يتواجد فيها نور الوحي، فمنعوه ومنعوا رعاته من تحقيقها.

القرآن المهجور

بقراءة سطحية وفهم ظاهري للنص القرآني يعلل البعض دخولهم على خط القرآن ،وبالخصوص المفسرين الذين أخضعوا القرآن لقواعد نحوية و منطقية وفلسفية وضعها أناس بينهم وبين القرآن بعد المشرقين، وآخرون يطلق عليهم القرآنيون وهم على أصناف لا نريد الخوض في تفاصيل مناهجهم، الذين يوظفون النصوص القرآنية ويضعوها في قوالب صنعوها بأنفسهم بناءً على محاكاة للفظة القرآنية وحركتها داخل النص وترادفها في مواضع مختلفة من سور القرآن بحجة أن في القرآن اللفظي نظاما داخليا يستفاد من ظاهره لمعرفة مقاصد النص القرآني وتشخيصا لمصاديق الأسماء والشخوص أو الأفعال والممارسات العبادية أو حتى الأحكام وبالتالي معرفة المراد الإلهي من النص.

---

١. نفس المصدر: ص ٣٢٠.

٢. في زيارة وارث (السّلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السّلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السّلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السّلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السّلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السّلام عليك يا وارث محمّد حبيب الله، السّلام عليك يا وارث امير المؤمنين ولي الله)[مفاتيح الجنان- الشيخ عباس القمي]، قال رسول الله (ص): (من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في تقواه و إلى إبراهيم في حلمه وإلى موسى في هيبته وإلى عيسى في عبادته فلينظر إلى علي بن أبي طالب عليه السلام)[بحار الأنوار - المجلسي: ج٣٩ ص٣٩] ،في حديث مفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام: (وسيدنا القائم (ع) مسند ظهره إلى الكعبة، ويقول: يا معشر الخلائق ألا ومن أراد أن ينظر إلى آدم وشيث، فها أنا ذا آدم وشيث، ألا ومن أراد أن ينظر إلى نوح وولده سام فها أنا ذا نوح وسام، ألا ومن أراد أن ينظر إلى إبراهيم وإسماعيل فها أنا ذا إبراهيم وإسماعيل، ألا ومن أراد أن ينظر إلى موسى ويوشع، فها أنا ذا موسى ويوشع، ألا ومن أراد أن ينظر إلى عيسى وشمعون فها أنا ذا عيسى وشمعون.
ألا ومن أراد أن ينظر إلى محمد وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما فها أنا ذا محمد صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، ألا ومن أراد أن ينظر إلى الحسن والحسين عليهما السلام فها أنا ذا الحسن والحسين، ألا ومن أراد أن ينظر إلى الأئمة من ولد الحسين عليهم السلام فها أنا ذا الأئمة عليهم السلام) [بحار الأنوار - المجلسي: ج٥٣ ص٩].

بالنسبة للمفسرين هناك عوامل ساعدت على دفعهم لاقتحام أسوار القرآن المنيعة والخوض في تفسيرها أهمها:

١- غياب المعصوم[١]: وهو الخطوة الأولى لخلق أجواء إباحة التفسير، وأن هناك ثغرة تركها غياب المعصوم عن الساحة لابد من سدها.

٢- الاستفادة من بدعة علم الرجال لانتقاء الأحاديث والروايات التي يوافق ظاهرها ظاهر نص قرآني توهموه، وطرح كم هائل من الموروث الروائي لم يتفحصوا مضامينه حتى بموجب قواعدهم بدعوى أن رواته مجاهيل أو ضعاف على حد زعمهم، وهذه مغالطات لسنا بصدد بحثها[٢].

٣- وجود مبررات ومسوغات تقضي بضرورة توافق القرآن لقواعد النحو، الذي اتاحت بعض مباني التقدير والحذف والتشبيه وما شاكل فرصة للتلاعب باللفظة القرآنية والسياق القرآني وتوظيف محتواه لمعان وتصورات مسبقة تم من خلالها تشكيل منظومة من العقائد والأحكام، مع العلم أنهم يقولون بصراحة كافية أن نتاجاتهم جاءت ثمرة سنين طويلة من البحث والدراسة؛ أي علوم - إن صحت التسمية- كسبية للمناطقة والنحاة والفلاسفة وأهل الكلام وكلها ليست من الله.

أما القرآنيون فقسم منم يعتمد في تدبر القرآن على المنهج العقلي بفهم القرآن بالقرآن، ويدعي عدم حاجته لمصدر آخر يستعين به على فهم القرآن كأحاديث الرسول (ص) أو الأئمة (ع)، وأن القرآن هو المصدر الوحيد لتحصيل العقائد والتشريع وأنه بين وآياته بينات، وآخر يقول بقبول بعض الأحاديث والروايات ولكنها فقط تلك التي تتفق وفهمه المنتزع من النص القرآني والذي يوافق قواعده التي يتعامل بها مع النصوص القرآنية، وإن كان البعض في حقيقته يتهم كل الموروث الحديثي والروائي ويشكك في مصداقيته، وفي كلا الحالين فهو يقدم فهمه

---

١. على فرض أن غياب المعصوم حالة صحية متعلقة بإرادة الله سبحانه كما يدعي الكثيرون منهم، مع العلم أنهم سبب رئيسي في غيابه فضلا عن جهل الناس الذين اختطفوا عقولهم بعد أن قدموا لهم عقائد وأحكام تغنيهم عن وجوده (ع). عن أبي جعفر (ع): (يا سدير فأريك الصادين عن دين الله، ثم نظر إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري في ذلك الزمان وهم حلق في المسجد، فقال: هؤلاء الصادون عن دين الله بلا هدى من الله ولا كتاب مبين، إن هؤلاء الأخابث لو جلسوا في بيوتهم فجال الناس فلم يجدوا أحدا يخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله صلى الله عليه وآله حتى يأتونا فنخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله صلى الله عليه وآله) [الكافي - الكليني:ج١ ص٣٩٢-٣٩٣]، في التوقيع عن الإمام محمد بن الحسن (ع): (...أنه من اتقى ربه من إخوانك في الدين وخرج عليه بما هو مستحقه كان آمنا من الفتنة المظلة، ومحنها المظلمة المضلة، ومن بخل منهم بما أعاره الله من نعمته، على من أمره بصلته، فإنه يكون خاسرا بذلك لأولاه وآخرته، ولو أن أشياعنا وفقهم الله لطاعته، على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم، لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا، ولتعجلت لهم، السعادة بمشاهدتنا، على حق المعرفة وصدقها منهم بنا، فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه، ولا نؤثره منهم، والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل..) [بحار الأنوار - المجلسي: ج٥٣ ص١٧٧]. أقول: فما الذي يخرج على إخوة المخاطب من الدين بما يستحقه لو لم يكن الذي يخرج من ناحيته المقدسة إليهم ضامنا وآمنا لعدم وقوعهم بالفتنة والمحن المظلمة والمظلة، وأي فتنة أشد من فتنة الدين والتوهم في العقائد والأحكام، وهل أن هذا الضمان والأمان يمكن أن يهتدي إليه ويحرزه رجل باستقلاله عن المعصوم ورجوعه لكتاب الله مثلا؟!! أم أن كلام الإمام المهدي ع يقرن ضمان الأمن والضمان بما يخرج منه بيان حصرا، وهل أن لقاء الشيعة المقصودين في توقيعه (ع) به (ع) للمؤانسة والتبرك أم لضمان ما يأخذوه من أمور دينهم؟!!

٢. لطلب المزيد في معرفة خواء وهشاشة علم الرجال الذي استخدم غربالا لطرح روايات آل محمد (ع) مراجعة كتاب القيمة الذاتية للنص الديني- الشيخ الدكتور ناظم العقيلي، وكتاب علم الرجال الشيعي بين النظرية والتطبيق- الشيخ الدكتور أحمد الحلي.

المستقل للنص القرآني، وأن قيمة النص ومضمونه قابع في ثنايا اللفظة وحركة اللفظ ونسقه الذي ورد فيه، وحضوره في مواضع مختلفة من القرآن يمثل عامل الحسم في استحصال المعنى والمراد الإلهي منه.

فهم في نهاية الأمر لا يختلفون عن مفسري القرآن من جهة الاستفادة من بعض روايات يتوافق ظاهرها مع معنى استلوه من لفظة أو مصطلح قرآني يفترض أن يكون معناه محددا مسبقا بحسب تظافر المعنى المتحصل في مواضع عدة من سور القرآن، أو عبارة في النص القرآني توهموا معناها من ظاهر التركيبة اللفظية الواردة في النص.

أما النتيجة التي انتهى إليها كل من تكلم بالقرآن تفسيرا أو بيانا فمصدرها يرجع إلى الفهم الظاهري المتوهم من النص القرآني، وأنه الكتاب الحاوي على السور القرآنية المعروفة بين الدفتين أو المصحف، وبالتالي فالمنهج المقدم فعليا من قبلهم يؤدي إلى استبعاد عِدلِه وقرينه وإن وجدت في ثنايا كتاباتهم أو أقوالهم عبارات توحي بقدسية ما يصدر منهم (ع)، أما ما وصل عنهم فإما موافقا لما توهموه من ظاهر النص أو محكوم عليه بالبطلان من أساس.

قال رسول الله (ص) لعلي (ع) : (..أنت المهجور بعدي..)[١].

وفي قوله تعالى: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)[٢].

عن أبي جعفر، عن أمير المؤمنين (ع): (...فأنا الذكر الذي عنه ضل والسبيل الذي عنه مال والايمان الذي به كفر والقرآن الذي إياه هجر والدين الذي به كذب والصراط الذي عنه نكب...)[٣].

فماذا يمكن أن نفهم من كون عليا (ع) هو القرآن؟! هل هو قيمة اعتبارية توطد لنا درجة ورفعة مكانة علي (ع)؟ أم أنها تعني فعلا أن عليا هو القرآن المبين والكتاب المبين والذي فيه تفصيل كل شيء؟!!

وهذا وجه آخر لمعرفة معنى"الدين" وهو مفاد قول الإمام الصادق لزرارة: (ثم أخبرك أن أصل الدين هو رجل وذلك الرجل هو اليقين، وهو الإيمان، وهو إمام أهل زمانه، فمن عرفه عرف الله ودينه ومن أنكره أنكر الله ودينه، ومن جهله جهل الله ودينه، ولا يعرف الله ودينه وشرائعه بغير ذلك الإمام، كذلك جرى بأن معرفة الرجال دين الله عز وجل)[٤].

وعلي (ع) قالها في معركة صفين حين رفعت المصاحف "أنا القرآن الناطق" وقد ورد في روايات أهل البيت أن هذا ما سيواجه به القائم (ع) وكل يتأول عليه كتاب الله[٥]، وكأن أمير المؤمنين (ع) يقول أترفعون مصحفا لا

---

١. الإمام علي بن أبي طالب(ع) - أحمد الرحماني الهمداني: ص٧٠٧.

٢. الفرقان: ٣٠.

٣. الكافي - الكليني: ج٨ ص٢٨.

٤. مختصر البصائر - الحسن بن سليمان الحلي: ص٢٥٩.

٥ .في خطبة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): (..فالكتاب يومئذ وأهله منفيان طريدان، وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤو. فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا. فاجتمع القوم على الفرقة. وافترقوا عن الجماعة. كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم. فلم يبق عندهم منه إلا اسمه، ولا يعرفون إلا خطه وزبره..) [نهج البلاغة - خطب الإمام علي (ع): ج٢ ص٣١].

تعرفون ما فيه حتى أخبركم أنا و تسمعوا مني لأني ترجمانه، فأنتم كمن يحتج على غيره بصحيفة مكتوبة بلغة لا يعرفها!!

وفي المناقب: (ولما أراد أهل الشام أن يجعلوا القرآن حكما بصفين قال الإمام علي رضي الله عنه: أنا القرآن الناطق)[١].

سبق وأن تعرضت لحقيقة بينها السيد أحمد الحسن عن القرآن، وأنه الكتاب الشامل لكل الكتب السماوية، وأن محمدا (ص) هو المهيمن على كل الرسالات السماوية، وأن الجامع لها هو القرآن الذي احتواه محمد (ص) فصار هو القرآن والقرآن هو، وأن كل الكتب السماوية هي أيضا قرآن ولكن سميت إنجيلا وزبورا وتوراتا وصحفا وألواحا ..الخ بسبب اختلاف مقام القابل كعيسى وموسى (ع) واختلاف استعداد القابل منهم في كل زمان، وأن حقيقة القرآن هي العلم الإلهي الذي استطاعت صفحة وجود محمد(ص) أن تحتويه، وهي الحقائق والمعاني الجامعة لمراد الله سبحانه، وأن حقيقتها ليست الصحف والكتب التي خرجت لنا في هذا العالم المادي بحروفها وألفاظها المنطوقة؛ بل أنها تمثل أفضل صياغة ممكنة لتلك المعاني والحقائق استطاع محمد (ص) أن يظهرها في هذا العالم، والحال نفسه بالنسبة للإنجيل وعيسى (ع) وللتوراة وموسى(ع) .

إذن عندما نتكلم عن القرآن فنحن نتكلم عن حقيقة العلم الإلهي الذي احتواه محمد (ص) واستقبله محمد (ص)؛ لأنه الحجاب الأقرب والواسطة بين الله والخلق، فمنه ترشحت الرسالات، وأن هذه الحقيقة أظهرها محمد (ص) في هذا العالم، ولما كانت هذه الحقيقة سارية مادامت السموات والأرض فهي متجسده في رجل إلهي يحمل هذه الحقيقة ويكون هو القرآن في هذه المرتبة؛ أي مرتبته ومقامه (ع) ولذلك سماهم الله ونصبهم ليكونوا محالا لتلك الحقائق وترجمانا لها في كل زمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

اعتقد هذه المقدمة كافية لنفهم لماذا نقول أن محمدا (ص) هو القرآن ولماذا نطلق على علي (ع) بالقرآن أو القرآن الناطق، وهكذا كل أوصياء محمد (ص) إلى يوم القيامة، فهذه هي الحقيقة المستقرة في القرآن وفي منهج الرسالات السماوية ومنهج أهل البيت (ع) في منظومتهم الروائية.

إذا كان القرآن يجري مجرى الشمس والقمر[٣]، وأنه حي متجدد بحضور حجة الله في كل زمان بعلومه وأحكامه، وأن هذه الحقيقة متجسدة برجل من آل محمد (ع) لا تخلو منه الأرض ساعة؛ أي كما أن عليا (ع) القرآن الناطق في زمانه فكل وصي لمحمد (ص) بعده قرآنا ناطقا في زمانه، وبهذا يكون القرآن جاريا مجرى الشمس والقمر، وهي مدة بقاء هذا العالم الجسماني الذي لا يخلو منه حجة إلهي حتى آخر لحظة من وجوده، وهذه الحقيقة هي أول مسمار وآخر مسمار في نعش المدعين والمتأولين على كتاب الله، وأن مشروعهم ولد ميتا منذ

---

١. ينابيع المودة لذوي القربى - القندوزي: ج١ص٢١٤، شرح إحقاق الحق - السيد المرعشي: ج٧ ص٥٩٥.

٢. آل عمران: ٣٤.

٣. قال أبو عبد الله (ع): (إن القرآن حي لم يمت، وإنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما يجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا) [بحار الأنوار - المجلسي: ج٣٥ ص٤٠٤].

اللحظة الأولى التي أطلقها إبليس في ذلك العالم وإلى نهاية هذا العالم، وأن المسألة برمتها هي امتحان الخلق بهذا المشروع المعرفي فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

يمكن أن نقول أن القرآن المكتوب الذي بين أيدينا لا يمكن أن يصدُق عليه بأنه القرآن الذي أراد الله أن تصل للخلق من خلاله الحقائق والمراد الإلهي أو العلم إذا كان هذا القرآن أو المصحف - أو ما بين الدفتين- منفصلا عن ترجمانه الحقيقي أو القرآن الناطق في كل زمان.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

فالنور والعلم الإلهي الذي أنزل إلى هذا العالم بالكتب السماوية المقدسة لكي تصل كما أراد الله سبحانه وخطط لها ولتبلغ أهدافها مشروطة بمعرفة ترجمانها في كل زمان، وهذا التلازم يقطع الطريق على كل مدع بمعرفة مضامينها، أو أن يخول لنفسه أحد ويتقمص دور الخليفة الإلهي ويقدم للناس عقيدة وأحكام ولسان حاله يقول أوحي إلي ولم يوح إليه.

هذا فضلا عن ادعاء المختصين- كما يطلقون على أنفسهم- بمعرفتهم بلحن كلام خلفاء الله ومقاصدهم المستوحاة من ظاهر أحاديثهم ورواياتهم، وهي في نفس الوقت موقوفة على إحكامهما من قبل المعصوم (ع)[٢].

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٣].

بحسب المعطيات التي تقدم ذكرها لا يمكن أن يكون القرآن المقصود بالآية الكريمة هو هذا المكتوب بهذا القرطاس أو ما يسمى (بين الدفتين) إنما يصح هذا المقصود بما يحمله من حقائق ومعان لا يأتي بها أحد ولا يعلمها أحد سوى حملته الحقيقيون، لا يأتون بمثل ما يتركه من التأثير الروحي والنفسي للمتلقي.

ومسألة التحدي من قبل الله سبحانه لمن يأتي بمثل هذا القرآن، كونه معجزا بعمقه الملكوتي وهيمنته وتأثيره على النفوس والأرواح؛ لأنه نازل من تلك العوالم النورية، وليس كما يدعي الكثيرون بأن هذا التحدي قائم على أساس بلاغي! وهذا ما أوقعهم في توهم أن ما يعجز الآخرين للإتيان بمثله هو الإعجاز اللفظي[٤] والبنيوي، وهذا يندرج في جملة التوهمات الناجمة عن السطحية وضيق الأفق في التعامل مع الكتاب، وتصورهم بأن قدسية

---

١. الأعراف: ١٥٧.

٢. عيون أخبار الرضا(ع) أبي، عن علي، عن أبيه، عن حيون مولى الرضا، عن الرضا (ع) قال: من رد متشابه القرآن إلى محكمه هدي إلى صراط مستقيم، ثم قال عليه السلام: إن في أخبارنا متشابها كمتشابه القرآن، ومحكما كمحكم القرآن، فردوا متشابهها إلى محكمها، ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلوا) [بحار الأنوار - المجلسي: ج٢ ص١٨٥].

٣. الإسراء: ٨٨.

٤. راجع كتاب إعجاز القرآن للدكتور علاء السالم.

الكتاب وعظيم ما يحويه من أسرار وعلوم يعود لتلك الملحمة اللغوية واللفظية والبلاغية[١]، وأن غاية ما يقدموه وهم يبارزون أعداء القرآن والمكذبين بسماويته هو الإعجاز اللفظي.

١.(... إن القرآن كتاب منزل وموحى من عوالم علوية، وفي العوالم العلوية لا يوجد شيء اسمه ألفاظ وحروف نطقاً وكتابة، فاللفظ وسيلة للفهم والإفهام في عالمنا الجسماني الذي نحن فيه ويعد من مختصاته، أما العوالم العلوية فلما كانت أرقى وأكمل من عالمنا هذا فبالطبع تكون وسيلة الفهم والإفهام فيها تناسب رقيها وكمالها حتماً.

لا شك أن عملية استقرار رسم الحروف العربية بصفتها المعهودة لدينا لم تكن إلا بعد سلسلة طويلة من السير التطوري لنمط معين من خطوط الكتابة التي ابتدأت باختراع نفس الكتابة بـ"الخط المسماري" في بلاد ما بين النهرين، ثم تدريجياً تنوعت الخطوط وتشعبت بشكل تصاعدي بتطور الإنسان نفسه.

أما الأصل الذي انحدرت منه حروف لغتنا العربية من حيث الرسم، وهي مسألة اختلف فيها العلماء والباحثون، فسواء كان أصلها يمني أي خط المسند - الحميري "، أو كانت نتاجاً تطورياً للخط النبطي، أو كان أصلها شيئاً ثالثاً، فالمؤكد في كل الحالات أنها لم تكن لتظهر فجأة بالشكل الذي نعرفه اليوم إلا بعد مراحل وحقب عديدة مرت بها كشأن أي نتاج بشري أرضي.

وبخصوص القرآن الكريم، فلا شك أن أول من نطق به لفظاً هو رسول الله(صلى الله عليه وآله) بعد كونه رسولاً إلهياً والقرآن موحى له بالأصل، ولم يكن قد كتب بيده حرفاً منه كما هو واضح من سيرته، بل وشهد به القرآن أيضاً: "وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ" [العنكبوت: ٤٨]، فقد كان (صلى الله عليه وآله) يتلو القرآن ويقوم أكثر من كاتب من المسلمين بالتدوين، وليس الأمر منحصراً على تدوين الوحي وإنما شمل كتابة الرسائل وبنود الصلح والمعاهدات وغيرها، بغض النظر عن اختلاف أصحاب السير والتاريخ في عدد من كتب الوحي وغير الوحي.

أما رسم حروف القرآن بالنحو المتداول لاحقاً بين المسلمين وصولاً لعصرنا الحالي فهو أمر حدث في عهد عثمان بن عفان في عملية تدوين القرآن وجمع المصاحف وتوحيدها بنسخة رسمية واحدة في الحادثة المعروفة تاريخياً وبالتالي فإن كان هناك خطأ إملائي في رسم حروف بعض الكلمات فهو يُحسب على القائمين بالعمل أو على بعض المدونين الذين سبقوهم واعتمد الرسم الموجود في نسخهم حرفياً في المصحف العثماني، وليس له علاقة بالقرآن كحقيقة نازلة من عالم أعلى ولا بالقرآن كألفاظ نطق بها رسول الله (صلى الله عليه وآله) في هذا العالم.

وليست مسألة رسم حروف القرآن بالنحو الذي نراه اليوم وحدها حدثت في زمن متأخر عن نزول القرآن، وإنما تشكيله بالحركات وتنقيطه أيضاً كذلك، فأكثر الباحثين يرون أن تنقيط القرآن - وكذلك تقسيمه إلى أجزاء وأحزاب - تم في عهد الحاكم الأموي عبد الملك بن مروان على يد بعض النحاة والقراء، ونفّذ في العراق تحت إشراف الحجاج بن يوسف (ت: ٩٥ هـ). أما تحريكه بالعلامات فقد تم على يد النحوي البصري الخليل بن أحمد (ت: ١٧٠ هـ)، فجعل للفتحة ألفاً صغيرة توضع فوق الحرف وجعل للكسرة رأس ياء صغيرة تحته وللضمة واواً صغيرة فوقه وكرّر الحرف الصغير عند التنوين ووضع للهمزة رأس عين ولألف الوصل رأس ص فوقها وللمد ميم صغيرة متصلة بجزء من الدال، ثم أكمل المشوار تلامذته حتى رست أخيراً بالشكل الذي نراه اليوم.

قال السيوطي: اختلف في نقط المصحف وشكله، ويقال: أول من فعل ذلك أبوالأسود الدولي بأمر عبد الملك بن مروان، وقيل الحسن البصري ويحيى بن يعمر، وقيل:نصر بن عاصم، وأول من وضع الهمزة والتشديد والروم والإشمام الخليل).

يقول د. جواد علي أغلب روايات أهل الأخبار أن الخط العربي الأول لم يكن مشكلاً، وأن الشكل إنما وجد في الإسلام، وكان موجده أبو الأسود الدؤلي، فاستعمل النقط بدل الحركات، ثم أبدل الخليل بن أحمد الفراهيدي النقط برموز أخرى).

وهكذا نرى أن مسألة استقرار إملاء الخط العربي وبلوغه مرحلة "القواعد القياسية" التي نراها حالياً لم تكن إلا بعد طي مراحل عديدة متأخرة عن نزول القرآن بفترة طويلة، فقد كانت قواعده في البداية مبثوثة في بعض كتب النحو واللغة مثل "أدب الكاتب" لابن قتيبة و"الجُمَل" للزجاجي ،وإذا كان الحال كذلك، فإنّ محاكمة القرآن بقواعد إملائية - تحكم رسم وتشكيل وتنقيط الخط العربي - لم تكتمل إلا في وقت متأخر عن نزوله هي إلى العبث أقرب منها للنقد العلمي الذي يستحق أن يُعبأ به). [إعجاز القرآن- الدكتور علاء السالم].

وللأسف فإن التمسك بهذا الخصيصة كلف الكثير وكان سببا في عجزهم عن الصمود أمام الكثير من الإشكالات التي وجهت للمنظومة والبنية اللفظية للقرآن بحسب القواعد النحوية التي كانت رصيدا مهما لمن أشكلوا على تناقضات سجلوها على القرآن بحسب قواعدهم النحوية.

وما الاخفاقات والعثرات التي وسمت ما قدمه المفسرون ورجال الدين على مستوى العقائد والتي ضربت عقيدة التوحيد بالصميم ،وأظهرته بجمل من الشركيات التي يترفع عن قبولها عاقل يحترم عقله فضلا عن معارضتها حتى لصريح آيات القرآن وظاهرها فقد كانت تجسيدا لهذه المغالطات والتقولات.

وأما على مستوى الساحة العلمية فقد تقهقرت جبهة الإسلاميين بكل طوائفهم ولم تعد تقوى على مجرد الدفاع عن فكرتها وتنظيرها فضلا عن إثبات أحقية الطرح الديني ومجاراته للنظريات العلمية والعلم التجريبي المثبت كالتطور وعلم الأحفوريات وعلم الجينات[١] وغيرها.

فاللفظ القرآني يتشكل في نفس الرسول (ص) من خلال الألفاظ التي يختزنها عقله من محيطه كما تم بيانه سابق.

وهذا الأمر ينسحب على كل كلام يتكلم به الله ومنه الرؤى، كونها تنتمي لنفس المنظومة العلوية والملكوتية - منظومة الوحي- والتي لا تقل رمزيتها وأصلها المعنوي عن تلك الرمزية والأصل المعنوي التي تختزنها كلمات وألفاظ القرآن.

عن علي (ع)، قال: (رؤيا المؤمن تجري مجرى كلام تكلّم به الرب عنده)[٢].

فهي معان تتشكل لدى الرائي وفق ما لديه من ألفاظ.

وصية أمير المؤمنين (ع) لكميل: (يا كميل لو لم يظهر نبي وكان في الأرض مؤمن تقي لكان في دعائه مخطئا أو مصيبا، بل والله مخطئا حتى ينصبه الله لك ويؤهله له)[٣].

وكذلك قول أمير المؤمنين (ع) في وصيته لكميل: (الدين لله لن يقبل الله من أحد القيام به إلا نبي أو وصي... يا كميل هي نبوة ورسالة وإمامة ولا بعد ذلك إلا متولين، ومتغلبين، و ضالين، ومعتدين)[٤].

لا تأتوا البيوت من ظهورها

بينا في فقرات سابقة - وفي صميم بحثنا- أن النص القرآني المكتوب موقوف على بيان الثقل الأصغر وهم الأئمة (ع) في كل زمان، وأن أي بيان أو تفسير لآياته من متبرعين فهو في مرمى سهام الاتهام وغير خارج عن الظنون والأوهام، وأن المقصود الإلهي وإن دل بعض ظاهره على صور أو تصور أو معنى يتشكل في ذهن القارئ فهو غير

---

١. المزيد من الحقائق المثبتة علميا والتي لم يتمكن رجال الدين بمختلف مدارسهم ومذاهبهم التعاطي معها. راجع كتاب وهم الإلحاد للسيد أحمد الحسن.

٢. كنز الفوائد - الكراجكي: ص٢١١، بحار الأنوار - المجلسي: ج٥٢ ص٢١٠.

٣. تحف العقول - أبي شعبة الحراني: ص١٧٥.

٤. بحار الأنوار - المجلسي: ج٧٤ ص٢٧٤.

بعيد عن محاكاة قابلية الإنسان ومحيط وجوده في هذا العالم المادي الجسماني والمتخلف برتبته كثيرا جدا عن تلك العوالم الملكوتية التي نزل منها القرآن.

فالحقائق المطلوب معرفتها تكمن وراء هذه الألفاظ ولا يسع لأحد أن يطلع عليها ويبينها سوى المعصومين من آل محمد (ع)، وقد استعرضنا في الفقرات الأولى من البحث بشيء من التفصيل علل وأسباب هيمنة أرواحهم على تلك العوالم ومعرفة معاني آيات القرآن في كل مرتبة من مراتبها.

أما البيوت فتارة تعني هذه البيوت التي يسكنها الإنسان فتكون له مأوى أو مسكن يحفظ عليه شخصه وأسراره ويصونه من حر الصيف وبرد الشتاء، فلا يحق لأحد أن يدخله إلا بإذنه ومن بابه، وهذا أول مصداق ظاهر ومشخص للبيت.

وتارة فإن البيوت أو البيوتات تعني نفس الأشخاص وأحوالهم وصفاتهم وأنسابهم وبمجموعها تكون مصداقا للبيوت بهذا المعنى، وكذلك وبمعنى أوسع ينطبق هذا المصداق على المدينة التي عادة ما يكون لها سور أو أسوار ولها باب أو مدخل.

يقابل هذا المصداق معنى آخر، وهو ما ورد في معنى حديث رسول الله (ص) المشهور" أنا مدينة العلم وعلي بابها ومن أراد المدينة فليأتها من بابها" ومن يأتي من غير الباب تنطبق عليه مدلولات الآية المباركة ولا يكون من الذين اتقوا وأتوا المدينة من بابها.

قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

عن أبي جعفر (ع): (...من أتى آل محمد أتى عينا صافية تجري بأمر الله ليس لها نفاد ولا انقطاع، وذلك أن الله لا أراهم شخصه حتى يأتوه من بابه ولكن جعل الله محمدا وآل محمد (صلى الله عليه وآله) أبوابه التي يؤتى منها وذلك قول الله: * (ليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها)[٢].

علي بن إبراهيم، قال: نزلت في أمير المؤمنين(ع). لقول رسول الله (ص): (أنا مدينة العلم، وعلي بابها؛ ولا تأتوا المدينة إلا من بابها)[٣].

العلم وأصل العلم من الله سبحانه، ومعرفة الله والدخول في حرم الله إنما من باب العلم؛ لأن من يريد الله هو من يعبد الله، وعبادة الله هي معرفته سبحانه، فمحمد (ص) وآل محمد (ع) أبواب معرفته؛ لأنهم حجب الله

---

١. البقرة: ١٨٩.

٢. غاية المرام - السيد هاشم البحراني: ج٤ ص٤٩-٥٠.

٣. البرهان في تفسير القرآن - هاشم البحراني: ج١ص٤٠٩، مجمع الزوائد - الهيثمي: ج٩ ص١١٤. وفي وسائل الشيعة:ج٢٧ ص١٣٤ "أنا مدينة العلم وعلي بابها".

وأبوابه[١]؛ أي منهم يدخل إلى مدينة العلم؛ أي محمد(ص) أو من يقوم مقامه، فأشرف وأعلى مصداق للباب هو باب الله.

لماذا هذه البيوت المخصوصة والتي يفترض أن تؤتى من أبوابها، ولماذا قال أمير المؤمنين (ع) نَحْنُ "الْبُيُوتُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا أَنْ تُؤْتَى مِنْ أَبْوَابِهَا" والمقصود محمد وآل محمد (ع) أوصياءه وخلفاءه في هذه الأرض إلى يوم القيامة؟

ورد في دعاء ليلة النصف من شعبان عن الإمام الباقر (ع): (اللهم صل على محمد وآل محمد شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومعدن العلم وأهل بيت الوحي...)[٢].

فلأنهم أهل بيت الوحي؛ ولأنهم ترجمان الوحي، وأن اتصالهم بالوحي مباشرا ومستمرا كما بينها السيد أحمد الحسن "يوحى لهم في كل آن"- وقد مر تفصيلها- وهذه علة وجودهم بين الناس، وأن الأرض لا تخلو منهم طرفة عين، وهذا البيان وحده كاف لإبطال حجة المفسرين لكتاب الله والقائلين بإمكانية الاستغناء بالقرآن، وإن كان بدعوى عدم تواجده بين الناس ليبيح لهم استنطاق القرآن، والاكتفاء ذاتيا به للحصول على تعاليم القرآن وأحكامه ومعرفة مراد الله فيه.

عن جابر بن عبد الله عن قول رسول الله (ص): (...فنحن الأولون ونحن الآخرون ونحن السابقون ونحن المسبحون ونحن الشافعون ونحن كلمة الله، ونحن خاصة الله، ونحن أحباء الله، ونحن وجه الله، ونحن جنب الله و نحن يمين الله ونحن أمناء الله، ونحن خزنة وحي الله وسدنة غيب الله ونحن معدن التنزيل ومعنى التأويل، وفي أبياتنا هبط جبرئيل، ونحن محال قدس الله، ونحن مصابيح الحكمة ونحن مفاتيح الرحمة ونحن ينابيع النعمة ونحن شرف الأمة، ونحن سادة الأئمة ونحن نواميس العصر وأحبار الدهر ونحن سادة العباد ونحن ساسة البلاد ونحن الكفاة والولاة والحماة والسقاة والرعاة وطريق النجاة، ونحن السبيل والسلسبيل، ونحن النهج القويم والطريق المستقيم. من آمن بنا آمن بالله، ومن رد علينا رد على الله، ومن شك فينا شك في الله، ومن عرفنا عرف الله، ومن تولى عنا تولى عن الله، ومن أطاعنا أطاع الله، و نحن الوسيلة إلى الله والوصلة إلى رضوان الله، ولنا العصمة والخلافة والهداية، و فينا النبوة والولاية والإمامة، ونحن معدن الحكمة وباب الرحمة وشجرة العصمة، و نحن كلمة التقوى والمثل الاعلى والحجة العظمى والعروة الوثقى التي من تمسك بها نجا)[٣].

---

١. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ(ع): (آلُ مُحَمَّدٍ أَبْوَابُ اللَّهِ وَ سُبُلُهُ، وَ الدُّعَاةُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَ الْقَادَةُ إِلَيْهَا، وَ الْأَدِلاَّءُ عَلَيْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[مجمع البيان- الطبرسي: ج٢ ص٥٠٩]، وعن الأصبغ بن نباتة قال: كنت عند أمير المؤمنين عليه السلام فجاءه ابن الكوا فقال: يا أمير المؤمنين قول الله عز وجل: "ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها" فقال عليه السلام: (نحن البيوت أمر الله أن تؤتى أبوابها، نحن باب الله وبيوته التي يؤتى منه، فمن تابعنا وأقر بولايتنا فقد أتى البيوت من أبوابها، ومن خالفنا وفضل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها، ان الله عز وجل لو شاء عرف الناس نفسه حتى يعرفونه ويأتونه من بابه، ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله، وبابه الذي يؤتى منه، قال: فمن عدل عن ولايتنا وفضل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها...)[الاحتجاج - الطبرسي:ج١ ص٣٣٨].

٢. مصباح المتهجد - الشيخ الطوسي: ص٨٣٣.

٣. بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٥ ص٢٢.

فخلاصة ما نريد إبرازه والتأكيد عليه في مسيرة بحثنا المتواضع كأنما جمع في رواية جابر بن عبد الله (رض)، وكل وصف فيها باب مفتوح لا تسعه أرض ولا سماء ولكني اخترت بعضا منها لا لأفضلية يراها عقلي القاصر إنما لعلاقتها وارتباطها بمواضيع البحث، فهم (ع):

- **وجه الله**

عن جابر بن يزيد، عن أبي جعفر(ع)، في قوله: وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها الْآيَةَ. قَالَ : (يعني أن تأتي الأمور عن وجهها، وفي أي الأمور كان)[١].

الحكمة التي يمكن أن تكون حاضرة في هذا المقصد هو أنه هناك وجهة واحدة، وهذه الوجهة يفترض أن تكون مقصد الخلق؛ لأنه في الحقيقة قضية الخلق والوجود هي علاقة بين الخالق والمخلوق، وهذا الخالق لا يمكن أن تتعدد جهته أو وجهه سبحانه أو تتغير، فوجه الله واحد، فلا يوجد ولا يمكن أن يكون غيره؛ لأنه وبغض النظر عن حقيقة هذا الوصف ومن يعني فإن تعدده يعني تعدد الآلهة ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٢].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[٣].

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٤].

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[٥].

عن أبي جعفر (ع): (نحن المثاني الذي أعطاه الله نبينا محمدا (ص) ونحن وجه الله نتقلب في الأرض بين أظهركم...)[٦].

في دعاء الندبة: (..أين باب الله الذي منه يؤتى، أين وجه الله الذي يتوجه إليه الأولياء، أين السبب المتصل بين الأرض والسماء)[٧].

عن أبي عبد الله (ع) في قول الله عز وجل: "كل شيء هالك إلا وجهه"، قال: (من أتى الله بما أمر به من طاعة محمد (ص)، فهو الوجه الذي لا يهلك وكذلك قال: ومن يطع الرسول فقد أطاع الله)[٨].

---

١. تفسير العياشي: ج١ ص٨٦.
٢. البقرة : ١٣٣.
٣. المؤمنون: ١١٧.
٤. البقرة: ١١٥ .
٥. الكهف: ٢٨.
٦. الكافي - الكليني: ج١ ص١٤٣.
٧. بحار الأنوار - المجلسي: ج٩٩ ص١٠٧.
٨. نفس المصدر.

سئل أبو عبد الله (ع) عن قول الله تبارك وتعالى: "كل شيء هالك إلا وجهه، فقال: ما يقولون فيه؟ قلت: يقولون يهلك كل شيء إلا وجه الله فقال: (سبحان الله لقد قالوا قولا عظيما، إنما عني بذلك وجه الله الذي يؤتى منه)[١].

عن صفوان الجمال، عن أبي عبد الله (ع) في قول الله عز وجل: (كل شيء هالك إلا وجهه) قال: (من أتى الله بما أمر به من طاعة محمد والأئمة من بعده صلوات الله عليهم فهو الوجه الذي لا يهلك، ثم قرأ: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[٢])[٣].

أبو عبد الله (ع): (... وأمناؤه على وحيه، و خزانه على علمه، ووجهه الذي يؤتي منه وعينه في بريته، ولسانه الناطق، و قلبه الواعي، وبابه الذي يدل عليه، ونحن العاملون بأمره، والداعون إلى سبيله، بنا عرف الله، وبنا عبد الله، نحن الأدلاء على الله، ولولانا ما عبد الله)[٤].

فهم (ع) وجه الله، ووجهته سبحانه الجهة المطلقة التي يصوب إليها وجهه من يطلب الدين ويريد التسليم له سبحانه، وهذه هي العلاقة الحتمية والملازمة الذي يفرضها المشروع المعرفي لتتحقق الغاية والهدف من الخلق والوجود .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[٥].

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[٦].

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾[٧].

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٨].

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[٩].

---

١. نفس المصدر السابق.

٢. النساء: ٨٠.

٣. التوحيد - الصدوق: ص١٤٩.

٤. التوحيد - الصدوق: ص١٥٢، وفي رواية أخرى عنه (ع) " وخزائنه في سمائه وأرضه" وهذا يوضح لنا معنى أنهم محال معرفة الله وعيبة علمه وأن أرواحهم مهيمنة على كل العوالم والسموات التي نزل منها الوحي، وهم في الأرض المصدر الوحيد للعلم الإلهي ؛ لأنهم خزنة علمه المتجدد في كل آن. وهو مصداق قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

٥. النساء: ١٢٥.

٦. لقمان: ٢٢.

٧. الروم: ٤٣.

٨. يونس: ١٠٥.

٩. الروم: ٣٠.

- **يمين الله**

وردت مفردة اليمين المضافة إلى الله في آية قرآنية مباركة، والتي عضدها قول رسول الله (ص) بالحديث المتقدم.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١].

سبق وأن بينا أن السموات سبع ست منها ملكوتية والسابعة سماء كلية أو سماء العقل التام وهو مقام الرسل والأنبياء والأوصياء (ع)، والسموات مراتب معرفية كما أن في كل سماء مراتب وفي كل مرتبة ترجمة ومعان لحقائق القرآن تناسب مقامهما ومقام أهل تلك المرتبة، وأرواح محمد وآل محمد (ع) مهيمنة على جميع تلك المراتب.

فيمين الله الذي طويت به السموات هم أبواب الله وحججه والناطقين عنه، وهذه الحقيقة التي تُنزه الله سبحانه عن صفات المخلوقين التي تاهت في بيانها عقول الرجال، وإنما نسبت هذه الصفات له سبحانه من جهة تجليها بأقرب خلقه إليه الذين اختارهم حملة علمه أو عرشه[٢].

---

١. الزمر: ٧٦.

٢. (أما في مرتبة ما دون الذات الإلهية أو الله أي في مراتب الخلق والتنزل فإن مراتب التجلي أو المقامات عشرة هي: سرادق العرش الأعظم، والعرش الأعظم، والكرسي، ثم العرش العظيم، وفيه سبع مراتب أو مقامات هي السماوات السبعة تنزلاً من السابعة إلى السماء الأولى أو الدنيا.

وخير خلق الله محمد (ص) يمتد بصفحة وجوده من سرادق العرش الأعظم إلى السماء الدنيا، فأول مراحل التجلي هي: النقطة الأولى (البرزخ) أو سرادق العرش الأعظم، ثم مرحلة التجلي الثانية هي وعاء النون أو العرش الأعظم، ثم مرحلة التجلي الثالثة وهي وعاء الباء أو الكرسي، ثم مرحلة التجلي الرابعة وهي النقطة الثانية في الخلق، وجميع هذه المراحل الأربعة هي محمد (ص) فهو نقطة النون والنون، وهو الباء ونقطة الباء، أو قل هو الفيض النازل من الحق إلى الخلق، وهو أي محمداً (ص) في المراحل الثلاث الأولى (سرادق, العرش, الكرسي) برزخ بين الحق والخلق فهو يخفق فساعة لا يبقى إلا الله الواحد القهار وساعة يعود إلى الأنا والشخصية، أما في مرتبة العرش العظيم فهو مستقر في الخلق وهو عبد الله.

ويجب الالتفات إلى أن النقطة الأولى هي القرآن وهي الحجاب الذي بين محمد (ص) وبين الله (كان بينهما حجاب يتلألأ يخفق) وعند الفتح (فنظر في مثل سم الإبرة) ([الكافي - الكليني: ج١ ص٤٤٢.])، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾([الفتح: ١])، رفع هذا الحجاب بأن احتواه محمد (ص) فأصبح القرآن ومحمد (ص) واحداً، وهو يخفق بين فناء فلا يبقى إلا الله الواحد القهار وبين عودة الأنا والشخصية الإنسية..... فهو (ص) الله في الخلق وكذلك أهل بيته (ع) في مرتبة دون مرتبة الرسول الأعظم صلوات الله عليه، فهم أيضاً وجه الله وأسماء الله الحسنى، فهم يمثلون الله في الخلق وكل منهم يؤله إليه ويقصد في قضاء الحاجات وسد النقص وبلوغ الكمال، فهم على درجة عالية من الكمالات الإلهية ولكنها مقيدة بالحاجة والفقر لله سبحانه وتعالى، أما ألوهيته سبحانه وتعالى فهي ألوهية مطلقة وهي كمال وغنى مطلق وعطاء وفيض غير مقيد إلا بمشيئته سبحانه وتعالى) [التوحيد- السيد أحمد الحسن: الله في الخلق]، ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾([البقرة: ١٩٦])، أي: إنّ الثلاثة هي سرادق العرش الأعظم والعرش الأعظم والكرسي. وهذه الثلاثة كلها محمد (ص)، فهم (ع) كلهم محمد (ص)، وأيضاً لكل منهم مقامه ودوره، فمحمد (ص) هو سرادق العرش الأعظم فهو (ص) الحجاب بين الخالق وخلقه ولولاه لم تفاض المعرفة فهو (ن) في قوله تعالى: ﴿نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾([القلم: ١])، والأئمة هم العرش الأعظم فمنهم تفاض المعرفة فهم (القلم) في قوله تعالى: ﴿نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾) [الجواب المنير - السيد أحمد الحسن: ج٣ س٢٩٩]. والقرآن هو نقطة النون، وهو الفيض النازل من الله لمحمد (ص) عبد الله، والقرآن وجه الله الذي واجه به محمداً (ص)، والقرآن هو الحجاب النوري بين الله ومحمد (ص)، كما ورد في الرواية عن الصادق (ع): (... وبينهما حجاب يخفق ...) ([تفسير الصافي: ج٥

أما معنى العرش الذي شرق به المفسرون وغربوا، فهو العلم الإلهي في كل مراتب التنزل، وهو العلم المتجدد المحمول على جناح الوحي في كل زمان وفي كل آن، المنفعل في روح كل خليفة إلهي وروح كل وصي من أوصياء محمد (ص)؛ لأنهم محل مشيئة الله سبحانه وترجمان القرآن.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[١].

يقول السيد أحمد الحسن:

(العرش هو القرآن، والماء هو محمد (ص)[٢] نور الله سبحانه وتعالى، وهو يجري في السماوات والأرض، وفي الخلق كما يجري الماء في الأنهار)[٣].

فمحمد (ص) ومن يقوم مقامه مادامت السموات والأرض هم حملة العرش وهم القرآن ومعاني القرآن في كل زمان، وهذا بحد ذاته مانع لمتقول على الله وعلى القرآن وعلى الوحي الذي نزل به، إذ يتصدى لبيان معاني آياته.

في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾

يقول السيد أحمد الحسن:

(قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[٤]، فلو كان المراد بالقرآن في هذه الآيات: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ هو الألفاظ فقط الموجودة عند كل الناس لما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ ومعنى مكنون هنا أي محفوظاً ومخزوناً. ثم إنّه ليس فقط محفوظاً في كتاب، بل هذا الكتاب ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾. فهذه الـ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ التي تسأل عنها، لا يمسّها ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾؛ لأنّها في ﴿صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾[٥])[٦].

ص٨٤]).والقرآن هو سرادق عرش الله الأعظم، وهو عرش الله الأعظم المواجه لباب الله أو الذات (الرحمن)، وفي دعاء الحسين (ع) في عرفة: (يا من استوى برحمانيته فصار العرش غيباً في ذاته محقت الآثار بالآثار ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار، يا من احتجب في سرادقات عرشه ...) ([فقرة من دعاء يوم عرفة للإمام الحسين (ع)، راجع: بحار الأنوار - المجلسي: ج٩٥ ص٢٢٧.]). [المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٣ س٨١].

١. هود: ٧.

٢. عن أمير المؤمنين (ع) في جواب سؤال رأس الجالوت لما سأله عن أصل الأشياء، قال: (هو الماء لقوله تعالى: وجعلنا من الماء كل شيء حي) [بحار الأنوار: ج٤٠ ص٢٢٤، وعن أبي جعفر (ع): (يا جابر، إن الله أول ما خلق خَلق محمد (ص) ...) [الكافي: ج١ ص٤٤٢]، بل خلق قبل الخلق بألفي عام كما في الحديث [انظر: بحار الأنوار - المجلسي: ج٣ ص١٢]. وواضح اتحاد المخلوق الأول لله سبحانه، أي أنّ محمداً (ص) هو الماء، وهو الذي خلق منه كل شيء، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله (ع) قال: (سألته عن أول ما خلق الله عز وجل؟ قال: إن أول ما خلق الله عز وجل ما خلق منه كل شيء، قلت: جعلت فداك وما هو؟ قال: الماء ...) [علل الشرائع - الصدوق: ج١ ص٨٣].

٣. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٢ س٦٧.

٤. الواقعة: ٧٧-٧٩.

٥. البينة: ٢.

٦. الجواب المنير عبر الأثير - السيد أحمد الحسن: ج٢ س٦٥.

عن بريد العجلي، قال: سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله تعالى: ﴿صُحُفاً مُطَهَّرَةً فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾، قال: (هو حديثنا في صحف مطهرة من الكذب)[١].

لا ينقضي العجب عندما تكون كل هذه الوثائق والدلائل موجودة[٢] بين أيدي المفسرين والمتشاغلين بالقرآن وهم يضربون بها عرض الجدار!

علي بن إبراهيم (... قوله تعالى: وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ، قال: اليمين: عليّ أمير المؤمنين(عليه السلام) و أصحابه و شيعته...)[٣].

فعلي (ع) يمين الله ومن يقوم مقامه بعد رحيله (ع) من أولاده الأوصياء المعصومين؛ لأن المشروع واحد باق ما بقيت السموات والأرض، أما أصحابه وشيعته فهم بالتزامهم بتعاليم وعلوم علي وتسليمهم له (ع) يكونون يمين الله بها المعنى.

فقد ورد عن أمير المؤمنين (ع): (كان الأشتر لي كما كنت لرسول الله (ص))[٤]، ويبدو أن هذا المعنى كان متحققا حتى أن ألد أعداء علي قالها فيه عندما وصله خبر استشهاد مالك (رض)، وكان قد خطط لقتله بالسم، حين بلغ معاوية خبره قام خطيبا في الناس فقال: (إن عليا كانت له يمينان قطعت إحداهما بصفين - يعني عمارا - و الأخرى اليوم، ثم حكى لهم قصة قتله)[٥].

- **خزنة وحي الله**

(صيغة الجمع) خَزائنُ مَكان الخَزْن. قال تعالى: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ} [الحِجر:٢١].(خِزانَةُ الثّيابِ) صُندوق من الحَديد توضَع فيه الأموال والأشياء الثَّمينة. السِّرّ: القَلْب؛ الإنسان: قَلْبه؛ خَزائِنُ الله: غُيوب عِلْمه لغُموضها على النّاس)[٦].

---

١. بصائر الدرجات- للصفار: ص٥١٦.

٢. عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل: "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب" قال: هم مكذبو الشيعة، لان الكتاب هو الآيات، وأهل الكتاب الشيعة، وقوله:" والمشركين منفكين " يعني المرجئة " حتى تأتيهم البينة " قال: يتضح لهم الحق وقوله: " رسول من الله " يعني محمدا صلى الله عليه وآله " يتلو صحفا مطهرة " يعني يدل على اولي الامر من بعده وهم الأئمة عليهم السلام وهم الصحف المطهرة، وقوله: "فيها كتب قيمة" أي عندهم الحق المبين، وقوله: " وما تفرق الذين أوتوا الكتاب "يعني مكذبو الشيعة، وقوله: "إلا من بعدما جاءتهم البينة" أي بعدما جاءهم الحق "وما أمروا" هؤلاء الأصناف "إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين" والاخلاص الايمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام.....)[بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٣ ص٣٦٩]، م محمد بن عيسى بن عبيد، قال: سألت أبا الحسن علي بن محمد العسكري عليهما السلام، عن قول الله عز وجل: (والأرض جميعا قبضته يوم القيمة والسماوات مطويات بيمينه) فقال: ذلك تعيير الله تبارك وتعالى لمن شبهه بخلقه، ألا ترى أنه، قال: (وما قدروا الله حق قدره) ومعناه إذ قالوا: إن الأرض جميعا قبضته يوم القيمة والسماوات مطويات بيمينه، كما قال عز وجل: (وما قدروا الله حق قدره) إذ قالوا: ﴿ما أنزل الله على بشر من شئ﴾ ثم نزه عز وجل نفسه عن القبضة واليمين فقال:(سبحانه وتعالى عما يشركون))[التوحيد - الصدوق: ج١ ص١٦٠-١٦١].

٣. تفسير القمي: ج٢ ص٣٤٨.

٤. الكنى و الألقاب - عباس القمي: ج٢ ص٢٨- ٣٢.

٥. بحار الأنوار - المجلسي: ج٣٣ ص٥٩١، الاختصاص - المفيد: ص٨١.

٦. لسان العرب - ابن منظور: ج١٣ ص١٣٩.

خ ز ن: خَزَن المال جعله في الخِزانةِ و اخْتَزَنَه أيضا و خَزَن السر كتمه و اخْتَزَنَهُ أيضا ،و المَخْزَنُ ما يُخزن فيه الشيء و الخِزَانةُ واحدة الخَزَائِن)[١]. وقيل للغُيوب خَزائنُ لغموضها على الناس واستتارها عنهم وخَزَن المالَ إذا غيَّبه....وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم)[٢].

فما يمكن أن ينطبق على خزنة وحي الله بحسب هذه المعاني هو حفظ الوحي وسره، وحجبه عن الناس بمقدار يناسب حال الناس، ولكن المعنى الآخر الذي يتجاوز ظاهر مفردة "الخزنة" حاضر في حقيقته وراء الألفاظ وبيانه متوقف على بيان هؤلاء الخزنة (ع).

عن الحسن بن محبوب، عن مقاتل بن سليمان، قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: (لما صعد موسى عليه السلام إلى الطور فنادى ربه عز وجل قال: يا رب أرني خزائنك، فقال: يا موسى إنما خزائني إذا أردت شيئا أن أقول له: كن فيكون)[٣].

وهذا يمكن أن يكون حدا يفترض أن يقف عنده المفسرون للنص القرآني عندما يختزلونه بمعنى محدد يحاكي ظاهرا من النص ليس إلا.

فمعنى كونهم عليهم السلام الخزنة فهو أقرب ما يكون من معنى المحالّ، أو "محالّ معرفة الله" و" محالّ مشيئة الله"، ولكن ما أريد التنويه له هو أن معنى الخزنة يرتقي عن حدود المكان أو الموضع الذي تحفظ فيه المعلومة الجامدة، أو لنقل المعنى الوحيد للمفردة أو العبارة أو النص القرآني في كل زمان ومكان وحال، وإنما هي موضع انفعال المعلومة المتجددة[٤] بتجدد مشيئة الله ووحيه سبحانه، ولعل هذا هو المعنى المرتبط بقول الله عز وجل" إِنَّمَا خَزَائِنِي إِذَا أَرَدْتُ شَيْئاً أَنْ أَقُولَ لَهُ: كُنْ: فَيَكُونُ"، وقد مر معنى "إذا شاء الله شئنا".

قال علي بن الحسين عليه السلام: (نحن الوجه الذي يؤتى الله منه وقوله (يسئله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شان) قال يحيي ويميت ويرزق ويزيد وينقص)[٥].

وهذا أيضا يمكن أن يكون مرتبطا بمعنى قوله تعالى: "وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" وما تعرضنا له في فقرة سابقة "وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ".

- **معدن التنزيل ومعنى التأويل**

معدن الشيء: المَعْدِنُ مَكَانُ كُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ فِيهِ أَصله ومَبْدَؤه نَحْوُ مَعْدِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ والأَشياء[٦].

---

١. مختار الصحاح - الرازي: ج١ص٩٠.

٢. لسان العرب - ابن منظور: ج١٣ ص١٣٩.

٣. التوحيد - الصدوق : ص١٣٣.

٤. (فلابد أن يكون خليفة الله متصلا بالله ويعلمه ما يحتاج إليه في تبليغ رسالته وإيصال الدين الحق الذي يرضاه الله للناس، وكل ما يستجد من أحكام إلهية والقول الفصل وحسم ما يختلف فيه الناس) [عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص٩٣].

٥. تفسير القمي: ج٢ ص٣٤٥.

٦. لسان العرب - ابن منظور: ج١ص١٥٤.

فهم معادن التنزيل أي أصل التنزيل؛ لأن لهم مقاما في كل مقامات التنزل التي يتنزل فيها الفيض الالهي والقرآن بالوحي؛ بل لولا وجودهم لما كان تنزلا ولا تنزيلا، وهذا أيضا تعرضنا لبيان معناه في الحديث القدسي "لولاك ما خلقت الأفلاك".

أما كون وجودهم في كل المقامات والعوالم، أو قل السموات أو مقامات التنزل؛ فلأن أهل كل مقام محتاج لهم لهيمنة أرواحهم على كل العوالم وآخرها وجودهم المقدس في هذا العالم، يبلغون رسالة الله ويعلمون الناس العلم الإلهي الموجب لنجاتهم والمتعلق بمعرفة الله سبحانه، وهو سبب وجودهم في عالم الامتحان الثاني، وأكيد سيكون هذا الموجب متعلقا باختيار الناس لهم وطلبهم الحقيقي للعلم "فلا إكراه في الدين".

أما التأويل: (من المصطلحات المختلف عليها في علوم الدين والقرآن عند المسلمين فمنهم من قال: يطلق في القرآن والسنة ويراد به التفسير، كما يراد به الحقيقة التي يؤول إليها الأمر أو الخبر. تأويل الكلام هو الرجوع به إلى مراد المتكلم، وهو على قسمين: الأول: بيان مراد المتكلم، وهذا هو التفسير. الثاني: الموجود الذي يؤول إليه الكلام، أي ظهور المتكلم به إلى الواقع المحسوس. وهناك من قال بأن التفسير غير التأويل مثل قول (الثعلبي): التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، والتأويل تفسير باطن اللفظ.

التأويل في اللغة: (هو الإرجاع. و"أوّلَ الشئ" أي أرجعه، وآل إليه الشيء أي رجع إليه وهو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى آخر يحتمله لدليل. و(أوّل) الشيء إليه أرجعه، و(أوّل) الكلام يعني فسره... فكأن التأويل هو إرجاع للكلمة المرادة إلى أصل أبعد من المعنى الحرفي لها. أي أن التأويل إرجاع أبعد من إرجاع المفردة العادية، أو، قل، هو إرجاع ثنائي، أولا يتم إرجاع الكلمة إلى الذهن لمعرفة معناها، ثم يتم إرجاع المعنى إلى ما وراء المعنى المصطلح عليه للتوصل إلى (معنى المعنى))[١].

(يعدّ جميع فقهاء اللغة أنّ لفظة التأويل هي من الجذر اللغوي (أوّل)، فالتّأويل من الأول، أي: الرجوع إلى الأصل، ومنه: المَوئِلُ للموضع الذي يرجع إليه، وذلك هو ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، قولا(علما) كان أو فعلاً[٢] أي: تفسير الكلام الذي تختلف معانيه، ولا يصحّ إلا ببيان غير لفظه)[٣].

التأويل اصطلاحاً

ما ورد من أقوال في معنى التأويل كثيرة جدا لسنا في محل احصائها أو حتى مناقشتها، ومن يرغب في الزيادة يمكنه مراجعة المصادر التي ذكرناها.

أبو عبيدة وطائفة معه: (التفسير والتأويل بمعنى واحد، فهما مترادفان وهذا هو الشائع عند المتقدمين من علماء التفسير)[٤].

---

١ .متاح على: https://ar.wikipedia.org/wiki/%D٨%AA%D٨%٣A%D٩%٨٨%D٩%٨٤%D٨%٩A

٢. تاج العروس - الزبيدي: ج١٤ص٣٢-٣٣.

٣. كتاب العين - الفراهيدي: ج٨ ص٣٦٩.

٤ .راجع كتاب التفسير والمفسرون- د. مصطفى محمد حسين الذهبي: ج١ ص٢٢. (١٤٢٣-هـ- ٢٠١٢) دار الحديث- القاهرة.

إن التأويل هو: (إرجاع الكلام وصرفه عن معناه الظاهري إلى معنى أخفى منه، وتأوّلَ فلان الآية أي: نظر إلى ما يؤول معناه)[١].

إن التأويل هو: (ردّ أحد المُحتَمَلين إلى ما يطابق الظاهر)[٢].

الأقوال في معنى التأويل:

قول المتقدمين:

جعل القدماء التأويل مرادفاً للتفسير وبناءً على هذا المعنى أصبح لكلّ آيات القرآن تأويل، ولكن بمقتضى آية: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ﴾[٣]، فلا أحد يعرف تأويل الآيات إلا الله[٤]، (التأويل والتفسير) لها المعنى ذاته)[٥].

قول المتأخرين:

معنى تأول القرآن هو البيانات والانطباعات المخالفة لظاهر اللفظ، أو هو بيان للمراد والمقصود الحقيقي للآية والذي لا يتواجد في ظاهر لفظها، ويتوافق في الوقت نفسه مع سياق الآيات السابقة واللاحقة. وبمعنى اخر: إنّ التأويل هو الابتعاد عن المعنى الظاهري للفظ استناداً إلى الدليل والقرينة، وأن للقرآن ظاهر وباطن[٦].

قول المعاصرين:

وقد تمخضت (بحسب دراساتهم)[٧] بمعنيين:

١- المؤوِّل يقوم بإرجاع المعنى الظاهريّ للمتشابه ويحيله للمعنى الذي انطلق منه، أو أنه يظهر حِكمة عمل يشوب ظاهره شبهة ما. علماً أنّ المتشابه في المصطلح القرآني يطلق على لفظة تحتمل عدّة معانٍ.

٢- الإفصاح عن المعاني الباطنية للآيات؛ طبقاً للحديث الوارد من أنّ للقرآن ظاهراً وباطناً[٨] وهذا يعني أنّ التأويل يجري في جميع الآيات القرآنية. أيّ لكل آية من القرآن لها رسالة خالدة وتلك الرسالة تحتجب وراء ستار اللفظ.

أوردت هذه الاقتباسات بخصوص معنى التأويل مع إني لست بصدد مناقشة تفصيلية لأهل التأويل أو التفسير، ولكني وجدت فيها ما يقدم لنا قراءة موجزة تسمح بتناولها في هذا المختصر ؛ لكونها مردودة كذلك بمختصر من ظاهر الآيات والروايات وهي كفيلة بأن تطيح بكل مقولة وإن كانت تتقدمها جيوش من المسوغات والمبررات لتأويل أو تفسير القرآن.

---

١. مجمع البحرين - الطريحي: ج٥ ص٣١١.
٢. تاج العروس - الزبيدي: ج١٤ص٣١.
٣. سورة آل عمران: ٧.
٤. القاموس المحيط - الفيروز آبادي: ج١ ص٨٠.
٥. مجاز القرآن - أبو عبيدة: ج١ ص٨٦.
٦. التفسير الكبير - الفخر الرازي: ج٧ ص١٨٩.
٧. تلخيص التمهيد - معرفة: ج١ ص٤٢٩.
٨. عوالي اللئالي - ابن أبي جمهور: ج٤ص١٠٧.

لذلك أقول:

إن تعريفات التأويل أو التفسير وبيانهم لحدودها ومعانيها حتى ممن يسوغون العمل بها حاكمة على حصرها بالرجوع إلى الأصل أو مراد المتكلم[١]، ومن جهة لغوية، هو الرجوع إلى "أول" أو الأصل، والابتعاد عن المعنى الظاهري للفظ وبيان المراد والمقصود الحقيقي من اللفظ، وهذا غير متحقق؛ لأن كل المتصدين ليسوا متصلين بالوحي، وهو ما حاولنا طيلة البحث أن نؤكده ونثبته، وقلنا أن المعاني والحقائق القرآنية ليست حبيسة المعنى المستفاد من اللفظ القرآني وإنما هي تحت طائلة فرسان العوالم الملكوتية التي نزل منها القرآن، العارفين بالحقائق التي يتكيف بموجبها اللفظ القرآني في كل آن، الذي يعطي معانيها ويشخص مصاديقها في الزمان والمكان.

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[٢].

فالراسخون في العلم المتصلون به سبحانه، الذين عرفهم ويعرفهم مراده على الدوام، وهنا افتراق واضح وخطير بين المعاني الجامدة المستفادة من الألفاظ القرآنية التي يقدمها المؤولون والمفسرون وبين المعاني المتحركة على مستوى عمقها ووجوه انصرافها في الواقع المتغير في الزمان والمكان والظرف.

بقراءة واقعية لمناهج التأويل والتفسير على طول الفترة الزمنية الممتدة بعد رحيل المؤول الأول رسول الله (ص) والعارف بمراد مكلمه سبحانه، نجد أن مناهج التأويل والتفسير منيت بهزيمة نكراء على مستوى التطبيق، لما سببته من انشطارات مخيفة في منهج كان يفترض أن يبقى القطب الأوحد في قيادة الأمة؛ بل قيادة الإنسانية جمعاء، وأن جبهة المفسرين بمختلف مرجعياتهم تعاني من انهيارات واضحة على المستوى العلمي والواقعي، والذي لم يعد يصمد بمجمله حتى على مستوى الدفاع عن متبنياته ومناهجه إلى درجة فقد فيها القابلية على ترميم التصدعات والانهيارات.

مناهج فقدت القابلية في القدرة على التقييم ووضع المعالجات، وخصوصا بعد ما أثبت العلم التجريبي علو كعبه في إثبات حقائق مازال العجز والفشل يؤطر تفسيراتهم الخاطئة لها باسم الدين، وباتوا يترنحون أمام عواصف الاثباتات العلمية لكثير من النظريات التي تفسر تاريخنا وتطورنا من جهة، وفقدان القدرة على مواجهة الإلحاد العلمي بشكل خاص.

ولذلك تسجل لنا مجريات الأحداث المتعلقة بمواجهة رجال الدين القائمين على مناهج التفسير والتأويل محاولاتهم للإبقاء على المنهج الموازي لمنهج القرآن وأهل القرآن، وهي بمجموعها محاولات للإبقاء على القائد الإلهي المتصل بالوحي بعيدا عن قيادة الأمة، والمعد لتقديم المناهج الكفيلة بالفوز والنجاة والعيش الكريم، وإفشاء

---

١. هكذا كان سؤال الإمام الصادق عن طريق أد تلامذة ما يسمى بفيلسوف العراق (الكندي) في زمانه الذي أخذ في تأليف "تناقض القرآن" فقل له أن أتاك هذا المتكلم بهذا القرآن، هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم منه غير المعاني التي قد ظننتها إنك ذهبت إليها؟ فإنه سيقول لك إنه من الجائز لأنه رجل يفهم إذا سمع، فإذا أوجب ذلك فقل له: فما يدريك لعله قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه فيكون واضعاً لغير معانيه" راجع [مناقب آل أبي طالب - ابن شهر آشوب: ج٣ ص٥٢٥-٥٢٦]، [بحار الأنوار - المجلسي: ج١٠ ص٣٩٢].

٢. سورة آل عمران: ٧.

المبادئ الإنسانية في المجتمعات، وتعريف الناس بحقيقة وجودهم في هذا العالم والعالم الذي نزلوا منه والذي هم ذاهبون إليه، فضلا عن تقديم الحلول الناجعة للمعضلات التي تعترض حياة الناس وما يستجد في دين الله، والدفاع عن دين الله أمام هجمات الشياطين بكل أشكالها.

عن الفضيل قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: (إن قائمنا إذا قام استقبل من جهلة الناس أشد مما استقبله رسول الله (ص) من جهال الجاهلية فقلت: وكيف ذلك؟ قال: إن رسول الله (ص) أتى الناس وهم يعبدون الحجارة والصخور والعيدان والخشب المنحوتة، وإن قائمنا إذا قام أتى الناس وكلهم يتأول عليه كتاب الله، ويحتج عليه به، ثم قال: أما والله ليدخلن عليهم عدله جوف بيوتهم كما يدخل الحر والقر)[١].

عن أبي بصير عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: (نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله)[٢].

لذلك ورد في قول رسول الله (ص) نحن معنى التأويل.

وسواء كان التأويل يعني التفسير أو العكس، فكلاهما يؤديان معنى بيان المراد الإلهي والمقصود الحقيقي لكل آية في كتاب الله، وحتى وإن ذهب البعض منهم بحصر التفسير بمعنى ظاهر اللفظ القرآني، ووضع اللفظ على الحقيقة أو المجاز بحسبهم، فهو ما يساوي حمل الماء بغربال، هذا إذا لم نرصد حجم التجني والتدليس والتزييف والذي نتج عنه درس معالم الدين وقلب الحقائق التي أغرقت الناس في ظلمات التيه والجهل.

الذين يصدون عن سبيل الله: عن دينه. ويبغونها عوجا: (يطلبون لسبيل الله زيغا عن الاستقامة يحرفونها بالتأويل، أو يبغونها بالانحراف عن الحق والصواب. وهم بالآخرة هم كافرون)[٣].

- **نحن السبيل**

السبيل في اللغة: الطريق الممتد، وقد يفهم منه أنه مرادف للطريق، ولكن بتتبع مفردة السبيل ومواقعها في السياقات القرآنية أو في بيان معناها عند أئمة الهدى (ع) فهو الطريق المؤدي إلى جهة أو مآل إما مآل الخير أو الشر " ادع إلى سبيل ربك"، " في سبيل الله"، "سبيل الرشد" أو "لتستبين سبيل المجرمين" أما ورود السبيل بصيغة الجمع " السبل" فسبيل واحد منها هو الحق بالقطع واليقين وهو السبيل المعرَّف؛ لأن الله تعالى يقول: قل هذه سبيلي" وقال تعالى: ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيلي"[٤].

ولذلك لا تأتي مفردة الطريق دالة على معنى مخصص مالم تضاف إلى اسم أو أن تكون موصوفة.

قال البغوي: سبيله: (هذا الذي وصيتكم به في هاتين الآيتين {صراطي} طريقي وديني)[٥].

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ج٥٢ ص٣٦٢.

٢. الكليني - الكافي: ج١ص٢١٣. وقد مر بيان تظافر هذا المعنى في روايات أهل البيت (ع).

٣. التفسير الصافي - الفيض الكاشاني: ج٢ ص٤٣٩.

٤. إسلام ويب: ألفاظ قرآنية /https://islamweb.net/ar/article/١٧٣٧٥١

٥. تفسير البغوي: ج٣ ص١٥.

قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١].

فهو السبيل الوحيد[٢] الذي ارتبط بالهدى، وهو ما فُطر عليه الإنسان، وهو معرفة المعرف بالله في كل زمان، فبعد أن عرفه الله سبحانه للخلق، فإما شاكرا لله على نعمة معرفته واتباعه والسير على نهجه وهديه الموصل لمعرفة الله، أو الجحود والكفر به واتباع غيره.

﴿وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظّٰالِمُ عَلىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يٰا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾[٣].

عن حريز، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (قوله عز وجل: (يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا)، يعني علي بن أبي طالب عليه السلام)[٤].

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[٥].

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾[٦].

وَ قٰالُوا رَبَّنٰا إِنّٰا أَطَعْنٰا سٰادَتَنٰا وَ كُبَرٰاءَنٰا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ و هما الرجلان، و السادة و الكبراء، هما أول من بدأ بظلمهم و غصبهم. قال: قوله: فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ أي طريق الجنة، و السبيل: أمير المؤمنين(ع))[٧].

وَأَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ - إلى قوله تعالى- بِمٰا كٰانُوا يَصْدِفُونَ.. علي بن إبراهيم: ("وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِي مُسْتَقِيماً " قال: الصراط المستقيم: الإمام فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ يعني غير الإمام فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ يعني تفترقون و تختلفون في الإمام)[٨].

ابن شهراشوب: عن الباقر(ع) قَالَ: (« قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي نفس رسول الله (ص) وعليا (ع)[و] من تبعه آل محمد (ص))[٩].

فالسبيل واحد والمنهج واحد، وهو منهج رسول الله (ص) وعلي (ع)[١٠] وأول من عمل به واتبعه هم آل محمد (ع)؛ لأنهم الامتداد الطبيعي لرعاة المنهج والضمان الأكيد لسلامته والسير عليه حتى نهايته، لا يعتريه التبديل أو

---

١. الإنسان: ٣.

٢. عن ابن أبي عمير قال: سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله (إنا هديناه السبيل إما شاكرا واما كفورا) قال: إما آخذ فشاكر واما تارك فكافر) [تفسير القمي: ج٢ ص٣٩٨].

٣. الفرقان: ٢٧.

٤. تأويل الآيات - شرف الدين الحسيني: ج١ ص٣٧٣.

٥. الرعد: ٣٣.

٦. الأحزاب: ٦٧.

٧.، تفسير القمي: ج٢ ص١٩٧.

٨. نفس المصدر: ج١ ص٢٢١.

٩. المناقب - ابن شهر آشوب: ج٣ ص٧٢.

١٠. علي بن إبراهيم: وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِي مُسْتَقِيماً قال:الصراط المستقيم: الإمام فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ يعني غير الإمام فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ يعني تفترقون و تختلفون في الإمام) [البرهان في تفسير القرآن: ج٢ ص٤٩٨]، عن أبي حمزة الثمالي عن أبي عبد الله

الاختلاف أو الرأي؛ بل هو نظام واحد وطريق واحد[١]، فأي طريق مفترض آخر فهو قطعا يفترق عنه؛ لأنه سيكون بلا إمام من الله يبين آياته.

أسباط بياع الزطي قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فسأله رجل عن قول الله عز وجل: "ان في ذلك لآيات للمتوسمين * وإنها لبسبيل مقيم " قال: فقال: (نحن المتوسمون والسبيل فينا مقيم)[٢].

فالسبيل فيهم (ع) مقيم في كل زمان، لا يخرج إلى غيرهم لا تنكسر ولا تنفصم سلسلته، دائمة أبدية مادامت السموات والأرض، فلزوم التمسك بهذا السبيل لا تعني سوى الرجوع إليه في كل صغيرة وكبيرة والأخذ منه والتسليم له انطلاقا من العقيدة الراسخة بعصمة السبيل وعصمة المنهج والبيان من جهة، والإقرار قولا وفعلا بالقصور والإيمان المستقر بالعجز عن معرفة مراد الله في ما أنزل في كتابه الكريم، والحاجة في كل آن لبيان المعصوم.

وأن أي ادعاء وبأي نسبة كانت في إمكانية معرفة المراد الإلهي هو خروج عن عقيدة التمسك بولاية الرجل الإلهي، وفي نفس الوقت اعتداء على حرمة وقداسة المنظومة الإلهية التي نزل بها جبرائيل على قلب المعصوم والعاصم والسبيل.

إذا عرفنا أن السبيل عند الله واحد، وهو المؤدي إلى الهداية، وهو سبيل الله، وهو المنهج المعرفي المتكامل والكامل المرتبط بمشروع الهدف من الخلق وهدايتهم وتعريفهم بالله، سنفهم لماذا سماهم الله وأقام كل واحد منهم علما لأهل زمانه وسبيلا يأخذهم إلى الله لا يتخلف عنه زمان، محجوزا علمهم عن غيرهم في التعريف والبيان للكتاب وما يستجد في دين الله، ولهذا يقول رسول الله (ص) وعلي (ع) وكل أئمة أهل البيت (ع) نحن السبيل؛ أي المخصوصون بالعلم الإلهي، وأن السبيل والهداية فينا "والسبيل فينا مقيم" تسددهم روح القدس[٣]، وهذا يعني بالضرورة افتراق من يقدم منهجا وبيانا لكتاب الله بمعزل عنهم.

عليه السلام قال سألته عن قول الله عز وجل و ان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه قال هو والله على الميزان والصراط)[بصائر الدرجات - الصفار: ص٩٩].

١. عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله [وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه] قال: طريق الإمامة فاتبعوه.* (ولا تتبعوا السبل) * أي طرقا غيرها * (ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون)[تأويل الآيات- شرف الدين الحسيني: ج١ ص١٦٧].

٢. الكافي - الكليني: ج١ ص٢١٨.

٣. (روح القدس هو: (روح الطهارة أو العصمة)، فإذا أخلص العبد بنيته لله سبحانه وتعالى وأراد وجه الله، أحبه الله ووكل الله به ملكاً يدخله في كل خير ويخرجه من كل شر ويسلك به إلى مكارم الأخلاق، ويكون روح القدس واسطة لنقل العلم للإنسان الموكل به، وأرواح القدس كثيرة وليست واحداً، والذي مع عيسى (ع) ومع الأنبياء دون الذي مع محمد (ص) وعلي (ع) وفاطمة (ع) والأئمة (ع)، وهذا هو روح القدس الأعظم لم ينزل إلا مع محمد (ص)، وانتقل بعد وفاته إلى علي (ع) ثم إلى الأئمة (ع) ثم بعدهم إلى المهديين الاثني عشر.

عن أبي بصير، قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْأِيمَانُ﴾ ([الشورى: ٥٢])، قال (ع): (خلق من خلق الله عز وجل أعظم من جبرائيل وميكائيل، كان مع رسول الله (ص) يخبره ويسدده وهو مع الأئمة من بعده) ([الكافي - الكليني: ج١ ص٢٧٣ ح١]).

في خطبة لأمير المؤمنين (ع): (..فأنا الذكر الذي عنه ضل والسبيل الذي عنه مال..)[١].

وبحسب ما تقدم فإن عليا (ع) يقول أنا كل الدين، وأنا المنهج لمن يريد أن يتعبد الله حقا ويريد معرفته، وهو خطاب لكل سالك غير سبيل علي (ع) والأوصياء بعده (ع)؛ وبشكل أدق لكل من يعتقد بإمكانية وجود منظومة للدين لا يوجد على رأسها رجل إلهي منصب يأخذ منها عقائده وأحكامه أو العمل بمنهج غير منهجهم (ع)، فيكون قد ابتدع سبيلا من دونهم يظن أنه به يعرف مراد الله سبحانه ويوصله إليه، والنتيجة هي الابتعاد عن منهج الله والذهاب بعيدا في منظومة الجهل " فتفرق بكم عن سبيله".

- **النهج القويم والطريق المستقيم**

قويم: مُعْتدِل غير معوجّ "رأي/ سلوكٌ قويم- سلك الطّريقَ القويم- ألا فاستقم في كُلِّ أمرك واقتصد ... فذلك نهجٌ للصِّراط قويمُ"[٢].

عندما يخاطب الله سبحانه وتعالى خير خلقه وأقربهم إليه محمدا (ص) وهو الحكيم المطلق سبحانه قد اختار محمدا(ص) أمينا لوحيه و يعلم طاعة محمد واستقامة محمد (ص) التي لم يصلها مخلوق، ثم يقول له "واستقم كما أمرت" وبغض النظر عن مدى حصر الآية بمصداق معين، ولكن على العموم فاستقامة محمد (ص) في تبليغ الرسالة كما يريدها الله متحققة بأعلى درجة، فنهج محمد (ص) ومن قام مقامه من الأوصياء (ع) إلى يوم القيامة في إيصال مراد الله سبحانه للخلق قويم متحقق بكل رجل اختاره الله سبحانه للقوامة على الدين، والضمانة في ذلك هو الله سبحانه؛ لأنه العليم والحكيم الذي اختارهم لتنفيذ مراده ومنهجه في الخلق.

﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].

والهداية لهذا الكتاب متحققة بوجود عدله وترجمانه في كل زمان، ولذلك يعمل إبليس جاهدا لحرف مسيرة الإمامة التي يتحقق بها ترجمة الوحي في كل زمان، واللعب على منظومة التعريف بخلفاء الله في كل زمان المسطورة في القرآن المنزل على محمد (ص) وبيانه وبيان عترته (ع) المتفقة مع القرآن، محاولا حرفها وهدم دعائمها، فهي ما

عن أبي بصير، قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قوله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ([الإسراء: ٨٥])، قال (ع): (خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل عليهما السلام كان مع رسول الله (ص) وهو مع الأئمة وهو من الملكوت) ([الكافي- الكليني: ج١ ص٢٧٣ ح٣]).

وعن أبي حمزة، قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن العلم أهو علم يتعلمه العالم من أفواه الرجال، أم في الكتاب عندكم تقرؤونه فتعلمون منه؟ قال (ع): (الأمر أعظم من ذلك وأوجب أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْأِيمَانُ﴾ ([يوسف: ٦٤])).

ثم قال: أي شيء يقول أصحابكم في هذه الآية، أيقرون أنه كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان؟ فقلت: لا أدري جعلت فداك ما يقولون، فقال لي (ع): بلى قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان حتى بعث الله تعالى الروح التي ذكر في الكتاب، فلما أوحاها إليه علم بها العلم والفهم وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء فإذا أعطاها عبداً علمه الفهم) ([الكافي- الكليني: ج١ ص٢٧٤ ح٥]) [المتشابهات- السيد أحمد الحسن: ج٣ س١١٨].

١. غاية المرام - هاشم البحراني: ج٢ ص١١٦-١١٧.

٢. معجم اللغة العربية المعاصرة متاح على:https://www.maajim.com/dictionary/

٣. الاحقاف: ٣٠.

بين نزع القدسية عن أصحاب النص الإلهي بعد رسول الله (ص)،كما فعل أرباب المنهج السني، وابتداع نظام مواز أو منهج مواز للتعرف على حجة الله وتشخيصه كما يفعله أرباب المنهج الشيعي[١].

عن أبي عبد الله (ع) وقوله (الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا) : (يعني يصدون عن طريق الله وهي الإمامة " ويبغونها عوجا " يعنى حرفوها إلى غيرها)[٢].

لذلك عبر عن اعوجاج أهل الباطل "يبغونها عوجا" بمقابل "الاستقامة" أو استقامة أهل الحق (ع).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾[٣].

عن أبي عبيدة، قال سألت أبا جعفر (ع) عن قوله: *وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أُولٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلىٰ رَبِّهِمْ إِلَى قَوْلِهِ: يَبْغُونَهَا عِوَجاً* قال: (أي يطلبون لسبيل الله زيغا عن الاستقامة، يحرفونها بالتأويل ويصفونها بالانحراف عن الحق والصواب)[٤].

- **الوسيلة إلى الله والعروة الوثقى**

الوسيلة: (ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوسل والوسائل. والتوسيل والتوسل واحد. وفي حديث الأذان: اللهم آت محمدا الوسيلة، هي في الأصل ما يتوصل به إلى الشئ ويتقرب به)[٥].

(واسطة لإيجاد مخرج مناسب من صعوبة وسيلة للخروج من المأزق)[٦].

فهي الطريقة التي من خلالها يحصل المتوسل على مراده ومبتغاه، فإذا كان المبتغى هو معرفة الله فقد تحقق لنا أن آل محمد (ع) هم السبب المتصل بالله ومحال نزول الوحي والعلم الإلهي، وهم المعرّفون به سبحانه، فالتمسك بهم يعني اتباع منهجهم وتعاليمهم وبيانهم لكتاب الله.

فالواسطة للخروج من ظلمة الجهل واشتدادها يستضاء بنور هديهم (ع).

إذن هم الوسيلة لمعرفة الله وتوحيد الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٧].

---

١. وردت الكثير من الروايات المعتبرة والمتواترة والتي وصفت القانون الإلهي للتعرف على خلفاء الله في كل زمان وهي : النص والعلم، والدعوة إلى حاكمية الله، في حين ابتدع بعض علماء الشيعة منظومة مفترضة ترتكز على مجموعة من المواصفات الإعجازية التي يفترض أن يتصف بها من يدعي الإمامة، للمزيد في بيانها راجع كتاب بحث في العصمة للدكتور عبد الرزاق الديراوي.

٢. تفسير القمي: ج١ ص٣٢٥.

٣. الكهف: ١.

٤. البرهان - للبحراني: ج٣ ص٩٦- ٩٧.

٥. لسان العرب - ابن منظور: ج١١ ص٧٢٥.

٦. معجم اللغة العربية المعاصرة.https://www.maajim.com/dictionary/

٧. المائدة: ٣٥.

قال رسول الله (ص): (الأئمة من ولد الحسين (ع) من أطاعهم فقد أطاع الله، ومن عصاهم فقد عصى الله، هم العروة الوثقى، وهم الوسيلة إلى الله تعالى)[١].

وعنه ص: (..فاحمدوا الله الذي بنوره وعظمته ابتغى من في السماوات ومن في الأرض إليه الوسيلة فنحن وسيلته في خلقه ونحن آل رسوله..)[٢].

فما هو الدين وبماذا يمكن أن يتجسد وكيف نشخصه؟

أسئلة تبدو للوهلة الأولى لأهل الظاهر أنها مجموعة الطقوس والممارسات الظاهرية والالتزام بالتعاليم والعمل بأوامر الشرع وغيرها، ويظن أيضا من يقترب من ظاهر الحقيقة بشيء من معناه ويقول أن المعصوم (ع) هو الدين وولايته الظاهرية والتبرك باسمه ومقامه وضريحه والابتهاج بيوم مولده والحزن في ذكرى وفاته والأخذ ببعض أقوال الماضين منهم (ع) بعد تمريرها على مرشحة الرجال، مع إمكانية الأخذ من غيرهم، كل ذلك كاف لاستيفاء الولاية !! ونسيان أو تناسي حقيقة أن الأرض لا تخلو منهم طرفة عين وما ينبغي فعله في كل زمان!،

فهل أن من يدعي ولاية الثاني عشر من الأئمة (ع) محمد بن الحسن العسكري(ع) وهو يأخذ عقيدته وأحكامه من غيره قد شارك فعلا في أسباب غيبته؟! أو غيبة المنهج المعصوم والعاصم؟

يبدو واضحا من الآيات التي ترغم المتدبر على التفكير مليا بهذا التخصيص والوصف والمعبر عن الترجمة الحقيقية للوجه والجهة "أقم وجهك" التي يأمر الله عز وجل الخلق أن يقيموا لها ويسلموا ويذعنوا لبيانها ويستضلوا بفيئها وبرد تعاليمها ويتقوا حرارة عصيانها.

فالحنيفية وفطرة الله التي فطر الناس عليها هي الولاية، وهي الحقائق المكتوبة في صفحات وجود الخلق التي تمكن الإنسان أن يكون تجليا لأسماء الله في مبتدأ امتحانهم جميعا في عالم الامتحان الأول، ثم ولاية وجه الله الذي يتوجه إليه الأولياء.

عن أبي بصير، عن أبي جعفر(ع) قال: سألته عن قول الله عز وجل: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا"، قَالَ: (هي الولاية)[٣].

علي بن موسى الرضا (ع) عن أبيه، عن جده، عن محمد بن علي (عليهم السلام)، في قوله: فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، قال: (هي: لا إله إلا الله محمد (ص) رسول الله (ص)، علي أمير المؤمنين ولي الله، إلى ها هنا التوحيد)[٤].

الطريق الوحيد الذي يُخرج سالكيه من الشرك والذي يقابل التوحيد بكل مراتبه هو توحيد الجهة والدين والولاية وهو دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وجميع خلفاء الله (ع).

---

١. مستدرك سفينة البحار- الشهروردي: ج١٠ ص٣٠١.
٢. نفس المصدر .
٣. البرهان - البحراني: ج٤ ص٣٤٤ .
٤. نفس المصدر: ص٣٤٥.

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١].

فالجامع والخط الذي انتظم على طوله كل خلفاء الله من آدم إلى آخر يوم في كوننا الجسماني، والذي يأخذ كل المسلّمين لهم إلى الله وتوحيده هو الوحي الذي يحمل نفس المشروع ونفس الرسالة للخلق عبر هؤلاء العظماء الذين اختارهم الحكيم المطلق والعالم المطلق.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[٢].

وهذه هي صورة الدين المشرقة والبهية الواضحة التي لا تتغير ولا تتبدل، وهي التسليم لوجه الله الذي لا يقبل غيره من المعرضين الذين يريدون ان يبدلوا هذه الوجهة؛ بل بدلوها ﴿الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[٣]، أو اختاروا غير هذه الوجهة، أو استعاضوا بغيرها فبدلوا منهج آل محمد (ع) واخترعوا مناهج أخرى ليست من الله.

تفسير العياشي: عن الأصبغ بن نباته قال: قال أمير المؤمنين (ع) في قوله:(ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) قال: (نحن نعمة الله التي أنعم بها على العباد)[٤].

فماهي نتائج التبديل لنعمة الله؟ قطعا لا تورث إلا التيه والضلال والعقم المعرفي، ومن ثم قسوة القلوب واحتجابها الأكيد عن علوم السماء.

في خطبة لسمان الفارسي رضوان الله عليه بعد دفن أمير المؤمنين(ع): (...ولكنكم أخذتم سنة بني إسرائيل، فأخطأتم الحق، تعلمون فلا تعملون، أما والله لتركبن طبقا عن طبق على سنة بني إسرائيل، حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، أما والذي نفس سلمان بيده لو وليتموها عليا عليه السلام لأكلتم من فوقكم ومن تحت أرجلكم، ولو دعوتم الطير في جو السماء لأجابتكم، ولو دعوتم الحيتان من البحار لأتتكم، ولما عال ولي الله، ولا طاش لكم سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله. ولكن أبيتم فوليتموها غيره، فأبشروا بالبلاء، واقنطوا من الرخاء، وقد نابذتكم على سواء، فانقطعت العصمة فيما بيني وبينكم من الولاء)[٥].

وعلي (ع) ومن قام مقامه من أوصياء محمد (ص) إلى يوم القيامة والرجل الإلهي الذي ضمن الله لمن يتولاه النجاة، والنجاة هي تحقق المعرفة التي خلق من أجلها وما يترتب عليها من الفوز برضى الله، ورضا الله نتائج لانكشاف الحقائق والمعارف والتنعم بحقائقها في هذا العالم وفي عالم الخلد، وهذا الرجل هو النعمة التي

---

١. آل عمران: ٨٤- ٨٥.
٢. النساء: ١٦٣.
٣. ابراهيم: ٢٨.
٤. بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٤ ص٥٥.
٥. بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٩ ص٨٠

يتفضل الله بها على الخلق، حاملا للعلم الحقيقي وقائدا للمشروع المعرفي الإلهي، وعلم الكتاب الذي قال تعالى فيه ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

فإنكار هذه النعمة والرحمة أو الرجل الإلهي يمكن أن يفسر على وجهين:

الأول: تكذيبه ورفضه ثم اقصاءه شخصيا أو حتى قتله.

الثاني: تقديم المشروع البديل أوالعقائد البديلة والأحكام والشرائع، واعتماد الفهم المبني على القواعد العقلية لتفسير رسائل الوحي.

من خلال استعراضنا لبعض ملامح الخط الإلهي ومشروعه المقدس، وما تخلله من مواجهات على طول هذه المسيرة التي كان في ريادتها رجال الدين الذين قدموا أنفسهم بدائل لحملة الوحي سواء كانوا قد صرحوا بخطواتهم أم لم يصرحوا فالنتائج نفسها، ومنها يمكن أن نستنتج الآتي:

- إن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه أمر استمرار المشروع دون معوقات ودون غياب أي حجة من حججه لمقطع زمني معين، وبالتالي استمرار المشروع المعرفي المقدس حتى بلوغ أهدافه سوى أن الخلق في ساحة الامتحان، وأن استمرار هذا المشروع وفق المنهج المقرر منه سبحانه منوط بقبولهم لهذا الحجة الإلهي والتسليم له، وأخذ العلم منه حصرا أو تأخيره بحسب توعد إبليس ولكن تحققه في النهاية، والخاسر الوحيد هم المعرضون عن حجة الله والصادين عن دين الله، الذين أسسوا مناهج عقلية دانوا بها ودانت الناس.
- الحكمة والمنطق السليم لا يسمحان بقبول مقولة أن يأتي شخص ليتبنى مشروع أو يكمله في مرحلة من مراحله ويقوم بتنفيذ خطواته وهو مشروع أجنبي بالنسبة له بكل ما تعنيه الأجنبية، كمن يأتي ليجد خارطة عمل لإنشاء دائرة إلكترونية معقدة أو إكمال تنفيذها في مرحلة ما، وهذا الشخص لا يعرف حتى أبجديات هذا النوع من العمل؛ بل لا يعرف عنه شيء البته، فإذا تورط وقام بعمل ما ستكون النتائج كارثية قطعا، وهذا قبيل تبرع أشخاص لم يوكلهم الله للقيام بأمر الدين ولم يخولهم بأن يكونوا ناطقين عنه سبحانه؛ أي أن يقدموا تفسيرا لكتابه أو أحكاما يُعمل بها، وهم في نفس الوقت يقومون منع خليفة الله أن يأخذ دوره المقدس.
- إن حصل وغاب هذا الحجة الإلهي فالحكمة تقتضي أن يكون لغيابه سبب حقيقي وواقعي، وقطعا لا يمكن لعاقل يؤمن بالله أن يرمي سبب غيابه في ساحة الله أو في ساحة خليفته الذي اختاره ونصبه ناقلا للعلم الإلهي في كل زمان ليكون ناطقا عنه سبحانه، فلم يبقى إلا أن يكون السبب خذلان الناس

---

١. النحل: ٦٤.

٢. النحل: ٤٤.

له وتقصيرهم، وهذا يتعلق بجهلهم مرة وتجهيلهم بواسطة المنظومة المبتدعة قبال منظومة الحكيم المطلق سبحانه مرة أخرى.

الفصل الرابع

نقد المناهج البديلة والرؤيا المستقبلية

إذا كان العقل التام أو خليفة الله المستقبل للوحي الإلهي أو العلم هو منهج الله في إيصال مراده وحكمه للناس فإن المنهج الذي أسسه رجال الدين ليكون مصدرا للتشريع والعقائد سيكون منهجا بديلا حتما، وأن غاية ما يرجعون إليه لتحصيل العلوم المفترضة والأحكام هو ظل العقل، أما منهج الله فمصدره العقل التام وهو مقام الأنبياء والرسل والأوصياء (ع).

قال رسول الله (ص): (أول ما خلق الله العقل)[١].

وقال (ص): (إن الله عز وجل لما خلق العقل قال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، فقال تعالى: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أكرم علي منك، بك أثيب وبك أعاقب، وبك آخذ وبك أعطي)[٢].

وقال ص: (أول ما خلق الله نوري، ابتدعه من نوره، واشتقه من جلال عظمته)[٣].

مع دقة الملاحظة في مقارنة بسيطة بين القولين لرسول الله (ص) نستنتج بأن المخلوق الأول أو العقل هو نور محمد (ص)، وأكيد نحن عندما نتكلم عن الخلق الأول أو عالم النور فهناك اختبر الله عز وجل هذا المخلوق فعلم منه الطاعة، وأصبح هو الميزان الذي به يتم الثواب والعقاب، وهذا بحسب الفهم الأولي لمبدأ الثواب والعقاب وهو معيار كلي بحسب ذلك العالم.

ولما كان محمدا (ص) هو المستقبل الأول أو القابل الأول للفيض الإلهي أو العلم الذي ينتهي بالمعرفة وهي غاية الخلق، فكل ما يخص المشروع المعرفي وتفاصيله في عوالم التنزل وما يترتب عليه من شؤون العلم والمعرفة والأحكام والتشريع يصدر من محمد (ص) أو من مقامه الأقرب إلى النور المطلق، ثم يرشح منه إلى المقامات الأدنى والأمثل فالأمثل، حتى يتعين ويختص بحجة الله وعيبة علمه في هذا العالم، فيكون صورة العقل الكامل ومرآته في هذا العالم، وبالتالي يكون هو المحل الذي به يعاقب الله وبه يثيب، أي من يأخذ منه ويسجد له ويطيع فنصيبه الثواب وكل بحسبه وعكسه يكون العقاب.

وهذا هو التأسيس لأصل وحقيقة العقل المتوافق مع بنية الخلق وطبيعتها وهدف الخالق الحكيم منها، فالعدول عن هذا الأصل، وإطلاق سمة العقل على المفكرة المودعة في صفحات وجودنا كما يفعل رجال الدين يمثل حيودا عن الحق واستبدالا للمنهج الذي رسمته المشيئة الإلهية ليكون طريقا لمعرفته سبحانه.

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ج١ ص٩٧.

٢. نفس المصدر.

٣. نفس المصدر: ج١٥ ص٢٤.

قال رسول الله (ص): (... ولا بعث الله رسولا ولا نبيا حتى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من عقول جميع أمته، وما يضمر النبي في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدى العاقل فرائض الله حتى عقل منه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، إن العقلاء هم أولوا الألباب الذين قال الله عز وجل: إنما يتذكر أولوا الألباب)[١].

في موارد أخرى عرفنا منهم (ع) أنهم هم أولوا الألباب، وفي مورد آخر وصفوا به شيعتهم بأنهم أولوا الألباب[٢].

أقول: هم شيعتهم الذين سجدوا لهم ودانوا لهم بالطاعة والتسليم وأخذوا منهم كل صغيرة وكبيرة في دين الله فصار ما حصلوه منهم (ع) طبق ما عند أئمتهم (ع) مع فارق المرتبة وخصوصية العصمة.

فإذا كان هناك تسامحا في تسمية العقل ونسبته لغير من اختارهم الله واصطفاهم وجعلهم عيبة علمه؛ فلأنه مقرون بتبعيته للعقل الكامل بدلالة "حتى عقل منه" وقد سبق وتبين لنا عندما ينسب الأمر أو العلم أو الحكم لله سبحانه ويكون المكلف أحد الطرفين، فحقيقة الطرف الأول المأخوذ منه بحسب الحديث فهو مقام محمد (ص) بالأصل وهو محمد ومن قام مقامه في هذا العالم.

وهذا هو الطريق الآمن للوصول إلى المعلومة الصحيحة التي لا تقبل التوهم والزيغ والانحراف سواء كانت أمرا عقائديا أو حكما شرعيا أو كل ما يخص الدين الحق، ولا محيص عن التزامه والعمل به، ليس لأن المكلف مأمورا بعدم الذهاب إلى غيره ليكون قيد التكليف الشرعي وحسب؛ بل هو وكما تثبته النصوص الطريق الوحيد، ولا يوجد طريقا آخر بالقطع واليقين.

وفي بيان الكافي: (..وما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه. أي لا يمكن للعبد أداء الفرائض كما ينبغي إلا بأن يعقل ويعلم من جهة مأخوذة عن الله بالوحي..)[٣].

وجهة الوحي هم الأنبياء والرسل والأوصياء (ع)، فالعقل هنا هو ما يعقل به كل ما يؤخذ عن الله بواسطة الجهة التي تأخذ من الوحي.

عن رسول الله (ص): (إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم)[٤].

والدين رجل[٥] سماه الله سبحانه وأمر باتباعه، وقدمه الله لخلقه يأخذون منه كل ما أمرهم وضمن بذلك نجاتهم.

---

١. الكافي - الكليني: ج١ ص١٣.

٢. عن أبي علي حسان العجلي قال: سال رجل أبا عبد الله عليه السلام وأنا جالس عن قول الله عز وجل: "لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولوا الألباب" قال: نحن" الذين يعلمون" وعدونا " الذين لا يعلمون "وشيعتنا " أولوا الألباب") [المحاسن - للبرقي: ج١ ص١٩٤].

٣. المحاسن - البرقي: ج١ ص١٩٤.

٤. سنن الدارمي: ح٤٣٨.

٥. (..ان الدين واصل الدين هو رجل وذلك الرجل هو اليقين وهو الايمان وهو امام أمته وأهل زمانه فمن عرفه عرف الله ومن أنكره أنكر الله ودينه ومن جهله جهل الله ودينه وحدوده وشرايعه بغير ذلك الامام كذلك جرى بان معرفة الرجال دين الله..)[بصائر الدرجات - الصفار: ص٥٤٩].

إذا كان العدول والثقات هم خلفاء الله فنعم، وإن كانوا فقهاء نصبوا أنفسهم قوّاما على الدين وتبرعوا لتفسير النصوص وقدموها للناس حاكية عن مراد الله وحكم الله وشرعه، وهذا ما عمد عليه رجال الدين بمختلف مشاربهم وإن اختلفت قواعدهم العقلية والمباني التي اعتمدوها، فهي بالنتيجة تقمص لدور ووظيفة المعصومين وأصحاب العقول التامة الناقلين عن الوحي.

عن الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال كان أمير المؤمنين (ع) يقول:(أصل الإنسان لبه، وعقله دينه، ومروته حيث يجعل نفسه، والأيام دول، والناس إلى آدم شرع سواء)[١].

فعقل الإنسان بحسب قول أمير المؤمنين (ع) دينه، فلا استقلال للعقل؛ بل لا عقل مالم يرتبط بالدين، والدين كل الدين رجل ينصبه الله أمينا على وحيه وناقلا للعلم عنه سبحانه.

فكيف يكون الناس إلى آدم شرع سواء مالم يكن مصدر الدين واحد، وهو العقل التام أو الكامل في كل زمان؟!

في بيان صاحب البحار قال: (...أي تفاضل أفراد الانسان في شرافة أصلهم إنما هو بعقولهم لا بأنسابهم وأحسابهم. ثم بين (ع) أن العقل الذي هو منشأ الشرافة إنما يظهر باختياره الحق من الأديان، وبتكميل دينه بمكملات الإيمان...)[٢].

وبحسب صاحب البحار فإن ظهور العقل يتجسد بالاختيار للحق من الأديان، ووجود أديان يعني وجود مبتدعين ادعوا أنهم يصفون مراد الله بما أسموه العقل استقلالا بالإعمال، والنظر والمقايسة، وعرض النصوص المقدسة على مبان وقواعد أرضية مالها من السماء مورد ولا مصدر، فقوله اختياره الحق من الأديان فواحد من هذه الأديان حق قطعا والباقي باطل بالضرورة؛ لأن دين الله واحد وشرعه سواء إلى آدم (ع).

وهذا هو الفرق بين عقل يختار الحق الذي يمثله العقل الكامل، وهو ترجمان لإرادة الله والناقل عن الوحي، وبين واهمة يسمونها العقل غاية ما تصل إليه بدع وأضاليل.

فالذي وقعت به الفرق الإسلامية والتشرذم الذي انتهت إليه هو توهمهم في معرفة المقصود بالعقل، فالمعتزلة والامامية حكموا أن الحسن والقبح عقليان بالمعنى الموهوم للعقل، وأما الأشاعرة فقالوا بأنهما شرعيان، ولا أريد الخوض في مبررات تبني كل منهما للشرع أو للعقل فالتفصيل يخرجنا عن جوهر البحث، ولكن النتائج التي خلصوا إليها تفسر لنا حجم الأخطاء والتوهمات.

يقول السيد أحمد الحسن: (والمقصود بالعقل هو القوة المفكرة المودعة في كل إنسان، الموجودة عند الصالح والطالح والمؤمن والكافر. العقل ميزان، وبالتالي فهو يحتاج إلى وزن أو معيار قياسي ليقايس به بقية الأشياء ويميز حسنها وقبحها، فإنْ توفر المعيار القياسي للعقل في أمرٍ ما، تمكن العقل أنْ يميز فيه الحق من الباطل والحسن من القبيح، وإنْ لم يتوفر المعيار القياسي لم يتمكن العقل من تمييز الحسن من القبيح والحق من الباطل، ولهذا

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ج١ ص٨٢.

٢. نفس المصدر.

يقع الخطأ في تمييز الحق والباطل من الناس في كثير من الأحيان. فالذين لا يميزون الحسن من القبح أو الحق من الباطل لديهم أحد الأسباب التالية:

– فهم إما فاقدون للميزان، وهؤلاء هم المجانين والمختلون عقلياً، وهؤلاء معذورون.

– أو أنهم فاقدون للمعايير القياسية، وهؤلاء هم الذين لا يهتمون لتحصيل الحق ومعرفة المعايير القياسية المتاحة لتمييز الحق من الباطل، أو أنهم يطلبون الحق بجهل وضعف ادراك أو بسفاهة، أي أنهم يطلبونه بألسنتهم دون تعلم وبحث دقيق وحقيقي لمعرفة المعايير القياسية للمقايسة لمعرفة الحق من الباطل، ومن هؤلاء فئة الضالين.

– أو أنهم يمتلكون الميزان ويعرفون المعايير القياسية أو مطلعون عليها، ولكنهم رغم هذا يتجنبون المقايسة لمعرفة الحق من الباطل والحسن من القبح طلباً للبقاء في الباطل الذي هم عليه ونصرة له، ومن هؤلاء فئة المغضوب عليهم. ولا يمكن لأحد أن يدّعي - فضلاً عن ادعاء هذا لكل الناس - أنه يمتلك كل المعايير القياسية؛ لأنّ هذا معناه أنه يعرف حقائق كل الأشياء ومآلها وما يحيط بها وبكل أحوالها، وهذا ما لا يمكن أنْ يكون لغير الله سبحانه وتعالى. إذن، معرفة حسن وقبح الأشياء كلها بشكل مطلق لا يمكن أنْ يكون عقلياً، بلى العقل كما بيّنت متى توفرت له الأوزان القياسية تمكن من التمييز. ولهذا فالقول بأنّ العقل مشرع قول باطل؛ لأنه يساوي القول بتعدد اللاهوت المطلق سبحانه وتعالى عمّا يصفون)[١].

وبهذا تبطل مقولة ما حسنه العقل حسنه الشرع وما قبحه العقل قبحه الشرع.

عن محمد بن عبد الجبار، عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد الله (ع) قال: قلت له: ما العقل؟ قال: (ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان قال: قلت: فالذي كان في معاوية؟ فقال: تلك النكراء! تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل، وليست بالعقل)[٢].

هذا تأكيد من الإمام الصادق (ع) على أن ما يرد في أحاديثهم (ع) بالعقل فهو لا ينصرف إلى ما يتوهمه الكثيرون بأنه العقل الذي ورد في ذكره في القرآن أو روايات أهل البيت(ع)، فالعقل الذي عبد به الرحمن هو الذي تحققت به المعرفة، وهي بالجملة عقول خلفاء الله، أما العقل الذي ينسب لغيرهم فهو ما يعقل به كل ما يصدر منهم (ع)، وقد تبين فيما سبق أن العبادة هي المعرفة، والمعرفة لا تتم إلا من خلال تشخيص المعرّف وطاعته والأخذ منه والتسليم له.

قال الحسن بن علي (عليه السلام): (إذا طلبتم الحوائج فاطلبوها من أهلها، قيل: يا بن رسول الله ومن أهلها؟ قال: (الذين قص الله في كتابه وذكرهم، فقال: إنما يتذكر أولوا الألباب. قال: هم أولوا العقول)[٣].

ولذلك فإن أمير المؤمنين(ع) عندما يخاطبنا ينسب إلى عقولنا العجز والقصور ويرفع عنها الحصانة.

---

١. عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص١٦٧- ١٦٨.

٢. الكافي - الكليني: ج١ ص١١.

٣. بحار الأنوار - المجلسي: ج١ ص١٤١.

يقول (ع): (اتهموا عقلكم فإنه من الثقة بها يكون الخطأ)[١].

فالثقة والأمان والاطمئنان والصواب والرشاد والهدى عند أصحاب العقول التامة الكاملة الذين خاطبهم الوحي، وما دونهم سواء كانوا مفسرين أو مشرعين أو ...الخ فهم يخبطون خبط عشواء.

وفي وصية أمير المؤمنين (ع) لابنه الحسين (ع) : (... ومن أعجب برأيه ضل. ومن استغنى بعقله زل)[٢].

قول أمير المؤمنين (ع) كاشف عن حقيقة يحتاج أن تكتب في أول صفحة من كل كتاب ومؤلف وتفسير يعتمد فيها منهج العقل المنفصل عن العقل التام - المعصوم- وأقصد به ظل العقل، أو كل ما يعتمد القواعد العقلية لتفسير النصوص المقدسة، ليحكم على كل ما جاء فيه بالبطلان.

وخلاصة القول فإن العقل الذي جُعل حاكما حتى على الشرع بدلالة قول البعض - ما حكم به العقل حكم به الشرع- هو ساحة مستباحة من قبل الشياطين غير محصنة؛ بل مفتوحة على إلقاءاتهم الباطلة.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[٣].

بينما صفحات وجود الحجة الإلهي محصنة لا يجد الشيطان إليها سبيلا ليتسلل إليها أو يقتحم أسوارها المنيعة ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾[٤].

فكل من هم دون خلفاء الله فإن صفحات وجودهم محل يمكن أن تعبث به الشياطين والإلقاءات الباطلة والتزييف وزرع الإشكالات والشبهات، وفي النهاية الصد عن اتباع خليفة الله في كل زمان، والواقع والقصص القرآنية التي حدثتنا بخصوص نماذج بشرية سقطت في فخاخ الشيطان ومكائده ومصائده، وربما أجلى صورها هو ابتداع مناهج موازية للمنهج الإلهي انتجتها العقول الناقصة والمحجوبة عن فيض السماء و المبتلاة بالتكبر على خلفاء الله والأخذ منهم (ع).

موقع رجال الدين من الوحي

كل الآيات التي وردت في القرآن الكريم وفيها ذكر الدين فهي بالضرورة تعني رجل نصبه الله، فالدين هو المنظومة الإلهية التي تحدد الخارطة والمسار الذي يضمن للإنسان أو المكلف نجاته وفوزه في الامتحان، وهذه الخارطة تشمل جميع الأحكام والشرائع والاعتقادات الحقة الذي تصل بالمكلف إلى الغاية التي خلق من أجلها ونزل إلى هذا العالم من أجلها.

ولما اقتضت الحكمة المطلقة من الحكيم المطلق أن يقوم بأعباء مهمة التعريف به رجل إلهي منصوص أمين على وحيه يؤدي رسالته ويوصل أحكامه وشرائعه التي تضع الإنسان على خط النور وتسير به بأمان حتى بلوغ

---

١. ميزان الحكمة - الريشهري: ص١٧٤.

٢. تحف العقول - ابن شعبة الحراني: ٨٨.

٣. الأعراف: ١٦- ١٧.

٤. الجن: ٢٧.

الهدف الأسمى وهو معرفة الله سبحانه، بالتالي فمن الحكمة أن يكون هذا الرجل موجود في كل زمان يمثل الدين؛ أي بدونه لا يمكن أن تتحقق مفردة الدين أو يكون لها معنى أو تكون لها قيمة.

فأي رجل لم ينصبه الله ثم ينسب لنفسه الدين فيسمي نفسه رجل الدين، فهذا يعني الخروج عن الدين برمته، ولهذا فرجال الله المنصبين هم الرجال الموصوفين، والصفة الأبرز والأكثر تحققا فيهم والتي تمنع أن يكون غيرهم مضافا إلى الدين ونسبتهم إلى السماء هي علاقتهم بالوحي، وأرواحهم المقدسة مهبطا للوحي.

لا شك أن القرآن وحي الله لرسوله الكريم محمد (ص)، ولا خلاف في ذلك بين كل الطوائف المؤمنة بالقرآن ككتاب إلهي منزل، لكن عندما يأتي رجل الدين كونه مفسرا لكتاب الله فيستنطق القرآن ويقدم تفسيرا له يقع في عشرين جزءً يسميه "من وحي القرآن"[١] فهذا تجني على القرآن والوحي وقرصنة في وضح النهار، فاستخدام مفردة الوحي وإضافتها للقرآن يعقد الأمر كثيرا على من يخاطب الآخرين وهو يتبنى هذا العنوان "أي وحي القران"؛ لأنه سيكون أمام استحقاقات كبيرة وخطيرة ليثبت من خلالها بأن ما سطره في تفسيره الشخصي للقرآن أنه يحاكي الوحي، أو يقدم إثباتا واضحا بأن ما يفسره من آيات الكتاب واقعا في منظومة الوحي، ولا نريد أن نجازف ونقول ترجمانا للوحي!! لأن الأمر سيخرج عن أصل إمكانية مناقشة الموضوع برمته.

فتراجمة الوحي مذكورون بأسمائهم، وكل ما دونهم مغتصبون لهذا الحق ومنتحلون لهذه الوظيفة ومتقولون على الله، وربما يمر هذا العنوان على الجميع دونما تردد أو تهيب لهذه النسبة المخيفة، وبغض النظر عن وجود أو عدم وجود قصد من هذه التسمية "وأقصد من وحي القرآن"!! وأنا هنا لا أقصد هذا العنوان فحسب ولكني اخترته كنموذج تتناغم تسمية عنوانه مع أصل موضوعنا، وإلا فغيره الكثير سلكوا نفس المنهج التفسيري وألفوا تفاسير كثيرة بعناوين مختلفة، لكنها بالنتيجة تعطينا نفس الخلاصة وتنقل للآخرين صورة توهمهم بأن المعاني التي خرج بها هذا التفسير أو ذاك سيكون معبرا عن مراد الله، وأن ما نزل به الوحي من الله سبحانه يقع في حدود إمكانية المفسرين لبيان مراداته!

ولا بد أن نوضح مسألة مهمة في هذا المضمار، ونحن نتكلم عن كتاب سماوي نُقل محتواه بواسطة الوحي، فأي منهج تفسيري سواءً كان على طريقة ما قدمه المفسرون سنة وشيعة، أو أي منهج خرج لنا بنتائج قدم من خلالها مجموعة من العقائد والأحكام كما يفعله الكثير ممن يسمونهم بالقرآنيين، والذين اشتغلوا على تراكيب الألفاظ والكلمات والجمل المبثوثة في سور الكتاب الكريم، فأصبحوا يتكلمون عن منظومة عمادها ملاحقة اللفظة القرآنية ووقوعها في موارد مختلفة من السور أو الآيات تمخض عنها صياغة معان ومعتقدات؛ بل وأحكام من خلال ترادفاتها واستعمالاتها في سور وآيات مختلفة يعتقدون في النهاية أن التوفيق الظاهري لهذه الألفاظ[٢] يمثل مراد الله من هذه الآية أو تلك.

---

١. من وحي القرآن هو كتاب لتفسير القرآن الكريم، للسيد محمد حسين فضل الله مفسر وعالم دين ومرجع شيعي من مواليد النجف الأشرف في العراق في سنة ١٩٣٥ والمتوفي ببيروت سنة ٢٠١٠، وقد أُلف في أربعة وعشرين مجلداً وطبع لأول مرة عام ١٩٧٩.

٢. فاضل السامرائي من المفسرين البيانيين المعاصرين الذين حاولوا التقرب من النص القرآني وكشف أسراره الإعجازية بأدوات لغوية محضة، فاستطاع أن يصل إلى الدلالات والمقاصد انطلاقا من اللغة القرآنية ذاتها معتمدا على بنية الكلمة وما لها من دلالة

وردت عبارة اتخاذ مستويات اللغة الصرفية والدلالية والتركيبية "وسيلة إلى مقاصد القرآن الكريم" وهذا ما يفترض أن يخشاه الحريصون على قدسية الكتاب وقدسية الوحي والموحى إليه، وضرورة الابتعاد عن اللعب في هذه الساحة وعلى هذه المستويات الرامية بالنتيجة إلى إخراج حصرية تفسير وبيان معاني النص ومراده من رجال مخصوصين بأعيانهم وأسمائهم،.

فالمقاصد لا يعلمها ويحددها إلا المتكلم، والمتكلم هو الله سبحانه، وقد أبلغ مقاصده لمن يعرف لغة الخطاب الإلهي، وهذا المعنى مبثوث بشكل مستفيض في روايات الأئمة (ع) وربما تعرضنا خلال البحث إلى شيء من هذا المطلب.

لا أريد أن أجري استقصاءً ولو على مستوى الإجمال للفئات والأشخاص الذين تعاملوا مع القرآن على أنه كتاب يمكن لأي أحد - وإن كان مختصا بحسبه في عنوان لا يمت بصلة بالمحتوى القرآني كونه وحيا من الله سواءً كان رجل دين، مفسرا، لغويا، نحويا أو قصديا...إلخ - يخوض في مقاصده ويكشف عن مراد متكلمه من خلال حصوله على معان وصور منتزعة من ظاهر الآيات القرآنية؛ لأنه ليس من أساسيات البحث، بقدر ما أريد بيان وكشف خطورة هذه المناهج التي تسللت إلى منظومة الدين عبر عناوين مختلفة لأنشطة متنوعة دينية أو أكاديمية.

عالم سبيط النيلي نموذج آخر للذين أخضعوا كتاب الله وآياته لنظام اعتقدوا أنه سيكون حاكيا عن مراد الله من خلال عنوان آخر وهو "اللغة الموحدة" يبين فيها قصدية اللغة"[١] والنظام القرآني للمؤلف عالم سبيط النيلي- رحمه الله- وهو مقدمة في المنهج اللفظي، وفيه مبادئ المنهج اللفظي لأجل التعامل بقصدية مع كتاب الله.

في جوابه على أحد الأسئلة بخصوص ما يكتبه عالم سبيط النيلي قال السيد أحمد الحسن:

(النيلي نقض بكثير من الأدلة منهجهم الباطل[٢]، ولكن وضع قانوناً من نفسه ويريد أن يحاكم القرآن وروايات آل محمد بهذا القانون وما يخالف قانونه أمسى يرميه كما كانوا يفعلون هم فلم يفرق نتاج منهج النيلي عن نتاج من سبقوه، بل كلاهما مخالف للمنهج الإلهي، فالنيلي في نهاية المطاف وقع في ما كان ينتقده من جهة أخرى، بل هو في النهاية جعل نفسه حاكماً على كلام الله وحاكماً على كلام المعصومين، بل هو جعل نفسه أنه اكتشف قانون محاكمة القرآن وكل ما يخالف قانونه باطل، وبالتالي فهو قد جعل نفسه حاكماً على الأئمة (ع) وجعل نفسه بحسب منهجه أنه أعلم من الأئمة وأعرف منهم بالقرآن وتفسيره ومعانيه ..)[٣].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٤].

وعلى معنى الكلمة الخاص الذي تتميز به دون مرادفاتها وعلى التركيب القرآني وعلاقته بالمقاصد والدلالات، وبذلك سعى السامرائي إلى اتخاذ مستويات اللغة الصرفية والدلالية والتركيبية وسيلةً للوصول إلى مقاصد القرآن الكريم.

https://ar.wikipedia.org/wiki

١. اللغة الموحدة - عالم سبيط النيلي.

٢. يقصد به المنهج الأصولي للكاتب عالم سبيط النيلي.

٣. الجواب المنير عبر الأثير - السيد أحمد الحسن: ج٣ س٢٣٦.

٤. النحل: ٤٣.

فهؤلاء الرجال اختصوا بالوحي، وهذا الوحي هو وحي الرسالة، وهو كل ما يريد الله سبحانه وتعالى أن يصل للمكلفين في عالم الامتحان، فلولا هذه الخصيصة لما عاد هناك فرق بين الرجل الإلهي ورجل آخر يدعي حيازة الدين، ولم يعد هناك مائز بين الأمناء والعابثين ولذلك خاطب الله محمدا ص: "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ".

فهناك فارق وتخصيص لا يقبل حتى النسبية في المقارنة؛ بل لا يمكن أن يكون ضمن دائرة هؤلاء البشر أحد على الإطلاق، والقول بخلافه يطعن بالحكمة ويطعن بالحكيم المطلق.

فهم رجال موصوفون بأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[١]، فالصادقون مذكورون بأعيانهم وأسمائهم.

تفسير أبي يوسف يعقوب بن سفيان حدثنا مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر قال: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله امر الله الصحابة ان يخافوا الله ثم قال وكونوا مع الصادقين يعني مع محمد وأهل بيته)[٢].

قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾[٣].

أما لماذا اختار الله هؤلاء الرجال واختصهم بالوحي فلأنهم مستأهلون لهذا الاستحقاق موصوفون.

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[٤].

محيط الأفكار

الحقيقة أن الله دائم الكلام مع الخلق، وعلى أثر هذه الحقيقة يفترق الخلق أو ينقسم إلى فئتين:

الفئة الأولى أصبحت محلا لوحي الله وهم الأنبياء والرسل والأوصياء(ع) وهؤلاء معنيون بوحي الرسالة النازلة منه سبحانه، والوحي بكل أنواعه وطرقه ينطبق على هذه الفئة من الخلق.

أما الفئة الأخرى، فهي تشمل كل المكلفين الذين خسروا فرصتهم بأن يكونوا خلفاء لله، فالوحي لهم يمكن أن يقع على صورتين، فإما أن يخص لمن صفا قلبه وسلمت سريرته ليريه الله أو يسمعه ما يصلح به أمره كأم موسى

---

١. التوبة: ١١٩.

٢. المناقب - ابن شهر آشوب:ج٢ ص٢٨٨، شرف النبي عن الخركوشي، والكشف عن الثعلبي قالا روى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن جابر الجعفي، عن أبي جعفر محمد بن علي (عليهما السلام) في هذه الآية قال: محمد وعلي: وقال أمير المؤمنين (ع) فنحن الصادقون عترته وانا أخوه في الدنيا والآخرة وفي التفسير المراد بالصادقين هم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)، عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن علي (ع) قال فينا نزلت "رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه")، عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن علي (ع) قال فينا نزلت "رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه")[نفس المصدر].

٣. الأحزاب: ٢٣.

٤. النور: ٣٧ .

(ع) أو أي مؤمن بخلفاء الله (ع) ومن يسعى لمعرفة الحق في زمانه، والأخرى فهي أي إنسان آخر يريه ويسمعه لأمر يريده سبحانه سواء أكان مؤمنا أو غير مؤمن كفرعون يوسف (ع) .

فالإنسان في عالم الامتحان أمام طريقين:

الطريق الأول: أن تكون ولايته لخليفة الله، وبالتالي فهو يستمد أفكاره وعقائده وأحكامه من هذا المحيط، فهو يوحى له بطرق الوحي الممكنة له وبالشكل الذي يدعم اقترانه والتصاقه بالرجل الإلهي المكلف بطاعته والأخذ منه، ولذلك حتى الرؤيا التي هي من طرق الوحي بالنسبة لمن يوالون حجة الله ويدينون له بالطاعة والتسليم، فهي مرتبطة بالتكليف المناط بالإنسان وهو البحث عن حجة الله ومعرفته ثم طاعته والتسليم له، وبالتالي فهذا النمط يمكن أن تصل إليه رسالة الوحي من هذا الباب، ومستويات هذه الرؤى وتفسيرها مختلفة، فمنها ما هو واضح بدلالاته ورمزيته ومنها ما يحتاج إلى الكشف عن هذه الرمزيه، وهذه شبيهة بتلك التي تتضمنها رسائل الوحي كالكتب السماوية وما تختزنه من معان محجوبة بالألفاظ، فهذه موكولة للمعصوم كذلك (ع)؛ لأنها ببساطة لغة عصية على المكلف أن يفهمها كما هي كرموز وايحاءات تحتاج من يكشف عن دلالاتها وهو المعصوم.

والرؤيا من جانب آخر بشارة أو نذارة للمكلف، عندما يكون محتوى رسالة الرؤيا دالا على حقيقة خارجية مشخصة، فحضور حجة ألهي في رؤيا أو نصوص قرآنية مكتوبة أو مسموعة تشير وتُعلم الرائي باتباع رجل موجود يدعو للحق فهذا وحي الله وكلام الله.

(من رآني في المنام فكأنما رآني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي. ومنها: من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي. ومنها: من رآني في النوم فقد رآني فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي. وفي رواية: أن يتشبه بي. ومنها: من رآني فقد رأى الحق فإن الشيطان لا يتراءى بي. وقال في النهاية: الحق ضد الباطل. ومنه الحديث " من رآني فقد رأى الحق " أي رؤيا صادقة ليست من أضغاث الأحلام...)[١].

وعن الرضا (ع): (...ولقد حدثني أبي عن جدي عن أبيه عليهم السلام أن رسول الله (ص) قال: من رآني في منامه فقد رآني، لأن الشيطان لا يتمثل في صورتي، ولا في صورة أحد من أوصيائي، ولا في صورة أحد من شيعتهم. وإن الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزء من النبوة)[٢].

يقول المجلسي في بحاره:

(واعلم أن العلماء اختلفوا في أن المراد رؤيتهم عليهم السلام في صورهم الأصلية، أو بأي صورة كانت. ولا يخفى أن ظاهر حديث الرضا عليه السلام التعميم، لأن الرائي لم يكن رأى النبي صلى الله عليه وآله ولم يسأله عليهم السلام: في أي صورة رأيته؟ وحمله على أنه عليهم السلام علم أنه رآه بصورته الأصلية بعيد عن السياق، فإن من رأى أحدا من الأئمة عليهم السلام في المنام لم يحصل له علم في المنام بأنه رآه، ويقال في العرف واللغة أنه رآهم، وإن رأى الشخص الواحد بصور مختلفة، فيقال: رآه بصورة فلان، ولا يعدون هذا الكلام من المتناقض.

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ج٥٨ ص٢٣٥ ،الدرر السنية - صحيح أبي داود : https://dorar.net/hadith/sharh/٢٧٩٩١

٢. من لا يحضره الفقيه - الشيخ الصدوق: ج٢ ص٥٨٥.

والعامة أيضا اختلفوا في ذلك، فمنهم من قال: المراد رؤيته (ص) بصورته الأصلية وأيدوه عن ابن سيرين أنه إذا قص عليه رجل أنه رأى النبي (ص) قال: صف لي الذي رأيته، فإن وصف له صفة لا يعرفها قال: لم تره. وبعضهم قال بالتعميم وأيده بما رووه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص): من رآني في المنام فقد رآني، فإني أرى في كل صورة)[١].

وقال القرطبي: (اختلف في معنى الحديث .....والصحيح في تأويل هذا الحديث أن مقصوده أن رؤيته في كل حالة ليست باطلة، ولا أضغاث أحلام، بل هي حق في نفسها، ولو رأى على غير صورته، فتصور تلك الصورة ليس من الشيطان، بل هو من قبل الله. قال: وهذا قول القاضي أبي بكر وغيره، و يؤيده قوله "فقد رأى الحق" أي رأى الحق الذي قصد إعلام الرائي فيه، فإن كانت على ظاهرها وإلا سعى في تأويلها ولا يهمل أمرها، لأنها إما بشرى بخير أو إنذار من شر، وإما تنبيه على حكم ينفع له في دينه أو دنياه.

وقال الغزالي: (لا يريد أنه رأى، بل رأى مثالا صار آلة يتأدى بها معنى في نفسي إليه وصار واسطة بيني وبينه في تعريف الحق إياه، بل البدن في اليقظة أيضا ليس إلا آلة النفس، والحق أن ما يراه حقيقة روحه المقدس صلى الله عليه وسلم ويعلم الرائي كونه صلى الله عليه وسلم بخلق علم لا غير.

وقال الكرماني في شرح البخاري: ("فقد رآني" أي رؤيته ليست أضغاث أحلام ولا تخييلات الشيطان، كما روي: فقد رأى الحق. ثم الرؤية بخلق الله لا يشترط فيها مواجهة ولا مقابلة. فإن قيل: كثيرا ما يرى على خلاف صفته، ويراه شخصان في حالة في مكانين. قلت: ذلك ظن الرائي أنه كذلك، وقد يظن الظان بعض الخيالات مرئيا لكونه مرتبطا بما يراه عادة، فذاته الشريفة هي مرئية قطعا لا خيال فيه ولا ظن فإن قلت: الجزاء هو الشرط. قلت: أراد لازمه، أي فليستبشر فإنه رآني. وقال الطيبي: اتحاد الشرط والجزاء يدل على المبالغة، أي رأى حقيقتي على كمالها.

والظاهر أنها ليست رؤية بالحقيقة، إنما هو بحصول الصورة في الحس المشترك أو غيره بقدرة الله تعالى. والغرض من هذه العبارة بيان حقيقة الرؤيا وأنها من الله لا من الشيطان، وهذا المعنى هو الشائع في مثل هذه العبارة، كأن يقول رجل: من أراد أن يراني فلير فلانا، أو من رأى فلانا فقد رآني، أو من وصل فلانا فقد وصلني فإن كل هذه محمولة على التجوز والمبالغة، ولم يرد بها معناها حقيقة. وأما التأويل الذي ذكره المفيد - قد- فيما نقلنا عنه في الباب السابق فلا يخفى بعده، مع أنه غير محتمل في خبر الرضا عليه السلام أصلا، بل في بعض ألفاظ الروايات العامية أيضا)[٢].

الطريق الثاني: الذين لا يؤمنون بحجة الله ولا يوالون حجة الله بمختلف مشاربهم، وهؤلاء يحجبون أنفسهم عن الوحي على مستويين:

المستوى الأول: على مستوى رفض خليفة الله في زمانهم جملة وتفصيلا.

---

١. نفس المصدر السابق.

٢. بحار الأنوار - المجلسي: ج٥٨ ص٢٣٥- ٢٣٨.

المستوى الثاني: يكون فيه التعاطي مع وحي من نوع آخر كما أسلفنا وهو وحي الشيطان[١]، وهو يمكن أن يكون نتيجة مترتبة على المستوى الأول، ولا أعتقد أن هناك مجازفة بإطلاق هذه التسمية؛ لأنه ليس بعد وحي الله إلا وحي الشيطان ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٢]، وهذا مرتبط بطبيعة الأفكار التي تنطبع في نفس المكلف ومن محيطه الطبيعي، ولكن بمعزل عن وحي السماء وقوانين السماء وما يحمله وحي السماء عن طريق خلفاء الله، فطريق تحصيل المعلومة سيكون من منظومة المعارف والعلوم كما يسمونها والتي نتجت من خلالها عقائد وأحكام وتشريعات فكونت محطات للوحي الآخر يتناقله كل من يستظل بمنظومة الأفكار التي تصاغ بعيدا عن منظومة السماء.

قد يتوهم البعض أن الوحي عندما يكون مفتوحا لعامة الناس- وأكيد لا أعني به الوحي الرسالي- أنه سيكون عرضة للفهم الخالص الذي لا يطرأ عليه الاشتباه والخطأ وإن كان بمعزل عن خليفة الله، وهذا في الحقيقة خطأ في أغلب الأحيان يجترإلى تشويه العقائد الحقة التي يحملها نفس الشخص الذي دان بعقيدة ولاية المعصوم ومعرفته، بعد أن تتحول الخواطر والإشارات والإيحاءات والرموز التي تنضوي تحت مظلة هذا الوحي أو كلمات الله سبحانه إلى أفهام ومعتقدات قد يتصورها امتدادا طبيعيا لوحي السماء الذي لا يخضع لبيان المعصوم، وهذه قد تكون في غير ما نظمه في عقله ورتب عليه نتائج ومرتكزات يعمل بها على وجه اليقين!

فالأئمة (ع) طالما خاطبوا شيعتهم وحثوهم على ضرورة الالتزام بما يقولون ويقررون ويؤصلون، والمهم هو أن يكون ما يدور في عقل المكلف من أفكار وما يرد عليها من إيحاءات أو كما يتصورها البعض إلهاما لابد أن يكون من محيط الأصل الذي ورد عن المعصوم(ع)، وبعدها كل ما يترتب عليها من فهم وشرح وبسط فهو يدور في فلك الوحي ولا يكون خارجا عن مراد الله إذا كانت وفق منهج المعصوم (ع)؛ بل ستكون ثمرة مسايرته والعمل به الصواب والنجاة؛ أي أن الإنسان إذا كان مؤمنا بحجة الله ولا يرضى بغيره بديلا ولا يأخذ إلا منه باعتباره ناقلا عن الوحي و متصلا بالله سبحانه فهو بهذا الحال يكون متعرض للنفحات الإلهية وواقع ضمن مسار الفيض أو مساحة الفيض المفتوحة على الدوام ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[٣].

الله سبحانه دائم الفيض أو دائم الكلام، فيرد هذا الإنسان الإلهام والنقر والمكاشفة وما يتيسر من وسائل التواصل والوصل مع الغيب بحسب حاله، فهو من هذه الجهة يوحى له، وهو واقع ضمن منظومة الوحي التي يمثل طرفها الأصل والأساس حجة الله، فبالأخذ والطاعة والمسايرة يحصل على المعارف ويرتقي مع حجة الله وتصيبه نفحات الغيب ويغترف منها بحسب حاله ومقامه.

---

١. أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله (قل هل ننبئكم بالأخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا) قال: هم النصارى والقسيسون والرهبان وأهل الشبهات والأهواء من أهل القبلة والحرورية وأهل البدع تفسير [القمّي: ج٢ ص٤٦]، عن أمير المؤمنين (ع) وقد سأله سائل، قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن قول الله عز وجل: (هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) الآية. قال: كفرة أهل الكتاب: اليهود والنصارى، وقد كانوا على الحق فابتدعوا في أديانهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا [بحار الأنوار - المجلسي: ج١٠ ص١٢٣].

٢. الأنبياء:٢٢.

٣. المائدة:٦٤، عن حماد عنه في قول الله: " يد الله مغلولة " يعنون انه قد فرغ مما هو كائن لعنوا بما قالوا، قال الله عز وجل " بل يداه مبسوطتان ") وفي رواية أخرى عند قولهم فرغ من الأمر. [تفسير العيّاشي: ج١ ص٣٣٠]

فالإنسان الذي لا يريد أن يُخضع منظومة تفكيره ومحيطها إلى جهة معصومة لتكون بالتالي عاصمة من الوقوع في التيه والظلال والخطأ فهو بالضرورة يخضعها إلى الرصيد الفكري المتراكم والذي اكتسبه خلال مسيرته الثقافية وتجاربه المتنوعة سواء كانت شخصية بحتة أو ناتجة عن قناعات لتجارب آخرين ونتاجاتهم الفكرية والعقائدية، فيكون قد عطل عقله بعد أن أفقده وظيفته في إخضاع القضايا للأوزان الحقيقية التي يقايس بها المواضيع؛ بل حتى على مستوى التشريع والأحكام لتكون صياغات جاهزة لمنظومة يعتقد بها يطلق عليها الدين!.

فأي مضمار يريد الخوض فيه ليخرج منه بنتائج يترتب عليها مواقف وعقائد يدين بها، وإن كانت هذه الأفكار عبارة عن مجموعة مفاهيم وصور اكتسبها من خلال دراسات ومطالعات لمناهج أسسها أناس ليسوا بمعصومين وضعوا قواعد تفسر وتضع صياغات لعقائد مستلة من كتب مقدسة أو أحاديث وروايات للمعصومين (ع)، فهي لا تعدوا أن تكون معبرة عن أفهام محجورة في حدود عقولهم، والتي لا تحسن في كثير من الأحيان أن تعبر عن ظواهرها.

أما الآيات التي حثت على التدبر في القرآن كما في قوله تعالى: "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها".

فعن سليمان بن خالد قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (يا سليمان إن لك قلبا ومسامع، وإن الله إذا أراد أن يهدى عبدا فتح مسامع قلبه، وإذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبدا، وهو قول الله عز وجل " أم على قلوب أقفالها ")[١].

فالتدبر يتعلق بالقلب؛ أي نفس و روح الإنسان وبحسب مقامها، وحيث تنشأ علاقة بين نفس وروح الإنسان أو القلب وبين القرآن، ولا أقصد به القرآن أو المصحف كما يسمى وإن كان له دور وأهمية كبيرة في تأثيره النفسي والروحي وحتى المعاني الإجمالية، ولكن من الناحية المعرفية واختصاص بيان مضامين وعلوم القرآن بحجة الله، فاعتقد أن القرآن المقصود هنا هو القرآن الناطق؛ لأن المعاني والمضامين المتعلقة بالقلب إنما هي تلك التي يبينها حجة الله.

الإمام علي (ع) : (لَمّا أرادَ أهلُ الشّامِ أن يَجعَلُوا القُرآنَ: أنَا القُرآنُ النّاطِقُ)[٢].

وعنه (ع) قال: (هذا كتاب الله الصامت، وأنا كتاب الله الناطق.)[٣].

وعنه (ع): (هذا كِتابُ اللّهِ الصّامِتُ، وأنَا المُعَبِّرُ عَنهُ، فَخُذوا بِكتابِ اللّهِ النّاطِقِ، وذَرُوا الحُكمَ بِكتابِ اللّهِ الصّامِتِ؛ إذ لا مُعَبِّرَ عَنهُ غَيري)[٤].

---

١. المحاسن - للبرقي: ج١ ص٢٠٠.

٢. ينابيع المودّة - القندوزي: ج١ ص٢١٤.

٣. وسائل الشيعة - الحر العاملي: ج٢٧ ص٣٤.

٤. موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب (ع) في الكتاب و السنة والتأريخ : محمد الريشهري: ج٨ ص٢٠٧.

قول أمير المؤمنين (ع) "إذ لا معبر[١] عنه غيري" يشخص لنا أمرين أو معيارين للتعامل مع كتاب الله الصامت "القرآن المكتوب".

- لابد من وجود معبرا عن القرآن أو مفسرا له ومبينا لمضامينه ومعانيه التي تكتنزها الألفاظ المكتوبة والتي تستتر وراءها.
- حصر أمير المؤمنين (ع) المبين أو المعبر عن القرآن الصامت بشخصه (ع)، وهذا أكيد متعلق بأصل هذا الحصر كونه من الله وكونه منصوصا عليه وعلى من يقوم مقامه إلى يوم القيامة.

لذلك يعجب أمير المؤمنين (ع) ممن يحاجه ويدعوه للعمل بكتاب الله الصامت، وعجب أمير المؤمنين (ع) بحد ذاته دليلا على أن الكتاب الصامت محجوبة معانيه عن غيره حتى يوضحها هو.

وعنه (ع): (يَابنَ أبي سُفيانَ، أنتَ تَدعوني إلَى العَمَلِ بِكِتابِ اللهِ ـ وأنَا كِتابُهُ النّاطِقُ إنَّ هذا لَهُوَ العَجَبُ العَجيبُ وَالأَمرُ الغَريبُ)[٢].

الذي ينعش روح ونفس الإنسان هو مربيها والعارف بعللها ومكامن الظلمة فيها؛ لأنه عبرَ كل حجب الظلمة بعد أن استنار بنور الوحي والعلم الإلهي وهو القرآن الناطق والمبين لكتاب الله في كل زمان؛ وقد تعرضنا فيما سبق أن القرآن اللفظي لتكون آياته ومعانيه حاضرة ولو بمقدار وعاء المتلقي فلابد أن يبينها المعرف أو خليفة الله في زمانه، فلكي يستطيع إنسان أن يتدبر القرآن فلا محيص من القرآن الناطق.

أعتقد أنه من الحيف والتعسف على القرآن نفسه أن يقول أي أحد بأن التدبر بمعنى أن يقوم بإعمال فكري ذاتي وبمعزل عن المعلم الحصري بالقرآن، ثم يرتب معاني ونتائج على عمله المجرد ووحي الوهم، فلكي يكون القلب سامعا لابد أن يفرغ ساحته من الأغيار وينظفها من كل ما يحجبه عن الاتصال بهودج الهداية ونور اليقين.

لا شك أن أصحاب الشرع وحجج الله هم الأولى بتأسيس المنهج القاضي باستقامة الأمة وعصمتها من الضلال، أما أن يتبرع غيرهم (ع) في وضع مناهج للدين الإلهي فهو غير مرخص ومقطوع ببطلانه؛ لأنه سيكون داعي للاختلاف والفرقة؛ بل للضلال في أغلب الأحيان.

أما الأساس في بطلانه فهو تشريع مبتدع في عرض تشريع الله وقباله، فالمنهج السندي مثلا الذي يتبناه الأصوليون في التثبت من صحة الأخبار الواردة عن حجج الله (ع) نموذج من المناهج المبتدعة فكانت أس البلاء والمصيبة التي وقعت على رأس الدين وتفرع عنها كل باطل.

كان هذا المنهج سببا في إبعاد المنهج الحق ورسائل الوحي المقدس، فراح المؤسسون لهذا المنهج يلاحقون ويتفقدون أحوال الرجال ووثاقتهم ليكون جوهر التثبت من صدق الخبر المنقول أو عدمه، وهذه مواجهة واضحة

---

١. فالتعبير لا يعدو أن يكون تفسيرا أو تأويلا، فقد وردت هذه المفردة في كتاب الله " إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ" وتعبير الرؤيا تفسيرها أو تأويلها.

٢. نفس المصدر السابق.

البطلان لكتاب الله وصريح بيانه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[١].

فبدلا من التثبت من الخبر والتحقق من متنه بالموافقة بين الكتاب والسنة أصبح التبين من حال المخبر ميزانا للتحقق، كانت نتيجة العمل به إبعاد رسائل الوحي عن ساحة المكلفين، وأقل ما يقال فيه هو التعرض للغيبة المحرمة[٢].

خلاصة القول أن المنهج السندي اجتهاد بمقابل النص وهو باطل بالضرورة لعدم وجود أدلة كافية صريحة تثبت صحته واستقامته ليكون لهذا المنهج حجية في دين الله والحكومة على الأحاديث من خلال الجرح والتعديل، أو من خلال صفات الرواة وهو ما يعني الحكم على دين الله برمته، في حين أن الحق لا يعرف بالرجال[٣] والعكس صحيح؛ لأن عمدة ما يرويه الرجال المطعون بوثقاتهم بحسب ما يدعي أرباب هذا المنهج ومؤسسيه هي الأحكام والتشريع والعقائد كالتوحيد والولاية وهي غاية المرام وعلة المعرفة.

وبالنتيجة فإن المنقول من حواريي حجج الله وخلص أصحابهم هو ما نقله محمد (ص) وآل محمد (ع) عنه وهو وحي الله؛ لأنه عن الله سبحانه، فآل محمد (ع) طالما عارضوا وسفهوا المناهج السندية من جهة وبالمقابل كان التأكيد على منهج العرض[٤]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على معرفة آل محمد (ع) بخطورة المنهج المضاد والأهداف الرامية لإبعاد الأمة عن السماع من بوابة الوحي، وهذا شكل من أشكال التغييب لرسالة الوحي المقدسة.

التفسير والتحريف

بداية نحن نقصد كل الذين قدموا تفسيرا لكتاب الله كمفسري السنة والشيعة أو للنصوص المقدسة بشكل عام كمفسري الكتاب المقدس كإنطونيوس فكري وأمثاله، اعتمادا على الفهم الخاص وبالرجوع إلى قواعد عقلية وفلسفية وكلامية ونحوية، وكلها قواعد وضعية.

وقد تعرضت لنماذج واضحة من تفسيراتهم للنصوص التوراتية والإنجيلية والقرآنية التي تصدى لتفسيرها علماءهم وكانت واضحة البطلان؛ لأنها في الحقيقة حرفت مقاصد النص واصطدمت مع حقائق علمية مثبتة،

---

١. الحجرات: ٦.

٢. للمزيد راجع القيمة الذاتية للنص الديني للشيخ ناظم العقيلي.

٣. أمير المؤمنين (ع): (يا حارث! إنه ملبوس عليك، وإن الحق والباطل لا يعرفان بالناس، ولكن اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف من أتاه). [الأمالي - الطوسي: ص١٣٤]، قال أمير المؤمنين (رض) : (لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال).أقول: يعني لا يمنع حال القائل من خسة النفس ودناءة النسب وترك لعمل وسوء الأدب من قبول قوله وسماع كلامه واقتباس العلم والحكمة من فيه كما قيل الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها أخذها. [شرح كلمات أمير المؤمنين (ع) - عبد الوهاب: ص١٢].

٤. عن أبي عبد الله (ع) قال: خطب النبي (ص) بمنى فقال: أيها الناس! ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله)، أيوب بن الحر قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف)[وسائل الشيعة - الحر العاملي: ج٢٧ ص١١١].

ولم تعد هناك حاجة للبسط والتطويل في طرح نماذج متنوعة للمفسرين؛ لأننا أثبتنا بأن الأصل في تبني التفسير منقوض ولم تقم أي أدلة على إباحته؛ بل العكس تماما قامت الأدلة العقلية والنقلية على عكسه.

أما من قدم تفسيرا لكتاب الله جمع فيه تفسير أهل البيت (ع) ولم يعطي رأيا أو فهما يقابل تفسيرهم (ع) فهو غير مقصود[١] كونه مفسرا لكتاب الله.

عندما تكون النظم والمرتكزات عقلية صرفة؛ أي أن تكون صناعة بشرية ثم تجيز لنفسها أن تترجم النصوص المكتوبة بمداد قدسي سماوي فإنها تعني قلب الحقائق وتزييفها و اندراسها تحت ركام الطرح البشري، فلو قابلنا هذا العمل بممارسة بشرية بحسب النظم المعمول بها في عالمنا فهي كمن يتصدى لترجمة نصوص أجنبية مهمة كالوثائق الرسمية والقوانين وهو لا يعرف اللغة المكتوبة بها ولا يدري بأي شيء تختص هذه الوثائق وما هي حدود تطبيقها، وبالتالي فهو غير مؤهل بالمرة لأداء مهمة الترجمة، فيتسبب الخطأ في ترجمتها إلى قلب الحقائق والخروج بنتائج مغايرة تماما سيجر اعتمادها إلى ضياع الغرض من كتابتها؛ بل ضياع حقوق وارتكاب مظالم.

أقول: فكيف تغيب حقائق بهذا الوضوح للحد الذي يتغافل عنها أرباب الطرح الديني بمقابل النصوص المقدسة للكتب السماوية أو لأقوال خلفاء الله (ع) فيخوضون غمارها ويسمحون لأنفسهم بأن يكونوا ناطقين عن الله في تحد غريب ومفزع للنصوص الواضحة من الثقلين في النهي عن الخوض في كتاب الله، وهو مختصات من خوطبوا به.

رب قائل يقول لم تتبنى مناهج التفسير تحريفا في أي موضع من كتاب الله، والمقصود أنهم لم يغيروا بالحروف أو الكلمات أو الجمل؛ أي لم يتم التلاعب بألفاظ القرآن.

أقول: الألفاظ وسيلة للتعبير عن معنى، فما الفرق إذا كانت الألفاظ وسيلة لتحريف المعنى؟! فتحريف المعنى ربما يكون أشد تأثيرا ونتائجه السلبية أعظم، والتحذير من التفسير وعواقبه ورد بشكل ملح في الكتاب والسنة.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[٢].

روي عن النبي (ص) أنه قال: (من فسر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ)[٣].

وعنه (ص): (من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار)[٤].

وعنه وعن الأئمة القائمين مقامه (ع) أن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح والنص الصريح.

---

١. كتاب البرهان في تفسير القرآن للسيد هاشم البحراني نموذجا، يقع في ثمانية أجزاء، جمع فيه روايات أهل البيت (ع) في تفسير القرآن الكريم.

٢. البقرة: ٧٩.

٣. تفسير الصافي - الفيض الكاشاني: ج١ ص٣٥.

٤. نفس المصدر السابق.

وفي تفسير العياشي عن أبي عبد الله (ع) قال: (من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر وإن أخطأ فهو أبعد من السماء)[١].

وفيه وفي الكافي عن الصادق عن أبيه (ع) قال : (ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلا كفر)[٢].

الفيض الكاشاني: (أقول: لعل المراد بضرب بعضه ببعض متشابهاته إلى بعض بمقتضى الهوى من دون سماع من أهله أو نور وهدى من الله....فنقول: وبالله التوفيق إن من زعم أن لا معنى للقرآن الا ما يترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب في الإخبار عن نفسه ولكنه مخطئ في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومقامه بل القرآن والأخبار)[٣].

ورد في القرآن آيات تصف المؤمنين بحجج الله والملازمين لهم، والروايات صدقت وأكدت هذا المعنى، وهؤلاء الملتصقون بحجج الله والمسايرين لهم كان نصيبهم الغفران وتكفير الذنوب والعفو والدرجات العلى بسبب أخذهم من الإمام (ع)؛ لأنه لا يوجد طريق آخر للاتصال بالله والعمل بشرائعه وأحكامه ومعرفته التي هي سبب الوجود والخلق سوى خليفة الله المنصب في كل زمان، فالذين اختطوا طريقا آخر وأحدثوا في دين الله منهجا لا يرجعون فيه إلى هذا الخليفة وصاحب الإحكام القطعية والمعارف الحقة فهم الصادين عن طريق الله.

عن سدير قال: لقيت الإمام الباقر (ع) وأنا خارج من بيت الله وهو داخل، فاستقبل البيت وقال: (يا سدير أفأُريك الصادّين عن دين الله؟ ثم نظر إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري في ذلك الزمان وهم حلق في المسجد فقال: هؤلاء الصادّين عن دين الله، بلا هدىً من الله ولا كتابٍ مبين، إنّ هؤلاء الأحاديث لو جلسوا في بيوتهم فجال الناس فلم يجدوا أحداً يخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله (ص) حتى يأتونا فنخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله (ص))[٤].

الحصر واضح بأن الهدى من الله ومن الكتاب، والناطق عنه سبحانه هم آل محمد (ع) والطريق إلى الله وإلى العلوم والمعارف الحقة النازلة إليهم هو طريقهم وهو طريق الوحي الإلهي.

عن معلى بن خنيس قال: قال أبو عبد الله (ع): (ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله ولكن لا تبلغه عقول الرجال .... وأما ما سألت من القرآن فذلك أيضا من خطراتك المتفاوتة المختلفة، لأن القرآن ليس على ما ذكرت، وكل ما سمعت فمعناه غير ما ذهبت إليه، وإنما القرآن أمثال لقوم يعلمون دون غيرهم، ولقوم يتلونه حق تلاوته، وهم الذين يؤمنون به ويعرفونه، فأما غيرهم فما أشد إشكاله عليهم وأبعده من مذاهب قلوبهم، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ليس شئ بأبعد من قلوب الرجال من تفسير القرآن، وفي ذلك تحير الخلائق أجمعون إلا من شاء الله، وإنما أراد الله بتعميته في ذلك أن ينتهوا إلى بابه وصراطه وأن يعبدوه وينتهوا في قوله إلى طاعة القوام بكتابه والناطقين عن أمره وأن يستنطقوا ما احتاجوا إليه من ذلك عنهم لا عن أنفسهم ثم قال: "ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم" فأما غيرهم فليس يعلم

---

١. نفس المصدر السابق.
٢. نفس المصدر السابق.
٣. نفس المصدر السابق.
٤. بحار الأنوار - المجلسي: ج٤٧ ص٣٦٤- ٣٦٥.

ذلك أبدا ولا يوجد، وقد علمت أنه لا يستقيم أن يكون الخلق كلهم ولاة الأمر إذ لا يجدون من يأتمرون عليه، ولا من يبلغونه أمر الله ونهيه، فجعل الله الولاة خواص ليقتدى بهم من لم يخصصهم بذلك فافهم ذلك إن شاء الله، وإياك وإياك وتلاوة القرآن برأيك، فإن الناس غير مشتركين في علمه كاشتراكهم فيما سواه من الأمور، ولا قادرين عليه ولا على تأويله إلا من حده وبابه الذي جعله الله له فافهم إن شاء الله واطلب الأمر من مكانه تجده إن شاء الله)[١].

تنبيه مهم:

ورد في الرواية "يتلونه حق تلاوته" وأن اختصاص من يتلونه هم قوم يؤمنون به ويعرفونه، وهذا حصر بالأئمة (ع) والثقل الأصغر وعدل القرآن، فالتلاوة بحسب ما تقدم هو بيان معاني وحقائق الآيات المكتوبة وليس قراءة ألفاظها كما يظن البعض، ثم أردف أبو عبد الله هذا المعنى وأكده بقوله "وإياك وتلاوة القرآن برأيك"؛ لأن الرأي المنسوب لصاحبه من وحي الوهم، وبيانه (ع) لعلة ذلك وهو أن التلاوة متعلقة بعلم وبيان معاني وحقائق القرآن وأن غير الأئمة (ع) غير مشتركين في هذا العلم فهم غير قادرين على بيانه وتأويله.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[٢].

عن ثابت، عن أنس: (أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ قال: هو رسول اللّه(ص) وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ قال: هو عليّ بن أبي طالب(ع)،كان- و اللّه- لسان رسول اللّه(ص))[٣].

فعلي (ع) ومن قام مقامه هم المعنيون بتلاوة القرآن وهم الناطقين عن الله وعن رسوله (ص).

خطب الإمام الحسين (ع) فقال: (نحن حزب الله الغالبون، وعترة رسول الله (ص) الأقربون، وأهل بيته الطيبون، وأحد الثقلين اللذين جعلنا رسول الله (ص) ثاني كتاب الله تبارك وتعالى، الذي فيه تفصيل كل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه. ولا من خلفه، والمعول علينا في تفسيره، لا يبطينا تأويله، بل نتبع حقايقه، فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، أن كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة، قال الله عز وجل: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) وقال: (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منكم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلا). وأحذركم الاصغاء إلى هتوف الشيطان بكم فإنه لكم عدو مبين...)[٤].

النتيجة التي نخلص إليها باستقراء بسيط لمسيرة الإنسانية منذ بعث آدم (ع) إلى يومنا هذا هو استحواذ المنهج المناهض للمنهج الإلهي الموجب لولاية خليفة الله في كل زمان، والذي عمل على فرض منظومته واستمرارها على طول الخط مستفيدا من الجهل الذي سيطر على عقول وقلوب أكثر الأمم التي عاصرت الأنبياء والرسل والأوصياء (ع)، والذي هو بحد ذاته سبب الابتعاد عنهم (ع)، وهذا يفسر لنا سبب فشل الأمم في نصرة دين الله

---

١. المحاسن - البرقي: ج١ ص٢٦٨.

٢. هود: ١٧.

٣. تفسير البرهان - هاشم البحراني: ج٣ ص٩٤.

٤. الاحتجاج - الطبرسي: ج٢ ص٢٢- ٢٣.

وقبولهم في البقاء بعيدا عن النور حتى استهلكتهم الظلمة وحجبوا عن الطريق الذي يأخذهم إلى النور والفوز بمعرفة الله ورضاه.

وأعتقد أن من أهم الأسباب التي دفعت بزج هذه المنظومة المبتدعة في ساحة المكلفين واتساعها واستيلائها على عقول المكلفين هو التسابق بين أرباب المناهج العقلية لتقديم فروض وأطروحات وسنن وعقائد وأحكام وتفرع مؤسساتها ومناهجها لتحاكي معظم شرائح المجتمع وتحل محل المنهج الإلهي.

التفسير والمنهج العملي في زمن الفترة

المنهج الحقيقي والآمن الذي يضمن للإنسان إدراك الدين الحق وبلوغ مراد الله هو الرجوع إلى الثقلين، وهذا ما تم بيانه في فقرات سابقة من هذا البحث.

أما مسألة وجود خليفة إلهي في الأرض لا يخلو منه زمان فهذه سنة إلهية لا تتخلف.

يقول السيد أحمد الحسن: (إن الغرض من الخلق هو المعرفة، ولا يتحقق الغرض في هذا العالم لمعظم الخلق إلا بتنصيب ناقل للعلم وظيفته تعريف الناس، وترك فعل ما يتحقق به الغرض مع القدرة عليه فيه نقض للغرض، وهذا تناقض لا يصدر من الحكيم المطلق، فبما أن تنصيب خليفة الله المعرف بالله وبدين الله وبإرادة الله يحقق الغرض من الخلق، إذن لابد من تنصيبه.

ولا يصح أن يخلو منه زمان مع وجود القابل، فلا يعرف الخلق دين الله وإرادة الله، فلا يعلمون ولا يعبدون ولا يعرفون، فينقض الغرض من الخلق، وكذا لا يصح أن يخلو منه الزمان حتى عند عدم وجود القابل ...وهذا النصب وضرورته يقره – عمليا ملجأين إليه- كل من نصبوا فقهاء أو أوصياء على الدين يشرعون لهم وإن أنكروه بألسنتهم، حيث إنهم كفروا بالنصب الإلهي ومن ينقل لهم دين الله، نصبوا هم لأنفسهم من يشرع لهم بالظنون والأهواء في ما ليس فيه نص إلهي متوفر عندهم، وهكذا هم قد أقروا بعملهم هذا ضرورة نصب خليفة الله، وأعلنوا حاجتهم له لينقل العلم الإلهي وحكم الله الحق في كل واقعة)[١].

إذن لابد ان يكون هذا الخليفة الإلهي موجودا في كل زمان وفق الحكمة، ولا بد أن يكون هذا الخليفة المنصب من قبل الله هو الأعلم[٢] في ما انتدب إليه؛ لأن تنصيب الأقل منه علما مع وجود الأعلم تضييع لبعض العلم الموجود عند الأعلم أن يصل للمكلفين، وفي هذا مجانبة للحكمة .

إما في حال عدم وجود خليفة إلهي ظاهر بين الناس، فهذا يعني عدم وجود قابل، والزمن الذي لا يكون فيه حجة إلهي بين الناس هو زمن الفترة[٣]، كما هو الحال في الفترة بين عيسى (ع) ومحمد (ص).

---

١. عقائد الإسلام- السيد أحمد الحسن: ص ٣٤.

٢. نفس المصدر.

٣. الفترة: هي زمن لا يكون فيه رسول مرسل مأمور بتبليغ الناس برسالته، ففي زمن الفترة يمكن أن يكون الرسول موجودا منصبا وقد هيأه الله بالعلم، ولكن لعدم وجود القابل لا يأمره الله بالتبليغ " لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ... وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ" [يس: ٦،١٠]. فليس من الحكمة التبليغ والحال أنه لا يوجد قابل ولا نتيجة مرجوة من التبليغ، ووجود الرسول والحال هذه موافق للحكمة؛ لأن فيه إقامة الحجة على الناس، ولا يكون للناس حجة مع وجود الرسول، فيكون هذا الزمان

فمن يقول أن غياب الحجة الإلهي وعدم حضوره بين الناس يستدعي وجود شخص يسد مسده ينظر في أمور الدين والتشريع وبيان مراد الله في كتابه المقدسة فهو يرمي التقصير في ساحة الله ومن أرسله.

أقول: علمنا أن الله سبحانه هو المالك الحكيم المطلق فلابد أن ينصب خليفه عنه في ملكه متصلا به يعرف إرادته، وهذه سنة إلهية مذكورة في الكتب المقدسة كالتوراة والانجيل[١] كما في القرآن، وهي تأكيد واضح على أن سنة الاستخلاف دائمة لم تتخلف لتضمن إيصال إرادة مالك الأرض ومن عليها وحاكميته المطلقة في ملكه.

إذن كل ممثلي الديانات وبالخصوص المسلمون واليهود والمسيحيون واقعون تحت طائلة الحجية التي تفرض رجوعهم إلى النصوص الواضحة في كتبهم والتي تقضي بضرورة وجود رجل إلهي يمثل إرادة الله مبينا لمراده وأحكامه.

فالحاكمية لله تشريعا وتنفيذا كما يقول السيد أحمد الحسن: (..إن خلافة الله هي العقيدة الحقة، وأن الله يرسل خلفاءه في كل زمان، سواء كانوا ظاهرين معلنين ينصرهم بعض الناس عند وجود القابل، أو مستورين غير معلنين(مجمدين) عند عدم وجود القابل، فبهم تقام الحجة على الناس ويقطع عذرهم (لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)، وهم يحققون العلة من الخلق وهي المعرفة، وأيضا بهم تمضى إرادة الله في ملكه؛ لأنهم السبيل الوحيد لذلك، فغيرهم عاجزون عن معرفة إرادته فكيف يمضونها في ملكه .

وهنا يجب الالتفات إلى أن هذه العقيدة الحقة التي بيناها فيما تقدم موافقة للأصل الذي يدركه كل مؤمن عاقل، وهو أن المالك الحقيقي للأرض ومن فيها هو الله وليس لأحد ولاية في ملك الله بدون إذنه سبحانه، بينما

هو زمان فترة يوجد فيه رسول وهو خليفة الله في أرضه وحجته على عباده، أو من نصبه في زمن غيبته أو رفعه [كما هو حال إيليا وعيسى ومحمد بن الحسن (صلوات الله عليهم أجمعين] - ولكن لا يؤمر بالتبليغ وإن كانت الفترة طويلة كان فيها أكثر من رسول، ولزمن الفترة أشار تعالى بقوله: " ا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[المائدة: ١٩]، وكلمة فترة لا تعني الانقطاع التام، بل الضعف والفتور، أي أن الرسل في زمن الفترة موجودون، ولكن هناك فترة وسكون في مهمتهم الرسالية، يتمثل عدم تكليفهم بتبليغ الرسالة الإلهية التي تتمثل على أقل تقدير في أن هؤلاء الرسل حجة على بقية الناس والكاشفين عن إرادة الله سبحانه، وسبب علة وعدم تكليفهم بالتبليغ إضافة إلى عدم وجود القابل هو أيضا الرحمة بالناس ...) [عقائد الإسلام- السيد أحمد الحسن: ص٥٢-٥٣].

١. في العهد القديم " وقال الرب لموسى هو ذا أيامك قد قربت لكي تموت. ادع يشوع وقفا في خيمة الاجتماع لكي أوصيه. فانطلق موسى ويشوع ووقفا في خيمة الاجتماع ١٥ فتراءى الرب في الخيمة في عمود سحاب ووقف عمود السحاب على باب الخيمة" [التثنية- الإصحاح الواحد والثلاثين]، والكلام واضح أن (يشوع) أو (يوشع) هو وصي موسى (ع)، " ١وهذه هي البركة التي بارك الله بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته٢ فقال. جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلالا من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم. ٣ فأحب الشعب. جميع قديسيه في يدك وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك" [التثنية- الإصحاح الثالث والثلاثين]، وهذا النص يذكر موسى وعيسى ومحمدا وهو ما يتطابق مع ما موجود في دعاء السمات المذكور في كتاب مفاتيح الجنان .

وفي العهد الجديد"١٥:٢١ فبعدما تغدوا قال يسوع لسمعان بطرس يا سمعان بن يوتا أتحبني أكثر من هؤلاء قال نعم يا رب أنت تعلم أني أحبك قال ارع خرافي ١٦:٢١ قال له أيضا ثانية يا سمعان بن يوتا أتحبني قال نعم يا رب أنت تعلم أني أحبك قال ارع غنمي ١٧:٢١ قال له ثالثة يا سمعان بن يوتا أتحبني فحزن بطرس لأنه قال له ثالثة أتحبني فقال له يا رب أنت تعلم كل شيء أنت تعرف أني أحبك قال له يسوع إرع غنمي"[إنجيل يوحنا] واضح أن سمعان بطرس (شمعون الصفا) هو الوصي بعد عيسى (ع)، فعيسى (ع) أو يسوع ليس لديه خراف أو غنم، وإنما المقصود رعيته والمؤمنين به [عقائد الإسلام – السيد أحمد الحسن: ص٤٨].

الاعتقاد بحاكمية الناس تشريعا أو تنفيذا أو حتى القول بإمكان تخلف الاستخلاف يعني أن هناك ولاية لغيره سبحانه وتعالى في ملكه، وهو باطل بداهة والاعتقاد بهذا يصل إلى حد إبطال لاهوته المطلق. وبهذا يُرد قول أهل السنة وغيرهم أن التنصيب بيد الناس (الشورى أو بيعة أهل الحل والعقد أو الغلبة أو غيرها من وسائل...)[١]

وعليه ليس لأحد من الخلق أن يفترض أن سنة الله تتغير وعندها يمكن نقل حق التصرف بملك الله بقانون وضعي يقترحه الناس، وقد ثبت بالدليل القطعي أن التنصيب بيد الله، وأن الحق مع آل محمد (ع) خلفاء منصبين إلى يوم القيامة، ومن يريد أن ينقض فلابد أن يقدم الدليل القطعي يخوله بتنصيب من يشاء، وهذا غير موجود قطعا في الواقع.

أما من يقدم الذرائع لتبنيه حق البيان والتفسير لكلام الله سواء بفرض عدم ضرورة وجوده كما هو حال منظرو السنة أو عدم إيمان اليهود أو المسيحيين بوجوده أصلا، فالحجة قائمة أثبتها السيد أحمد الحسن للجميع أن الحق في آل محمد(ع) وأن رجلا منهم موجود في كل زمان إن قبلت به الناس كان ظاهرا أو خذلته فكان مستورا، وفي كلا الحالين فالحجة ملقاة على الناس.

فالأعذار مقطوعة لمن يقدموها تبريرا لتصديهم للتفسير والبيان.

يقول السيد أحمد الحسن:

(..وإن وُجِدَ بحث في الكتاب الكريم فهو يدور حول آراء المفسرين التي لا يعدو كثير منها محاولات لصب آيات القرآن ضمن مجال القواعد النحوية والفلسفية وغيرها، مع أنّ كثيراً منها استقرائية تحتمل الخطأ وكثيراً منها خلافية لم يتحرّر النزاع فيها. ولو أنّهم فسّروا الكتاب على ما ورد في روايات أهل بيت العصمة ولم يتعدّوا الصراط المستقيم الذي رسمه أهل البيت (ع) لتدبر القرآن وتفسير آياته لكان خيراً لهم وأقرب للتقوى. ولكن أنّى لهم ذلك)[٢]

فآل محمد تركوا لنا تفسيرا لكتاب الله مبثوث في رواياتهم الشريفة، فكان الأولى لهم أن يرجعوا إليها وتكون منهجا لتفسير آيات الله وتدبر القرآن، وإن كان الأصل يفترض وجود خليفة الله بينهم يأخذون منه كل ما يخص الدين وطاعة الله والعمل بمراداته، لكنهم بإعراضهم عنه حجب عنهم وهم مسؤولون أمام الله عن هذا الخذلان.

أما الواقع الذي يفرضه النتاج التفسيري لعلماء الأديان بشكل عام يثبت وعلى كل المستويات أن هذه المناهج عاجزة تماما عن إثبات مقبولية ما قدمته، فضلا عن فشلها في مواكبة ومجاراة الحقائق العلمية المثبتة التي نقضت غزلهم في كثير من الحقائق المهمة والتي جاءت على العكس مما قدموه، ولم يجني الأتباع أي ثمرة سوى التناحر والاختلاف على مستوى العقائد والدين عموما؛ وانتهى بالأتباع إلى الضياع ؛بل وحتى الاقتتال أحيانا.

---

١. عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص-٥٠٤٩.

٢ .كتاب العجل- السيد أحمد الحسن: ج٢ التفقه في الدين.

فكل الرسالات والكتب السماوية نقلها الوحي من نفس المصدر، وهذا يعني أن الجامع لكل هذه الرسالات واحد والمصدر واحد ونوع ورتبة المستقبل- وكل بحسبه- للفيض واحد وهم حجج الله ومن قام مقام محمد (ص) إلى يوم القيامة، فكل من تصدى ليتبوأ مقام من أوحي إليه لم يقدم إلا وهما.

يقول السيد أحمد الحسن:

(القرآن هو الحجاب الذي يخفق بين الله سبحانه وتعالى وبين محمد (ص)، وفي مرتبة معرفة محمد (ص) للقرآن يكون محمد (ص) هو هذا الحجاب، فيكون هو القرآن، فيخفق بين فناء في الذات الإلهية فلا يبقى إلا الله الواحد القهار، وبين عودة الأنا والإنسانية، فيكون محمد (ص) المخلوق الأول ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ([الزخرف: ٨١])، وفي هذه المرتبة لا يعرف القرآن إلا محمد (ص)، ولا يعرفه حتى أفضل الخلق من بعده، وهم علي وفاطمة والأئمة (ع) والمهديون والأنبياء والمرسلون فضلاً عن ملائكة الله المقربين، وجبرائيل (ع) منهم.

فجبرائيل (ع) ليس له طاقة على معرفة أو تحصيل آيات القرآن في هذه المرتبة بل وحتى دون هذه المرتبة، حتى تصل النوبة في التنزل والتجلي إليه وإلى ملائكة الله المقربين (ع)، فيعلمون من القرآن ما شاء الله لهم أن يعلموا، لما أظهره وجلاّه في عوالمهم (ع)، وهو في تلك العوالم نور كلي في السماء السابعة، ومثال تفصيلي في السماوات الستة)[1].

---

[1]. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: سؤال ١٤٧ (...والقرآن الذي بين أيدينا هو ألفاظ تقرب ذلك النور، والمثال بالمعنى الذي تدل عليه هذه الألفاظ .. ثم إنّ الناس لا يعرفون من القرآن إلا الألفاظ، وهي قشور وشيء من المعنى يحصلونه؛ إما من الوهم والعوالم السفلية، فهو باطل. وإما من الملكوت وحقائق الأشياء فيه، وهي من لوح المحو والإثبات. والأحداث فيه إما أنها لا تقع أصلاً، وبالتالي فإنّ معنى اللفظ المرتبط بها لا يتحقق أيضاً في أي زمن من الأزمنة. وإما أنها تقع وصادقة ولكنها وجوه عديدة لكلٍ منها أهل وزمان ومكان تقع فيه، وتبيَّن للناس في هذا العالم السفلي من قبل المعصوم (ع). فنفس الآية القرآنية تؤوَّل في زمن الصادق (ع) تأويلاً مغايراً تماماً للتأويل في زمن الإمام المهدي (ع)؛ لاختلاف الزمان والمكان والناس، أو قل: لتبدل المتنافيات في عوالم نزول القرآن سواء في الملكوت أو الملك. وهكذا، فإنّ إحكام المتشابهات هو وظيفة المعصوم، ولا يعلم المحكم من المتشابه إلا المعصوم .

والتشابه الموجود في الآيات يشمل المعنى المراد والأحداث التي تحققت وتتحقق مع مرور الزمن فنفس اللفظ القرآني يمكن أن يراد منه معاني عديدة، وينطبق كل من هذه المعاني على أحداث عديدة. ولذا فإنّ للقرآن ظهوراً كثيرة لا يعلمها إلا الله ومن أراد الله اطلاعه عليها، وهم المعصومون (ع)، ولهذا لا تستغرب أن أمير المؤمنين علياً (ع) يمكنه أن يكتب في البسملة حمل سبعين بعيراً

المتشابهات- السيد أحمد الحسن: ج١ س١٩،.....أما جبرائيل (ع) فقادر بقدرة الله سبحانه وتعالى أن ينطق بحروف القرآن، وينقلها لمحمد (ص) في هذا العالم، أي لروح محمد (ص) المدبرة لجسد محمد (ص) في هذا العالم.

أما حقيقة القرآن التي بيّنتها في بداية الكلام فجبرائيل (ع) غير قادر على تحمّلها، بل إن محمداً (ص) يأخذها من الله سبحانه وتعالى. بقي أن تعرف أن جبرائيل (ع) ينقل القرآن من محمد (ص) في الملأ الأعلى إلى محمد (ص) في هذا العالم، فالذي يتلقّى القرآن من الله سبحانه وتعالى هو محمد (ص) فقط، بل هو المتلقي لجميع الكتب السماوية والرسالات من الله، وجبرائيل (ع) يأخذ عنه وينقل. ولتتوضح لك الصورة أكثر أضرب هذا المثال: مثل جبرائيل (ع) كالخلية العصبية التي تنقل الإشارات النورية الكهربائية من الدماغ إلى باقي أعضاء جسم الإنسان كالأرجل، ومحمد (ص) هو جسم الإنسان. فمحمد (ص) هو الخلق، وهو الكون، وهو كل العوالم المخلوقة، فمحمد (ص) هو الألف والياء، وهو الأول والآخر، وهو الظاهر والباطن في الخلق، وتعالى الله سبحانه رب العالمين.

أرجو أن تكون قد عرفت مما تقدم: أنّ جبرائيل (ع) ينقل القرآن من الله سبحانه إلى محمد (ص) بواسطة محمد، وإن جبرائيل (ع) لم ينقل حقيقة القرآن التامة عند محمد (ص) من الله لمحمد (ص)، بل إن محمداً (ص) أخذها من الله سبحانه وتعالى. وأنّ جبرائيل نقل كل القرآن الموجود بين أيديكم من الله لمحمد (ص)، ولا توجد آية في القرآن إلا وجبرائيل (ع) ناقلها لمحمد (ص). وفي القرآن آية

ونفهم أيضا:

- الظهور والتجلي في عوالمهم (الملائكة) يعني في مراتب وجودهم.
- هذا يعني أنهم يأخذون من القرآن بمقدار قابليتهم واستعدادهم ومرتبتهم وحتى جبرائيل (ع).
- القرآن الذي بين أيدينا ألفاظ تقرب ذلك النور، وهي قشور وشيء من المعنى يحصلونه؛ إما من الوهم والعوالم السفلية، فهو باطل. وإما من الملكوت وحقائق الأشياء فيه، وهي من لوح المحو والإثبات، وبالنتيجة فحقائقه محجوبة عنهم في كل الأحوال.

أما كون القرآن في تلك العوالم نور كلي في السماء السابعة فمنه نفهم لماذا قال (ع): القرآن كله في الفاتحة والفاتحة في البسملة وما في البسملة بالباء (وهذا معنى الكلية)، فالتفصيل يتدرج نزولا حتى عالمنا وفي كل مرتبة تنزلية يعرف أهل تلك المرتبة بمقدار ما تجلى القرآن لهم في تلك المرتبة أيضا.

السقيفة والانقلاب على الوحي

بذل إبليس جهده الجهيد لإضلال الناس وعزلهم عن النور أو العلم الإلهي الموجب للهداية والنجاة باستهداف خلفاء الله على طول المسيرة من آدم إلى آخر خليفة إلهي على هذه الأرض، وهذا ما طلبه من الله سبحانه بمقابل عبادته الطويلة بعد أن فشل في امتحانه بالسجود لآدم.

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ* قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[1].

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ* إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ* قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ* قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[2].

فكان عمل إبليس على طول الخط هو إغواء الناس وإبعادهم عن خلفاء الله، وهو بهذا العمل يستهدف الوحي وما ينقله الوحي، وهذا يحدث تماما بمحاولاته لتوسيع الهوة بين ناقل الوحي وبين الناس، فإبليس وجنوده يعملون على تطوير منظومة الإغواء في كل زمان ومكان وبكل الطرق والوسائل الكفيلة بعزل الناس عن ناقلي الوحي "ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ"، والعملية سارت بهذا الشكل منذ آدم (ع) ولكن ربما اشتدت وتيرتها واتضح هدفها واضطر إبليس أن يفصح عن خطوته الأكثر إيغالا في الإغواء عندما وصل الأمر بنجاح محمد (ص) في ترسيخ مشروع الوحي الذي قصم ظهر إبليس.

دالة على أن ناقله كله هو جبرائيل (ع)، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أي إنّ القرآن، والرسول الكريم هو جبرائيل (ع)).راجع كتاب المتشابهات - السيد أحمد الحسن: س١٤٧.

١ .الأعراف: ١٦.

٢. الحجر: ٣٥- ٤١.

وعندما أراد محمد (ص) أن يرسم طريق الوحي المتواصل حتى نهاية المشروع الإلهي في الأرض بكتابة وصيته المقدسة ليلة وفاته وتسمية أمناء الوحي إلى يوم القيامة، عندها انتفض إبليس وقالها صراحة لا يمكن أن يستمر طريق محمد (ص) وتسلك فيوضات الوحي مسارها المقدس عبر الرجال الإلهيين فأعلن خطوته الحاسمة في إضلال شريحة كبيرة من الجمهور وأطلقها صريحة "حسبنا كتاب الله".

قالها إبليس واضحة سيكون هذا المنهج الطريق الوحيد الذي يضمن نجاح مشروع الإغواء بحجب الوحي، وستكون الوسائل والخطط لتنفيذ هذا المشروع قاسية وإن كلف ذلك إراقة دماء المقدسين وقطع رؤوسهم.

فماذا تعني حسبنا كتاب الله؟

اعتقد أنها تسفر عن حقيقة التعطيل للكتاب؛ لأن الكتاب خطاب مقرون بمبين طالما حرص أئمة الهدى (ع) على تذكير الأمة بحقيقة وضرورة وجود هذا المبين لآياته.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾[١].

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢].

كانت السقيفة الترجمة العملية الفاضحة والواضحة لمشروع عزل المقدسين الذين خصهم الله بالوحي، وكانت نقطة التحول الخطيرة التي جرّت المآسي والويلات على حملة القرآن الحقيقيين، لتنطلق بعدها حملات التزييف وبناء منظومة التغييب وجعل كتاب الله عرضة للمتقولين على الله والعابثين بآياته بعد أن جعلت آياته ممرا وغرضا لتمرير الأهواء والآراء، فأنزلت منزل أحاديثهم وتناجوا بها كأنما نزلت عليهم وبهم خصت!! مع أن آل محمد (ع) وطبقا لآيات الكتاب صرحوا بواضح العبارة بأن الذين يفسرون[٣] القرآن ضالين مضلين؛ بل كافرين.

يمكن أن نستحضر صورتين أو حالتين أو مرحلتين لما تمخض عن السقيفة الهادفة لضرب الدين برمته.

الصورة الأولى:

تصفية الرجال الذين اختصهم الوحي، وقد تم تنفيذ هذا المشروع بأشكال مختلفة، فمرة يستهدف ناقل الوحي جسديا وبشكل مباشر إما باغتياله وقتله غيلة أو قتله بالسم، ومرة يكون بفرض الحصار لشخصه وعزله عن الجمهور والتضييق عليه بكل الوسائل، والتي يتحقق بها تغييبه عن الساحة وعدم السماح له بالاحتكاك بشيعته أو بالناس بشكل عام.

وأبرز المظاهر التي جسدت هذا المنهج دس السم لرسول الله (ص) وقتل أمير المؤمنين (ع) وسم الحسن (ع) وقتل الحسين(ع) وقتل باقي أئمة أهل البيت سما[٤]، ولعل مقولة عمر بن سعد (لع) في يوم عاشوراء

---

١. العنكبوت: ٤٩.

٢. النحل: ٤٤.

٣. روي عن النبي (ص) : (من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) [بحار الأنوار- المجلسي: ج٣٠ ص٥١٢].

٤. خطب الإمام الحسن بن علي [عليهما السلام] بعد قتل أبيه، فقال في خطبته : " لقد حدثني حبيبي جدي رسول الله (ص) : (أن الأمر يملكه اثنا عشر إماماً من أهل بيته وصفوته، ما منا إلا مقتول أو مسموم) [كفاية الأثر- الخزاز القمي: ص١٦٢].

تجلي واضح "أحرقوا الخيام ولا تبقوا لأهل هذا البيت من باقية"[١] والعبارة واضحة بخصوص (أهل البيت ع).

الصورة الثانية:

تجسدت في إحكام القبضة على السلطة والبقاء في سدة الحكم ليكون تشريع القوانين وإصدار الأحكام الصارمة وقطع الطريق على أي حجة إلهي يمكن أن تسنح له فرصة النزول والبقاء في الساحة، فضلا عن تحشيد الطاقات لصناعة ماكنة إعلامية تعمل على تزوير الحقائق وانتاج نسخ جديدة للعقائد والأحكام تفوت الفرصة على أهل الدين واتباعهم الحقيقيين.

ومن طريق ابن المبارك عن الحسن: إن أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه فقال: (صارت إليك بعد تيم وعدي فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية فإنما هو الملك ولا أدري ما جنة ولا نار....)[٢].

أبو سفيان: (يا بني عبد مناف! تلقفوها تلقف الكرة، فما هناك جنة ولا نار)[٣].

وفي لفظ المسعودي: (يا بني أمية! تلقفوها تلقف الكرة، فو الذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة)[٤].

وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن أنس: إن أبا سفيان دخل على عثمان بعد ما عمي فقال:(هل هنا أحد؟ فقالوا: لا. فقال: اللهم اجعل الأمر أمر جاهلية، والملك ملك غاصبية، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية)[٥].

وقالها يزيد: (أنه لما دخل علي ابن الحسين (ع) وحرمه على يزيد، وجيء برأس الحسين عليه السلام ووضع بين يديه في طست، فجعل يضرب ثناياه بمخصرة كانت في يده، وهو يقول: (لعبت هاشم بالملك فلا * خبر جاء ولا وحي نزل..))[٦].

فعمد إبليس في منع وصول رسائل الوحي للناس:

مرة في إيصال الناس إلى حالة التشبث بحب الدنيا والخوف والخنوع وبالتالي استقواء الملوك والسلاطين عليهم وقهرهم وانتزاع قدرتهم على التفكير وسلب الإرادة في النظر في أحوال أمرائهم وفسقهم؛ بل تقديسهم وقبول إمرتهم وتمثيلهم للدين وتسخير وعاظهم كما حصل مع بني أمية وبني العباس ونظائرهم.

ومرة في الاستحواذ على عقول الرجال والالتفاف عليهم من زاوية الدين وزرع القناعات بإمكانية القيام بمهمة تمثيل الدين وقدرتهم على التشريع وبيان مراد الله وحكم الله بمعزل عن الرجل الإلهي المتصل بالله.

---

١. https://ar.al-shia.org /.

٢. الغدير - الشيخ الأميني: ج٨ ص٣٣١.

٣. نفس المصدر: ج٨ ص٢٧٨.

٤. نفس المصدر.

٥. نفس المصدر.

٦. الاحتجاج - الطبرسي: ج٢ ص٣٤.

فالسقيفة كانت:

- مفتاح الفصل بين الكتاب والعترة أو بين الكتاب والمبين الحصري.
- أدت إلى تغييب الحقيقة الملزمة للناس بالتمسك بعدل الكتاب ومبينه المختار من قبل الله في كل زمان.
- كما انفردت بتحكيم عقول الرجال، وهذه الخطوة غير مبرّئة من الاتهام في كونها تنصلا أو ارتدادا عن حتمية الرجوع لأصل الدين المتمثل بشخص محمد (ص) وأوصياءه (ع).
- بل هي على الأرجح فصل الدين عن سماويته والعودة لحكم الجاهلية.

عن زرارة عن أبي جعفر (ع) قال: (ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية ينزل أولها في شيء وأوسطها في شيء، وآخرها في شيء، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [١] من ميلاد الجاهلية) [٢].

عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: (ليس أبعد من عقول الرجال من القرآن)[٣].

وعن أبي عبد الله (ع): (إن للقرآن ظهرا وبطنا ولبطنه بطنا إلى سبعة أبطن) [٤].

وعن أمير المؤمنين (ع) قال: (ما من آية إلا ولها أربعة معان ظاهر وباطن وحد ومطلع فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد هو أحكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله من العبد بها)[٥].

عن الصادق (ع): (كتاب الله على أربعة أشياء العبارة والإشارة واللطائف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء) [٦].

بحسب قول أمير المؤمنين (ع) بأن مراد الله من العبد هو البطن الرابع للآية وهو المطلع، وهذا يلتقي تماما مع قول الحسين (ع) في دعاء عرفة "وقد علمت أن مرادك مني أن تتعرف إلي في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء" فما فائدة ظواهر الآيات مالم يهتدى إلى بواطنها التي توصل إلى مراد الله سبحانه، وهي الحقائق التي تقابل المطلع في قول أمير المؤمنين (ع) الآخر بقوله "والحقائق للأنبياء"، وهذا الفهم لا ينفك عن أصل خلقنا والغاية منه "وما خلقت الجن والإنس" إلا ليعبدون أي: ليعرفون.

ففي كل الأحوال لا يمكن أن نحصل على مراد الله من ظواهر الآيات المحبوسة في تشكيلها اللفظي لتكون غاية ما نصل إليه كمكلفين، وهذا مخالف للحكمة، فالقرآن اللفظي الموجود عند كل الطوائف والملل التي تؤمن بهذا الكتاب كان ولا زال سببا في اختلافهم وتنابذهم واقتتالهم بسبب توظيف الظاهر من آياته توظيفا جائرا وفق

---

١. الأحزاب: ٣٣.
٢. العياشي: ج١ ص١٧.
٣. نفس المصدر.
٤. تفسير الصافي - الفيض الكاشاني: ج١ ص٣٠-٣١.
٥. نفس المصدر.
٦. نفس المصدر.

الأهواء والآراء، أما قول البعض أن الله تعالى يقول في عدة آيات "في كتاب مبين"و"قرآن مبين" فهو حق في سياق ظاهر القرآن موكل "للإمام المبين".

فهل ورد في السنة أو في روايات الأئمة (ع) بيان هذا التوجيه وحصره في هذا الإمام المبين؟!

عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال:(أنا والله الإمام المبين، أبين الحق من الباطل. ورثته من رسول الله (ص) ..)[١].

عن موسى بن جعفر(ع): (..وأما " الكتاب المبين " فهو أمير المؤمنين علي (ع)....)[٢].

فاتحاد هذه الحقيقة بصفة المبين بلفظيها المتقدمين (الكتاب) و(الإمام) ونسبتها إلى رسول الله (ص) ورسول الله عن الله يعني أنها حاكية عن حصر هذه السلسلة المعصومة والمخصوصة ببيان الكتاب وكونه مبينا بهم (ع)، فعليٌ رمزها ورأسها ومن ثم أبناءه المعصومين إلى يوم القيامة ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣].

وهذه الحقيقة كما بينها الباقر(ع): (يا جابر! لو كنا نفتي الناس برأينا وهوانا لكنا من الهالكين، ولكنا نفتيهم بآثار من رسول الله (ص) وأصول عنه، نتوارثها كابر عن كابر، نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم)[٤].

القرآن نازل من عوالم علوية لا يعرف لغة المتكلم بها إلا من عرفهم بها سبحانه وهم قرين القرآن وترجمانه.

يقول السيد أحمد الحسن:

(فلغة القرآن لا يفهمها من لا يعرف العوالم العلوية التي نزل منها القرآن)[٥].

ولذلك ورد في روايات أهل البيت (ع) بأنهم ترجمان القرآن:

عن سدير، عن أبي جعفر(ع) قال: قلت له: جعلت فداك ما أنتم؟ قال: (نحن خزان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، ونحن الحجة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض)[٦].

في الحقيقة نجح إبليس إلى حد كبير في أفرغ الساحة من الناطقين الحقيقيين بالقرآن، وأن مسألة إفراغ الساحة من الناطق عن الله أو حجة الله في كل زمان هو نتيجة طبيعية لعدم وجود القابل والناصر الحقيقي لحجة الله، والأسباب كثيرة وأسها وأساسها الجهل والابتعاد عن الدين والغفلة وطلب الدنيا الحثيث، وهي طبعا مسوغات للتشبث بالدنيا التي هي رأس كل خطيئة.

وكل ذلك التقصير والقصور والابتعاد عن سماع صوت الحق لا يُبرأ ساحة المكلفين الذين كانوا فرائس سهلة لمصائد الشيطان ومكائده التي تنتهي بالصد عن حجة الله، وبالتالي حجب الناس عن فيوضات الوحي والتي إن تحقق هدفها ستكون النازلة التي تصيب إبليس وجنوده في مقاتلهم- وقد تحقق ذلك إلى حد بعيد-؛ أي إبعاد

---

١. بحار الأنوار - المجلسي: ج٣٥ ص٤٢٧.
٢. الكافي - الكليني: ج١ ص٣٧٩.
٣. آل عمران: ٣٤.
٤. بصائر الدرجات - الصفار: ص٣٢٠.
٥. عقائد الإسلام - السيد أحمد الحسن: ص٣١.
٦. الكافي - الكليني: ج١ ص٧٢.

صوت الوحي بمختلف الوسائل، فأما أن يتم تصفية الناطق بالقرآن جسديا، أو يتم إبعاده عن الساحة والتضييق عليه أو سجنه، هذا في حال وجود خلفاء الله (ع) بين الناس، أما في حال غياب شخوصهم عن الساحة كما هو حال الإمام المهدي (ع) فالمشروع المناهض للوحي ولناقله يتجسد:

١- بتحشيد الطاقات الرامية لخلق البدائل من جهة.
٢- وتنشيط منظومة الإيهام التي تعمل على إقناع الناس بصلاحية المنظومة البديلة بدعوى سد الفراغ، وبالتالي صناعة مصدات تتمترس خلفها سهام التكذيب والتسفيه لأي مدع للحق.

كل ذلك وما تفرع عنه من أساليب للهيمنة على العقل الجمعي هو امتداد طبيعي لمشروع السقيفة وما أسس عليه؛ لأنه بكل تأكيد يتمحور حول الهدف من المشروع، وهو الفصل بين فيوضات السماء ومن ينقلها وبين الناس، أي حبس الوحي عنهم.

فالفصل بين الثقلين الذي بلغ ذروته في رزية الخميس وطبق عمليا باجتماع السقيفة قد حقق أهدافه بعزل الوحي الإلهي عن الناس والإبقاء على وحي الشيطان لتستمر حكومة إبليس والعمل على ممارسة الإغواء وفتح قنوات الإلهاء بشكلها الاخطبوطي ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[١].

أما التفسير والأحكام العقلية والإجماع وعلم الرجال...الخ لا تعدوا أن تكون مصاديق حقيقية للآية القرآنية التي تستعرض الحركة الاخطبوطية الدؤوبة لممارسة الإغواء الرامية لإبقاء الناس بعيدين عن وحي السماء ومنعه للوصول إلى قلوبهم وأرواحهم.

الحقيقة المرة التي غفل عنها أكثر الناس هي الأنا المتعاظمة - أنا خير منه - فالأمر لإبليس بالسجود لآدم المنفوخ فيه من روح الله[٢] ليكون خليفته في أرضه والمعرف به في كل زمان، أقض مضجع إبليس في اختصاص آدم (ع) وذريته بالوحي والحبوة والقرب من الله سبحانه وقطع الطريق على إبليس الذي أبى واستكبر فكان قراره ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٣].

القائم يعيد الدين غضا

عرفنا فيما تقدم من بحثنا المتواضع ما الذي حصل للدين ولمنظومة الدين ولأسباب كثيرة ذكرت في محلها، وفي نفس الوقت بين أيدينا اليوم ما يكفي من الأخبار الصادرة عن رسول الله (ص) وعن الأئمة (ع) بأن المشروع الإبليسي في إغواء الناس وصدهم عن السبيل بكل الوسائل والطرق التي ذكرناها، كذلك سوف يصل إلى نهايته

---

١. الأعراف: ١٧.

٢. إذا كان الخليفة صورة لمن استخلفه، وقائماً بمقامه في أرضه، وإذا كان صاحب الأرض غائباً، أي غائب عن الإدراك والتحصيل وإلا فهو الشاهد الغائب، وإذا كان خليفته هو صورة له، فتكون معرفة الخليفة هي معرفة من استخلفه الممكنة، لأنه صورة له، وهذا هو الغرض الحقيقي من الخلافة، المستبطن للغرض الأول وهو قيام الخليفة بمقام المستخلف، وهو المعرفة والعلم الحقيقي، فبالأنبياء والرسل عُرف الله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي ليعرفون. [المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج٤ س١٧٨].

٣. الإسراء: ٦٢.

المحتومة، وهي مدة الإنظار التي منحها الله له والتي تستوفي عند اليوم المعلوم، وبعدها سيُظهر الله دينه على الدين كله، وهذا ما بشرت به كل الديانات السماوية، وقد تعددت التسميات لمن سيقوم بهذه المهمة بحسب كل ديانة وكل مذهب كونه المخلص والمنقذ.

أما السنة والشيعة فقد اتفقا على أنه المهدي، وبحسب الروايات والأحاديث التي يعتمدها كل فريق فقد ذهب كل منهم إلى مشخّص معين للمهدي.

فالمهدي عند السنة وبحسب الأحاديث التي رووها يملئ الأرض قسطا وعدلا بعد ما ملئت ظلما وجورا كما هو عند الشيعة، ولكن السنة لم يذهبوا بأبعد من العدل في توزيع الأموال وأن الأرض تخرج نباتها...الخ.

وأما الشيعة فقد روي في مصنفاتهم الكثير مما يخبرنا عن دور المهدي في نشر العلم وبيان حقائق القرآن -هذا ما يعنينا في ما يخص البحث- أو بشكل أدق فإن مسألة ظهوره تخص الدين والعقيدة الحقة وتوحيد الله، وكل ما سواها يتفرع عن منظومته الإلهية الحكيمة والعادلة في إرساء قواعد العدل وإعادة صياغة منظومة الأخلاق وإظهار الوجه الحقيقي للإنسانية.

أما ما يشخص مصداقه عند السنة، فهو المهدي الذي يولد في آخر الزمان، وأما المهدي عند الشيعة فهو الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت(ع) وهو محمد بن الحسن العسكري (ع)، وقد وردت تسميات عديدة للمهدي (ع)عند الشيعة، منها القائم و صاحب الأمر والمهدي.

مسألة المصداق والدلالة عليه قد تعرضت لتشوهات كبيرة بسبب المناهج العقلية، مما أدى إلى ضياع جوهرها بين ثنايا التقولات على الله وخلفاءه (ع)، فتمظهرت هذه التقولات بزرع الشبهات والإشكالات التي خرجت من عباءة التأسيسات العقلية ومناهجها المبتدعة.

وفي الحقيقة فإن ما روي عن رسول الله(ص) والأئمة (ع) وبالخصوص الكتب الشيعية فيما يخص المهدي وما سيقوم به ويقدمه، كان زاخرا بمضامين عالية وأهداف عظيمة تعبر عن خلاصة المشروع الإلهي المعرفي في الأرض، وقد اسندت كل هذه الإنجازات لرجل من آل محمد يسمى القائم (ع).

الفضل بن روزبهان في كتابه إبطال الباطل: (واتفق العلماء على أن المهدي هو القائم في آخر الوقت، وقد تعاضدت الأخبار على ظهوره، وتظاهرت الروايات على إشراق نوره. وستسفر ظلمة الليالي والأيام بسفوره، وتنجلي برؤيته الظلم، انجلاء الصبح عن ديجوره، ويسير عدله في الآفاق فيكون أضوء من البدر المنير في مسيره)[١].

عن الصادق (ع) في قوله تعالى: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[٢]، قال: (يعني في الدنيا بفتح القائم (ع) ...)[٣].

---

١. أخبار الدول وآثار الأول - القرماني الدمشقي: ج١ ص٣٥٤-٣٥٤. عنه عصر الظهور - الكوراني: ص٣٧٠، المهدي المنتظر في الفكر الإسلامي - مركز الرسالة: ج١ ص١٢٦.

٢. الصف: ١٣.

٣. تفسير القمي: ج٢ ص٣٦٦.

(ولا شك أن فتح القائم (ع) يكون بفتح البلاد كلها، وإقامة الدين الخالص فيها، وإعلاء كلمة: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله). وكذلك بفتح عوالم الملكوت وانكشافها لكثير من المؤمنين مع القائم (ع))[١].

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ..)[٢].

فالدين الخالص لا يقيمه إلا من أخلص لله إخلاصا قربه إليه سبحانه فاختاره ونصبه قيما عليه أمينا على رسالته ووحيه.

وعن الصادق عليه السلام: "أن أقيموا الدين" قال الامام: ("ولا تتفرقوا فيه" كناية عن أمير المؤمنين)[٣].

يقول السيد أحمد الحسن:

(قال تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ* وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾([الأنعام:١٥٣]) (حيث إنّ انطواء النفس على بعض جنود الجهل فيه خطر عظيم، حتى وإن كان الإنسان مهتدياً إلى بعض سُبل الصراط المستقيم. فمثلاً: الإسلام سبيل من سبل الصراط المستقيم، والإيمان سبيل، والولاية سبيل، والعقائد الصحيحة سبيل، والفقه والعلم سبيل، والعمل سبيل، والإخلاص سبيل. وبجنب هذه السبل يعترض الإنسان الهوى والنفس والشيطان وزخرف الدنيا: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾([الأعراف: ١٧]). وعن أهل بيت العصمة (ع) ما معناه: صراط الذين أنعمت عليهم، أي: بنعمة العمل والإخلاص. وباختصار نعمة الدين الخالص، فلله الدين الخالص)[٤].

وقوله أيضا:

(أمّا المهدي (ع) فيريد أن يأخذ أكبر عدد ممكن معه إلى الجنة بهدايتهم إلى الحق والتوحيد الخالص له سبحانه وتعالى)[٥].

عن عميرة بنت نفيل، قالت: سمعت الحسين بن علي (عليهما السلام) يقول: (لا يكون الأمر الذي تنتظرونه حتى يبرأ بعضكم من بعض، ويتفل بعضكم في وجوه بعض، ويشهد بعضكم على بعض بالكفر، ويلعن بعضكم بعضا. فقلت له: ما في ذلك الزمان من خي؟ فقال الحسين (ع): الخير كله في ذلك الزمان، يقوم قائمنا ويدفع ذلك كله)[٦].

فالظلمات والتيه والانحراف عن الدين الحق هو ما سيظهر عليه القائم (ع) ويزيله، وهذا يعني أن كل من يدعي أنه على الحق وأنه يقدم منهجا حقا ودينا حقا قبل ظهوره وقيامه (ع) إنما يقول زورا وبهتانا، وهذا ليس

---

١. المتشابهات - السيد أحمد الحسن: ج١س١٤.
٢. الزمر: ١-٢.
٣. بحار الأنوار - المجلسي: ج٦٤ص٤٨.
٤. شيء من تفسير سورة الفاتحة - السيد أحمد الحسن: ص٢٣.
٥. النبوة الخاتمة - السيد أحمد الحسن: ملحمة القيام المقدس.
٦. الغيبة - للنعماني: ج١ ص٢١١.

ضربا من الاتهام والتجني، فالدليل قائم على عدم شرعية غير المنصبين الذين تصدوا لتمثيل الدين؛ بل هو ما يفرزه الواقع الذي انتهى إليه الحال من التخبط والتقهقر والاختلاف والضياع، وهذا كله يعود لسبب رئيسي وهو حجب الوحي وفيض السماء والناجم عن إقصاء أهل الوحي.

لماذا سيتحقق ذلك؟ لأن المهدي متصل بالله؛ أي بالوحي، أي بمصدر الفيض الخالص والنور الخالص الذي لاشك فيه ولا شبهة معه، وهو صراط الله والتوحيد الخالص.

الرواية السابقة والأحوال الموصوفة فيها حاكمة على ما آل إليه أمر الناس بسبب اتباعهم المناهج المبتدعة وحالة التمزق الفكري والعقائدي وانهيار المنظومة الأخلاقية؛ بل وحتى النظم المجتمعية والسياسية والاقتصادية، وأقصد هنا أصحاب الديانات السماوية على الأقل عموما، وبالخصوص الذين يؤمنون بأن قيادة الأمة لا تصلح إلا لرجل إلهي لا يخطئهم الطريق ولا يخرجهم من حق إلى باطل، والقادر على نظم أمور الأمة لما يمتلكه من أسباب القيادة الصالحة والمخلصة من عدل وإنصاف ووضع الأمور في نصابها بما يضمن للناس الاهتداء للعبادة الحقة المتسربلة بلباس المعرفة وهو شرط قبولها؛ بل هو العبادة الحقة.

فأين ثمار من شرعنوا الوصاية لأنفسهم على الدين بعد كل هذا الذي وصلت إليه الأمة؟!

ورد في الكتاب المقدس: (مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. هَلْ يَجْتَنُونَ مِنَ الشَّوْكِ عِنَبًا، أَوْ مِنَ الْحَسَكِ تِينًا؟"[١].

قال علي (ع): (يأتي على الناس زمان لا يبقى فيهم من القرآن إلّا رسمه، ومن الإسلام إلّا اسمه، ومساجدهم يومئذٍ عامرة من البناء، خراب من الهدى، سكّانها وعمّارها شرّ أهل الأرض، منهم تخرج الفتنة وإليهم تأوي الخطيئة، يردّون مَن شذّ عنها فيها. ويسوقون من تأخّر عنها إليها، يقول الله سبحانه : فبي حلفتُ، لأبعثنّ على أُولئك فتنةً تترك الحليم فيها حَيران، وقد فعل، ونحن نستقيل الله عثرة الغفلة)[٢].

قول الإمام الصادق (ع) سيأتي على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه لا يعني أن قبل هذا الزمان سواء في زمن الأنبياء السابقين، أو حتى زمن رسول الله (ص) ومن جاء بعده من الأوصياء (ع) أن الأمور كانت تسير وفق المنهج الإلهي سوى ما كان عند خلفاء الله (عليهم السلام)، ومن قبِلَ منهم وسار على نهجهم وهم قليل.

فالقرآن في حقيقته ليس فقط هذا الكتاب الذي بين أيدينا؛ بل هو كل الكتب السماوية النازلة على الرسل (ع) - وكما بينا سابقا هي أجزاء من القرآن المهيمن عليها والحاوي لها - باعتبار أن كل الأمم فشلت في تمكين خلفاء الله السابقين في نشر رسالاتهم وتطبيقها للأسباب المذكورة آنفا، ولكن هذا الزمان الموصوف هو الزمان الذي يبلغ الصدود عن دين الله وتبديل مناهج الرسل والأنبياء والأوصياء(ع) ذروته، والنتائج الموصوفة خلاصة ما وصل إليه حال الناس وفق المناهج المعمول بها، وهي خلاف ما جاء به الرسل والأنبياء والأوصياء (ع) وما نقلوه عن الله بوحي الله.

---

١. الكتاب المقدس: مت ٧: ١٦.

٢. شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ج١٩ ص٢٩٩.

فيأتي القائم ويزيل ذلك كله، ويجمع الناس على دين واحد؛ أي يكون هو المرجع للناس فيأخذون دينهم من الله؛ لأنه محلا لفيض الله سبحانه.

فعند ظهوره (ع) ستظهر حقائق الدين والكتب السماوية خالصة مشرقة ببيانه، وسيظهر بالمقابل زيف ووضاعة ما قدمه الآخرون، وسيظهر الفرق الكبير مع المسامحة في المقايسة بين الرجال الذين اختارهم الله وأوحى إليهم فنقلوا عنه العلم والأحكام والشرائع كما يريد هو سبحانه ،وبين من توهموا وأوهموا بأنهم معنيون بمهمة بيان المراد الإلهي فخاضوا في آياته وقلبوا الأمور رأسا على عقب.

الأمر الملفت الذي يفترض أن يأخذ بالألباب وتذهل له العقول هو تلك الصرامة التي يتعامل بها سبحانه مع خير خلقه محمد (ص) بغض النظر عن نوع وطبيعة الأمر الإلهي، فالمسألة متعلقة بمراد الله سبحانه التي ليس لمخلوق في ردها أو تغييرها نصيب وإن كان محمدا (ص)، وهذا تأسيس صارم من الله لأقرب خلقه فكيف لمن قذفتهم الغفلة والدنيا في هوة الجهل السحيقة أن يقولوا عن الله ما لا يعلموا ويتقولوا عليه سبحانه؟!

(بَعْدَ اَنْ شَرَطْتَ عَلَيْهِمُ الزُّهْدَ في دَرَجاتِ هذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ وَزُخْرُفِها وَزِبْرِجِها، فَشَرَطُوا لَكَ ذلِكَ وَعَلِمْتَ مِنْهُمُ الْوَفاءَ بِهِ)[١].

ولذلك كانوا (عليهم السلام) محالّ مشيئة الله.

عن أبي الحسن الثالث (ع): (ان الله جعل قلوب الأئمة موردا لإرادته، فإذا شاء الله شاؤوا، وهو قول الله تعالى: (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله)) [٢].

وفي حديث رسول الله (ص): (ان الله جعل قلب وليه وكرا لإرادته فإذا شاء الله شئنا)[٣].

كل ما أريد التركيز عليه في هذه الشواهد هو أن خلفاء الله (ع) مع علو مراتبهم وقربهم منه سبحانه إلا أنهم ذوات قدسية مقرة بالفقر والفاقة والحاجة المطلقة له سبحانه، تعكس المشيئة الإلهية كما هي، وتنقل المراد الإلهي للخلق كما هو، وكما علمهم إياه وأطلعهم عليه وفق مقادير أحكمها الحكيم الخبير.

أقول: لما كان هذا حال الصفوة من خلق الله وهم الرسل والأنبياء والأوصياء (ع)، ولا أحد منهم يتقول أو يقول ما ليس من الله، فهل يستطيع أحد دونهم أن يقول شيئا ينتهي إلى دين الله سواء كان عقيدة أو حكما أو تشريعا ثم ينسبه إلى الله - أو إلى أي حجة من حججه - وهو ليس من الله؟!

وهل يستطيع أحد من المفسرين والفقهاء أن يدعي أو يثبت أن ما يقوله هو ما يريده الله؟! الجواب هو أن كل هؤلاء متقولين على الله وعلى رسوله وعلى أوصياءه، والأمر لا يحتاج كثير من الجهد والعناء للانتهاء إلى هذه النتيجة، فالعشرات من كتب التفسير لمختلف الطوائف وأضعاف أضعافها من الكتب والمصنفات قدمت نتاجا فكريا ودينيا ونسبوه للسماء.

---

١. مصباح الزائر - ابن طاووس: ص٤٤٧٦، المزار الكبير - ابن المشهدي: ص٥٧٤.
٢. بحار الأنوار - المجلسي: ج ٢٥ ص٣٧٢، تفسير القمي: ج٢ ص٤٠٩.
٣. بحار الأنوار - المجلسي: ج٢٦ ص٢٥٦.

فالتاريخ يثبت لنا كم كانت الأجواء التي عملت بها ماكينة التقول والتلاعب بدين الله على مر العصور مشحونة بالعوامل السلبية المؤثرة على نشأة هذه المنظومة واستمرارها، كالوسائل القمعية التي اعتمدها حكام الجور والسلاطين لتسويق الأفكار والنظم التي تخدم مشاريعهم السلطوية سواء على مستوى نقل وكتابة الروايات والأحاديث وسياسة المنع في بث وكتابة الكثير من النصوص التي لا يرغب في انتشارها وتداولها هؤلاء الحكام، أو تفسير النصوص وتوجيهها.

الذي تمخض عن هذه المسيرة، هو وضع قواعد وطرق عقلية تضبط مخرجات النصوص وصياغة معانيها بشكل ينسجم مع هذه النظم وأهدافها، ثم بعد ذلك تُقدم للناس على أنها نتاج ديني مقدس يضمن للعاملين به النجاة والفوز وإبراء ذممهم، بداعي انتماءها لمنظومة السماء، لتكون دليلا على حقانيتها وصدقها وسلامة معتنقيها والعاملين بها من الزيغ والحيود!

كان لبعض الصحابة دور كبير في حجب الكثير من أحاديث رسول الله (ص) وفق ذرائع لا تصمد أمام حجية حديث رسول (ص) وفائدتها العظيمة، اللهم إلا أن يكون وراءها غاية وهدف؛ بل استمر هذا النهج المتعسف في زمن الأئمة (ع) فضلا عن وضع الأحاديث المكذوبة للتشويش على تراث محمد وآل محمد (ع)، وكان لقمع السلطات دورا واضحا في فرض هذه السياسة حتى ممن كانوا يدعون إيمانهم برسول الله (ص)، ويتبجحون في تقديسهم له ولآل بيته(ع) كالأمويين والعباسيين.

أما المتأخرين فقد ساهموا في طمس رسالات الوحي بما استحدثوا من علوم وقواعد عقلية وكلامية وفلسفية موضوعة، كعلم الرجال الذي عمل على فلترة الأحاديث والروايات وإخضاعها لتلك القواعد لتكون ثقبا أسودا يبتلع كل ما لا يُرغب بقاءه في دائرة النور والحُجية.

فقد كان الفرز والغربلة بحق الكثير من الحقائق القرآنية والروائية للروايات متعسفا بشكل مثير للعجب، وكل هذا الصنيع يُقدم بدافع الحرص وصيانة الموروث الديني من العقائد والتشريعات الدخيلة بحسب ما يدعى، وكانت نتيجته تغييب رسالة الوحي والإبقاء على عبادة الأصنام بكل أشكالها.

كثير من المؤشرات والوقائع تشير إلى أن الترهل والعجز أصاب بنية هذه المناهج الباطلة، وعجزها عن تقديم الإجابات الواقعية لكثير من الأسئلة التي تكتنف التحول النوعي الذي يرافق فهم البنية العقائدية والمتغيرات التي تفرضها طبيعة التعاطي الجديد مع النصوص، وبالخصوص المرتبطة منها بالتطور العلمي والتجريبي والنظريات المطروحة واصطدام النتاج الذي تقدمه المنظومة الدينية بصخرة العلم، وتعرضها للتصدعات الكبيرة في الكثير من عناوينها ومفاصلها؛ بل الانهيار في بعض دعائمها وهياكلها فضلا عن تطور وسائل الحصول على المعلومة.

فإن بروز مظاهر واعية توشك أن تفلت من الطوق، وتفتح الأبواب الموصدة لتستنفر منظومة العقل وتحرك أدواتها لإنعاش البنية المعرفية التي أصابها الكسل والعجز، ثم رفد الوعي الجمعي بجرعات جديدة تتسبب في تحريك بوصلة الوعي المستفيق باتجاه تصعيدي تتفجر من خلاله الطاقات والقدرات التي تنقل حركة الوعي من دائرة الثقب الأسود فتسلب كماشة الوعي المختطف قدرتها على التحكم بمنظومة المعرفة والدين بالخصوص،

لذلك فمنظومة الخط البديل للمنهج الإلهي تحاول فرض النمطية التي تسير بموجبها ثقافة الفرد والمجتمع، وتحاول دائما الالتفاف على أي حالة إفلات من دائرتها بصناعة حدث أو أحداث شمولية تلقي بآثارها الثقيلة كأسلوب ضاغط على محاولات الإفلات من قيودها، والانفراد بتوجيه حركة الفكر وفق الضوابط والحدود المرسومة، وهذا نوع من سياسة التغييب يفوق الحالات المحدودة، لتتسع دائرته فتشمل السيطرة على طريقة التفكير وسلب القدرة والطاقة للقفز من قوقعتها.

حقائق قرآنية

عندما نقارن العناوين الظاهرة في هذا العالم المادي بكل أشكالها ابتداءً من أشرف المخلوقات وأرقاها وهو الأنسان وبالخصوص تاج شرفها محمد (ص) وآل محمد والأنبياء والمرسلين (ع) وحتى أدنى ظهورات هذا العالم باعتبار أن لكل شيء ملكوت - كما قدمنا- فسنجد أن المعاني والحقائق المحجوبة والغائرة في أعماق الملكوت كاشفة عن البون الشاسع إن صح القياس في ما تناله عقول الرجال وهي عاجزة عن فهم وتصور حتى ظواهر تلك المعاني في هذا العالم.

ولبيان شيء من هذه الحقائق التي ستكون في طي الكتمان وغياهب الحجب لولا وجود الرجال الإلهيين الذين ارتقت أرواحهم لتلك المقامات القدسية ليطلعهم الله سبحانه على تلك الحقائق، ووجود القابل الذي أفرغ صفحة وجوده من الأنا وعانق فطرته السليمة ليسمع ويعي من خلفاء الله.

اخترت في ختام البحث نماذج قرآنية كشف بعضا من حقائقها القدسية الغائبة عن عقول مدعي العلم رجل من آل محمد (ع) وهو السيد أحمد الحسن، وهي عبارة عن إجابات لأسئلة وجهت له (ع).

- ورد في تفسير سورة القدر أن فاطمة (ع) هي ليلة القدر، فما معنى هذا الحديث عنهم (ع)؟

الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين. (قدمتُ في سورة الفاتحة[١]، وفي المتشابهات[٢] فيما سبق أن فاطمة (ع) هي باطن باب المدينة، وظاهر الباب هو علي (ع)، والمدينة محمد (ص)، في مقابل الأسماء الثلاثة: (الرحيم، الرحمن، الله)، فهم صلوات الله عليهم أركان الهدى الثلاثة وتجلي أركان الاسم الأعظم الثلاثة: الله، الرحمن، الرحيم. والعلم كلّه في المدينة، فإذا أُريد إنزاله فمن الباب، وفي باطن الباب أولاً، ثم من ظاهر الباب إلى الخلق[٣]، وباطن الباب فاطمة صلوات الله عليها فالنزول فيها، وهي وعاء العلم الباطن، وفيها نزل العلم وما في المدينة (رسول الله (ص) أو القرآن)....)

فالقرآن ينزل في ليلة القدر، والقرآن ينزل في فاطمة، وليلة القدر هي فاطمة وكما قالوا (ع): "نحن حجج الله وفاطمة حجة الله علينا"[٤]، وكما قال (ص): (فاطمة أم أبيها)[٥]، والأم وعاء، وفاطمة (أو باطن الباب) هي الوعاء

---

١. شيء من تفسير سورة الفاتحة- السيد أحمد الحسن: إضاءة على أسمائه سبحانه.

٢. المتشابهات – السيد أحمد الحسن: ج١ س٨.

٣. عن هاشم بن أبي عمارة الجنبي، قال: سمعت أمير المؤمنين (ع) يقول: (أنا عين الله، وأنا يد الله، وأنا جنب الله، وأنا باب الله) [الكافي - الكليني: ج١ ص١٤٥].

٤. مستدرك سفينة البحار للشيخ علي النمازي: ج٨ ص٥٨٢ - ٥٨٣..

٥. كشف الغمة في معرفة الأئمة - الأربلي: ص٩٠.

الذي ينزل فيه القرآن، والقرآن محمد (ص). وهذا هو المعنى الباطن الثاني لهذا الحديث، عن رسول الله (ص) عن الله في الحديث القدسي: (لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا علي لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما)[١]. وفاطمة (ع) هي وعاء نزول القرآن، فهي باطن باب المدينة الذي يفاض منه على الخلق، فوجودها ضرورة وبفقدانها لا يستقيم نظام الخلق لأنها ركن من الأركان الثلاثة، فهي وعاء نزول القرآن)[٢].

- ما معنى (ن) في ﴿نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[٣]، وما معنى الـ (ب) في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[٤]؟

الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين.

لكل حرف شكل ومعنى، وشكل النون والباء هو (وعاء)، والنون وعاء ينزل فيه الفيض؛ لأنّ النقطة فوقه، والباء وعاء يفيض منه النور؛ لأنّ النقطة تحته، والباء ونقطتها علي (ع)، والنون ونقطتها محمد (ص)[٥]. أما المعنى: فالنون نور الله، فالنور نازل فيها، وهي تحتويه. أما الباء فهي بهاء الله[٦]، أي النور يشع منها، فالنور يفيض من الله إلى محمد، ومن محمد إلى علي، ومن علي إلى الناس)[٧].

- ما معنى أن القرآن كله في نقطة الباء، وأن أمير المؤمنين علي (ع) هو النقطة؟

الجواب: (إن هيئة الباء هي: وعاء امتلأ وبدأ يفيض على غيره، ويتقاطر محتواه

من أسفله. كما أن هيئة النون هي: وعاء يستقبل الفيض من أعلاه، ويتقاطر فيه العلم من مولاه، ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾. وخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم محمداً (ص) (نْ)، قال تعالى: ﴿نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. وأما القلم في هذه الآية فهو: علي (ع)، قال الإمام الصادق (ع): (نْ، اسم لرسول الله (ص) والقلم اسم لأمير المؤمنين (ع)).

والقلم يأخذ المداد من (نْ) وينقله إلى الكتاب ويسطر فيه. فالقلم له أحوال، فهو ساعة نون وساعة باء، وساعة نقطة النون، وساعة نقطة الباء، وكذلك أمير المؤمنين (ع)، فهو باب رسول الله (ص)وباب مدينة العلم، فمنه يفاض على الخلق. فهو الباء ونقطة الباء والقلم والمداد الذي يحمله القلم. وللنقطة أحوال فهي الفيض النازل من الله إلى الرسول (ص)، ومن الرسول (ص) إلى علي (ع)، ومن علي (ع) إلى الخلق. فالنقطة النازلة من الله إلى رسوله هي القرآن، والرسول (ص) هو (ن) ونقطة النون أيضاً. ثم إنّ الرسول بالنسبة لعلي (ع) يمثل الباء

---

١. مستدرك سفينة البحار: ج٣ ص١٦٩.

٢. المتشابهات- السيد أحمد الحسن: ج٤ س١٣٧.

٣. القلم: ١.

٤. الفاتحة: ١.

٥. قال الإمام الصادق (ع): ن، اسم لرسول الله (ص)، والقلم اسم لأمير المؤمنين (ع) [مستدرك سفينة البحار- الشيخ علي النمازي: ج٨ ص٥٨٢-٥٨٣].

٦. عن عبد الله بن سنان، قال: (سألت أبا عبد الله (ع) عن تفسير بسم الله الرحمن الرحيم، قال: الباء بهاء الله والسين سناء الله والميم مجد الله) [الكافي - الكليني: ج١ ص١١٤].

٧. المتشابهات- السيد أحمد الحسن: ج٤ س١٧٢.

ونقطة الباء، وعلي بالنسبة للرسول (ص) يمثل (ن) ونقطة النون، وعلي (ع) بالنسبة للخلق يمثل الباء ونقطة الباء) [١].

[١] المتشابهات ج١ سؤال ٦– السيد أحمد الحسن

خاتمة:

١- أثبتت نصوص الكتب المقدسة والمرويات على أن الوحي مختص برجال منصوص عليهم من قبل الله سبحانه وتعالى لأسباب ذكرناها في مواضع مختلفة من البحث.

٢- الواقع الذي أفرزته الأقلام الدخيلة في تفسير وتأويل النصوص يفصح عن عمق الخطيئة التي نتج عنها الانسلاخ التام عن منظومة السماء، ويتضح ذلك من خلال حجم التناقض والعجز عن مقاومة الحقائق التي تفرضها مسلمات علمية ذات علاقة مباشرة بنصوص مقدسة أخفقت هذه الأقلام في تقديم بيان يتفق معها، فضلا عن معارضتها لكثير من تفاسير النصوص الواردة عن حجج الله في كثير من المواضع.

وقد وصل الحال إلى العجز عن تدارك الكثير من الأخطاء التي ثبت لهم قبل غيرهم وقوعهم فيها، والعجز عن تقديم أجوبة على الكثير من التساؤلات والإشكالات والتي واجهوها بترقيعات خجولة على هوامش المواضيع المطروحة.

٣- النتاج العقائدي المرتكز على تفسير الكتب المقدسة المستخلص من الفهم الظاهري للألفاظ وإخضاعه لضوابط ومباني عقلية والذي قدمته المؤسسات الدينية لمختلف الديانات والطوائف خرج لنا بمظاهر وعبارات وجمل كفرية وشركية ضربت عقيدة التوحيد وما يرتبط بتحقيقها ومصاديقها.

فالمسيحيون قدموا عقيدة الأقانيم الثلاثة، والوهابيون قدموا عقيدة التجسيم، والسنة أنكروا حقانية سادة التوحيد والمعرفين بحقائقه، والبعض من رجال الدين الشيعة قدموا مناهج أضرت كثيرا في فهم التوحيد وتشخيص المعبرين عن توحيد الله، وهذه المظاهر بعض تجليات المأساة التي مزقت نسيج المنظومة المعرفية والعقدية الحقة، والسبب في كل ذلك تبني المناهج التفسيرية وقواعد وضعوها لفهم وضبط النصوص.

٤- أن القرآن اللفظي الذي بين أيدينا هو ظهور لحقائق القرآن العلوية التي ينقلها الوحي بمقدار يناسب طبيعة عالمنا وطبيعة المتلقي، فالألفاظ ليست حاكية عن تمام معنى وحقيقة القرآن في مقاماته العليا؛ بل هي معبرة عن قدرة وإمكانية المتلقي في هذا العالم؛ لأنها صادرة من عوالم ملكوتية ولغتها مختلفة ونظامها في تلك العوالم مختلف تماما عن لغة عالم الدنيا بسبب التغاير في طبيعة تكوينها ولوزم إدارة تلك العوالم، وأنها رهينة بيان خلفاء الله في كل زمان.

٥- أحد أسباب رواج المنهج التفسيري للفقهاء هو العامل السياسي الضاغط على البنية الثقافية العامة وعلى المؤسسات الدينية التي تعاصر الحكام، الذين غالبا ما يستفيدون من خلق هذه الأجواء لإفراغ الساحة من المنظومة المعرفية الحقة، والتي يمثلها رجل إلهي في كل زمان، لتكون النتيجة خلق منظومة موازية تتغول في مساراتها المتشعبة والمناهضة للخط الإلهي، وخلق ظروف تسمح بالسيطرة على الوعي الجمعي، وتمد جسورها لأطياف واسعة من المجتمع، وعندها تكون هذه السياقات التي تسللت من خلالها المناهج والأحكام، وحتى العقائد من المسلمات عند الناس، وبمقابل ذلك طمس منظومة السماء تحت ركام نتاجهم البديل، وإقصائها عن الساحة.

٦- كان اختيار الله سبحانه للرسل والأنبياء والأوصياء من بين بني البشر، واختصاصهم برسالاته ووحيه نتيجة لإخلاصهم العالي وسعة صفحة وجودهم، وبالتالي لا يمكن لأي أحد غيرهم أن يعرف المراد الإلهي من خلال التعاطي مع النص القرآني مثلا، كما هو حال المفسرين والشراح والفقهاء وهذا يعني أنهم يمكن أن يقوموا بدور خليفة الله في بيان المراد الإلهي من خلال بيان وتفسير أو تأويل النص القرآني وهو بالتالي يساوي القول بإمكانية الاستغناء عن خلفاء الله ولو لفترة محدودة كما يبرر البعض بسبب غيبة خليفة الله، وهو محض تقول لا يستند إلى دليل قرآني أو روائي أو حتى عقلي.

٧- لم ينجح علماء الأديان- الذين تبنوا تفسير النصوص المقدسة- بالتصدي للهجمة الإلحادية في نكران الإله والدين؛ بل كانوا سببا في صناعة مساحات رخوة في هيكل الدين استفاد الإلحاديون في الضرب عليها من خلال تصديهم للتعاطي مع الكثير من الاكتشافات والنظريات العلمية التي تفسر مسائل مهمة وخطيرة في أصل الخلق وتطوره وبالتالي فشلهم في الإجابات المقنعة التي تتفق مع النتائج التجريبية المثبتة؟!

٨- كانت محاور البحث تدور حول نقد كل المناهج التي عملت على بيان المراد الإلهي كالتفسير وغيرها، وتم التركيز على تقديم الأدلة التي تبين خروجها عن شرعية هذه التدخلات من أساس، بغض النظر عن مناقشة ما قدموه من تفسير وبيان للنصوص المقدسة، فمناقشة التفصيل سيكون بدون طائل؛ لأن البطلان متحقق في المقدمات التي لا تسمح البتة بتدخل غير المعصوم في بيان النصوص المقدسة، وبالتالي فالنتائج محكوم عليها بالزيغ والبطلان.

٩- الله سبحانه مالك الأرض ومن عليها، وأنه سبحانه لديه مشروعا اقتضى تحققه على هذه الأرض، وأن جوهر هذا المشروع هو المعرفة والتي تتحصل بالعلم الإلهي النازل عن طريق الوحي على رجال عرفهم مراداه وأعطاهم مفاتيح العلم في مقاماته العلوية، وخاطبهم في هذا العالم بنصوص قدسية جاء بها خلفاء الله، وأن هذه النصوص حجاب لمعاني وحقائق لا يترجمها ولا يعرفها ولا يدرك مراداتها سوى خليفة الله في أرضه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين وسلم تسليما.